
الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور محمود اسماعيل عبدالرازق



الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

الدكتور محمود اسماعيل عبدالرازق

أستاذ بكلية الآداب — فاس

الخوارج في بلاد المغرب

حتى منتصف القرن الرابع الهجري

رسالة دكتوراة

نشر وتوزيع



دار الثقافة

32 - 34 شارع فكتور هيكو

الهاتف 30.76.44 / 30.23.75

ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب



الطبعة الثانية 1406 — 1985
جميع الحقوق محفوظة

مقدمة

لعب الخوارج دورا بارزا في تاريخ بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ، واثروا في احوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما كانت بلاد المغرب اكثر بقاع العالم الاسلامى تقبلا لعقائد الخوارج واكثرها حماسا لنصرتهم . فباعثناق المغاربة مذهب الخوارج ، ولعموا علم الثورة على الامويين والعباسيين ، وانتهى بهم الامر الى اقامة امارتين مستقلتين هما امارة بنى مدرار وامارة بنى رستم .

وبقيامهما شهدت بلاد المغرب عصرا من الاستقلال السياسى والازدهار الاقتصادى والثقافى كان لها عوضا عن فترة القلاقل والاضطرابات السياسية والازمات الاقتصادية التى صحبت عصر الثورة .

ثم قامت الدولة الفاطمية ، وقضت على دول المغرب المستقلة ، مهبط الخوارج من جديد ضد الفاطميين وسياستهم القائمة على التعصب للمذهب الشيعى ، وهددوا بازالة النفوذ الفاطمى من بلاد المغرب . حقيقة لم يقدر لثوراتهم النجاح ، الا انها ارغبت الفاطميين على التحول من سياسة العنف والتعصب الى اللين والاعتدال .

تصارى القول — ان تاريخ المغرب الاسلامى حتى منتصف القرن الرابع الهجرى تائر بحركات الخوارج تائرا كبيرا . وعلى الرغم من ذلك ، نفتقر الى دراسة متكاملة عن الخوارج فى المغرب واثريهم فى تطوره السياسى ، ودورهم فى تاريخه من بدء الثورة الى تحقيق الاستقلال ، ثم العودة الى الثورة مرة اخرى . لا ننكر انه ظهرت بعض الدراسات الخاصة بثورات الخوارج ، لكنها عولجت فى ثنايا التاريخ العام للمغرب الاسلامى ، او فى ثنايا الحديث عن سياسة عمال الخلافة فى البلاد . كما ظهرت كتب تعرض لدول الخوارج فى المغرب لكنها لم تتناول اكثر من ظروف قيامها فقط . هذا هو ما قرره ثقة الدارسين من امثال

جوتييه (1) وفورنل (2) وجوليان (3) وبيكيه (4) وجورج مارسيه (5) .

والواقع أن عديدا من المصاعب تعتور سبيل من يتصدى للتاريخ لهذا الموضوع ، ففى بعض الاحيان تندر المادة التاريخية كما هو الحال بالنسبة لظهور الخوارج فى المغرب ، وكذلك دولة بنى مدرار بسجلماسة ، فعلى الرغم من كثرة ما دون عن تواريخ الخوارج لم يصل اليها منها الا القليل النادر (6) .

وما وصلنا من معلومات كان أغلبها من مصادر معادية للخوارج دأب أصحابها على تشويه سيرهم والطعن فى مبادئهم وافكارهم ، وليس ادل على ذلك من اغتعال الاحاديث النبوية واصطناعها لخدمة اغراضهم فى تسفيه الخوارج وتحقير شأنهم (7) .

ومن ناحية أخرى فإن ما وصلنا من تواريخ الخوارج يقتصر فقط على الإباضية منهم دون الصفرية ، وتنطوى على التعصب الشديد للمذهب الإباضى وأئمة ، وتتجاهل على الفرق الأخرى من الخوارج ، ناهيك عن عدائها المقيت للمذاهب والفرق الإسلامية من غير الخوارج . فضلا عن ذلك تمتلئ بالأساطير والخوارق والكرامات التى لا تستقيم مع منطق التاريخ .

ولا مناص للباحث عن دراسة مصادر هذا التاريخ وتقييمها والكشف عن ميولها واتجاهاتها قبل الاقدام على استقاء معلوماته منها .

ولما كان تاريخ الخوارج فى المغرب قاسما مشتركا بين الخلافة السنية والشيوعية ، فمن المفيد أن ندرس مصادر هذا التاريخ ونصنفها الى مصادر سنية وشيعية وخارجية .

أولا : المصادر السنية :

المادة التاريخية المتعلقة بالخوارج فى المصادر السنية متفرقة

-
- | | |
|---|-----|
| Les siècles obscurs du Maghreb. P. 292. | (1) |
| Les Berbers. Vol. 2. P. 4. | (2) |
| Histoire de l'Afrique du Nord. P. 339. | (3) |
| Histoire de l'Afrique Septentrionale. P. 67. | (4) |
| مادة بنى رستم بدائرة المعارف الإسلامية ص 93 . | (5) |
| انظر ابن النديم : الفهرست ص 258 . | (6) |
| راجع : البلاذرى : أنساب الأشراف ج 11 ص 106 . | (7) |

ومبعثرة في الحوليات العامة أو التواريخ الإقليمية . وأقدم التصنيفات في تاريخ المغرب عبثت بها يد الدهر ، فلم يصلنا منها سوى شذرات متفرقات نقلها المتأخرون . لعل من أهمها كتاب مسالك افريقية وممالكها ، والمؤلفات الخاصة بأخبار تيهرت وسجلماسة وغيرها من المدن المغربية ، تلك التي نسبت الى محمد بن يوسف السوراق (291 — 362 هـ) « الحافظ لأخبار المغرب » كما ذكر ابن حيان (8) . والوراق مؤرخ أندلسي نشأ بالقيروان وتوفى بقرطبة (9) ، وقد فقد تاريخه كله ، وإن وجدت فقرات منه عند البكري .

وينسحب نفس القول على ابن القطان (ت 628 هـ) صاحب كتاب نظم الجمان ، وإن كان بروفسال قد عثر على جزء منه خاص بنهاية عصر المرابطين وأوليات سني الموحدين ، وكذلك الحال بالنسبة لكتاب « العبر » لابن أبي الفياض (ت 459 هـ) (10) . وإلى عهد قريب كان تاريخ الرقيق القيرواني (ت أوائل القرن الخامس الهجري) في حكم المفقود ، لكن لحسن الحظ قدر لنا الوقوف على جزء منه عثر عليه الاستاذ محمد المنوني المكناسي سنة 1965 م بالخرانة العامة بالرباط ، استفدنا منه أيما فائدة في دراسة ثورات الخوارج في بلاد المغرب .

وهذا الجزء الذي يقع في مائة وخمسين صحيفة حققه الاستاذ المنجي الكعبي التونسي ونشره سنة 1968 م بعنوان تاريخ افريقية والمغرب . ومؤلفه هو أبو اسحق عمر بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني . ولا نعلم كثيرا عن نشأته ، إنما نعرف أنه تولى رئاسة ديوان الرسائل في البلاط الصنهاجي ، ومن ثم فقد أتيح له الاطلاع على كثير من الوثائق والتواليف في تاريخ المغرب قل أن توافرت لغيره ، بفضلها كتب تاريخه المشهور ابتداء بالفتح الاسلامي للمغرب حتى أوائل القرن الخامس في عدة مجلدات لا نعلم عنها شيئا قط .

ولا شك في أن الرقيق كان سني المذهب بدليل اشتغاله في بلاط بني زيري ، لكن اتجاهاته المذهبية — والحق يقال — لم تنعكس على كتاباته بشكل يسترعى النظر . وقد نقل عنه معظم من صنف بعده في

(8) المقتبس في أخبار بلد الأندلس . تحقيق الحجى ص 33 .

(9) بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس ص 131 .

(10) انظر : عبيد الله ابن صالح : نص جديد من نسخ المغرب للمغرب . نشره

بروفنسال . ص 198 .

تاريخ المغرب الاسلامى كابن عذارى والنويرى وابن خلدون وغيرهم وعلى الرغم من ذلك فقد حفل الجزء الذى نشر بتفصيلات كثيرة لم توجد عند من نقلوا عنه ، كذلك التى تتعلق بمعركتى القرن والاصنام ، وثورة ابن عطف الاسدى على عبد الرحمن بن حبيب ، وامامة الحارث وعبد الجبار الاباضيين ، وحصار عمر بن حفص بطبنة سنة 152 هـ . وقد ر لنا اعتمادا على هذه المادة الجديدة أن نكون أول من استفاد بها فى التاريخ لثورات الخوارج ببلاد المغرب .

والراجع أن جزء آخر من تاريخ الرقيق وصل الينا عن طريق ابن حماد فى كتابه المعروف بأخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، اذ ذكر فاندريهين (11) الذى نشره أن ابن حماد نقل النص برمته عن الرقيق . وجدير بالذكر أن هذا النص يتعلق بحركة أبى يزيد مخلص بن كيداد اساسا وليس تاريخا للخلافة الفاطمية فى المغرب كما يوحى العنوان . على كل حال ، فلو صح قول فاندريهين نكون قد استفدنا فى دراستنا للخوارج فى المغرب بمعلومات مستقاة من تاريخ الرقيق لم تتوفر للدارسين من قبل .

وثمة مصدر سنى آخر غاية فى الاهمية ، وهو سيرة الائمة الرستميين لابن الصغير المالكي (12) ، والواقع أنه ليس لدينا ثمة ما يشير الى اصل ابن الصغير أو نشأته ، وكل ما نعرفه أنه أقام بتاهرت فى العصر الرستمى الأخير ، كشيخ من شيوخ المالكية ، كان له نشاط بارز فى المساجلات والمحاورات التى شهدتها تاهرت بين مشايخ الطوائف المذهبية المختلفة ، اذ يصور فى كتابه جدله فى المسائل الفقهية والدينية مع رؤساء الاباضية والمعتزلة ، كما نعلم من تاريخه أنه كان يعمل تاجرا ويملك « دكانا فى الرهانة » ، (13) على أن أهميته كمؤرخ دقيق نابه أمر لا يرقى اليه الشك . والراجع أنه صنف تواليف أخرى لم تصل الينا ، فأسلوبه ومنهجه كما يتضح فى تاريخه للدولة الرستمية ينم عن طول باع فى ميدان التاريخ . على كل حال وقف المستشرق Motylinski على كتابه عن سيرة الائمة الرستميين ونشره سنة 1905

(11) انظر : Histoires des Rois Obeidides. P. 9.

(12) منه الدكتور سعد زغلول — خطأ — ضمن مؤرخى الاباضية . انظر : تاريخ

المغرب العربى ص 27 م .

(13) ابن الصغير : ص 46 .

ثحت عنوان :

Chronique d'Ibn Saghbir sur les Imams Rostimides des Tahert. (14)

ويخيل إلنا أن تاريخ ابن الصغير أهم مصادرننا عن دولة بنى رستم ، فهو معاصر لآحداث العصر الرستمى الآخر وشاهد عيان لها ، كما استمد معلوماته عن بنى رستم الأوائل من معاصريه من شيوخ الإباضية وغير الإباضية . ولكونه سنيا مالكا فقد كشف لنا عن كثير من أسرار عصره ، مما تفاضى عنه مؤرخو الإباضية ، كما قدم لنا وجهة النظر المقابلة لتلك التى تتعصب للإمامة الرستمية . ومن الانصاف أن نذكر أن ابن الصغير كان موضوعيا فى تاريخه ، إذ كثيرا ما أبدى إعجابه بسيرة الراشدين من الأئمة الرستميين ، ولم يثنه خلافه المذهبى عن الإشادة بسياساتهم . ولم يقدر لابن الصغير أن يشهد نهاية دولة بنى رستم مما يرجح أنه مات فى التسعينات من القرن الثالث الهجرى إذ يقف تاريخه عند امامة أبى حاتم يوسف بن محمد (ت 294 هـ) .

أما ابن عذارى وتاريخه المعروف بالبيان المغرب ، فيجمع الدارسون (15) على أهميته كتاريخ عام للمغرب الإسلامى أقرب ما يكون إلى التكامل ، على الرغم من تأخره النسبى ، فقد ألفه ابن عذارى سنة 712 هـ . وهو لذلك من أكثر مراجع تاريخ المغرب الإسلامى تفصيلا ، وأثراها مادة ، وذلك راجع بطبيعة الحال إلى استفادته من توارىخ السابقين كالرقيق وابن عبد البر وابن القطان والوراق وغيرهم ممن أشار إليهم فيما نقل عنهم ، ونحن فى غنى عن التعريف بابن عذارى وتاريخه على وجه العموم ، فقد تناول ذلك كثير من الدارسين . إنما نكتفى بتقييم ما أورده متعلقا بالخوارج فى المغرب ، فالملاحظ أنه انماض فى حديثه عن ثورات الخوارج ، لكنه عزف عن التاريخ لدولهم فى المغرب واكتفى بإشارات متناثرة عن أمرائهم وسنى حكمهم . ومع ذلك ، فقد أسدى خدمة طيبة بأثباته للتوارىخ فى دقة تامة ، وذلك أمر أغفلته تماما كل توارىخ الخوارج تقريبا .

Actes du 14 Congrès international des orientalistes Algiers, 1905. Vol. (14)
3. Part 2.

(15) انظر : بروغنسال : نص جديد ص 195 ، حسين مؤنس : رياض النفوس ، المقدمة ص 6 ،

Hopkins : Medieval Moslem government in Barbary.. P. xi.

ومعلوماتنا المستقاة عن ابن عذارى بخصوص الخوارج والفاطميين لا تختلف كثيرا عن نظائرها في سائر المصادر العامة التقليدية كابن الاثير وابن خلدون والنويرى ، اذ انها جميعا تنقل أساسا عن الرقيق فيما يرجح .

ولا مشاحة في ان جغرافيا مثل البكرى (ت 487 هـ) في كتابه المغرب ، فضلا عن قيمته الكبرى في دراسة البلدان ومواقعها والمسالك اليها .. الخ من المعلومات الجغرافية ، فقد زودنا بمادة تاريخية هامة — ان لم تكن فريدة في بعض الاحيان — عن خوارج المغرب . وحسبنا ان كثيرا مما كتبه الوراق عن صفيرة سجلماسة ما كان ليصل اليها لولا البكرى . وتلك المعلومات — على ندرتها — عظيمة القيمة بالنسبة لدولة بنى مدرار ، فلولاها لظل تاريخ تلك الدولة فى طى الابهام . على انه يؤخذ على البكرى امراطه فى ذكر روايات ذات طابع اسطورى ، بالاضافة الى عدم دقة معلوماته الخاصة بتاريخ الرستميين .

ومن الاهمية بمكان ان نشير الى كتاب ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب والاندلس » . وعلى الرغم من انه مؤرخ مصرى الف أساسا فى المغازى ، فان كتابه حافل بغيض من المعلومات الخاصة بخوارج المغرب . وابن عبد الحكم المؤرخ فى غنى عن التعريف فهو من خيرة مؤرخى الاسلام دقة وموضوعية ، ومن انضجهم أسلوبا ومنهجيا . وتبدو اهميته بالنسبة لموضوع البحث كمعاصر للاحداث من ناحية (توفى سنة 257 هـ) ، وكموثق يهتم باسناد رواياته الى من سمع منهم او اخذ عنهم . ولا غرو فقد أتيح له الاتصال عن كثب بكثير من مشاهير المغاربة الذين كانوا يفدون الى مصر لدراسة مذهب مالك ، واستفاد من معلوماتهم فيما يتعلق بأخبار بلاد المغرب . وحسبنا ما أورده من معلومات — فريدة — حول ثورات الاباضية ، فضلا عن تقديمه صورة واضحة لاحوال بلاد المغرب قبيل ظهور دعوة الخوارج .

اما الجزء الثالث من كتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب الذى حققه الدكتور أحمد مختار العبادى ونشره بعنوان « تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط » فيحوى معلومات عن ثورات الخوارج استمدها — فيما يرجح — من ابن عذارى ، كما امدنا بمعلومات هامة — على ضآلتها — عن بنى مدرار . وعلى الرغم من أخطائه الكثيرة فى اسماء الاعلام والتواريخ ، وبرغم اسرافه فى ذكر روايات اسطورية ، فقد

زودنا بكثير من الاشارات عن بنى مدرار ، لا نجد لها نظيرا عند البكرى او من نقل عنه كابن خلدون والقلقشندي ، مما يرجح اعتماد ابن الخطيب في هذا الصدد على كتابات محمد بن يوسف الوراق مباشرة وعدم نقله عن البكرى كما فعل غيره من المؤرخين المتأخرين .

ويقدم ابن الاثير في تاريخه « الكامل » مادة طيبة مأخوذة عن الطبري فيما يتعلق بخوارج المشرق . أما ما يخص منها خوارج المغرب فهي منقولة — في تحقيق وتمحيص وتنسيق — عن تواليف المغاربة كالرتيق والورق وغيرهما ، شأنه في ذلك شأن النويري في الجزاين الثاني والعشرين والسادس والعشرين من موسوعته المعروفة بنهاية الارب .

ولا يفوتنا ان نعرض بايجاز لما ورد من اشارات الى خوارج المغرب عند البلاذري والمؤرخ الاندلسي المجهول صاحب كتاب « اخبار جموعة في فتح الاندلس » ، وكذلك عند ابن حيان وابن سعيد وابن بطوطة . فالبلاذري في انساب الاشراف يفيض بمادة وغيرة ويقدم وجهة نظر مغايرة لرواية ابي مخنف المتحيزة ، التي نقل عنها الطبري وغيره فيما يتعلق بالخوارج في المشرق . أما كتابه « فتوح البلدان » فلا يخلو من اشارات عابرة عن بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج ، فضلا عن ثورات الخوارج في بلاد المغرب .

أما صاحب الاخبار الجموعة ، فهو مشايخ لبنى امية متحامل على الخوارج ، لكنه أورد تفاصيل فريدة بخصوص ثورات الخوارج الصفرية في بلاد المغرب .

وفي النصوص التي وصلتنا عن ابن حيان — شيخ مؤرخى الاندلس — سواء تلك التي نشرها ملشور انطونيه او نشرها الحجى ببيروت سنة 1965 ، نجد اشارات عابرة لكنها مفيدة في توضيح علاقات بنى مدرار وبنى رستم باموى الاندلس . ونفس الشيء يقال عن كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد .

أما « رحلة » ابن بطوطة فتحفل بمعلومات وغيرة عن علاقات دول الخوارج ببلاد السودان .

ثانيا : المصادر الشيعية :

كان سقوط دولتى الخوارج ببلاد المغرب مرتبطا بقيام الدولة

الفاطمية ، لذلك عرض مؤرخو الشيعة لأخبار الخوارج — بطريقة عارضة — في ثنايا تاريخهم للدولة الفاطمية في المغرب ومع قلة المعلومات الخاصة بالخوارج عند مؤرخي الشيعة ، وبرغم تحاملهم على الخوارج لما بينهم من عداة مذهبي ، فقد خلفوا معلومات طيبة عن علاقة الخوارج بالفاطمين .

ويعد أبو حنيفة النعمان المعروف بابن حيون المغربي (ت 363 هـ) من أهم من تناول هذا الموضوع ، فضلا عن معاصريه الأحداث ، كان على قرب منها أو معان لها في أغلب الأحيان لعمله كقاضى قضاء المعز الفاطمي . ولابن حيون مؤلفات كثيرة عن الفاطميين وعقائدهم وتواريخهم ، اطلعنا على ثلاثة منها هي : أساس التاويل الباطني وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ولا يفيد كثيرا في دراسة الخوارج ، أما شرح الأخبار فهو مخطوط أيضا بدار الكتب المصرية نشر منه المستشرق الروسى ايفانوفنا مقتطفات جعلها ملاحق كتابه

Ismaili tradition concerning the rise of the Fatimids.

ويلقى من الاضواء عن حياة المهدي في سجل ماسة حتى الغزو الشيعي ما يفيد في معرفة أحوال دولة بنى مدرار في عهد أميرها اليسع بن مدرار ، فضلا عن أهميته في توضيح سقوط دولة بنى مدرار سنة 297 هـ على يد أبى عبد الله الشيعي .

وأهم ما خلفه ابن حيون كتابه المسمى بالمجلس والمسائرات ، وهو مخطوط من جزأين بمكتبة جامعة القاهرة ، عرض فيه ان حيون لاحاديث المعز في مجالسه مع معاصريه من الحكام وكبار الشخصيات . وقد أتى ابن حيون حضور هذه المجالس ، واستطاع تدوين وتسجيل ما كان يدور فيها . وبرغم تحيزه الظاهر للفاطميين ، ومع أن الكتاب لا يعد تاريخا بقدر ما هو مذكرات خاصة تقريبا ، فقيمه عظيمة فى التاريخ للمدراريين الاواخر وعلاقتهم بالفاطميين ، ونعتقد أنه أهم مصدر في هذا الصدد ، اذ يعرض ابن حيون لاعداد المعز حملته على المغرب الاقصى سنة 347 هـ التى كان من بين اهدافها تأديب الامير المدرارى الشاكر لله الشاكر على الحكم الفاطمي ، كما يتناول تفاصيل وقائعها ونتائجها : ومن خلال عرضه لمجالس المعز مع الشاكر لله بعد اسره — تلك التى قصد المعز منها « معرفة اخبار سجل ماسة واهلها وسيرته فيهم وما يقال عنه من قبوله » — أمكن الوقوف على كثير من اخبار تلك

الدولة التى نفتقر الى معلومات عنها . وجدير بالتنويه أن أحدا ممن درسوا تاريخ المغرب الاسلامى لم يقدر له من قبل الاستفادة من تلك المادة التاريخية فى التاريخ لدولة بنى مدرار .

وثمة مصدران شيعيان آخران عظيمما الفائدة فى تصوير مجتمع سجلماسة فى أواخر العصر المدرارى — من خلال تناول حياة المهدي فى سجلماسة — وهما : «كتاب استتار الامام» لابراهيم بن أحمد النيسابورى (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية نشر ايفانوفنا أجزاء منه بمجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الاول (مجلد 4 — ج 2) تحت عنوان مذكرات فى حركة المهدي الفاطمى . وكتاب « سيرة جعفر الحاجب » التى رواها محمد بن محمد اليامنى، وقد نشرها ايفانوفنا أيضا فى نفس العدد من مجلة كلية الآداب . وسيرة جعفر تعد من قبيل المذكرات الخاصة ، اذ كان صاحبها حاجبا للمهدي ومرافقا له فى رحلته الى المغرب ، وسجن معه فى سجلماسة ، ومن هنا تبدو أهمية سيرته كشاهد عيان للاحداث .

أما أبو عبد الله محمد بن على بن حماد (ت 628 هـ) ، فكتابه المعروف بأخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم غاية فى الأهمية بخصوص ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد برغم تحامله الشديد على الخوارج والتعصب للفاطميين ، ولا غرو فابن حماد شيعى اسماعيلى ، اذ يذكر المهدي مسبوقا بعبارة « سيدنا الخليفة الاول أمير المؤمنين » (16) . وقد ذكر فائدر هيدن الذى نشر الكتاب وقدم له أن ابن حماد نقل مباشرة عن الرقيق نصه عن ثورة أبى يزيد . ومن هنا تبرز قيمة تلك المعلومات برغم نسبتها الى ابن حماد الذى عاش عصرا متأخرا عن الاحداث .

أما اليعقوبى المتوفى سنة 284 هـ فقد صنف فى التاريخ والجغرافيا ، وتاريخه حافل بدراسة الخوارج فى الشرق ، ويلقى بعض الضوء على دوافع نزوحهم الى المغرب . لكن جغرافيته المعروفة بكتاب البلدان أكثر أهمية من تاريخه ، اذ هى العمدة فى دراسة مشاكل الحدود بين دول الخوارج وجيرانهم فى بلاد المغرب ، ومعلوماته عن وضع تلمسان والنزاع عليها بين المدراريين والرستميين والادارسة جد قيمة فى دراسة العلاقات الخارجية لدول الخوارج ، وغير ذلك أمدنا اليعقوبى بمعلومات

(16) انظر : اخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم ص 10 .

هامة عن دولتى الخوارج على الرغم من اقتضابها ، ووجه الاهمية انه عاصر هاتين الدولتين وعان بعض وقائعها عن كتب ، وقدر له الاتصال ببعض افراد البيت الرستمى ، وفي هذا الصدد يقول « . . وحدثنى ابو معبد عبد الرحمن بن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم التاهرتى » (17) . كما عرف بالموضوعية وعدم الانحياز الى جانب الحرس فى التحقق من مصادره ، ولا مبالغة البتة فيما ذكره عن منهجه الذى حدده بقوله : « . . وقد اتصلت أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره وبلده وساكنتيه ودياناتهم ومقالاتهم .. ثم اثبت كل ما يخبرنى به من اثق بصدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم حتى سألت خلقا كثيرا من الناس . . »

وفى كتاب المسالك والممالك للجغرافى المعروف ابن حوقل — وهو شيعى المذهب — نجد معلومات طيبة عن تاهرت وسجلهاسة عاصمتى دولتى الخوارج ، اغلب الظن انه نقل كثيرا منها عن مصادر مغربية غير دقيقة اعتمد عليها أيضا ابو عبيد البكرى بدليل وقوعه فى نفس الاخطاء التى نجدها عند البكرى فيما بعد . ومع ذلك فما أورده ابن حوقل عن الخوارج ، وصلاتهم ببلاد السودان يعد عظيم الاهمية لمعاصرتة الأحداث اذ توفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى .

وابن خلدون سواء فى مقدمته او فى تاريخه يبدى تعاطفا واضحا مع الشيعة الزيدية (الأدارسة) والاسماعيلية (الفاطميين) . وما كتبه عن المغرب الاسلامى لا غنى عنه لاي دارس لذلك التاريخ ، ففضلا عن استفادة ابن خلدون من مؤرخى المغرب السابقين ، كان لاشتغاله بالسياسة وتقلبه فى خدمة الدول المعاصرة له ما اتاح له القدرة على الكشف عن القوى المحركة للتاريخ والاسباب والعلل الكامنة وراء أحداثه . ولا غرو فقد تفرد عن جمهرة مؤرخى الاسلام بفلسفته للتاريخ ، وله نظرية أقرب ما تكون الى نظرية « البيولوجية التطورية » فى تفسير أحداثه وتعليل وقائعه . ولا حاجة بنا للخوض فى تقييم ابن خلدون المؤرخ ، ويعيننا ما أورده عن الخوارج فى المغرب . والذى لا شك فيه ان ابن خلدون أمدنا بمعلومات فريدة عن القبائل وانسابها ومذاهبها ومقالاتها أفادت كثيرا فى دراسة انتشار مذهب الخوارج فى بلاد المغرب . وفى

(17) انظر : البلدان ص 358 .

تأريخه لثورات الخوارج ودولهم وموقفهم من الفاطميين لا يختلف كثيرا عن غيره من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ المغرب العام كإبن عذارى وإبن الأثير والنويرى . لكن إبن خلدون ، فضلا عن عدم دقة تواريخه ، كثيرا ما تختلط معلوماته ، مثل خلطه بين الإباضية والصفوية في أحيان كثيرة حتى أن مؤرخا ما سكرأى نبه الى ضرورة اتخاذ الحذر في تناول كتابات إبن خلدون في هذا الصدد . ويخيل إلينا أن اهتمامه بالتفسير والتحليل أوقعه في مزالق الخطأ ، اذ كثيرا ما نجد تناقضا واضحا حين يتناول موضوعا ما في تأريخه العام وبين ذات الموضوع حين يعرض له اثناء عرضه لتواريخ القبائل ، ومع ذلك فحسبه أن فصلا من فصول البحث لم يخل من كتاباته ، سواء في مقدمته او تاريخه .

ثالثا : مصادر الخوارج :

خلف الخوارج الكثير عن عقائدهم وسيرهم وتاريخهم وطبقاتهم ، لكن لم يصلنا منها سوى النذر اليسير ، وقد أورد البرادى في رسالته عن كتب الإباضية عديدا من هذه التصانيف للمشاركة والمغاربة على السواء ، كما أورد إبن النديم في « الفهرست » مزيدا منها ، وذكر أنها « مستورة محفوظة » ، فلم نقف لها على أثر ، ومن هذه الكتب ما دونه اليمان بن الرباب ويحى بن كامل والصيرفى وعبد الله بن زيد وإبراهيم إبن اسحق الإباضى والهيثم بن الهيثم والربيع بن حبيب وغيرهم من المشاركة . كذلك نعلم من سير الشماخى أن مؤرخا إباضيا مغربيا شهيرا يدعى إبن سلام عاش حول منتصف القرن الثالث الهجرى وصنف كتابا في السير لم يصلنا بعد ، وقد اعتمد عليه الشماخى فيما يتعلق بثورات الإباضية وطبقات مشايخ المذهب حتى عصر إبن سلام .

ومن المغاربة الإباضية كذلك أبى الربيع سليمان بن يخلق الذى نقل عن أبى زكريا ومعبود بن أفلح ممن نقل عنهم الوسيانى .

ومن المحقق أن كثيرا من هذه الكتب أبيدت أو أحرقت نظرا لما تعرض له الخوارج في الاشرق والغرب من اضطهاد ، فقد أخبرنا الدرجينى (18) أن مكتبة الائمة الرستميين المعروفة « بالمعصومة » أحرقتها أبو عبد الله الشيعى سنة 297 هـ ، ومن المحقق أن كتب الصفوية

(18) طبقات الإباضية ج 2 ورقة 125 ظهر .

بسجلهاسة لاقت نفس المصير .

وجدير بالذكر ان كافة كتب الصفرية لم نقف لها على اثر ، بينما وصلنا بعض كتب الاباضية ، وتفسير ذلك ان ابا عبد الله الشيعي الذي اقام بسجلهاسة اربعين يوما ، اجهز على ما بها تواليف وتصانيف ، بينما لم تطل اقامته بتاهرت ، اذ غادرها على التو لتحرير المهدي من سجنه بسجلهاسة ، فتسربت بعض كتب الاباضية مع بعض افراد البيت الرستمي الذين هربوا الى وارجلان ، ومعروف انها استعصت على الغزو الشيعي . كذلك سلم جبل نفوسة من عبث الفاطميين بديوان الاباضية الحافل بتصانيف المذهب ، ويخبرنا البرادي (19) ان ديوان نفوسة كان مشتملا على اكادس هائلة من الكتب بلغ ما ورد منها من الشرق فقط نحو ثلاثمائة وثلاثين الف جزء .

وبعد ان فتح المرابطون وارجلان رحل اباضيتها بكتبهم واقاموا بوادي ميزاب - جنوبي الجزائر - حيث لا تزال محفوظة لدى مشايخ المذهب الى الآن ، وقد ذكر ماسكراي ان ثروة جبل نفوسة من كتب الاباضية اكثر وفرة منها في وادي الميزاب . وقد حاول ليف من المستشرقين المهتمين بتاريخ المغرب زيارة مشايخ الاباضية بوادي الميزاب وجبل نفوسة ، والاطلاع على خزائن الكتب هناك ، ومن هؤلاء ماسكراي وموتيلنسكي ولويسكي وباسيه وغيرهم . ونجحوا بالفعل في الوقوف على قدر ضئيل من تراث الاباضية ، اذ ان مشايخ المذهب يرفضون اظهار ما لديهم من الكتب المتعلقة بأسرار المذهب ولا يتيحون سوى الاطلاع على الكتب المتواترة الخاصة بالعموميات ، كما ذكر برسي سميث (20) وماسكراي (21) .

ومع ذلك فقد حصلنا على بعض تلك التصانيف الخاصة بالعقائد والنوازل والفتاوى ، وكذلك بعض التواريخ والسير وكتب الطبقات .

ومن اهم مصادرها في كتب الفتيا رسالة في احكام الزكاة لابى عبدة مسلم بن ابي كريمة (ت اواخر القرن الثاني الهجري) ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية غاية في الاهمية لان صاحبها كان شيخا لاباضية

(19) رسالة في ذكر كتب الاباضية .

(20) The Ibadites. P. 267. The Moslom World. Vol 12, July ; 1922.

(21) انظر : Chronique d'abou Zakaria. P. VII.

البصرة ورئيسا لتنظيم المذهب السياسى بعد جابر بن زيد ، واليه يعزى الفضل فى بث دعاة المذهب الى أطراف الدولة الاسلامية ومن بينها بلاد المغرب . كما كان رؤساء المذهب فى المغرب يلتحقون بحضرته للتعلم فى المذهب والاعداد لاقامة الدولة الاباضية . وتكشف لنا الرسالة عن حقيقة تطور افكار الخوارج السياسية فى الشرق اواخر العصر الاموى ، ولجؤهم الى أساليب التنظيم والدعوة كبديل لاسلوب الثورات الهوجاء الذى اثبت فشلا ذريعا . وتمدنا بمعلومات هامة — على ضآلتها — عن صلة التنظيم الام فى البصرة بمشايع المذهب فى المغرب بعد قيام امامة ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح بطرابلس سنة 140 هـ .

ومن كتب العقائد والفتوه ، نشر المستشرق موتايلنسكى (22) نصا للشيخ الاباضى عمرو بن جميع بعنوان « متن عقيدة التوحيد » ، يلقى بعض الضوء على الفكر السياسى عند الخوارج ، فضلا عن آراء الاباضية فى كثير من المسائل الفقهية . ونفس المعلومات نجدها فى « مقدمة اصول الفقه » للشماخى « ومدونة ابي غانم الصفرى » « وشرح السؤالات » للسوفى ، وهى جميعا مخطوطات بدار الكتب المصرية .

اما عن كتب التاريخ والسير ، فأهمها على الاطلاق « كتاب السيرة واخبار الائمة » لأبى زكريا يحيى بن أبى بكر (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) . ولا يزال الكتاب مخطوطا بدار الكتب المصرية ، وقد ترجمه ماسكراى الى الفرنسية وقدم له وعلق عليه ونشره تحت عنوان :
Chronique d'Abou Zakaria

وأبو زكريا من اهل وارجلان ، ولا نعلم شيئا عن نشأته ، بينما ندرك انه اعتمد فى تاريخه لثورات الاباضية والرسامين الأوائل على مؤرخ اباضى يدعى أبو الربيع سليمان بن يخلف ، ويبدو أنه عاصر العهد الرستمي الاخير أو استمد معلوماته عنه من الجيل السابق له ، بينما نقل عنه كل من لحقه من مؤرخى الاباضية ، وصدق فيه قول أبى الربيع (23) الوسيانى « ان أبا زكريا له الفضل فى السبق الى كتابة اخبار اهل الدعوة » . وقد أرخ أبو زكريا أساسا للدولة الرستمية ، لذلك

(22) انظر : Actes du 14 Congrès international des orientalistes. Algiers, 1905. Vol. 3, Part 2.

(23) سير أبى الربيع بن عبد السلام الوسيانى ورقة 1 وجه .

يسرف في تصوير فضل الفرس على الاسلام ، حتى انه انتحل كثيرا من الاحاديث والمأثورات عن الصحابة والتابعين تمجيذا لنسب أئمة بنى رستم . وفي تاريخه لهم اتباع منهجا طيبا ، فمع حرصه على التسلسل الزمني للأحداث خلال عهود الأئمة ، تصور خمسة مراحل للإمامة تعرضت الجماعة الإباضية في كل منها لانشقاق مذهبي . وبعد ذلك يعرض لأخبار الإباضية بعد سقوط دولة بنى رستم ، أي علاقتهم بالفاطميين الذين أطلق عليهم « المسودة » . ومن خلال كتابات أبي زكريا عن إباضية المغرب نقف على معلومات خاصة بالخوارج الصفرية كذلك التي تتعلق بانتشار مذهبهم ببلاد المغرب ، وعلاقة بنى رستم ببني مدرار . الخ وقد أمدنا بتاريخ شبه متكامل لدولة بنى رستم يعساب عليه فيه تعصبه التام للأئمة وتحامله على الحركات المناوئة لهم ، وإغفاله ذكر أحداث كثيرة لان فيها ما يشين سياسة الأئمة وقد دفعه هذا التعصب أحيانا أخرى إلى تزييف الوقائع والأخبار . كما يؤخذ على تاريخ أبي زكريا إسرافه في إيراد روايات خرافية وأسطورية ، وإفاضته في نسبة أعمال خارقة ومعجزات إلى من ترجم لهم من مشايخ المذهب . وفيما يختص بمعلوماته عن الخوارج والفاطميين ، ففضلا عن الشذرات المتفرقة التي تلقى ضوءا على ثورات الإباضية ، أمدنا بمادة طيبة تفيد في توضيح موقف الإباضية الوهابية من حركة أبي يزيد النكاري ، هذا بالإضافة إلى معلومات عن سقوط دولة بنى مدرار الصفرية على الرغم مما تتسم به من طابع روائي .

وغير سيرة أبي زكريا ، وقفنا بدار الكتب المصرية على مخطوطة عن « سير أبي الربيع الوسياني » تلك التي اعتبرها لويسكي (24) في حكم المفقودة ، وعلق على النصوص التي أوردها الشماخي عن أبي الربيع بأنها « غاية في الأهمية » . ونعتقد أن أهمية سير أبي الربيع تكمن في كونه عاش قريبا من الأحداث إذ توفي سنة 418 هـ ، فضلا عن إقامته بوارجلان من أهم معاقل الإباضية بعد سقوط الدولة الرستمية . كذلك أثبت أبو الربيع مصادره ، فسمع عن شيخه أبي محمد عبد الله بن محمد العاصمي ، كما أخذ أيضا عن المؤرخ الإباضي معبد بن أفلح وغيرهما ممن

Une chronique ibadite "Kitab-as-Syar" d'As-Samachi. P. 74.
Revue des études Islamiques, Vol. VII, 1934.

(24)

لم نقف على كتبهما الاصلية ، فحفظ لنا قبسا مما دونوه . وجدير بالذكر ان سير ابي الربيع تلقى أضواء باهرة على اخبار الاباضية في العصر الفاطمي ، فضلا عما ورد بها من معلومات عارضة عن العصور السابقة ، بالاضافة الى مسائل واجوبتها في الفقه الاباضي جد مفيدة في معرفة فكر الاباضية وفلسفتهم في الحكم والادارة .

وثمة مؤرخ اباضي شهير هو ابو العباس احمد بن سعيد الشماخي (ت 928 هـ) الذي ينتمي الى اسرة معروفة بجبل نفوسة اخرجت كثيرين من اعلام الاباضية . وله فضلا عن كتابه « شرح مقدمة اصول الفقه » — وهو مخطوط بدار الكتب المصرية — كتابه المعروف بالسير . وسير الشماخي تعد تاريخا شبه متكامل لاباضية المغرب ، فلكونه عاش في عصر متأخر ، قدر له الاطلاع على تواليف سابقيه كابن سلام وابي زكريا والربيع بن حبيب والسوفي ومقرين بن محمد البغطوري الذي الف عن سير مشايخ نفوسة سنة 599 هـ . وامتازت سير الشماخي عن غيرها من سير الاباضية باخذ مؤلفها عن مؤرخين من غير الاباضية كالرقيق وابن الصغير . كما يلحظ الدارس حرص الشماخي على مناقشة وتحليل الروايات المختلفة والمفاضلة بينها واثبات ما يراه صحيحا ومقتنعا . ولا غرو فكثيرا ما خالف سابقيه من مؤرخي الاباضية ، ورجع روايات السنة الامر الذي يجعله اكثر مؤرخي الاباضية حيادا وموضوعية في نظرنا .

اما كتب الطبقات ، فقد وقفنا على اثنين منها ، اولهما لابي العباس احمد الدرجيني (ت حوالي منتصف القرن السابع الهجري) ويسمى « طبقات الاباضية » ، وهو مخطوط في ثلاثة اجزاء بدار الكتب المصرية ، يعرض فيه الدرجيني تراجم لمشايخ المذهب الاباضي جيلا بعد جيل في المشرق والمغرب على السواء . وفيها يتعلق بالمشاركة اعتمد الدرجيني على كتاب الكامل لابي العباس المبرد ، بينما نقل كثيرا عن ابي زكريا في اخبار المغاربة . ومن ثم فما تضمنه كتابه من معلومات في هذا الصدد مكررة ولا تقدم جديدا . اكثر من ذلك فان الدرجيني ورث نفس مثالب سابقيه ولم يبذل ثمة محاولة لتحقيق معلوماته ، وان كان من الانصاف ان نثبت له امانته في اسناد هذه المعلومات الى من نقلها عنهم . كما وقع في كثير من الاخطاء ، واغفل كثيرا من مشايخ المذهب ولم يترجم لهم وهذا هو ما حدا بابي القاسم البرادي الى تدارك ذلك الاغفال وتصحيح تلك

الاططاء التى فانتت على الدررينى .

فابو القاسم البرادى (ت 697 هـ) سى طبقاته لذلك « الجواهر المنتقاء فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لابى العباس الدررينى » . وهذا الكتاب مخطوط بدار الكتب عالج فيه صاحبه كثيرا من الموضوعات وعرض لعدد من عيون المذهب واعلامه ممن اهلهم الدررينى ، كما حلل وناقش كثيرا من روايات سابقيه بصريه نقدية من مؤرخى الاباضية وغير الاباضية على السواء . ومن الملاحظ ان نقل كثيرا عن ابن الصغير فيها يتعلق بالعهد الرستمى الاخير . ومع ذلك فكتب الطبقات تزخر بمعلومات هامة عن اثر الخوارج فى المجتمع المغربى . وعلى تلك المصادر الاباضية الاصلية اعتمد جبهة المحدثين من مؤرخى الاباضية فيما كتبوه عن تواريخ الاباضية فى المغرب . ومن هؤلاء البارونى والورجلانسى واطفيش والجربى والطاهر الزاوى . على ان كتاباتهم جميعا تنسم الى جانب التعصب للمذهب الاباضى بطابع الاسفاف والسطحية .

والى جانب تلك المصادر لم ندخر وسعا فى البحث عن المادة التاريخية التى تخدم موضوع الدراسة والتى تمسه من قريب او بعيد فى المراجع التاريخية وكتب الجغرافيا والرحلات ، وكتب الطبقات والتراجم والتصانيف الادبية ، وكتب الفرق المختلفة . كما استفدنا بكتب السكة فى تحقيق كثير من الالقاب وتحديد عديد من التواريخ التى كان يشوبها الخلط ويكتنفها الابهام .

كذلك لم نغفل دراسات المحدثين من العرب والمستشرقين فيما الفوه من مراجع او نشره بالموسوعات والدوريات العلمية ، فاطلعنا على كتابات الدكتور حسن محمود وحسين مؤنس ومحمود مكى ، واحمد مختار العبادى وسعد زغلول عبد الحميد وغيرهم من المتخصصين فى تاريخ المغرب والاندلس . كما استفدنا كثيرا من دراسات جوتييه وبل وبرونفسال ودوزى وبرنشويج ولويسكى ومارسيه وباسيه وسميث وغيرهم سواء ما تضمنته كتبهم او ما نشره بالدوريات والموسوعات

مثل : Actes du congres internationales des orientalistes,

Andalus, Islamic review, Moslem World, Journal

Asiatique, Revue des etudes Islamiques, Studia Islamica.

وغيرها .

وبفضل تلك المادة التاريخية التي توافرت للبحث أمكن دراسة الموضوع ولم شتاته في أبواب خمسة وخاتمة .

تناول الباب الاول دعوة الخوارج في بلاد المغرب . وتضمن ظروف الخوارج في الشرق الاسلامى التى دفعت بهم الى الهجرة والانتشار في بلاد المغرب . وعرض لاحوال بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج وملاعمتها لدعوتهم . ثم عالجت كيفية انتشار مبادئ الخوارج الصفرية والاباضية في بلاد المغرب واقبال البربر على اعتناق هذه المبادئ .

وخصص الباب الثانى لثورات الخوارج في بلاد المغرب ، حيث تضمن دراسة لاسباب ثورات الخوارج — صفرية واباضية — ووقائع تلك الثورات وتبيان نتائجها وآثارها .

أما الباب الثالث فقد تضمن تاريخا لدول الخوارج في بلاد المغرب ، تناولت فيه دولتى بنى مدرار الصفرية وبنى رستم الاباضية من حيث ظروف قيامهما وعرض سياستهما الداخلية ، وتحديد علائقهما الخارجية .

وافرد الباب الرابع لدراسة الخوارج والفاطميين ، حيث عرضت فيه لدور الفاطميين في اسقاط دولتى بنى مدرار وبنى رستم ، ثم ثورات الصفرية والاباضية على الحكم الفاطمى .

ونظرا لما أحدثته الخوارج من آثار اقتصادية واجتماعية وثقافية فضلا عن آثارهم السياسية في بلاد المغرب ، ولما كانت تلك الجوانب تحتاج لدراسة مستفيضة متعمقة ، فقد أثرنا أن نفرّد لها الباب الخامس من البحث .

وفي الخاتمة أوجزنا ما انتهينا اليه من نتائج تمخضت عنها هذه الدراسة .

ولا يسعنى في هذا المقام الا أن أتقدم بخالص شكرى وعظيم الامتنان لاستاذى الدكتور حسن أحمد محمود الذى تولى الاشراف على هذا البحث وتعهده برعايته وتوجيهه مذ كان فكرة حتى صار حقيقة .

ويعلم الله — كم تكبدت من عناء ، وكم من جهد بذلت . . وأسأله التسويق .

فاس في أغسطس 1976

الباب الاول

دعوة الخوارج في بلاد المغرب

أولا :

أحوال الخوارج في المشرق الاسلامي حتى اوائل القرن الثاني الهجري

ارتبط ظهور مذهب الخوارج وانتشاره في بلاد المغرب بعاملين أساسيين :

أولهما : التطور السياسي الذي حدث للخوارج في المشرق الاسلامي في اواخر القرن الاول الهجري بعد فشل ثوراتهم واضطرارهم الى اتباع أسلوب الدعوة والتنظيم السياسي ، واختيار أطراف العالم الاسلامي ميدانا لنشاطهم بعد أن تعرضوا للمطاردة والاضطهاد .

وثانيهما : ملائمة الاحوال السياسية والاجتماعية في بلاد المغرب في اواخر القرن الاول الهجري وأوائل القرن الثاني لتقبل هذا المذهب وانتشاره .

وليس من شك في أن ما لحق بالخوارج من فشل في المشرق يعزى الى أسباب عدة ، منها تطرف عقائدهم وقصور فكرهم السياسي الظاهر من الثورات التي قاموا بها طوال العصر الاموي ، ثم يقظة الخلافة ورجالها في مناهضة هذه الثورات ومواجهتها في سرعة وحزم .

معلى الرغم من كثرة الثورات التي قام بها الخوارج في المشرق

الاسلامى ، وما أبدوه فيها من ضروب الشجاعة (1) ، وبرغم ما انطوت عليه مبادئهم من دعوة الى العدل والحرية (2) ، فقد عجزوا عن تحقيق اهدافهم ، واصبحوا هدفا للبطش والاضطهاد . ومن امثلة تطرفهم ، اجماع كافة فرقهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل والحكيم وكل من رضى بالتحكيم (3) ، واتفاقها في الخروج على الامام الجائر وتكفير مرتكبي الكبائر باستثناء النجدات (4) ، وكذلك الاجماع على جواز الامامة لكل مسلم عالم بالكتاب والسنة (5) .

فاتفاقهم على تكفير على وعثمان واصحاب الجمل وضعهم في موقف العداء للجماعة الاسلامية برمتها (6) ، فتعرضوا لسخط كافة الحكومات الاسلامية ، اذ حاربهم على بن ابي طالب وغل شوكتهم في موقعتي النهروان والنخيلة (7) ، ولم يستمر تحالفهم مع الزبيريين ضد الامويين طويلا ، فقد انقلب ابن الزبير عليهم حين آانس من نفسه القوة على مواجهة بنى امية (8) . ولم يتوان الامويون في تعقب حركاتهم وقمعها بعد حروب طويلة وقف الشيعة في معظمها الى جانب بنى امية على ما بينهما من عداة متأصل (9) .

وبسبب تكفيرهم مرتكبي الكبائر ، انقسموا على انفسهم اشد الانقسام في كثير من المسائل الفقهية ، واعتبرت كل فرقة ما عداها مارقة ، وعاملت انصارها معاملة الكفار في استباحة الدماء واستحلال الاموال والذرائع (10) .

(1) انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج 6 ص 172 ، المبرد : الكامل ج 1 ص 546 ، ج 3 ص 954 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 256 .
(2) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 42 ،

Dozy. Spanish Islam. P. 86.

Lammens : Etudes sur le siècle des omeyyades. P. 187.

(3) الاسفرائينى : التبصير في الدين ص 146 ، البغدادي : الفرق بين الفرق ص 273 .
(4) البغدادي : نفس المصدر والصحيفة ، المسمودى : مروج الذهب ج 3 ص 145 ، جعفر بن عبد السلام : ابانة المناهج ورقة 154 مخطوط .
(5) النوبختى : فرق الشيعة ص 31 ، الاسفرائينى : المرجع السابق ص 46 ، جعفر بن عبد السلام : المرجع السابق ورقة 166 .
(6) الاسفرائينى : نفس المصدر والصحيفة ، Gibb : Mohammedanism. P. 170.
(7) من على والخوارج انظر : الطبرى ج 5 ص 76 وما بعدها ، الدينورى : الاخبار الطوال ص 210 وما بعدها .
(8) الطبرى : نفس المصدر ص 563 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 69 .
(9) ابن خلدون : المعبر ج 3 ص 142 .
(10) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 .

وكان من المتوقع أن يقبل الموالى على مذهب الخوارج لسماحة رأيهم في الإمامة ، فقد اعتبرت حقا متاحا لكل مسلم بغض النظر عن أصله وجنسه — وهو مبدأ تفرد به الخوارج دون سائر الفرق الإسلامية الأخرى — لكن أعداد الموالى في صفوف الخوارج كانت قليلة ، ولم يقبل بعضهم على مذهبهم الا في أواخر العصر الأموي (11) . حين أسرف بنو أمية في اضطهاد الموالى واذلالهم . ويعزى هذا الاعراض عن مذهب الخوارج الى افراطه في التطرف (12) واسراف انصاره في استخدام العنف ، وتشدد زعمائهم في قبول المهاجرة — وهم الأتباع الجدد — وذلك باجراء اختبارات قاسية للتأكد من صدقهم وحسن نواياهم . كما رفض الخوارج مبدأ التقية — باستثناء الصفرية (13) — ولم يعمدوا الى التنظيم والدعوة وما يرتبط بها من وسائل الترغيب وكسب الأنصار ، ولم يفتنوا الى ذلك الا في وقت متأخر .

ولعل افتقار المذهب الى زعامة قريشية أو شخصية مرموقة يلتف حولها الأنصار ويدعون لها دعوة منظمة كان سببا في تفرق كلمتهم وانقسامهم الى طوائف تلتف حول قيادات محلية أو قبلية لايجمعها رابط في العمل أو تشملها وحدة في الخطط والاهداف ، فما أن تجتمع جماعة منهم حتى يتواعدوا على اللقاء ، فاذا التفتوا اظهروا العصيان (14) . الأمر الذي سهل على الحكام ملاحقتهم واستئصال شأفتهم جماعة في اثر أخرى . ولعل هذا هو ما يعنيه فلهوزن بقوله (15) « أن سياسة الخوارج كانت غير سياسية » .

على أن من أهم أسباب اخفاق حركات الخوارج وفشل ثوراتهم ، تنفسي الخلافات داخل جماعتهم وهي خلافات كان الباعث عليها في الغالب

(11) المبرد : الكامل ج 3 ص 1151 ، سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص 126 . وقد أسرف بعض الدارسين في تقدير الآثار الناجمة عن اعتناق الموالى مذهب الخوارج حتى ذهبوا الى أن عقائد الخوارج تنتمي الى أصول مسيحية ومجوسية . انظر : عبر أبو النصر : الخوارج في الاسلام ص 245 . فالواقع أن عقائد الخوارج تدرت بطابعها العربي الاسلامي الخالص وخلوها من أي اثر لفلسفة اليونان أو الفرس . انظر : أحمد أمين : ضحى الاسلام ج 3 صفحة 335 ، 344 .

(12) المبرد : الكامل ج 3 ص 967 .

(13) الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 51 .

(14) الطبري : ج 5 ص 211 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج 2 ص 113 .

(15) تاريخ الدولة العربية ص 372 .

الاختلاف في المبدأ والرأى (16) . فقد تباينت آراؤهم في مسائل جوهرية كمسألة القعدة والاستعراض (17) . وادى ذلك الى انقسامهم الى فرق الأزارقة والاباضية والصفرية والنجدات وتشعبت هذه الخلافات لتشتت شمل المذهب في أكثر من عشرين فرقة (18) .

ومما زاد من خطورة هذا الانقسام انه كان يحدث في الأوقات العصيبة ابان حروبهم فكان يحرمهم من جنى ثمار النصر ويؤدى بهم الى الهزائم . ومن امثلة ذلك خروج عبد ربه الكبير على قطرى بن الفجاءة وهو يقاتل المهلب بن ابي صفرة سنة 77 هـ (696 م) لأن قطرى « تأول فأخطأ » (19)، فانفصل عنه عبد ربه بمعظم الجيش بعد ان كان النصر وشيكاً ، وأتيح للمهلب سحقهما واحدا بعد الآخر (20) .

وقد انقسم النجدات على انفسهم كما انقسم الأزارقة ، فخالف عطية بن الأسود نجدة بن عامر الحنفى (21) وانفصل عنه وغادر البحرين الى المشرق وازداد الامر سؤا بخروج أبى غديك عبد الله بن ثور على نجدة وقتله ، وتفرق النجدات لذلك الى ثلاث شيع متناحرة ، مما ادى في النهاية الى اضمحلالهم وزوال دولتهم في البحرين وحضر موت والطائف واليمن سنة 72 هـ (22) (691 م) .

ولم يسلم الصفرية كذلك من آفة الانقسام ، فقد خالف مصقلة بن مهلهل الضبى شبيب بن يزيد الشيباني سنة 77 هـ (696 م) وفوت عليه انتصاراته الحافلة على جيوش الحجاج الثقفى لانسحابه بمعظم الجيش احتجاجا على ما أعلنه شبيب من البراءة من سلفه صالح بن مسرح (23) . وقد استغل خصومهم هذا الانقسام في ملاحقتهم والقضاء عليهم ، فلم

(16) نفس المصدر ص 61 ، ليفى ديللايدا : مادة الصفرية — دائرة المعارف الاسلامية صفحة 229 .

(17) الورجلانى : الدليل لامل العقول ج 1 ص 15 ، مجهول : قطعة من كتاب مى الاديان والفرق ورقة 97 — مخطوط .

(18) عن هذه الفرق ومعتقداتها انظر : الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 46 — 51 . (19) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 161 .

من تفصيلات اسباب خروج عبد ربه الكبير على قطرى راجع : الطبرى : ج 6 صفحة 300 — 301 .

(20) الطبرى : ج 6 ص 300 ، ابن قتيبة : المعارف ص 411 ، ابن كثير : البداية والنهاية ج 9 ص 30 .

(21) عن أسباب هذا الخلاف انظر : البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 144 .

(22) الطبرى : ج 6 ص 174 ، اليعقوبى : تاريخه ج 3 ص 18 .

(23) الطبرى : نفس المصدر ص 275 .

يدخر الخلفاء والولاة وسعا في مناهضتهم ، واتبعوا في ذلك شتى الوسائل من عنف وخذاع واستنفار للجماعة الاسلامية لمواجهة ثوراتهم والتربص بأية حركة او نشاط لهم . كما استخدموا أسلوب اللين والافتناع والمحاجاة ، واتبعوا سياسة الترغيب ، واغراء زعمائهم بالمراكز المرموقة والمناصب الرسمية ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . فمعاوية بن أبى سفيان كثيرا ما استنفر اهل الكوفة للمشاركة في قتال الأزارقة (24) كما أن عامله على الكوفة والبصرة — المغيرة بن شعبه وابن عامر — جندا كتائب من الشيعة من اهل المصريين لقتالهم (25) . وكان هذا العمل من البراعة بمكان ، اذ كفل ضرب الشيعة بالخوارج — وكلاهما عدو لبنى أمية — ليضعف بعضهما بعضا فيسهل بعد ذلك استئصال شأفتهما كل على حدة . والى المغيرة بن شعبه خاصة يعزى الفضل في تطبيق تلك السياسة بنجاح فكان يستخدم أسلوب التهديد والترغيب ويلزم القبائل نفسها بالقضاء على أى نشاط للخوارج داخلها (26) ليكفى نفسه مؤنة قتالهم .

واثمرت تلك السياسة في عهد زياد بن أبيه « فكانت القبائل اذا أحست بخارجي فيهم أوثقوه وأتوا به زيادا ، فمنهم من يحبسه ومنهم من يقتله » (27) كما انحلت سياسته في الترغيب والترضية ، فكان يستميل من يقبل عليه من زعماء الخوارج ويتخذهم صنائع وعمالا ، ويفقد عليهم الهبات والعطايا (28) . لكنه لم يتورع عن البطش والتنكيل بمن يعرض عنه ويتناوىء حكمه ، حتى النساء لم يسلمن من أذاه فكان يقتلن ويمثل بهن (29) .

وقد أسرف ابنه عبيد الله في سياسة العنف هذه وبالغ فيها (30) ، فكان القتل جزاء من يشتهبه في ميله لمذهب الخوارج . ويذكر الدينورى (31)

(24) ابن خلدون : ج 3 ص 142 .

(25) ابن الأثير : الكامل ج 3 ص 171 .

(26) ورد في خطاب له في هذا الصدد قوله « . . أياها الناس ، انى لم ازل احب لجماعتكم العافية واكف منكم الاذى . وانى والله لقد خشيت ان يكون ذلك أدب سوء لسفهاكم ، وأما الطلبة الانتقاء فلا » وايم الله . لقد خشيت ألا أجد بدا من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفه « الجاهل » فكفوا أياها الناس سفهاكم قبل أن يشبل البلاء عوامكم . وقد ذكر لى أن رجلا منكم يريدون أن يظهروا في مصر بالشقاق والخلاف ، وايم الله — لا يخرجون في حى بين أحياء العرب في هذا المصر إلا ابدتهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم . . » راجع الطبرى : ج 5 ص 184 .

(27) المبرد : الكامل ج 3 ص 985 ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 259 .

(28) المبرد : نفس المصدر ص 1006 .

(29) ابن عبد ربه : المرجع السابق ص 259 .

(30) الطبرى : ج 5 صفحة 312 .

(31) الأخبار الطوال صفحة 270 .

أنه قتل تسعمائة رجل « بالتهمة والظنة » ، عدا ما لاثناه الآلاف في السجون من صنوف الارهاب والتعذيب (32) واستمر عبيد الله هذه السياسة وتفنن فيها ، حتى أنه كان يرغب المسجونين من الخوارج على قتل بعضهم بعضا امعانا في التنكيل والتشفي (33) .

ولما آل الأمر لعبد الله بن الزبير في العراق عول على القضاء على الخوارج واستئصال شأفتهم ، فرماهم بالمهلب بن أبى صفرة الذى كان « يسير في طلبهم من بلد الى بلد ويوأتهم وقعة بوقعة » (34) .

على أن محنة الخوارج الشديدة كانت في عهد عبد الملك بن مروان ، فقد رماهم بالحجاج والمهلب في آن واحد . وتفيض المصادر بأمثلة عن قسوة الحجاج وعسفه ، فكان يأمر بقتلهم جماعات « بالتهمة لا بالخطيئة » (35) .

وكان سيافه يضرب أعناقهم في حضرته وبين يديه (36) ، ثم تصلب أجسادهم بعد التمثيل بها (37) . أما المهلب فقد اعتمد في حروبه مع الخوارج على الخداع والدهاء أكثر من اعتماده على السيف ، وحقق بذلك انتصارات لم يستطع احرارها في ميادين القتال ، فاستطاع أن يحدث تصدعا في جيوشهم عن طريق بث الخلاف والشقاق بين زعمائهم بما كان يثيره من مسائل فقهية يشغل بها الخوارج عن قتاله بقتال بعضهم البعض ، فماذا ما وهنت شوكتهم تمكن من هزيمتهم طائفة في اثر أخرى . وحسبه أنه استطاع بذلك أن يضع حدا لحركات الأزارقة في المشرق الاسلامي (38) .

(32) المبرد : الكامل ج 3 ص 1004 ، نلهوزن : الخوارج والشيعة ص 63 .

(33) ابن الاثير : الكامل ج 3 ص 203 ، ابن خلدون : المبرج ج 3 ص 144 .

(34) الدينوري : الاخبار الطوال ص 275 وفي هذا الصدد ارتجز أحد الخوارج هذا القول : حتى يتبعنا المهلب ، ليس لنا في الارض منه مهرب ، ولا السما اين المذهب ؟ الدينوري : نفس المصدر ص 276 .

(35) ابن العريبي : القواصم والمعاصم ورقة 107 مخطوط .

(36) مجهول : المعيون والحدائق في اخبار الحقائق ص 22 .

(37) البلاذري : انساب الاشراف ج 11 ص 63 .

(38) المبرد : الكامل ج 3 ص 1064 ، سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ص 121 - 123 . قال قطري بن الفجاءة في هذا الصدد : « .. أما المهلب فهو من عرفته ، ان أخذتم بطرف ثوب ، أخذ بطرفه الآخر ، يده اذا أرسلتموه ، ويرسله اذا أمددتموه ، لا يبدؤكم الا أن تبدؤوه ، الا أن يرى فرصة فينتهزها ، فهو الليث المبرز ، والثعلب المراءغ ، والبلاء المقيم » . انظر : المبرد : الكامل ج 3 صفحة 1086 .

وانحسرت موجة العنف ابان خلافة عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، فقد نجح عمر بن عبد العزيز في تجميد نشاط الخوارج في عصره بسياسة المجاعة والحسنى والاقناع (39) . بينما عمد هشام الى أسلوب الاغراء بالاموال والمناصب ، وشراء زعمائهم بالمال ايثارا للعافية (40) . وذلك كان دليلا على فتور همة الخوارج واضمحلال شأنهم حتى أن مروان بن محمد لم يجد صعوبة في القضاء على حركاتهم في بلاد العراق والجزيرة ثم في مدن الحجاز واليمن « فركدت ريخ الخوارج من يومئذ الى ان ظهرت الدولة العباسية » (41) .

هكذا وصلت احوال الخوارج في المشرق الاسلامي في اواخر القرن الاول الهجري وأوائل القرن الثاني الى مثل هذا الضعف والانحلال ، بحيث لم يعد في وسعهم مواصلة نشاطهم في قلب العالم الاسلامي وكان عليهم ان يغيروا في أسلوبهم بنبذ طريق الثورات السافرة واتباع أسلوب الدعوة والتنظيم السياسي ، والانتقال الى اطراف العالم الاسلامي بعيدا عن حاضرة الخلافة فاتجهوا الى بلاد المغرب .

(39) الطبري : ج 5 ص 409 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 صفحة 260 .

(40) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج 1 ص 251 .

(41) ابن خلدون : المعبر ج 3 ص 167 .

ثانياً :

بلاد المغرب قبل ظهور الخوارج

نجم عن سياسة الأمويين الأواخر موجة من السخط عمت كافة الولايات الإسلامية ، وقد استغل الهاشميون والخوارج حالة السخط هذه في تأليب الجماعة الإسلامية ضد الحكم الأموي ، فبينما اتجه الهاشميون بدعوتهم نحو المشرق في فارس وخراسان عمد الخوارج الى بث دعائهم في بلاد المغرب التي كانت اذ ذاك ميدانا خصبا لتقبل مبادئهم .

فقد عانت بلاد المغرب كغيرها من الولايات الإسلامية من الفتن السياسية الناجمة عن الخصومات القبلية بين القيسية واليمانية حتى ليذهب بعض الدارسين (42) الى اعتبارها دافعا اساسيا لثورات البربر على الحكم الأموي . فالثابت أن غالبية عرب الفتح الذين استقروا بالمغرب كانوا من اليمانية (43) ، وهم الذين آزرُوا موسى بن نصير خلال ولايته استمرت حتى عام 96 هـ . ولما عزل موسى واستبدله الخليفة سليمان بن عبد الملك بمحمد بن يزيد — وكان قيسيا (44) — كان هم الوالى الجديد وشغله الشاغل تصفية نفوذ آل موسى ، فأخذ يتتبعهم ويبطش بهم ويستولى

(42) انظر حسين مؤنس : فجر الاندلس ص 144 ،
Marçais, G : La Berberie Musulmane. P. 141.

(43) ابن عذارى : ج 1 ص 39 ، البوعياشى : الريف بعد الفتح الاسلامى ص 15 .

(44) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ص 38 .

على أموالهم بتحريض من الخليفة لنقمته على موسى بن نصير (45) . فأودع محمد بن يزيد عبد الله بن موسى السجن وفرض عليه من المغارم ما هو فوق طاقته (46) ، وما فتئ يعذبه حتى مات (47) .

وفي ولاية يزيد بن أبي مسلم (101 — 103 هـ) (720 — 723 م) عاد نفوذ اليمينية من جديد (48) ، وانتقم يزيد بن أبي مسلم من سلفه محمد بن يزيد ، فرمى به في السجن واشبعه جلدا وتعذيبا انتقاما لما حل باليمينية على يديه من عسف واضطهاد .

وآلت ولاية المغرب الى بشر بن صفوان بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم ، وكان بشر من غلاة اليمينية (49) فأمعن في اضطهاد القيسية ، وبلغ به التعصب لعشيرته أنه استخلف على البلاد قبل موته نغاش بن قسروط الكلبى (50) ، فعاث فيها (51) وأسرف في اذلال القيسية .

وعاودت القيسية الظهور حين ولى هشام بن عبد الملك عبدة بن عبد الرحمن القيسى ، فهببت النية على البطش بعمال بشر بن صفوان (52) ،

(45) نqm الخليفة على موسى لعدم استجابته لطلبه قبل توليه الخلافة بأن ينتظر بما معه من هدايا المغرب حتى يموت الخليفة الوليد بن عبد الملك — الذى كان يلفظ أنفاسه الأخيرة — فقد سلم موسى الهدايا للوليد الذى فارق الحياة بعد ثلاثة أيام . فلما آلت الخلافة الى سليمان ، نكب موسى وأودعه السجن وبعث فى قتل ابنه عبد العزيز بالاندلس وعبد الله بالمغرب .
راجع : ابن القوطية : المرجع السابق ص 36 ، الرقيق : تاريخ الرقبة والمغرب ص 294 .

(46) اليعقوبى : تاريخه ج 3 ص 255 .
(47) ابن مذارى : ج 2 ص 47 ، النويرى : نهاية الارب ج 22 ورقة 13 — مخطوط .
(48) وثلة رواية للبلاذرى وابن عبد الحكم تذهب الى أن عبد الله بن موسى قتل سنة 102 هـ في ولاية بشر بن صفوان . راجع : فتوح البلدان ص 273 ، فتوح مصر والمغرب ص 290 . ومن مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير انظر : ابن القوطية : ص 37 ، الرقيق : ص 295 .

(48) ابن الأبار : الحلة السراء ص 336 .
(49) اليعقوبى : ج 3 ص 59 .
(50) ابن عبد الحكم : ص 216 ، وأورد الرقيق بدلا منه العباس بن ناصمة الكلبى . راجع : تاريخ الرقبة والمغرب ص 105 .
(51) ابن أبى دينار : المؤنس صفحة 34 .
(52) وقد استصرخ أحد زعماء اليمينية هشام بن عبد الملك لانقاذهم من بطش عبدة بن عبد الرحمن بهذه الابيات :

ساءت بنو مروان فينا وما لنا
كانهم لم يشهدوا لى وقفة
وفيناكم حر القنا بسيوننا
فلما تيقنتم نيل ما قد اردتموا
فما لستم منا كان لم يكن لكم
انظر : الرقيق : ص 105 — 106 .

وفي الله ان لم يعدلوا حكم عدل
ولم يعلموا من كان قبل له الفغل
وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
وطاب لكم فينا المشارب والاكل
صديقا وانتم ما علمتم لنا وصل

وامعن في اقتفاء أثر آل موسى بن نصير حتى استأصل شافتهم (54) . واستمرت محنة اليمنية في المغرب في عهد عبيد الله بن الحبحاب الذي تقلد الولاية سنة 116 هـ (735 م) ، ولأقشاشهم على يديه عنتا شديدا (55) .

والى جانب انشغال الولاة بالخصومات القبلية ، كانوا يتنافسون في جمع الاموال ارضاء للخلافة من ناحية ، وكسبا للانصار واشباعا لنهمهم من ناحية أخرى . فعكفوا على ارسال الحملات والجيوش تضرب في اطراف المغرب أو تهاجم الجزر البحرية في البحر المتوسط بغية السلب والنهب . فيزيد ابن أبى مسلم غزا صقلية سنة 101 هـ (56) (719 م) في وقت كان الموقف بالمغرب عصيبا . وفي سنة 109 هـ (727 م) غزا بشر ابن صفوان نفس الجزيرة « وأصاب منها سبيا كثيرا » (57) بعد أن « هلك من جيشه خلق كثير » (58) . وغرق الاسطول الذي بعثه عبيدة ابن عبد الرحمن الى صقلية في العام التالي بقيادة المستنير بن الحبحاب (59) . وغزا عبيد الله بن الحبحاب في بلاد السوس وارض السودان ، لكنه لم يجن من وراء غزواته سوى مغائم الذهب والفضة وسبايا البربر (60) . كما بعث بجنده الى جزيرة سردينية سنة 117 هـ (736 م) « فنهبوا وغنموا وعادوا » (61) ، ثم غزا صقلية وعادت حملته بالاموال والسبايا (62) . وفي كل تلك الجيوش كان البربر يشكلون غالبية رجالها ، فكانوا اداة لخدمة اطماع الولاة .

ويجمع كثيرون من المؤرخين (63) على سوء معاملة عمال العصر

-
- (54) ابن الأثير : صفحة 48 .
(55) ابن عبد الحكم : ص 293 ، مؤنس : ثورات البربر في افريقية والاندلس ص 165 .
(56) ابن عبد الحكم : ص 289 ، ابن عذاري : ج 1 ص 49 .
(57) الرقيق : ص 102 ، السلاوي : ج 1 ص 293 ، الباجي المسعودي : الخلاصة النقية صفحة 13 .
(58) ابن عبد الحكم : صفحة 191 .
(59) نفس المصدر والصحيحة .
(60) البلاذري : فتوح البلدان ص 273 ، الرقيق : ص 108 .
(61) ابن الأثير : ج 5 صفحة 69 .
(62) الرقيق : ص 109 ، السلاوي : ج 1 ص 95 .
(63) انظر : مجهول : اخبار مجموعة ص 23 ، الوردجاني ج 1 ص 27 ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي ج 2 ص 204 ، مؤنس : ثورات البربر ص 147 ، دبوز : المغرب الكبير ج 2 ص 234 ، 235 ،
Marçais : La Berberie Musulmane. P. 43, Hopkins :
Medieval Mulim government ; P. 27.

الاموي الاخير للبربر وارهاقهم بالمغارم والجبايات ، واعتبر بعضهم بلاد البربر دار حرب حتى بعد اعتناقهم الاسلام جريا على سياسة الخلافة الاموية في سائر الامصار الاسلامية (64) . وحاول الخليفة عمر بن عبد العزيز وضع حد لتسلط الولاة واستعادة ثقة البربر في الحكومة الاسلامية ، فعين على المغرب واليا تقيا هو اسماعيل بن عبيد الله (65) . وامره باستقاط الجزية على من اسلم من البربر وتحرير من استرق من نسائهم ، كما امره « باقرار القرى في يد غنامها بعد اخذ الخمس » (66) ، لتثول الارض الى اصحابها فيجنون ثمارها ويدفعون عنها خراجها المعلوم (67) . وقد حرص عمر بن عبد العزيز على ان يجمع اسماعيل بن عبيد الله بين اعباء الادارة والحرب الى جانب جمع الخراج والصدقات (68) ليحول دون جور الجباة واستبدادهم .

لكن هذه السياسة انتهت بوفاته ، وعادت الخلافة الاموية الى سيرتها الاولى . فقد استبدل الخليفة يزيد بن عبد الملك اسماعيل بن عبيد الله بيزيد بن ابي مسلم سنة 102 هـ 720 م ، فاستبد بالبربر ، وقضى على الاصلاحات التي انجزها سلفه ، وكان يزيد بن ابي مسلم ينفذ مشيئة الخلافة الاموية التي اعادت فرض الجزية على من اسلم من الموالي (69) ليتسنى لها الحصول على مزيد من الاموال والتفنل من دفع مزيد من الاعطيات للجند المسلمين من الموالي ومهما كان الامر فقد اشتط يزيد في معاملة البربر ، ونسب اليه انه اهدر كبرياءهم بوشم حرسه من البربر فكان يشم الرجل في يده اليمنى باسمه وفي اليسرى بكلمة « حرسى » ، وادى ذلك الى شعور البربر بالمهانة ، فأنفوا منه وآنكروه (70) .

وجرى عبيدة بن عبد الرحمن على سياسة العنف هذه حتى

(64) عن هذا الموضوع انظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 275 وما بعدها .

(65) اخبار مجبوعة ص 23 ، البلاذري : فتوح البلدان ص 273 .

(66) اخبار مجبوعة صفحة 23 .

(67) فلهوزن : المرجع السابق صفحة 280 .

(68) ابن عبد الحكم : صفحة 287 .

(69) الطبري : ج 6 ص 617 ، ابن تعزى بردى : ج 1 ص 245 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية صفحة 235 .

(70) البلاذري : فتوح البلدان ص 273 ، ابن عبد الحكم : ص 289 ، الرقيق : ص 99 ، مؤنس : ثورات البربر ص 163 .

« جمع من الاماء والجواري والعبيد والخصيان والدواب والذهب » (71) الشيء الكثير . وتفاقت الاحوال وازدادت سوءا ابان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي اسرف في سياسته فجند الجيوش لسلب البربر وسبيهم في اقاصى المغرب (72) ، ونشر الهلع والرعب في تلك الاصقاع . وعين ابنه اسماعيل عاملا على طنجة وجعل معه عمر بن عبد الله المرادى ، فأساء السيرة واعتبرا البربر فيئا — أسلموا أم لم يسلموا — وعاملوهم معاملة الرقيق (73) . وهكذا تسبب الولاة الامويون في المغرب في اثاره مشاعر الحقد والكراهية عند البربر على الولاة والخلفاء على السواء مما اوجد مناخا ملائها لانتشار مذهب الخوارج .

ويحاول بعض الدارسين الدفاع عن الخلافة الاموية وتبرئتها من تبعات ما حدث في المغرب من مساوئ ، بالقاء اللوم على الولاة وحدهم . فيذكر دبور (74) ان « سليمان بن عبد الملك انكر على موسى بن نصير سلوكه في المغرب وأنه كان حائقا عليه لمبالغته في السبى وعدم عدله في البربر » . ويمضى الدكتور السيد عبد العزيز سالم (75) في نفس الاتجاه فيقول « . . وكان سليمان بن عبد الملك يستهجن سياسة عبد الله بن موسى القائمة على العنف والتسلط في معاملة البربر . . » ويستشهد بعبارة أوردها الرقيق (76) مدلا بها على نزاهة الخليفة وعدله اذ اوصى واليه الجديد على المغرب بقوله « يا محمد بن يزيد ، اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل » . ويظهر نفس هذا الاتجاه عند الدكتور مؤنس (77) اذ يقول « . . وليس الى الشك سبيل في ان خلفاء بنى امية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبى مسلم

(71) ابن عبد الحكم : ص 292 .

(72) الرقيق : ص 108 البلاذرى : فتوح البلدان ص 223 .

(73) نفس المصدر ص 109 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 ، ابن عذارى : ج 1 ص 52 ، ابن خلدون : ج 4 ص 189 ،

Mercier : Histoire de l'Afrique

septentrionale. vol. I.P. 71, Provençal : Histoire de l'Espagne

Musulmane vol. I.P. 29, Hopkins : Medieval Moslem government.

P. 28.

(74) المغرب الكبير ج 2 صفحة 165 .

(75) المغرب الكبير صفحة 288 .

(76) تاريخ ابريقية والمغرب ص 63 ، النويرى : ج 22 ورقة 13 .

(77) فجر الاندلس ص 145 ، ثورات البربر ص 151 ، 152 .

وبشر بن صفوان في افريقية ، اذ انهم لم يكونوا يعلمون شيئا عن الوسائل التي كانت يلجأ اليها في عسف البربر والاستبداد بهم . ومن دلائل ذلك ان يزيد بن عبد الملك لم يغضب حين علم بقتل البربر يزيد ابن ابي مسلم » (78) .

ونعتقد ان المحدثين قد تأثروا في هذا الصدد برواية لصاحب كتاب اخبار مجموعة في فتح الاندلس تقول « . . . وقد يقول من يطعن على الائمة انهم انما خرجوا ضيقا من سير عمالهم ، وان الخليفة وولده كانوا يكتبون الى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية . . . وهو قول اهل البغض للائمة (يقصد الخوارج) » ومن المعروف ان هذا المؤرخ المجهول يعد الوحيد بين المؤرخين القدامى الذي تصدى للدفاع عن بنى امية . ولا غرابة في ذلك اذا علمنا انه كان اندلسيا يعيش في كنف الدولة الاموية بالاندلس ، وبديهى ان يتعصب لبنى امية ضد اعدائهم .

اما ما ذكره دبور عن حنق سليمان بن عبد الملك على موسى بن نصير لعدم عدله في البربر ، فنقول يؤخذ بحذر . فمن الثابت ان حقه هذا يرجع لاسباب شخصية اوردناها سلفا . ونفس الشيء يقال في تفسير حنق سليمان بن عبد الملك على عبد الله بن موسى ، وليس الحال كما ذكر الدكتور سالم استهجانا لتسلط عبد الله على البربر . فما اورده من دليل في هذا الصدد لا يؤيد ما ساقه ، اذ ان نصيحة الخليفة لواليه الجديد باتباع « الحق والعدل » امر تقليدى اصطلح عليه في تعيين الولاة والعمال . .

وتؤكد الوقائع هذا التفسير ، فقد اسرف الوالى الجديد في اضطهاد اليمنية وتعقب آل موسى بن نصير واتباعهم ومصادرة اموالهم وسبى ذرارهم مرضاة للخليفة (79) .

ولا نشك في ان ولاة المغرب كانوا يمثلون مشيئة الخلافة وينفذون سياستها ، وان الخلفاء درجوا على اختيار عمال ياتهمرون بأمرهم ، والا فما تفسير سنى الاصلاح والعدل التى شهدتها المغرب ابان ولاية اسماعيل ابن عبيد الله ؟ لقد حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى عرف

(78) وقد ذكر الدكتور مؤنس في هذا الصدد قولا آخر هاك نمه : « اعتاد الخلفاء من عمال افريقية كثرة الهدايا والالطاف والابوال ، ولم يستطيعوا الامتناع عن الالحاح على العمال في طلبها . . » راجع لورات البربر ص 144 ، 145 .

(79) ابن عذارى : ج 1 صفحة 47 .

بالورع والتقى على اختيار عماله من العدول الاتقياء ، وكان اسماعيل احدهم . والظلم الذى حاق بالبربر على يد يزيد بن ابي مسلم انما تم تحت سجع الخلافة وبصرها ، فالخليفة يزيد بن عبد الملك عرف بالطمع والجشع وحب المال « الذى جمع له عماله منه ما لم يجمع لاحد من قبل » (80) . ولا غرو فقد كان ممثنا لسياسة عامله في المغرب الذى اشبع له اطماعه فقال فيه عبارته الشهيرة « ما مثلى ومثل الحجاج وابن ابي مسلم بعده الا كرجل ضاع منه درهم فوجد دينارا » (81) . وتسليم الخليفة بما حدث من قتله سنة 102 هـ (721 م) واختيار محمد بن يزيد بدلا منه لا يؤيد وجهة نظر الدكتور مؤنس ، فقد كان عليه أن يسلم بالامر الواقع ريثما تهدأ الخواطر من جراء الآثار السيئة لحكم يزيد في نفوس البربر ، ثم رماهم بعد شهور ببشر بن صفوان الذى انتقم من قتلة يزيد . وبعد موت يزيد بن عبد الملك تولى اخوه هشام الخلافة فأقر بشرا على المغرب لانه « بعث اليه بأموال عظام وهدايا فاخرة » (82) . ولا يخامرنا شك في أن اشتطاط ابن الحبحاب في سياسته المالية بالمغرب كان مرضاة للخليفة ، فقد كان الخلفاء بالشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون في طلبها الى عمال افريقية . ويذكر ابن عذارى (83) انه لما أفضى الامر الى ابن الحبحاب مناهم بالكثير . ويخبرنا ابن خلدون (84) أن الخلفاء كانوا يطالبون الولاة بالوصائف البربريات والاردية العسلية، اللسان وأنواع طرف المغرب ، فكانوا يتغالون في جمع ذلك وانتحاله حتى « كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ولا يوجد منها مع ذلك الا الواحد وما قرب منه » .

ولدينا من الروايات ما تؤكد أن الخليفة رفض السماح لوفد من البربر جاء اليه يشكو جور ابن الحبحاب وعسفه ، وعاد بعد أن تيقن رجاله من تواطؤ الخليفة مع عماله (85) ، وأن الخليفة بسبب جشعه

(80) ملهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 337 . عن صاحب كتاب الصلة الاسباني الذى اكمل تاريخ ايزيدور .

(81) السلاوى : ج 1 صفحة 91 .

(82) اليعقوبى : تاريخه ج 3 صفحة 59 .

(83) البيان المغرب ج 1 صفحة 53 .

(84) المبر ج 6 . صفحة 119 .

(85) الطبرى : ج 4 صفحة 264 .

للحصول على الاموال « هو الذى يكره العمال على امتصاص دم الرعايا » على حد قول فلهوزن (86) . ولعل ما حدث فيما بعد من رفض عبد الرحمن ابن حبيب الازعان لشيئة المنصور قائلا عبارته المتواترة « ان افريقية اليوم اسلامية كلها وقد انقطع السبى منها والمال » (87) ما يشير الى ما كان سائدا في العصر الاموى الاخير من طمع الخلفاء في اموال البربر وسباياهم ، ويؤكد مسؤولية الخلافة الاموية عما كان يقوم به عمالها في بلاد المغرب .

كان الظلم الاجتماعى الذى استشرى في بلاد المغرب اذن من صنع الخلافة وعمالها ، وهو امر ساعد البربر الذين كانوا قد أسلموا واصلح اسلامهم على اعتناق مبادئ الخوارج التى تحض على الثورة على الجائرين من الحكام (88) .

لقد بدا انتشار الاسلام بين البربر منذ وطأت اقدام العرب بلاد المغرب ، وكان لعقبة بن نافع دور بارز في هذا الصدد (89) ، فقد بنى مدينة القيروان سنة 55 هـ (675 م) فدخل كثير من البربر في الاسلام وثبت الاسلام بها (90) وواصل ابو المهاجر سياسة عقبة في نشر الاسلام وتعريب البربر ، وحسبه اكتساب كسيلة وقومه الى الاسلام واتخاذهم حليفا (91) ، كما صالح عجم افريقية وادخلهم حظيرة الاسلام والعروبة (92) .

والى حسان بن النعمان يعزى الفضل في المؤاخاة بين البربر والعرب ، فقد جند من البربر اجنادا وعهد الى ثلاثة عشر فقيها من كبار التابعين بتعليمهم القرآن واصول الاسلام واللغة العربية ، وخدم هؤلاء في الجيش العربى جنبا الى جنب مع العرب المسلمين . ومنذ ذلك الحين اطردت حركة بناء المساجد في سائر أرجاء المغرب (93) ، واصبحت بمثابة مراكز

(86) تاريخ الدولة العربية صفحة 331 .

(87) ابن الاثير : ج 5 صفحة 117 .

(88) البغدادي : الفرق بين الفرق ص 273 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية صفحة 231 .

(89) ابن الاثير : ج 3 صفحة 234 .

(90) نفس المصدر صفحة 235 .

(91) ابن عذارى : ج 1 صفحة 28 .

(92) المالكي : رياض النفوس ج 1 صفحة 21 .

(93) مبيد الله بن صالح : نص جديد عن منتج العرب للمغرب ص 224 ، المالكي :

ص 36 ، الدباغ ج 1 ص 61 .

ثابتة لنشر الاسلام والحضارة العربية بين البربر (94) . أما موسى بن نصير فقد بث الاسلام في بلاد المصامدة (95) وفقه البربر في تلك الانحاء في قواعد الدين واصول الشريعة (96) . كما اشرك البربر المسلمين في فتح الاندلس وجعل لاحدهم قيادة الجيش وهو طارق بن زياد (97) ، وفي ذلك دلالة على رسوخ الاسلام عند البربر وقيامهم بحمل رسالته الى اوربا في اواخر القرن الاول الهجري (98) .

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز تعاضمت حركة اسلام البربر وتعريبهم ، اذ بعث الى المغرب واليه اسماعيل بن عبيد الله ، وجعل برفقته عشرة من كبار الفقهاء لتبصير المغاربة بأصول الاسلام وفروعه وتعليمهم اللغة العربية (99) واستجاب البربر لتعاليم الفقهاء وأقبلوا على الاسلام حتى « غلب على المغرب » (100) « ولم يبق يومئذ من البربر أحد الا أسلم » (101) ، باستثناء جماعات طفيفة العدد متناثرة من المسيحيين الذين ظلوا على دينهم (102) .

وهكذا جرى اسلام البربر وتعريبهم « في سرعة وعمق

(94) نفس المصدر السابق ص 223 ، ابن عذارى ج 1 ص 27 .

(95) ابن عذارى : ج 1 صفحة 43 .

(96) ابن عبد الحكم : صفحة 204 .

(97) مجهول : أخبار مجموعة صفحة 6 .

(98) انظر : حسن ابراهيم : انتشار الاسلام في القارة الانريقية ص 89 — 90 ،

Brunschvig : La Tunisie dans le haut moyen age.

P. 7, Drague : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, P. 17.

حيث يعتقد أولئك المؤرخون أن اسلام البربر كان سطحيًا حتى ذلك الحين .

(99) المالكي : ج 1 ص 67 ، الدباغ : معالم الايمان ج 1 ص 142 ، حسن محمود :

الاسلام والثقافة العربية في افريقية ص 99 .

(100) البلاذري : فتوح البلدان ص 273 ، ابن كثير : البداية والنهاية ج 9 ص 185 ،

النويري : ج 22 ورقة 14 .

(101) ابن عبد الحكم : ص 87 ، الرقيق : ص 297 ، الدباغ : ج 1 ص 154 .

ابن خلدون : ج 4 ص 188 ، السلاوي : ج 1 ص 90 .

(102) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص 31 ،

Marcais : La Berberie musulmane. P. 36.

وقد زعم بعض المستشرقين أن عمر بن عبد العزيز خير مسيحي المغرب بين الدخول في الاسلام أو الرحيل عن البلاد ، فأقر بعضهم اعتناق الاسلام بينما رحل البعض الآخر الى اوربا . انظر :

Bonte : l'Islamisme et le christianisme en Afrique. P. 72.

وقد أنكر البعض الآخر هذا التجنى « نعم لم يكره النصراني على اعتناق الاسلام مهددا اياهم بالطرد والقتل ، وذلك لانه كان مسلما حقا متمسكا بما ورد في الشريعة الاسلامية في معاملة أهل الذمة ، وليس من المعتول أن يتجاهل أو يخرج عن هذه الشريعة » . انظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 289 ،

Mercier : Histoire de Constantine. P. 86.

وشمول « (103) على عكس دعاوى بعض المستشرقين (104) الذين ذهبوا الى ان حركة التعريب لم تسير انتشار الاسلام في المغرب ، وان البربر لم يتعلموا العربية الا في وقت متأخر .

ووجد البربر المسلمون تناقضا صارخا بين تعاليم الاسلام ومبادئه بما تنطوى عليه من عدل ومساواة وبين سياسة الامويين الاواخر الجائرة ، فاقبلوا على اعتناق مذهب الخوارج وهو في جوهره مذهب « ثوري ديمقراطي اشتراكي » على حد تعبير ميور (105) .

وليس الى الشك سبيل في ان مبادئ الخوارج بما تنطوى عليه من تمسك بالشريعة في جانبها العقائدي (106) ، وثورية في قوامها السياسي وبساطة ووضوح في جوانبها الفكرية ، وجدت مناخا ملائما في ظروف المغرب الاسلامي وطبيعة سكانه .

فاذا كانت الديمقراطية هي محور مذهب الخوارج وقوامه على اعتبار ان الامامة حق متاح لكل مسلم (107) ، فبديهى ان يلتقى ذلك المذهب قبولا لدى البربر الذين طال حرمانهم من المساواة مع العنصر العربي الحاكم . ومن الطبيعي ان تتولد لديهم نزعة ثومية مغربية تتطلع لازاحة نفوذ الاقلية العربية عن مكان الصدارة والحكم في اطار شرعى يكفله الدين ، ولما كان مذهب الخوارج يقول بالثورة على الجائرين من الحكام (108) فقد وجد البربر في اعتناقه مبررا لانتفاضهم على الحكم العربى .

وبمعنى آخر ، اكتسبت نزعة الاستقلال عند البربر — بفضل مذهب الخوارج — طابعا ثوريا دينيا (109) ، فالتقى البربر مع الخوارج في موقفهم من عدو مشترك ممثل في السلطة الاموية .

Brunschvig : Op. Cit. P. 7.

(103)

(104) انظر

Marçais, W : Comment L'Afrique du Nord à été arabisée. P. 3, Hudas : Essai sur l'écriture Maghrébine, P. 86, Marçais, G : La Berberie Musulmane, P. 41.

The caliphate, its rise, decline and Fall : P. 407.

(105)

(106) انظر : ابو زكريا : السيرة ورفعة 8 مخطوط ،

Smith : The Ibadites. P. 279.

(107) الاسمرائيلي : التبصير في الدين ص 46 .

(108) البغدادي : الفرق بين النرق ص 273 .

(109) حسن مجبود : الاسلام والثقافة العربية ص 164 ،

Vonderheyden : La Berberie Orientale. P. 4.

ومفضلاً عن ذلك فإن وضوح فكر الخوارج والتزامه بظاهر الدين وعدم ميله للفلسفة والتأويل (110) جعله يتلاءم مع عقلية البربر (111). وبعبارة أخرى كان فكر الخوارج متسقاً مع طبيعة البربر المعروفين «باقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله» (112). ومن مظاهر هذا الاتساق أيضاً أن صفات الصلابة والقوة ممثلة في قول الخوارج بالاستعراض ورفض التقية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (113) يقابلها عند البربر شدة المراس وقوة البأس والميل الغريزي للتطرف (114).

وهكذا كانت مبادئ الخوارج متوائمة مع طباع البربر النظرية ومتمشية مع أهدافهم السياسية ونزعتهم القومية. وهو ما عبر عنه السلاوي (115) في إيجاز رائع بقوله: «... وحسن موقعها (يعني مبادئ الخوارج) لديهم بسبب ما كانوا يعانون منه من وطأة الخلافة القرشية، وجور بعض عمالها، فلقتهم أهل البدع أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية بل ولا العربية... ودسوا اليهم مع ذلك بعض تشديدات الخوارج وتعمقاتهم، وأروهم ما هم عليه من التصلب في دينهم، فظهر للبربر ببادئ الرأي أن تعمقهم ذلك إنما هو من آثار الخشية لله والخوف منه، وأن ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعاً...»

قصارى القول — ساعدت أحوال بلاد المغرب في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني على نزوح الخوارج المضطهدين في المشرق إلى بلاد المغرب (116) لنشر دعوتهم بين البربر وتحقيق ما فشلوا فيه من قبل من أهداف.

(110) انظر: الرازي: اعتقادات فرق المسلمين ص 40 وما بعدها، أحمد أمين: ضحى الإسلام ج 3 ص 335.

(111) صاعد الاندلسي: طبقات الأمم ص 12، ابن زيدان: أتحاف أعلام الناس ج 1 صفحة 72 - 73، Dozy: Op.cit. P. 131.

(112) ابن خلدون: ج 6 ص 105، Smith: Op. Cit. P. 279، ولذلك طلق عليهم دوزي «كلائنة الإسلام» ودي بوا «بيوريتان الإسلام» Spanish Islam. P. 130, Le Djebel Nefousa. P. 137.

(113) انظر: الاسفرائيني: التبصير في الدين ص 142 وما بعدها، (114) صاعد الاندلسي: طبقات الأمم ص 12، Cam. Med. hist. Vol. 2 P. 376, Draguge: Op. Cit. P. 23.

(115) الاستقصا ج 1 صفحة 123، (116) ابن خلدون: المعبر ج 5 ص 11،

Le Tourneau: La revolte, d'Abou-Yazid. P. 105 Mercier: Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale. P. 70.

انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب

كان فشل الخوارج في المشرق في تحقيق أهدافهم سببه أن حركاتهم كانت تقتصر على التنظيم السياسي (117) ، وتعتمد على القيام بثورات هوجاء دون تنظيم أو اعداد سابق (118) مما سهل على الخلافة الاموية وولاتها مهمة مناهضتها واستئصال شأفتها أولا بأول . وبانتهاء القرن الأول الهجري اختلت فرقتا الازارقة والنجدات وهما من أهم فرق الخوارج . وكان من الطبيعي أن تلجأ فرقتا الصفرية والاباضية الى أسلوب مغاير

(117) ما يقال عن الاتفاق السري بين ثلاثة من الخوارج لافتيال على معاوية ومرو بن العاص لا ينفي صحة ما ذهبنا اليه . فهو تأمر انتمائي لا يخدم أهدافا بعيدة للخوارج . وأسلوب التأمر السري ليس تيارا أصيلا في فكر الخوارج السياسي بل انه « لا يتفق مع عادات الخوارج » على حد قول بعض الدارسين . راجع : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 98 ،

Hitti : History of the Arabs. P. 182.

(118) تخالف ما ذهب اليه الدكتورة سهر القلماوي في تفسيرها اختلاف الخوارج على نافع بن الأزرق وظهور فرق الازارقة والنجدات والصفرية والاباضية بأنه خطة محكمة من الخوارج للهجوم على الدولة الاموية التي كانت تحتاز اذ ذاك أزمة خطيرة فیتجه فريق منهم الى الشمال وآخر الى الجنوب لتكوين خط هجوم شرقي يمتد من الجزيرة شمالا الى اليمامة والبحرين جنوبا ، بينما يتوغل فريق ثالث في فارس لاتخاذها ملجأ ساعة الشدة . انظر : أدب الخوارج في العصر الاموي ص 35 . والواقع أن المصادر لا تشير الى شيء من هذا البتة ، والذي يلهم من الروايات أن ما حدث كان محض خلاف فقهي انتهى الى انشقاق مذهبي وسياسي في جماعة الخوارج . ولم يحدث قط ثمة تعاون مشترك بين هذه الفرق في صراعها مع الدولة الاموية .

عن ظهور فرق الخوارج راجع ، الاسفرائينى : التبصير في الدين ص 49 وما بعدها ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 2 ص 191 وما بعدها ، البيهقي : الاعلام بالحروب الواقعة في صدر الاسلام ج 2 ص 169 - مخطوط .

ثمومه تنظيم الدعوة السرية وبث الدعاة في أطراف العالم الاسلامي
لنشر تعاليم المذهب ، فاذا ما ازداد الانتصار عددا وائسوا من انفسهم
قدرة على الثورة بادروا بالخروج .

كانت بلاد المغرب اهم اقاليم الاطراف التي اتجهت اليها جهود
دعاة الخوارج العراقيين (119) فمتى تم ذلك ؟ واي فرق المذهب قدر
لها ان تنتشر في البلاد ؟

لا نستطيع ان نحدد في وضوح تاريخ بدء دعوة الخوارج بالمغرب
بسبب تضارب الروايات واختلاطها ، فابن حوقل (120) يرجع بداية
الدعوة الى معركة النهروان سنة 38 هـ (658 م) فيذكر ان « عبد الله بن
وهيب الراسبي وعبد الله بن اباض لجأ الى جبل نفوسة منذ وقت
انصرافهم عن امير المؤمنين علي بن ابي طالب بمن سلم معهم من اهل
النهروان . . . واقاموا هذا الجبل دار هجرة » لكن المعروف ان الراسبي
قتل في النهروان (121) ، كما ان ابن اباض لم يرد له ذكر بين من نجوا
من القتل في المعركة (122) ، الامر الذي يشكك في صحة هذه الرواية .
ليس ببعيد ان يكون بعض من فروا بعد معركة النهروان قد اعتصموا
بجبل نفوسة ، لكنهم لم يتركوا هناك اثرا يذكر . لكن الظهور الحقيقي
لمذهب الخوارج في بلاد المغرب يعود الى اواخر القرن الاول ، واوائل
القرن الثاني الهجريين (123) .

اما عن فرق الخوارج التي انتشرت ببلاد المغرب ، فانه
قد اخلط امر تحديدها على بعض المحدثين الذين ارخوا للخوارج في
المغرب ، اذ زعم بعضهم (124) ان البلاد شهدت انتشار فرق الخوارج
جميعها ، وتشكك البعض (125) الآخر في وجود فرقتي الإباضية والصفورية

(119) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 110 .

(120) المسالك والممالك ص 68 .

(121) المسعودي : مروج الذهب ج 2 ص 417 .

(122) نفس المصدر والصحيفة ، ابن خلدون : العبر ج 3 ص 142 .

(123) ابن خلدون : ج 6 ص 110 ، السلاوي : ج 1 ص 123 ، عنان : دولة الاسلام

في الاندلس ج 1 ص 116 .

(124) انظر :

Basset : Recherches sur la religion des Berberes. P. 331,

الطاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص 118 .

Dozy : Op. Cit. P. 131.

(125) انظر :

ومؤنس : فجر الاندلس ص 148 ، ثورات البربر ص 154 — 155 .

على أساس « أن مبادئ الفرقتين ليست مما يجذب البربر ، فهما أكثر فرق الخوارج ميلا للمسالمة والتسامح مع المخالفين » ، علما بأن الصفرية من أكثر فرق الخوارج تطرفا ، لا ننكر أنهم اتخذوا موقفا وسطا بين الازارقة المسرفين في التطرف والاباضية المعتدلين (126) لكن ثوراتهم اتسمت بالقسوة والعنف سواء في المشرق أو المغرب ، فلم يكونوا أقل حدة من الازارقة في هذه الناحية (127) .

ونعتقد أن من أشرت اليهم من المؤرخين المحدثين انما تأثروا بقول صاحب كتاب أخبار مجموعة (128) ، « فما بال التحكيم فشا فيهم ورفع المصاحف وحلق الرؤوس اقتداء بالازارقة وأهل النهروان » . لكن الذى نؤكد أن الازارقة قضى عليهم نهائيا بعد قتل قائديهما تطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال سنة 77 هـ (696 م) على يد المهلب بن أبى صفرة واختلفوا نهائيا بعدئذ من مسرح السياسة (129) أما النجدات ، فقد فتك عمر بن عبيد الله بن معمر قائد عبد الملك بن مروان بزعيمهم أبى فديك سنة 72 هـ (691 م) وقتل معه ستة آلاف من أصحابه بالبحرين ، فتضايل شأنهم بعد ذلك (130) .

معنى هذا أن فرقتين فقط من فرق الخوارج الكبرى ظهرتنا ظهورا واضحا في أحداث بلاد المغرب وهما فرقة الصفرية ، وفرقة الاباضية ، فما تاريخ ظهور الفرقتين ؟ ؟

ينتسب الخوارج الصفرية الى عبد الله بن الصفار (131) ، وان كانت كتب الفرق (132) ترجع بهذا النسب الى شخص يقال له زياد بن

(126) الشهرستاني : الملل والنحل ص 121 — 123 ، ذكر جولييان أنه اذا كان الازارقة يمثلون اليسار المتطرف في مذهب الخوارج والاباضية اليمين ، فان الصفرية يمثلون اليسار . بينما يشبه جوتييه الاباضية بالمونشيكي والصفرية بالبولشفيكي . انظر : Histoire de l'Afrique du Nord. P. 329. Les Siècles obscurs. P. 269,

Gautier : Loc. Cit. (127)

عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج 2 ص 288 .

(128) صفحة 32 .

(129) الطبرى : ج 6 ص 308 ، ابن خلدون : ج 3 ص 161 ، الاسفرائينى : ص 51 ، البغدادي : ص 87 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة ص 109 .

(130) ابن الاثير : ج 4 ص 140 ، البغدادي : ص 90 .

(131) البلاذرى : انساب الاشراف ج 11 ص 83 .

(132) انظر : السرايى : ص 51 ، الاسفرائينى : ص 52 ، البغدادي : ص 90 ، الشهرستاني : ص 123 .

الاصفر . وأيا ما كان الامر فلا محل لتصديق روايات أخرى ترجع تسميتهم لصفرة وجوههم من كثرة العبادة (133) ، أو لانهم أخرجوا من الدين صفرا (134) فكثرة العبادة من صفات الخوارج عموما وليست حكرا على الصفرية ، كما أن التفسير الثانى من نسج فقيه اباضى معاد للصفرية . ولا صحة للقول الذى ينسبهم الى المهلب بن ابي صفرة (135) أعدى اعداء الخوارج . ولا يمكن ان نقبل الروايات التى تنسبهم الى عبد الله بن وهب الراسبى وحرقوق بن زهير أو أبى بلال مرادس (136) ، فلم يكن الخوارج قد افترقوا بعد الى فرقتهم المعروفة ، بل أطلق عليهم اذ ذاك « المحكمة الاولى » (137) انما ظهر الصفرية حين خالف عبد الله بن الصغار نافعا بن الازرق حول مسألة التعدة سنة 65 هـ (684 م) وهو خلاف فقهى بالدرجة الاولى (138) اتخذوا فيه موقفا وسطا بين الازارقة المتطرفين والاباضية المعتدلين ، « فلم يكفروا التعدة عن القتال اذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقاد » (139) .

والواقع ان عقائد الصفرية تمثل تطورا عمليا ملحوظا فى فكر الخوارج وعقائدهم ، اذ تجنح الى التخفيف من غلواء التطرف الذى افضى بحركاتهم الى الفشل من قبل فهم لم يسقطوا الرحم ولم يحكموا بقتل اطفال المشركين وتكفيرهم كالازارقة ، كما نادوا بجواز التقية فى القول دون العمل (140) ، واجاز بعض زعمائهم تزويج المسلمات من كفار قومهم فى دار التقية (141) . وقد كفل لهم ذلك معاشة الجماعة الاسلامية بدلا من اشهار عدائهم لها ، الامر الذى اتاح لهم القدرة على الدعوة السرية المنظمة ، وحقق لمذهبهم الانتشار . لكنهم كانوا اكثر تطرفا من الاباضية فى موقفهم من مرتكبى الكبائر ومن ثم من مسألة « الكفر والايمان » ، فبينما رأى الاباضية أنهم موحدون قال الصفرية بتكفيرهم . (142) وفى ذلك تفسير لنزعة القسوة والعنف التى

(133) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج 1 ص 216 .

(134) السوفى : شرح السؤالات ورقة 114 . مخطوط .

(135) ابن تغرى بردى : ج 1 ص 289 .

(136) البيرد : الكامل ج 3 ص 1006 .

(137) البغدادى : صفحة 91 .

(138) ليلى ديلانيدا : مادة الصفرية — دائرة المعارف الاسلامية ص 229 .

(139) الشهرستانى : صفحة 123 .

(140) الرازى : صفحة 51 .

(141) المرجع السابق صفحة 122 .

(142) نفس المصدر ص 121 .

لازمت سياسة الصفرية في معاملة أعدائهم .

وعلى كل حال — استفاد الصفرية من اخطاء الازارقة والنجدات ومن كان قبلهم من المحكمة الاولى ، فثريثوا قبل دخولهم معترك الحياة السياسية ، فلم نسمع عن حركات لهم قبل ثورة صالح بن مسرح ضد الامويين سنة 76 هـ (143) (695 م) . كما امتازت ثوراتهم بالتركيز على منطقة الموصل والجزيرة وديار بكر ، واتخذوها مقرا تتجمع فيه قواتهم لتتجه في اعداد كبيرة نحو البصرة والكوفة ، وقد سقطت الكوفة نفسها في ايديهم مرتين الاولى ابان ثورة شبيب سنة 77 هـ (144) (696 م) والثانية اثناء ثورة بسطام بن يشكر المعروف بشوذب سنة 100 هـ (145) (718 م) ، الامر الذي يؤكد ان حركاتهم كانت تهدف الى اقامة دولة للخوارج

ان التطور الجديد في فكر الخوارج الصفرية بتجويز مبدأ التقية ، والاتجاه العملي في حركاتهم بالشرق (146) يؤكد جنوحهم الى أسلوب الدعوة السرية المنظمة في المغرب . لا ننكر ان هذه الناحية اكثر وضوحا عند الاباضية بسبب وفرة المادة التاريخية المتعلقة بهم ، لكن تاريخ الصفرية لا يخلو من اشارات تؤكد الاتجاه الذي اشرت اليه ، هذا الاتجاه الذي يتجلى في جهود دعائهم في نشر مذهبهم ببلاد المغرب .

تذكر المصادر الاباضية (147) ان « أول من جاء بطلب مذهب الاباضية ونحن بقيروان افريقية سلمة بن سعيد قال ، قدم علينا من ارض البصرة ومعه عكرمة مولى ابن عباس على بعير ، سلمة يدعو الى مذهب الاباضية وعكرمة يدعو الى مذهب الصفرية » .

معنى هذا ان القيروان كانت مركز الدعوة في المغرب (148) ، لكننا لا نعرف

(143) الطبري : ج 6 صفحة 215 .

(144) من حركة شبيب بن يزيد الشيباني انظر : الطبري : ج 6 ص 223 وما بعدها .

(145) من حركة شوذب راجع : الطبري : ج 6 ص 556 وما بعدها .

(146) هذه الحركات هي : ثورة بهلول بن بشر الشيباني بالموصل سنة 119 . انظر : ابن الاثير : ج 5 ص 77 وما بعدها .

ثورة الصحاري بن شبيب سنة 119 هـ . انظر : الطبري ج 7 ص 137 وما بعدها

ثورة الضحاك بن قيس الشيباني : انظر : ابن قتيبة : المعارف ص 412 .

ثورة الخبير الصفري سنة 128 هـ . انظر الطبري : ج 7 ص 347 .

ثورة شيبان بن عبد العزيز سنة 129 هـ . وهي آخر ثورات الصفرية في العصر الاموي انظر : الطبري : ج 7 ص 349 .

(147) أبو زكريا : السيرة ورقة 2 . مخطوط ، الدرجيني : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 6 مخطوط .

على وجه الدقة متى حضر عكرمة — رأس دعاة الصفرية — الى افريقية .
والراجع انه وصلها خلال السنوات الخمس الاولى من القرن الثاني
الهجرى (149) .

كان عكرمة هذا من اصل مغربى (150) ، وكان من موالى ابن
عباس الفقيه ذائع الصيت وقد اتاح له ذلك مخالطة كبار الفقهاء والمحدثين
كأبى هريرة والسيدة عائشة ، فسمع منهم وأخذ عنهم حتى أضحى من
الأعلام الثقات فى الفقه والحديث (151) ثم أخذ بالمذهب الصفرى وصار
من فحول فقهائه . ومن الغريب ألا نجد له ذكرا فى حركات الصفرية فى
شمال العراق ، وقد يفهم من ذلك انه مال الى تعاليم الصفرية فى وقت
متأخر . وقد عهد اليه بنشر المذهب فى بلاد المغرب بعد اتجاه الخوارج
الصفرية الى اتباع أسلوب التنظيم والدعوة .

ولا يستفاد من النص السابق أن الصفرية والإباضية التاما فى نظام
واحد أو أن دعائهما تلازما فى نشر تعاليمهما ، فلم نقف على ما يشير الى
مثل هذا العمل المشترك فى الجهود التى قاموا بها بين البربر . بل ان كلا
من الجماعتين اختطت لنفسها طريقا خاصا ، ولم تتورعا عن التنافس
والصراع الذى انتهى باقتتالهما فى بعض الاحيان . كما أن دعاة الفرقة
الإباضية اتجهوا الى الاقاليم الشرقية من بلاد المغرب بينما اتجهت الدعوة
الصفرية الى قبائل المغرب الاقصى (152) .

على كل حال نزل عكرمة بالقيروان حيث أمكنه الاتصال برؤساء
القبائل من أمثال ميسرة المطبرى — زعيم مطفرة — الذى تلقى العلم على
يديه مختفيا ، فقد اشتغل بالسقاية فى سوق القيروان حتى لا يكتشف أمره .
وعلى الرغم من كونه سيدا لعصبية لها خطرها لم يتورع عن الاشتغال
بذلك المهنة امعانا فى التستر والحيطة . وقد تسنى له بذلك أخذ تعاليم
المذهب عن عكرمة ، ثم عاد فنشرها بين قومه من بربر مطفرة (153) .

(148) ابن خلدون : ج 7 ص 11 ،

Marçais : La Berberie Musulmane, P. 48.

(149) العينى : عقد الجمان ج 11 قسم 3 ورقة 46 — مخطوط .

Fournel ; Les Berbers. Vol I. P. 352.

(150) نفس المصدر والصحيفة

(151) البرد : الكامل ج 3 ص 949 ، العينى : المرجع السابق ورقة 464 ، دبور :

Fournel : Op. Cit. P. 352.

المغرب الكبير ج 2 ص 279 ،

(152) ابن خلدون : المبر ج 7 ص 11 .

(153) نفس المصدر ج 6 ص 118 .

كما اتصل أبو القاسم سمكو بن واسول شيخ مكناسة بعكرمة في القيروان (154) كذلك وليس بالشرق كما اعتقد البعض (155) . ولأزمه حتى موته في سنة 105 هـ (723 م) أو سنة 107 هـ (725 م) حسبما يرجح (156)، وتبحر في أصول المذهب وفروعه حتى وصف بأنه من « مشاهير حملة العلم » (157) ، وبأنه « مقدم الصفرية » (158) بعد وفاة عكرمة . واستطاع أبو القاسم نشر المذهب بين قومه من مكناسة ، ثم اتجه نحو المناطق الصحراوية الجنوبية لبث الدعوة فيها ، وعمد — شأنه شأن ميسرة — الى اتباع أسلوب التستر والتخفى ، فرحل الى واحة تافيلت — وهى ملتقى القبائل الرعوية جنوبى المغرب الاقصى — وتظاهر بتربية قطعان الماشية وعكف على بث تعاليم المذهب بين الرعاة حتى تحولت خيمته الى مجمع للخوارج الصفرية في تلك النواحي (159) .

ولم يقتصر انتشار المذهب الصفرى على بربر مطفرة ومكناسة ، ذلك أن بربر برغواطة اعتنقوا هذا المذهب في وقت مبكر على يد طريف ابن شمعون الذى لقي عكرمة بالقيروان كذلك (160) . واذا كانوا قد نخلوا عنه بعد ذلك واتبعوا تعاليم صالح بن طريف (161) ، فلا يمكن اغفال دورهم البارز في ثورة الصفرية الكبرى بالمغرب الاقصى التى تزعمها مسيرة المطفرى سنة 121 هـ (739 م) .

-
- (154) ابن خلدون : ج 6 ص 105 ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس ج 1 ص 76 .
 (155) مجهول : نبذ تاريخية ص 60 ، القلقشندي : صبح الامشى ج 5 ص 165 .
 (156) العيني : عقد الجمان ج 11 قسم 3 ورقة 464 .
 (157) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 105 .
 (158) الشطيبى : الجمان في اخبار الزمان ورقة 203 — مخطوط .
 (159) البكرى : المغرب ص 149 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 ،
 Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

- (160) ابن خلدون : ج 6 ص 107 .
 (161) تسكن برغواطة اقليم تامسنا بالمغرب الاقصى وأهم مدنه سلا وآزهور وآفلى وآسلى ، وكان زعيمها طريف بن شمعون من تواد ميسرة ، وقد اختلف في نسبه فيما اذا كان مصبوديا أو يهوديا أو يمينيا وعلى كل حال — فقد خلفه بعد موته ابنه صالح الذى تزندق وشرع ديانة جديدة ، وأظهر قرانا جديدا وتسمى « بصالح المؤمنين » ولم يقدر لتعاليمه الانتشار في حياته ، فقد غادر البلاد الى المشرق ، وادعى انه المهدي المنتظر وكان قد أعد ابنه الياس للقيام بأمر دعوته بعد أن لقنه أسرارها ونقحه بأصولها . وقد نشأت الدعوة في عهد الياس ، وحاول الادارسة القضاء عليها الا انها ظلت قائمة حتى عصر الموحدين . راجع : ابن عذارى : ج 1 ص 61 ، ابن خلدون : ج 6 ص 207 ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 118 ، البومياشى : الريف بعد الفتح الاسلامى ص 15 ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 417 ،
 Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol. I. P. 238.

والراجع أن ميسرة كان على صلة وطيدة بطريف بن شمعون « القائم بدعوة الصفرية » (162) في برغواطة قبل تقلده زعامة الحركة (163) ، فلما قام بثورته أزروه ووقفوا الى جانبه، لكنهم ما لبثوا أن انسحبوا من الحركة الصفرية حين نحى ميسرة عن زعامتها ، فانحازوا الى دعوة صالح بن طريف .

وانتشر المذهب الصفرى أيضا في زناتة « فقد ضرب بنو يفرن فيه بسهم وانتحلوه » (164) ، كما أقبلت بعض بطونها في المغرب الأدنى على اعتناقه وساهمت في حركات الصفرية بعد ذلك بصورة محدودة .

ولم يقتصر انتشاره على البربر وحدهم بل تعداهم الى العناصر الأخرى ، فبعض العرب المقيمين بأفريقية دانوا بالمذهب الصفرى وقد تسرب هؤلاء الى المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق ، حتي ذاع عن بعض الولاة اعتناقهم هذا المذهب أو على الأقل تعاطفهم مع معتنقيه (165) فقد اتهم يزيد بن أبى مسلم بأنه من الخوارج الصفرية (166) ، وإن كان لم يستطع الجهر بذلك خوفا وتقية حتى قيل بأنه « يعلم الحق ويكتمه » (167) .

كما انتشر المذهب الصفرى بين جماعات الافارقة ، وهم اصلا من البربر الذين اختلطوا بالروم ودخلوا في خدمتهم واعتنقوا ديانتهم أو من الاجانب المستوطنين الذين طال وجودهم في بلاد المغرب حتى أصبحوا افارقة (168) . وهؤلاء كان لهم نمط خاص في حياتهم باعتبارهم أكثر تحضرا من سكان البلاد الأصليين وكانت لهم لهجتهم الخاصة التي لا يعرفها غيرهم (169) . وقد أقبلوا على اعتناق الاسلام رغبة منهم في الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية المرموقة ، لكن الولاة الامويين الاواخر عاملوهم معاملة

(162) ابن خلدون : ج 6 صفحة 107 .

(163) عبيد الله بن صالح : نص جديد ص 224 ،

Marçais, G : La Berberie Musulmane. P. 48.

(164) ابن خلدون : ج 7 ص 11 ،

Masqueray : Chronique d'Abou Zakaria. P. LxxIII

(165) ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 70 ،

Le Tourneau : Op. Cit. P. 439.

(166) المبرد : الكامل ج 3 ص 949 .

(167) نفس المصدر صفحة 968 .

(168) حسن محمود : انتشار الاسلام ج 1 ص 167 .

(169) البكرى : المغرب صفحة 6 .

البربر ، فلما انتشر المذهب الصفري بين بربر المغرب الاقصى لم يحجم الافارقة عن اعتناقه ، فقد تلقاه زعيمهم عبد الاعلى بن جريج عن عكرمة بالقيروان ثم نشره بين قومه (170) . وحسبنا دليلا على ذلك اشتراك الافارقة في ثورة مسيرة سنة 121 هـ (739 م) وتقليده عبد الاعلى واليا من قبله على طنجة بعد فتحها (171) .

وامتدت تعاليم الصفرية كذلك عن طريق ابي القاسم سمكو بسن واسول الى جماعات السودان القاطنين جنوبى الصحراء . فمن المعروف ان قوافل التجارة بين بلاد المغرب وبلاد السودان كانت تمر عبر واحة تافيللت حيث اقام ابو القاسم واخذ يعمل على نشر المذهب الصفري . وكانت جماعات منهم تقطن هذه الواحة وتعمل في التجارة عبر الصحراء . وقد رحب هؤلاء بمبادئ الخوارج لما تنطوى عليه من مساواة دون اعتبار للعنصر او اللون . ووجد ابو القاسم سمكو فيهم اتباعا مخلصين فالتفوا حوله واعتنقوا مذهبه . واخذت جموعهم تند وتستقر في اقليم تافيللت بصفة دائمة بعد اعناقهم المذهب الصفري ، وليس ادل على ذلك انه ما ان شرع الصفرية في اقامة دولتهم بسجلماسة سنة 140 هـ (757 م) حتى اختاروا اول ائمتهم من السودان وهو عيسى بن يزيد الاسود (172) .

وهكذا تغلغل المذهب الصفري في سائر ارجاء المغرب الاقصى وبعض نواحي افريقية والمغرب الادنى بين البربر والعرب والافارقة والسودان على السواء . ولعل هذا الانتشار السريع وشموله كافة الاجناس والعناصر الموجودة ببلاد المغرب وتسربه حتى جنوبى افريقية هو الذى حدا بابن خلدون (173) الى القول بأن « الصفرية قد فشلت مقاتلتها في سائر القبائل بافريقية » « وصار لهم فيها عدد كثير وشوكة قوية » على حد قول النسويى (174) .

أما المذهب الاباضى فينسب الى عبد الله بن اباض المرى

(170) السلاوى : ج 1 صفحة 97 .

(171) ابن عبد الحكم ص 293 ، ابن عذارى : ج 1 ص 52 .

(172) البكرى : المغرب ص 149 ،

Journal : Op. Cit. Vol. 2. P. 22.

(173) المبرج ج 4 ص 189 .

(174) نهاية العرب ج 22 ورقة 150 .

التميمى (175) ، وان كان بعض مؤرخى الاباضية ينكرون ذلك (176) .
ويجمع المؤرخون (177) على ان المذهب الاباضى ظهر - شأنه شأن
الصفيرية والنجدات والازارقة - سنة 64 هـ (683 م) عندما خالف عبد الله
ابن اباض نافع بن الازرق فى تفكيره القعدة عن القتال واتخذ بذلك
موقفا معتدلا .

والواقع ان الاعتدال هو السبة الواضحة لعقائد الاباضية ، اذ
انهم يحرمون دماء المسلمين وسبى ذراريهم وغنيمة أموالهم (178) . كما
انهم اعتبروا دور مخالفيهم دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار
بغى (179) . واجازوا مناكحتهم وموارثتهم وغنيمة أموالهم من السلاح
والكراع عند الحرب ، وحرموا قتلهم وسبيهم فى السر غيلة الا بعد نصب
القتال واقامة الحجة (180) . وقالوا فى مرتكبى الكبائر انهم موحدون ،
وان كفروا كفر النعمة لا كفر الملة . وتوقفوا فى اطفال المشركين وجوزوا
تعذيبهم على سبيل الانتقام . ولعل طابع الاعتدال فى عقائد الاباضية هذه
هو ما جعلهم اقرب فرق الخوارج الى اهل السنة (181) .

والملاحظ ان الاباضية - كالصفيرية - بدأوا حركاتهم السياسية فى
وقت متأخر . فقد خرج عبد الله بن اباض على مروان بن محمد (182)
آخر خلفاء بنى أمية ، فوجه اليه عبد الله بن محمد بن عطية فقاتله بقبالة
وهزمه وقتله (183) معنى هذا ان ابن اباض لم يقدم على الثورة على اثر
انفصاله عن نافع بن الازرق سنة 64 هـ (683 م) انما اثر التريث حيث
وجد فى عصر مروان بن محمد الحافل بالاضطرابات فرصة مواتية للخروج .
لكن مثله وقتله دفع أتباعه الى اتباع أسلوب العمل فى الكتمان ونشر

-
- (175) ابن قتيبة : المعارف ص 622 ، ابن رسة : الاملاق النفيسة ص 217 ، مجهول :
قطعة من كتاب فى الاديان والفرق ورقة 97 - مخطوط .
(176) انظر : أبو زكريا ورقة 8 ، 11 ، Masqueray : Op. Cit. P. xxx
(177) الطبرى : ج 6 ص 320 ، البغدادي : ص 105 .
(178) السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 - مخطوط ، أبو غانم الصيرى : مدونه ،
ورقة 43 - مخطوط .
(179) البغدادي : صفحة 106 .
(180) الاسفرائينى : التبصير فى الدين ص 28 .
(181) الشهرستاني : الملل والنحل ص 122 .
(182) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ص 51 .
(183) نفس المصدر والمحيبة ، الشهرستاني : ص 121 .

الدعوة في الاطراف ، في خراسان (184) وجنوبى الجزيرة العربية (185) والمغرب .

وكانت البصرة مركزا للدعوة ، ومنها كان الدعاة — الذين عرفوا بحملة العلم — يتوجهون الى الامصار بعد تلقيهم اصول الدعوة على ايدي فقهاء المذهب وشيوخه . والمعروف ان انصار المذهب بالبصرة كانوا يمارسون مهامهم في طى السرية والكتمان ، فكانت مجالسهم في سراديب تحت الارض . وامعانا في التخفى « كان يجلس امام باب السرداب رجل يعمل القفاف وعلى فمه سلسلة يحركها اذا ما رأى شخصا مقبلا لينبهه من الداخل الى التزام الصمت ريثما يمر من يشتهه في أمره » (186) . وغالبا ما كانت هذه المجالس تقام في بيوت النسوة العجائز منعا للشبهة (187) ، بل ان روادها كانوا يتنكرون في ملابس النساء (188) .

وتطلق المصادر الاباضية على هذه المجالس اسم « الحلقة » (189) .

(184) من دعاة الاباضية في خراسان محبوب بن الرحيل وبشر بن النير وهاشم بن عيلان . واذا كان الغموض يكتنف مصير هؤلاء الدعاة ، فالذى لا شك فيه ان جهودهم في نشر الدعوة بخراسان باءت بالنشل . انظر : اقليش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب ص 115 .

(185) كذلك لا نعلم شيئا عن جهود دعاة الاباضية . وكانوا اربعة — (اقليش : الامكان ص 110) في ميان (Masqueray : Op. Cit. P. XLII) لكن احدهم ويدعى ابا حبة المختار بن عوف — وكان يدمو لامامة ابي عبد الله بن يحيى الكندى المعروف بطالب الحق — نجح في مهنته (المسمودى : ج 3 ص 257) . وكان نائب الصلة بجماعة الاباضية في البصرة الذين اسدوه بالمشورة والنصائح الى جانب الاموال والسلاح (مجهول : كشف الغبة ورقة 307 مخطوط) وانتشرت الدعوة لطالب الحق في ميان ، وخطوب بامير المؤمنين ، ثم دخل صنعاء ودانت له اعمالها (ابن تيمزى بردى : ج 1 ص 309) .

كما تمكن ابو حبة من دخول المدينة المنورة سنة 130 هـ بعد هرب واليها الاموى الى الشام (الطبرى : ج 7 ص 394) ، وبطش بمن خالفه من اهلها (ابن الاثير : ج 5 ص 140) ، وخطب على منبر جامعها لطالب الحق (انظر نص الخطاب في كتاب العقد النريد لابن عبد ربه ص 144 — 147) . وظل بها ثلاثة شهور غادرها بعدها الى بلاد الشام لكن مروان بن محمد بعث تائده محمد بن عطية السعدى على رأس جيش للقائه ، وتمكن محمد بن عطية من هزيمة ابي حبة وقتله في معركة وادى القرى سنة 130 هـ (ابن الاثير : ج 5 ص 146) . وواصل الجيش الاموى زحفه الى المدينة ، ومنها توجه الى اليمن حيث هزم طالب الحق وقتل الكثيرين من رجاله بناحية الطائف ، وفر بقية الخوارج الى خضر موت حيث تحصنوا بها . (انظر : المسمودى : ج 3 ص 258 ، سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ص 129) .

(186) ابو زكريا : ورقة 5 ، الشهاخى : السير ص 124 .

(187) الشهاخى : نفس المصدر ص 108 ، 109 .

(188) الدرجنى : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 107 — مخطوط .

(189) من حلقات الاباضية في مصور متأخرة راجع : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 106 — 112 — مخطوط .

ولمبها يتلقى الاتباع الاصول والفروع والسير (190) والتوحيد والشريعة وآراء الفرق الى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (191) . هذا فضلا عن تبصيرهم بفنون الحكم ، واساليب السياسة ، واعدادهم لتقلد المناصب والاضطلاع بأعبائها في مرحلة الظهور (192) . وبعد ذلك يرحلون الى الامصار يدعون للمذهب ثم يشرعون في « المجاهرة بالعمل » (193) اذا ما توافر لهم « ما يوجب به التولية عليهم من العدة والعدد من الرجال » (194) .

ويرجع الفضل في تنظيم اسلوب الدعوة الاباضية الى جابر بن زيد الذي حظى بمنزلة عالية عند الاباضية حتى اعتبره بعضهم (195) اول الائمة . لكن الاجل لم يمتد به ليشهد نجاح جهوده ، فقد توفي سنة 96 هـ (196) (725 م) وخلفه أحد تلاميذته ويدعى أبا عبيدة مسلم بن أبي كريمة (197) الذي قيل انه ظل يتلقى العلم اربعين عاما وبعدها نصب نفسه لتعليمه (198) . ومن هنا كانت شهرته الواسعة بتعمقه في العلوم على اختلافها (199) . فكان ندا لاعلام المعتزلة كواصل بن عطاء ، وكان يحاورهم ويجادلهم (200) . وقد سجن زمن الحجاج ، وأخرج عنه بعد موته ليتصدى لتنظيم جماعة الاباضية في البصرة خلفا لجابر بن زيد . وساعده في ذلك كبار اعوانه من أمثال أبي نوح ، وأبي مودود حاجب والربيع بن حبيب (201) وفي عهده ارتفع شأن الدعوة واشتد ساعدها ، فقد تسنى له جمع الكثير من الاموال وتمكن من شراء الاسلحة ليستعين

-
- (190) الدرجيني : المرجع السابق ورقة 3 .
(191) البرادى : المرجع السابق ورقة 106 ، Masqueray : Op. Cit. P. IxL.
(192) أبو زكريا : ورقة 6 ، الشماخي : السير ص 124 .
(193) جيهول : كشف الغمة ورقة 307 - مخطوط .
(194) أبو زكريا : السيرة ورقة 5 .
(195) الورجلاني : ج 2 ص 72 ، دبوز : ج 2 ص 138 ، 408 ، على يحيى معمر : الاباضية صفحة 21 .
(196) أخطأ البرادى حين ذكر انه توفى سنة 193 هـ . راجع : الجواهر المنتفاة ورقة 79 .
(197) الدرجيني : ج 1 ورقة 102 ، Masqueray : Op. Cit. P. 8
(198) اطفيش : الامكان ص 113 .
(199) الشماخي : السير صفحة 83 .
(200) الدرجيني : ج 1 ورقة 105 .
(201) نفس المصدر ورقة 107 .

بها دعائه في الولايات على « إقامة دين الله » (202) .

وليس من شك في أن بلاد المغرب ظفرت من أبى عبيدة باهتمام كبير (203) ، إذ كانت ميدانا خصبا لنشر المذهب ، فبعث بداعيته سلمة ابن سعيد في بداية القرن الثاني الهجري لنشر الدعوة الاباضية بين المغاربة . وتجمع مصادر الاباضية (204) على حماس سلمة الشديد في نشر المذهب حتى انه « كان يتمنى ظهوره يوما واحدا ويموت في آخره » . ويبدو انه اتخذ من بلاد المغرب الأدنى ميدانا لنشاطه حيث استطاع ان يكسب انصارا في اقليم طرابلس وجبل نفوسة (205) . ولم يمتد به الاجل طويلا فحل محله أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الذي تتلمذ على أبى عبيدة بالبصرة (206) ، واشتهر « بشدة الشكيمة وقوة العريكة » (207) . وفي أيامه تم انتشار المذهب بين بربر نفوسة في مستهل القرن الثاني الهجري (208) . ومنذ ذلك الحين أصبح جبل نفوسة « دار هجرة » للمذهب الاباضى في بلاد المغرب (209) .

وكان رسوخ قدم المذهب الاباضى في جبل نفوسة سببا في انتشاره

(202) الشماخى : السير ص 115 . وقد أورد الشماخى مثالا على ذلك نعه انه « لما خرج الامام عبد الله بن يحيى وأبو حمزة ، جمع لهما أموالا كثيرة يعينهما بها . وكتب على كل مؤسر من المسلمين قدر ما يرى ، فما امتنع عليه أحد . ودعا أبا طاهر — وكان شيخا ناضلا — وقال له : عليك بالنساء وأوساط الناس ، فانا لكبره . ان نكتب عليهم ما لا يحملون . فانطلق أبو طاهر فبين انطلق معه من المسلمين ، فلم يأتوا امرأة ولا رجلا الا وجدوه مسارعا فبها سألوه . . فلم يمس الليل حتى جمع أبو طاهر عشرة آلاف درهم . فأخبروا حاجبا ، فسر بذلك فقال : ان في الناس لبقية بعد ، فاشترى بترك الاموال سلاحا لوجهه ، ووجه ما بقى » . انظر : السير صفحة 114 .

(203) بالفت المصادر الاباضية في ايراد كثير من الاحاديث المصطنعة والاثوال الماثورة من كبار الصحابة في فضائل البربر ، وما سيتم على أيديهم من العودة بالاسلام الى اصوله الصحيحة . وعلى الرض مما يكتنف هذه الروايات من طابع أسطوري فلها دلالاتها على مواتاة ظروف بلاد المغرب لنشر دعوة الخوارج . انظر : أبو زكريا ورقة 2 وما بعدها ، الدرجينى : ج 1 ورقة 7 وما بعدها .

(204) أبو زكريا : ورقة 2 ، الشماخى : السير ص 98 ، السوى : شرح بالسؤالات ورقة 147 .

(205) الدرجينى : ج 1 ورقة 6 .

(206) الوسيانى : سير أبى الربيع ورقة 80 — مخطوط ،

Lewcki : Etudes, Ibadites, P. 39.

(207) الشماخى : السير صفحة 144 .

(208) الوسيانى : ورقة 79 ، الدرجينى : ج 2 ورقة 140 ، ابن مقديش : نزهة الاظار ص 40 ، السلاوى : ج 1 ص 123 ،

(209) ابن حوقل : المسالك والممالك صفحة 68 .

بين القبائل الاخرى مثل هوارة ولماية وزناتة وسدارته وزواغة ولواتة (210) اما مطماطة ، فلم تعتنق المذهب الا في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم (211) .

على كل حال — فان انتشار المذهب الاباضي على هذا النحو بين كثير من قبائل المغربيين الادنى والاوسط كان في حاجة الى مزيد من التبصير بتعاليم المذهب واصوله الفقهية ، وحسب سلمة بن سعيد وابن مغيطر انها كسبا الانصار وبثا الدعوة بين القبائل . ولذلك تم اختيار ممثلين عن الجهات التي انتشر فيها المذهب للتوجه الى البصرة لمزيد من الدرس ، فاختير عاصم السدراتي من غرب الاوراس ، وابو داود القبلي النفزاوي من نفزاوه جنوبي افريقية ، واسماعيل بن درار من غدامس جنوبي طرابلس وانضم اليهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان (212) . وتوجه هؤلاء الذين عرفوا « بحملة العلم » الى البصرة حيث ظلوا في صحبة ابي عبيدة مسلم خمس سنوات (213) يتلقون العلم على يديه ويعدون العدة للظهور ويتعلمون اصول الحكم وفنونه .

وجدير بالذكر ان ابا عبيدة اشار عليهم بأحد اتباعه من العرب ويدعى ابو الخطاب عبد الاعلى بن السمع المغانمي (214) ليتولى « امامة الظهور » اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . كما أعد اسماعيل بن درار الغدامسي لتولى القضاء ، فعلمه اصول الفقه والافتاء (215) . واوصاهم بمداومة الاتصال به واستفتائه فيما يعين لهم من مسائل واخباره بنشاطهم اولا بأول (216) .

وعاد « حملة العلم » الى المغرب ، وواصلوا جهودهم في تثبيت دعائم المذهب ولما اشتد ساعدتهم عقدوا العزم على اعلان امامة الظهور

(210) ابن خلدون : ج 6 ص 120 ، 121 ، Biquet : Histoire de l'Afrique septentrionale. P. 41.

(211) الجريسي : مؤنس الاحبة صفحة 46 .

(212) ابو زكريا : ورقة 5 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 9 ، الشماخي : السير ص 124 ، اطفيش بعض تواريخ اهل وادي ميزاب ص 188 .

(213) نفس المصادر والصحف ، اطفيش : كتاب الامكان ص 112 ، دبور : ج 3 ص 194 . واذا ما علمنا ان البعثة عادت الى المغرب سنة 140 هـ . فيكون رحيلهم الى البصرة حدث سنة 135 هـ . انظر : Lewcki : Etudes, P. 27.

(214) قيل انه كان من قواد الجند العربي بطرابلس انظر : حسن حسني عبد الوهاب ورقات من الحضارة العربية ج 1 ص 425 .

(215) ابو زكريا : ورقة 5 ، الشماخي : السير ص 124 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 10 .

(216) ابن ابي كريمة : رسالة في احكام الزكاة ورقة 114 — مخطوط .

سنة 140 هـ (757 م) .

هكذا أصبحت بلاد المغرب معقلا لنشاط الخوارج بعد انتشار المذهب الصفري بين بربر المغرب الأقصى وبعض نواحي المغرب الأوسط ، والاباضي في المغربين الأدنى والأوسط (217) . وبدأ الخوارج حثبة

(217) من المفيد أن نعرض لنظرية شائعة في تفسير انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب ، تربط بين هذا المذهب وبين نجلة الدونانية المسيحية . وهذه النظرية منسوبة الى المؤرخ جوتييه ، ونقلها عنه سائر مؤرخي المغرب الفرنسيين وبأدى ذى بدء نقرر أن جوتييه لم يكن أول من قال بهذه الفكرة ، انما سبقه اليها أميسل ماسكراي في مقدمته لكتاب السيرة لابي زكريا الذي صدر بالجزائر سنة 1878 م . فهو القائل بأن « الخارجية كالدونانية تعد انقساماً دينياً وليست زندقية » وأن « مذهب الخوارج يشترك مع الدونانية في التعبير عن روح الاستقلال عند البربر » واليه يعزى الفضل في الربط بين مذهب الخوارج في المغرب بشقيه الاباضي المعتدل والصفري المتطرف وبين الدونانية المعتدلة والسركونسليونية المتطرفة كذلك . انظر : (Masqueray : Op. Cit. P. Ixviii, Lxxii).

وعلى هذه الخطوط نسج جوتييه نظريته تلك التي ضمنها كتابه عن المغرب في المصور الوسطى الذي صدر بباريس سنة 1927 . وأهم ملامح هذه النظرية ما يلي :
1 - اشتراك الخوارج والدونانيين في عديد من الصفات كالملاحة والالتزام الصارم باصول العقيدة والتطرف والزهو والتسليم بالقضاء والقدر والاستشهاد في سبيل المذهب .

2 - ينطلق فكر كل من المذهبين من معين واحد هو نزعة الدين الشديدة الفطرية عند البربر .

3 - أن البربر اعتنقوا مذهب الخوارج - كما ذكر ابن خلدون - كسلاح يناوئون به الحكام ، وهو نفس ما حدث بالنسبة لاعتنائهم المذهب الدوناني .

4 - ومن ثم ، فالمعادل الديني في كلتي الحركتين أمر ثانوي بالقياس الى المعزى السياسى والاجتماعى الذى يتمثل في تحقيق الديمقراطية كهدف سياسى والعدالة ك مطلب اجتماعى .

5 - وينتهي جوتييه - كما انتهى ماسكراي - الى أن مذهب الخوارج عند البربر امتداد للدونانية « بعد أن خلعت لبوسها المسيحى لتتشج بثياب اسلامية » (راجع : (Gautier : Le Siècles obscurs. P. P. 626, 63, 64.

وانبرى جبهة مؤرخي المغرب الفرنسيين للدفاع عن هذه النظرية وتصدوا لدعمها . فيرونسال يركز في دعمه على توافق جوهر عقائد الخوارج والدونانيين مع طبائع البربر وصفاتهم الفطرية (انظر . Histoire de l'Espagne Musulmane Vol. I. P. 42. وجورج مارسيه يؤكد أن اعتناق البربر للمذهبين وسيلة لا غاية ، فكلاهما « أمد البربر بالحائز الخلقى لتبرير ثورتهم على الحكام ، وكما هزت الدونانية وحدة الكنيسة الامريقية ، كانت الخارجية عند البربر نوعاً من الهزعة القومية التى شكلت خطراً على مستقبل الاسلام في بلاد المغرب » .

راجع . La Berberie Musulmane et l'Orient. P. 140. وفي نفس الاتجاه يعضى مرسية فيقول « ان عبارة لا حكم الا لله لها عند الخوارج - وكذلك الدونانيين - دلالة على اعلان الحرب السياسية » .

انظر : Histoire de Constantine. P. 86 اما بارسيه فيركز على المعزى الاجتماعى للحركتين اذ انهما « ما قامتا لمجرد خلاف في الراى حول تفسير للمعتقدات ، بل لاشعال حرب اجتماعية تحت رايات دينية

(Recherches sur la religion des Berberes. P. 331.

جديدة في تاريخ البلاد حيث عمت الثورات كافة ربوعها ، وهو ما سنفصله
في الباب الثانى .

= ويشاركه جوليان نفس الرأى فيقول « . . وكما كانت الدوناتية وسيلة لوضع حد لانتهازية الكاثوليك ، وتحالف الحكام الرومان مع كبار الملاك ورجال الدين ، كان مذهب الخوارج في المغرب سلاح البربر في نضال هذه القوى ومظهرا من مظاهر مقت الأجانب ، وتعبيرا عن السخط والحقد على السلطة القائمة » .

Histoire de L'Afrique du Nord. P. 328.

انظر :

ومن المفيد أن نعترف في ايجاز بحركة الدوناتية في بلاد المغرب ، وتتلخص في أن دونات Donat أسقف نوميديا رفض الاعتراف باختيار سيسيليان Cicilianus أسقفا لقرطاجنة سنة 311 م . وكان مهمت رفضه أن التساوسة الذين اختاروه لهذا المنصب كانوا من المشكوك في ولائهم للمعقيدة بعد اقدمهم على تسليم الكتب الدينية والاولانى المقدسة الى السلطة الامبراطورية على اثر اغتيال الامبراطور ديكوليتيان Diocletien أنظر : Gautier : Op. Cit. P. 261 . وقد آزرت الكنيسة والسلطات الرومانية سيسيليان ، بينما ناصر البربر — وخاصة الطبقات الفقيرة منهم — دونات ضد أعدائه

(Bonet : L'Islamisme et le christianisme. P. 59).

ثم حدث انشقاق داخل الحزب الدوناتى ، فظل دونات على رأس المعتدلين بينما تزعم سيركونسليون جناح المتطرفين ونحا بالحركة منحى اجتماعيا فقام بالأغاره على املاء الاغنياء والاستيلاء عليها تحقيقا لبدا العدالة والمساواة . انظر :

مبارك الميلى : تاريخ الجزائر ج 1 ص 254 ، Bonet : Op. Cit. P. 60

وقد تعرض هؤلاء واولئك للاضطهاد الشديد طوال القرن الرابع الميلادى ، الامر الذى جعلهم يقدمون على التعاون مع الواندال لغزو افريقية وتحريرهم من الكنيسة الارثوذكسية والسلطات الرومانية (بوفيل : الممالك الاسلامية ص 77 Bonet : loc. cit, ومع تسليينا بوجهة نظرية جوتييه الى حد كبير ، نعتقد أنها تنطوى على شىء من

البالفة حين يزعم صاحبها أن مذهب الخوارج امتداد للدوناتية .

وحسبنا أن البربر الذين ناصروا الدوناتية لم يمتد بهم الاجل — بداهة — للالتفاف حول دعاة الخوارج ، وما حدث لا يعدو أن يكون محض تشابه في ظروف بلاد المغرب السياسية والاجتماعية والدينية التى ظهرت ابانها حركتان متباعدتان لا تمت أى منهما للآخرى بصلة . فاذا كانت الدوناتية ذات طابع مغربى صرف بمعنى أنها نشأت في بلاد المغرب ، ونسجت من واقع ظروفه ، فان مذهب الخوارج ظهر في الشرق الاسلامى ثم وفد الى بلاد المغرب كسائر المذاهب الاسلامية الاخرى الامر الذى ينفى وجود رباط فكرى مشترك كان فيه مذهب الخوارج متأثرا بعقائد الدوناتية . ومن ناحية اخرى ، فان ما ساقته جوتييه من حجج وقرائن دلل بها على هذه الصلة كصفات الاقدام والزهدي والصلابة . . الخ انها هى صفات مميزة للبربر عموما في كل العصور وليست حكرا على معتنقى المذهبين فحسب .

وكذلك التقابل بين جناحى المعتدلين وجناحى المتطرفين في كل من المذهبين نجد له مثيلا في سائر المذاهب الدينية والسياسية .

ومع ذلك تظل للمقارنة بين الدوناتية والخارجية في المغرب دلالتها على أن الحركات الدينية أو المذهبية ليست مجرد خلاصات عقائدية فحسب انها تنطوى على دوافع اجتماعية يلعب العامل الاقتصادى فيها دورا فعلا ومؤثرا .

الباب الثاني

تورات الخوارج في بلاد المغرب
في عصر الولاة

انتهينا الى أن مذهب الخوارج بشقيه الصفري والاباضي انتشر انتشارا واسعا في بلاد المغرب حتى صار للخوارج « عدد كثير وشوكة قوية » (1) . وقد سبق أن أوضحنا ما أوصى به رؤساء المذهب في الشرق دعائهم في الغرب « بالظهور » بعد اتمام الدعوة ان استطاعوا الى ذلك سبيلا . ومرحلة الظهور هذه تعنى « الثورة على أئمة الجور » (2) حسبما تعنيه مبادئ الخوارج وتحض عليه ، وإن اعتبرت تمردا « وتطاولا » (3) في نظر الخلافة وعمالها في بلاد المغرب .

والواقع أن ظروف المغرب كانت مواتية لاندلاع ثورات الخوارج سنة 121 هـ (739 م) بعد تفاقم مشاكل البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب . فعلى الرغم مما عرف به من دربة ودراية بفنون الحكم والسياسة (4) كانت سياسته في بلاد المغرب « سببا لانتفاض البلاد ووقوع الفتن العظيمة » كما ذكر ابن عذاري (5) . ففى عهده احتدت الخصومات القبلية بين القيسية واليمانية ، ولما كان قيسيا ، فقد لاقى العرب اليمانية على يديه عنقا واضطهادا شديدا (6) . وولى على طنجة وما والاها عمر بن عبد الله المرادى ، « فأساء السيرة وتعدى في الصدقات والقسم ، وأراد أن يخمس البربر ، وزعم أنهم فئء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله » (7) كما عهد الى

-
- (1) الرقيق : ص 109 ،
 (2) البغدادي : ص 273 ،
 (3) ابن خلدون : المعبر ج 6 ص 111 ،
 (4) ذكر الرقيق عن عبد الله بن أبي حسان اليمصبي عن أبيه قال « رأيت عبيد الله بن الحبحاب يوما ينظر في دفتر العطاء ، ويلقى رسالة ، ويأمر بحاجات في ناحية أخرى ، ويأمر في خلال ذلك بالحكم بين رجلين متنازعين » .
 انظر : تاريخ إفريقية والمغرب ص 107 .
 (5) البيان المغرب ج 1 صفحة 52 .
 (6) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .
 (7) الرقيق : صفحة 109 .

ابنه اسماعيل بولاية السوس الاقصى ، فاستبد بالبربر هناك ، وكثر عبثه بنسائهم ، وجوره على أموالهم (8) . ولا شك أن ابن الحبحاب كان راضيا عن سيرة عماله ، فقد كان عليه أن يفى بوعوده للخليفة هشام بن عبد الملك بارسال المزيد من الاموال والسبايا (9) مما يجلبه هؤلاء العمال . ولعل حرصه على ذلك يفسر عهده الى حبيب بن أبى عبيدة بقيادة حملة ضخمة جابت بلاد المغرب حتى اقصاها . واصابت من السبى والذهب امرا عظيما ، وبثت الرعب والفرع في تلك الانحاء (10) .

وقد اتخذ ابن الحبحاب من البربر أداة لخدمة اطماعه خارج بلاد المغرب فرمى بهم في الحملات التي انفذها الى سردينية وصقلية (11) ، الامر الذي زاد في كراهيتهم للحكم العربى وتصميمهم على الثورة . وقد ساعد على ذلك غياب معظم الجيش العربى الافريقى خارج البلاد ففى الحملة التي قادها حبيب بن أبى عبيدة على صقلية سنة 121 هـ (739 م) (12) ، وانشغال الخلافة الاموية اذ ذاك بمشاكل الحكم (13) ، وبعد بلاد المغرب الاقصى عن مقر الولاية بالقيروان . لذلك كانت الظروف مواتية تماما لبربر المغرب الاقصى الذين اعتنقوا المذهب الصفرى لاعلان الثورة « والظهور » وهو ما عبر عنه ابن خلدون (14) بقوله « .. ان الخارجية حين رسخت في البربر عروق من غرائسها تطاول البربر الى الفتك بأمر العرب » .

(8) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 240 .

(9) ابن عذارى : ج 1 ص 53 .

(10) الرتيق : صفحة 108 .

(11) نفس المصدر ص 109 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(12) الرتيق : صفحة 109 .

(13) الحميدى : جذوة المقتبس صفحة 8 .

(14) العبر : ج 6 صفحة 111 .

أولاً :

نُورَات الخَوَارِج الصَفَرِيَّة

انتهينا الى أن المذهب الصفري انتشر بين قبائل المغرب الأقصى كمطغرة ومكناسة وزناتة وبرغواطة وعنصرى الامارقة والسودان . كما امتد نفوذه الى بعض جهات المغربين الادنسى والاوسط — وان كانت السيادة فيها للمذهب الاباضى عن طريق القبائل البدوية دائمة الترحال مثل هواره وزناتة . ونظرا لمواتة ظروف الخوارج فى المغرب الاقصى لقيام الثورة ، ولغلبة المذهب الصفري وسيادته بين قبائله ، كان الخوارج الصفرية سابقين الى تخطى مرحلة الدعوة الى « مرحلة الظهور » وعلان الثورة (15) بينما شغل الاباضية اذ ذاك باتمام نشر المذهب وتفقيهه معتنقيه وارسال بعوثهم الى البصرة للاعداد لمرحلة الثورة . وعلى ذلك فلا محل لتصديق الرواية المتواترة (16) القائلة بانضواء خوارج المغرب اباضية وصفرية تحت لواء ميسرة المطغرى فى ثورة عام 121 هـ ، فتلك بلا شك كانت ثورة صفرية خالصة .

والروايات تختلف حول اصل ميسرة قائد الثورة ، فتذهب

(15) بنرد ابن خلدون برواية تنص على اغتيال الخوارج ليزيد بن ابي مسلم سنة 103 هـ والواقع انه قتل نتيجة للخصومات بين القيسية والبهنية وليس على يد الخوارج . فلم يكونوا قد قاموا بعد بثوراتهم على ولاية القيروان .
انظر : المعبر ج 6 صفحة 108 .

(16) انظر : اخبار مجموعة صفحة 28 .

بعضها (17) الى انه من أصل عربي وتنسبه الى قبيلة الازد ، بينما تؤكد الأخرى (18) — وهى الأرجح — انتماءه الى قبيلة مطفرة من البربر . كما اختلفت أيضا حول كنيته ، فقليل ميسرة الحقي (19) أو الخفير (20) وقيل الفقير (21) ، ويخيل إلينا أن ذلك من نسج خصومه تحقيرا لشأنه ، أو لما عرف عن اشتغاله بالسقاية في سوق القيوان (22) . والذي لا شك فيه أن ميسرة كان سيد قومه وشيخ قبيلته ، فابن خلدون (23) — العالم بأنساب البربر — يدعوه « رئيس مطفرة » والسلاوى (24) يصفه بأنه « مقدم الصفرية » . وما اشتغاله بالسقاية الا بقصد التستر والتمويه على الخصوم حينما كان يتلقى أصول المذهب الصفري على عركة مولى ابن عباس في القيوان ، ولما تتيحه مهنة السقاية من سهولة الاتصال بالاتباع والانتصار دون اثاره لشكوك الخصوم .

وقد سبق التعريف بدور ميسرة في نشر المذهب الصفري بين قبيلته مطفرة ، ويبدو أن دعاة المذهب في المغرب أجمعوا على زعامته بعد موت عكرمة مولى ابن عباس ، فتخبرنا المراجع أن مكناسة آزرتة واشتركت في ثورته (25) ، كما انضوى الانارقة بزعامه عبد الأعلى بن جريح تحت لوائه (26) ، وكذلك فعلت برغواطة وزعيمها طريف (27) ، وقد اتخذ ميسرة من ابنه صالح ناصحا ومشييرا (28) . وهكذا تسنى له توحيد القبائل الصفرية في كافة ربوع المغرب الاقصى تحت زعامته (29) .

ويخبرنا الطبرى (30) أن ميسرة تزعم وفدا من البربر رحل به الى الشام ليشكو للخليفة هشام بن عبد الملك جور عماله ، وان جوهر

-
- (17) ابن تيمزي بردى : ج 1 ص 289 ، الطاهر الزاوى : تاريخ النج العربى ص 125 .
(18) ابن عبد الحكم : ص 293 ، الرقيق : ص 109 .
(19) ابن عذارى : ج 1 صفحة 52 .
(20) دبور : المغرب الكبير .
(21) ابن عبد الحكم : صفحة 293 .
(22) ابن اوطية : صفحة 40 .
(23) العبر ج 6 صفحة 150 .
(24) الاستقصا ج 1 صفحة 97 .
(25) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292 .
(26) ابن عبد الحكم ص 293 ، ابن عذارى ج 1 ص 52 .
(27) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 207 ، Bel : Op. Cit. P. 175 .
(28) ابن الخطيب اعمال الإعلام ج 3 ص 181 .
(29) ابن الاثير : ج 5 ص 70 ، حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ص 14 .
(30) تاريخ الرسل والملوك ج 4 ص 224 ، فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 331 .

الشكوى يكمن في حرمانهم من غنائم الحروب التي خاضوها في حملات ابن الحبحاب رغم حسن بلائهم ، وحيف عماله بهم بنهب أموالهم وسبى بناتهم . ونعتقد أن الهدف الحقيقي هو الوقوف على مسؤولية الخلافة عن سياسة عمالها في المغرب واخذ الحجة عليها تبريرا لقيامهم بالثورة حسبما ينص عليه مبدأ الخوارج في « الثورة على ائمة الجور » (31) وهو ما ذكره الطبري بأن الجماعة أرادت أن تعرف « اعن رأى أمير المؤمنين هذا أم لا . » على كل حال ، حيل بين الوفد وبين لقاء الخليفة ، وادرك ميسرة وجماعته أن الخلافة متواطئة مع عمالها فيما يحدث بالمغرب من ظلم وجور ، وعقدوا العزم على الثورة .

بويغ ميسرة بالامامة على اثر عودته (32) وزحف بجموع الصفرية الى طنجة ففتحها وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادي (33) ، وعين عبد الأعلى بن جريج الافريقى واليا عليها (34) . واتجه بعد ذلك الى السوس فدانث له بعد أن قتل اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب (35) . وتمت له السيطرة على المغرب الاقصى واقتطاعه عن نفوذ القيروان بعد وقائع صغيرة بلغت من الكثرة ما جعل المؤرخون يعزفون عن سردها . وقد وصفها ابن عذارى (36) بأنها « وقائع يطول ذكرها » . ومما سهل من مهمته أن القبائل الموالية له كفته مؤونة افتتاح سائر أجزاء البلاد « فهب كل قوم من البربر على من يليهم ، فقتلوا وطردها » (37) ، بينما اتجه بنفسه الى مقر الولاية في افريقية (38) .

وقد بادر ابن الحبحاب بمواجهة خطر الصفرية ، فبعث بما لديه من

(31) البغدادي : صفحة 273 .

(32) ابن عبد الحكم : ص 293 ، اخبار مجموعة ص 28 .
ورد عند بعض المؤرخين أن البيعة تمت بعد قيام الثورة ، فابن الاثير ذكر أن ميسرة بويغ بالامامة بعد الاستيلاء على طنجة وقد أخذ عنه الانتصاري روايته ، أما الدكتور مؤنس فذكر أنه بويغ بعد انتصاره على جيش خالد النهري . انظر : الكامل ج 5 ص 70 ، المنهل المذنب ص 59 ، ثورات البربر في افريقية والاندلس ص 169 .

(33) الرقيق صفحة 109 .

(34) ابن عذارى : ج 2 صفحة 52 .

(35) نفس المصدر والمصحفة .

(36) البيان المغرب ج 1 صفحة 52 .

(37) اخبار مجموعة صفحة 29 .

(38) نفس المصدر والمصحفة .

جند بقيادة خالد بن أبى حبيب الفهرى (39) ليحول دون وصول ميسرة الى القيروان . كما أسرع فى استدعاء حبيب بن أبى عبيدة وجيشه الذى كان قد أنفذه الى صقلية (40) وأمره بالتوجه فى اثر خالد بن أبى حبيب . وعبر خالد بجيشه وادى شلف — وهو نهر بمقربة تاهرت — والتقى بميسرة على مقربة من طنجة . أما جيش صقلية الذى وصل على الاثر فقد رابط عند مجاز النهر (41) .

واقترل خالد وميسرة قتالا شديدا ، انصرف بعده ميسرة السى طنجة (42) ، والراجح انه هزم فى تلك المعركة ، والا فما الداعى لانسحابه ولجؤه الى الدفاع بعد الهجوم (43) ؟ لعل ذلك كان سببا فى تنحيته عن القيادة واختيار الصفرية خالد بن حميد الزناتى ليحل محله (44) .

على كل حال — لجأ خالد الزناتى الى الحيلة ، فقسم جيشه قسمين واجه أحدهما جيش خالد الفهرى بينما قام الآخر بحركة التفاف من خلفه ليعوق اتصاله بجيش حبيب بن أبى عبيدة الم رابط عند مجاز وادى شلف (45) ، وليحول بين جيش خالد الفهرى وبين الهرب . وبذلك وقع جيش الفهرى فى « كمين البربر » كما ذكر ابن الاثير (46) وكانت النتيجة ان قضى عليه برمته قضاء مبرما (47) . وقتل فى المعركة « حماة العرب وفرسانها وكماتها وابطالها » فسميت من ثم « معركة الاشراف » (48) .

(39) ابن عبد الحكم : ص 293 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 . أما ابن الاثير فيسميه خالد ابن حبيب الفهرى . انظر : الكامل ج 5 ص 69 . وعند السلاوى خالد بن حميد الفهرى انظر : الاستقصا ج 1 ص 97 .

(40) الرقيق : صفحة 109 .

(41) ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(42) نفس المصدرين والصفحتين .

(43) يخالف بذلك ابن عبد الحكم الذى ذكر ان مسيرة انتصر فى هذه المعركة ثم اقمى عن القيادة التى تولاهها عبد الملك بن قطن المحاربى . وما ينهض على خطأ تلك الرواية من أساسها ان عبد الملك بن قطن كان من ولاية الاندلس وليس من ثوار الخوارج انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 294 ، ابن عذارى : ج 1 ص 55 .

(44) ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير ج 5 ص 69 .

(45) الرقيق : ص 110 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 .

(46) الكامل ج 5 صفحة 69 .

(47) الرقيق ص 111 ، ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن عذارى : ج 1 ص 54 ، ابن الاثير : ج 5 ص 69 .

(48) نفس المصادر والصفحات ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .

أما حبيب بن أبي عبيدة فقد لاذ بتلمسان حيث علم بتواطؤ واليهما موسى بن أبي خالد مع الصفرية ، فعاقبه بقطع أطرافه (49) .

وأُسفرت هزيمة الاشراف عن تمرد العرب بالقيروان على واليها عبيد الله بن الحبحاب وتنحيته عن الولاية (50) . وصادف ذلك هوى في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك فبعث في استدعائه ، فقفل اليه في جمادى الاولى من عام 123 هـ (741 م) (51) .

وقد غضب الخليفة (52) لما حل بالعرب في موقعة الاشراف ، فبعث جيشا ضخما بقيادة كلثوم بن عياض القشيري (53) الى المغرب وجعله على ولاية افريقية (54) . كما عهد الى بلج بن بشر بالامر من بعده ، فان قتل تولاه ثعلبة بن سلامة العاملي (55) . وبلغ جيش كلثوم ثلاثين الفا من اهل الشام ومصر — عشرة آلاف من بنى امية وعشرون الفا من بيوتات (56) العرب — فضلا عن انضم اليه من المتطوعة وجند افريقية وعدتهم اربعين الفا (57) . وامده بالادلء والمرشدين من امثال مغيث مولى الوليد بن عبد الملك وهرون القرني لخبرتهما بمسالك المغرب وطبائع البربر (58) . كما اناح له سلطات واسعة وحرية في العمل بما يتناسب وجسامة ما عهد اليه من مهمة استرداد نفوذ الخلافة « فأباح له الاباحات ووضع له الاطوياء » (59) .

(49) ابن عبد الحكم : صفحة 294 .

(50) ابن عذارى : ج 1 صفحة 55 .

(51) الرقيق : ص 11 ، ابن عبد الحكم : ص 294 .

(52) عبر الخليفة عن غضبه بقوله : « .. والله لاغضبني لهم غضبة عربية ، ولابعثن لهم جيشا اوله عندهم وآخره عندي . ثم لا تركت حصن بربرى الا جعلت الى جانبه خيمة تيسى او يمنى » انظر : الرقيق : ص 111 .

(53) اخبار مجموعة ص 30 ، ابن القوطية : ص 41 ، ويسميه ابن عبد الحكم كلثوم بن عياض القيسى ، وكذلك ابن القوطية . اما فلهوزن فيرى انه كلثوم بن عياض القسرى انظر : فتوح مصر والمغرب ص 294 ، تاريخ افتتاح الاندلس ص 40 ، تاريخ الدولة العربية صفحة 332 .

(54) يخطئ سكوت حين يذكر ان بلج بن بشر هو الذى عهد اليه بالولاية :
انظر : History : of the Moorish Empire in Europe. Vol. I. P. 313.

(55) اخبار مجموعة ص 30 ، ابن القوطية ص 41 .

(56) ابن القوطية : صفحة 41 .

(57) اخبار مجموعة ص 31 ، السلاوى : ج 1 ص 98 ، القسرى : ج 4 ص 19 ،
Scott : Op. Cit. P. 313.

(58) اخبار مجموعة صفحة 31 .

(59) نفس المصدر والمحنة .

وبالرغم من ذلك كله ، كانت عوامل الضعف في جيش كلثوم تنذر بالفشل والهزيمة ، فقد افترق الى النظام والالفة بين عناصره من قيسية ويمينية ومتطوعة وأموية (60) . وكانت قيادته للقيسية (61) ، كما كان قائده طاعنا في السن قليل الهيبة ، في حين كان بلج بن بشر مقدم الخيل صلفا (62) ، فثارت الخصومات القبلية وتصدع الجيش العربي قبل التقائه بالثوار من البربر الصفرية . واحتدم الصراع بين كلثوم وحبيب ابن أبي عبيدة شيخ اليمينية بالمغرب ، ولم يتصالحا الا على مضض حين توجهها لقتال الصفرية (63) بقيادة خالد بن حميد الزناتي (64) عند وادي نهر سبو (65) في موضع يقال له بقدورة (66) .

فلم يلبث الخلاف أن دب بينهما حول أسلوب القتال ، إذ اعرض كلثوم عن مشورة حبيب بن أبي عبيدة بمقاتلة الصفرية « الرجال بالرجال » والخيال بالخيال (67) . كما أهمل بلج بن بشر نصيحة هرون القرني ومغيث باحتواء الرجالة وراء الخنادق والكراديس في الوقت الذي يلتف فيه الخيالة خلف صفوف الصفرية لمهاجمة قراهم وذرايعهم ، وأصر على النزال وجها لوجه استهانة بهم لقلّة ما لديهم من

(60) الباجي المسعودي : الخلاصة النقية ص 14 .

(61) أخبار مجموعة صفحة 36 .

(62) الرقيق ص 112 ، ابن عذارى : ج 1 ص 56 ، ابن الأثير : ج 5 ص 70 .

(63) اشتط كلثوم وبلج — وهما من القيسية — في معاملة عرب المغرب من اليمينية وزعيمهم إذ ذاك حبيب بن أبي عبيدة . فقد أنف كلثوم النزول بالقيروان ونزل في بلدة سببية على مقربة منها . وأمر أهل القيروان بإخلاء منازلهم لجنده . فاستجاروا بحبيب بن أبي عبيدة وكان يتلمسان . فبعث الى كلثوم يابره بالرحيل عن البلاد . فاعتذر له كلثوم عن مسلكه وتوجه اليه بتلمسان ليشتركوا جميعا في قتال الصفرية . وهناك ثارت الخلافات من جديد لصف بلج واستعلائه في معاملة حبيب . وكادت الحرب أن تنشب بين الطرفين . وقد ذكر ابن خلدون انها اقتتلا بالفعل ثم اصطالحا على مضض .

انظر : الرقيق : ص 112 ، ابن عبد الحكم : ص 295 ، ابن خلدون ج 4 ص 189 . (64) اختلفت الروايات حول قائد الصفرية آنذاك فابن القوطية ذكر أن القيادة كانت لميسرة وخالد بن حميد معا ، وصاحب أخبار مجموعة ذهب الى أنها كانت لميسرة وحده ، وكذلك ابن عبد الحكم . لكننا نرجح رواية الرقيق لأن ميسرة كان قد نحى عن الزعامة كما سبق أن أشرنا .

انظر : ابن القوطية : ص 41 ، أخبار مجموعة ص 32 ، ابن عبد الحكم : ص 296 الرقيق : ص 114 ، ابن عذارى : ج 1 ص 57 .

(65) ابن عذارى : ج 1 صفحة 57 .

(66) أخبار مجموعة ص 32 . وقد وردت من ابن القوطية « نقدره » . انظر : تاريخ افتتاح الاندلس صفحة 41 .

(67) ابن عبد الحكم : ص 295 ، ابن الأثير : ج 5 ص 70 .

سلاح (68) هذا في الوقت الذي بلغ فيه حماس الصفرية ذروته ، فبرزوا ، عراة متجردين ليس عليهم الا السراويلات (69) واقتدوا بخوارج المشرق فخلقوا رؤوسهم وتعالّت أصواتهم بالتحكيم اذكاء للحماس (70) .

وامر كلثوم بلجا باقتحام صفوف الصفرية بخيله ايمانا بقدرتها على احراز النصر . لكن خاب ظنه حين رماها الصفرية « بالاوضاف » (71) وهى الجلود اليابسة فيها الحجارة (72) . كذلك عمد الصفرية الى « الرمك الصعبة فعلقوا في اذنابها القرب والانطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو عسكر كلثوم » ، فكانت خيله تنفر وتلوذ بالفرار (73) وهكذا شل الصفرية تفوق العرب بما لديهم من خيل واحبطوا آمالهم في احراز النصر (74) . وعبثا حاول كلثوم اقناع حبيب بن ابي عبيدة بتولى القيادة استنقاذا للموقف ، فقد ابى حبيب لتيقنه من حلول الهزيمة بالعرب (75) . وحاول بلج بن بشر أن يكسر صفوف البربر بخيله مرة أخرى ، ونجح بالفعل ، لكن الصفرية تمكنوا من الالتفات حوله وعزله عن الجيش العربى ثم فتكسوا بغالب خيله وخرساته (76) . واختلط الجيشان في معركة رجالة (77) كان الصفرية فيها أكثر عددا (78) وأشد مراسا واستبسالا وحلت الهزيمة بالجيش العربى بعد قتل كلثوم وحبيب بن ابي عبيدة (79) . اما بلج فقد تمكن من الفرار

-
- (68) اخبار مجموعة صفحة 32 .
(69) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(70) اخبار مجموعة : صفحة 32 .
(71) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(72) اخبار مجموعة صفحة 33 .
(73) نفس المصدر والمصيفة . وقد ذكر كوندية أن الخيول العربية لم تستطع الصمود لحرارة الشمس .
انظر : History of the dominion of the Arabs in Spain. Vol. I. P. 120.
(74) ابن عذارى : ج 1 ص 57
(75) ابن عبد الحكم : ص 296 .
(76) ابن عذارى : ج 1 صفحة 57 .
(77) نفس المصدر والمصيفة .
(78) اخبار مجموعة صفحة 32 .
(79) الحميدى : جذوة المقتبس ص 199 .
وقد أخطأ المقرئ حين زعم أن كلثوما لم يقتل في المعركة انما اصيب بجراح ولاذ بالهرب الى بلدة سببية ترب القيوان . انظر : نفح الطيب ج 4 ص 19 .
Scott : Op. Cit. P. 313.

نحو طنجة على رأس عشرة آلاف من جنده (80) . وعادت فلول الجيش المهزوم الى افريقية في نحو عشرة آلاف كذلك . وهكذا أسفرت معركة بقدورة سنة 123 هـ (81) (741 م) عن انتصار الصفرية (82) على جيش كلثوم الذى آل مصيره الى « ثلث مقتول وثلث منهزم وثلث مأسور » على حد قول صاحب الاخبار المجموعة (83) .

تمت للصفرية بعد بقدورة السيطرة على بلاد المغرب الأقصى . وكان من الطبيعي أن يمتد نشاطهم الى المغربين الاوسط والادنى . ولما كان هدفهم الاستيلاء على القيروان مقر الولاية ، غدت بلاد افريقية واقليم الزاب بوجه خاص ميدانا لنشاطهم .

وتزعم هذه المرحلة عكاشة بن أيوب النفزاوى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى (84) . وهذا يعنى أن قبيلتي نفزة وهوارة بالمغربين الادنى والوسط لعبتا دورا أساسيا في هذا الصدد مستعينتان بزنانة . لقد تخلت زنانة — التى كانت قد انتزعت زعامة الثورة من مطفرة — عن صدارتها لنشاط الصفرية في المغرب الاوسط ، ولم تسهم بطونها الضاربة بالمغرب الاقصى برئاسة خالد بن حميد في الثورة بافريقية بعد أن تمت له السيطرة على المغرب الاقصى . انما لعبت قبائلها بالمغرب الاوسط دورا قليل الاهمية في هذا الصدد الى جانب قبيلتي نفرة وهوارة ذات النفوذ والغلبة في افريقية . ومهما كان الامر فقد تولى قيادة ثورات الخوارج الصفرية ابتداء بميسرة شخصيات من البربر بترا وبرانسا ، فهوارة من بطون البرانس (85).

(80) حيل بين بلج وبين دخول طنجة فاعتصم بسبنة وتحصن بها . ومثّلت جيوش الصفرية في الظفر به ، فشدّوا عليه الحصار وأحرقوا الزروع حول المدينة ليهوت وجيشه جوعا . فكتب بلج الى والى الاندلس لاثّذا به ، فقبل بعد أن اشترط عليه تقديم الرهائن ، ومغادرة الاندلس بعد انقضاء عام يقاتل خلاله الى جانبهم في تمع ثورات البربر بالاندلس .

انظر : اخبار مجموعة ص 35 ، ابن خلدون : ج 4 ص 189 ، الحميدى : ص 180 ابن عذارى : ج 1 ص 58 ، المقرئ : نفح الطيب ج 4 ص 19 ،

Scott : Op. Cit. P. 313.

(81) اخطأ الطبرى حين ذكر أن المعركة وقعت سنة 121 هـ . انظر : تاريخ الرسل والملوك ج 7 صفحة 191 .

(82) ابن القوطية ص 41 ، ابن الاثير : ج 5 ص 71 ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .

(83) مجهول : اخبار مجموعة ص 34 .

(84) ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 . وقد شدّ ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين حين اعتبر عبد الواحد الهوارى اباضيا . انظر : العبر ج 6 ص 124 .

(85) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 139 ، السلاوى : ج 1 ص 101 .

بينما تنتمي زناتة الى البتر (86) وفي تعاونهما معا رغم ما كان بين البتر والبرانس من عدااء وصراع ما يدل على تغلب العامل المذهبي على النعرات العصبية والخلافات القبلية التقليدية ، وما يدل أيضا على التعاون والترابط بين حركات الصفرية في بلاد المغرب .

ففى الوقت الذى زحف فيه كلثوم بجيوشه لمواجهة صفرية المغرب الاقصى . قام عكاشة وعبد الواحد بالاستيلاء على قابس بعد ضربها بالمجانيق (87) . كما استمد عكاشة العون من صفرية زناتة بالمغرب الاوسط ، ونجح بفضلهم فى حصار سوق سبرت واقصاء عامل كلثوم عنها (88) . وكان من المتوقع أن يلتقى صفرية هواة بقيادة عكاشة وصفرية زناتة تحت زعامة اخيه لمحاصرة القيروان ، لكن المحاولة أبطت حين تمكن صفوان بن مالك عامل طرابلس من تبديد الجيش الزناتى والحيلولة دون انضمامه الى صفرية هواة (89) . وشجع ذلك مسلمة بن سودة الذى اسند اليه كلثوم بن عياض قيادة جيش القيروان على الخروج لقتال عكاشة، لكنه هزم وعاد من حيث أتى (90) . فثار عليه جنده وعقدوا اللواء لسعيد بن بجرة الغسانى الذى أثر الاعتصام بالقيروان (91) ولم يغادروها الا لمهاجمة قابس بالاتفاق مع عامل طرابلس . وفوت عكاشة الفرصة عليهما ، فترك قابس ويمم وجهه شطر القيروان بعد خروج سعيد بن بجرة منها ، لكنه منى بالهزيمة على يد أمير صلاتها عبد الرحمن بن عقبة الغفارى (92)، وقتل كثيرون من رجاله وتفرق من بقى منهم (93)، فهرب بنفسه لانذا بالصحرَاء سنة 124 هـ (94) (742 م) .

وفى الوقت الذى حاول فيه عكاشة وعبد الواحد تنظيم الصفرية فى اقليم الزاب والاستعانة بصفرية زناتة بزعامة أبى قرة (95) ، وصل حنظلة

-
- (86) ابن عبد الحكم : ص 294 .
(87) نفس المصدر : ص 294 .
(88) نفس المصدر والمصحفة .
(89) نفس المصدر والمصحفة .
(90) ابن الاثير : ج 5 صفحة 70 .
(91) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(92) نفس المصدر : صفحة 298 .
(93) الرقيق : ص 114 ، النويرى : ج 22 ورقة 15 .
(94) ابن الاثير : ج 5 صفحة 70 .
(95) الرقيق : ص 115 ، ابن عبد الحكم ص 298 . وقد آلت اليه زعامة صفرية المغرب الاوسط والاقصى بعد خالد الزناتى .
انظر : ابن خلدون ج 7 صفحة 12 .

ابن صفوان الى القيروان على رأس ثلاثين ألف مقاتل من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك (96) سنة 124 هـ (742 م) وجدير بالذكر أن هشاما أبدى اهتماما فائقا بهذه الحملة لاحساسه بتخرج مركز الخلافة في المغرب وخشيته من اقتطاع الصفرية افريقية بعد نجاحهم في سلخ المغرب الاقصى عن نفوذها، فأشرف بنفسه على تدبير الخطط ، ولم يتوان عن ارسال الاهداد (97) .

حاول حنظلة افساد جهود عكاشة وعبد الواحد في لم شمل الصفرية ، فبعث برسالة الى صفرية المغرب الاقصى والايوسط يحضهم على التزام الطاعة ويثنى عزمهم عن مؤازرة عكاشة وعبد الواحد (98) . كما باغت عكاشة في اقليم الزاب ، وتمكن قائده عبد الرحمن بن عقبة من هزيمته . وحاول عبد الرحمن معاودة الكرة ، لكن عكاشة ظفر به وقتله في نفس العام (99) . وكذلك كان مصير عامله على طرابلس معاوية بن صفوان الذي بعث اليه يحرضه على البطش بصفرية نفزة (100) ، فتمكنوا من اسره وقتله .

ثم توجه عكاشة الى القيروان عن طريق مجانة ، واستقر على بعد ستة أميال منها في مكان يعرف بالقرن (101) . كما نجح عبد الواحد الهواري في تعبئة صفرية تلمسان بقيادة ابي قررة ، وانضم اليه كذلك بعض قبائل الصفرية في المغرب الاقصى (102) ، وزحف بجيشه البالغ ثلاثمائة ألف مقاتل الى القيروان وعسكر في مكان يقال له الاصنام (103) ، بعد انتصاره على جيش انفذه حنظلة ليحول دون وصوله اليها (104) . وهكذا فشلت جهود حنظلة في تفتيت قوى الصفرية (105) ، واضحت القيروان

(96) من مظاهر الاهتمام نصيحته لحنظلة بأن يشرع في ضبط امور افريقية قبل محاولة استرداد بلاد المغرب الاقصى التي اقتطعها الصفرية .
انظر : أخبار مجبوعة صفحة 36 .

(97) أخبار مجبوعة ص 36 .

(98) انظر ملحق رقم 2 .

(99) ابن عبد الحكم : ص 291 ، ابن عذاري : ج 1 ص 62 .

(100) ابن عبد الحكم : ص 300 .

(101) أخبار مجبوعة ص 36 .

(102) ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن عذاري : ج 1 ص 62 .

(103) الرقيق : ص 118 . وتقع على بعد ثلاثة أميال من القيروان ، ابن الاثير ج 5 ص 71 .

(104) الرقيق : صفحة 118 .

(105) يذكر الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أن انشقاقا وقع بين القائد الصفرين مكاشة وعبد الواحد بسبب الخلاف حول الرئاسة ، لكننا نرجح أن يكون ما حدث من قبيل احكام الخطط للطباق على القيروان بحاصرتها من جهتين في وقت واحد . انظر : تاريخ المغرب العربي ص 273 ، ابن الاثير : الكامل ج 5 ص 70 .

في متناول أيديهم .

ولجأ حنظلة بعد ذلك الى حفر خندق حول القيروان ، عساه ان يحول دون سقوطها ، كما عمل على تثبيت همة عكاشة ، فكتب اليه « يرغبه ويمنيه » دون (106) جدوى فلم ينتظر حتى يستشير الخليفة في الامر (107)، انما عول على مواجهة الخطر الصفري توا ، فبذل الاموال والعطايا (108)، وعبا جيشه واحسن تنظيمه (109) ، ونجح في استمالة اهل القيروان على اختلاف طبقاتهم وعناصرهم (110) . وتمكن من هزيمة عكاشة (111) . ويذكر ابن الاثير (112) انه كان نصرا خاطفا احرزه حنظلة قبل ان ينهض عبد الواحد لدخول القيروان . لكن الرقيق (113) يؤكد أن القتال ظل سجالا حتى حلت الهزيمة بالصفرية « وقتل منهم خلق كثير » وأسر عكاشة وقتل سنة 125 هـ (114) (743 م) .

ثم بادر حنظلة بلقاء عبد الواحد ، وانتصر الصفرية في البداية ، لكنهم هزموا بعد ذلك ، وقتل عبد الواحد ونكل بجيشه ، وغرت فلوله الى جلواء (115) . وابتهج حنظلة بانتصاره في معركة القرن والأصنام ، وطير خبره الى الخليفة مزهوا (116) . والحق أن هاتين المعركتين كانتا نصرا عظيما للخلافة الاموية (117) ، وردا لاعتبارها بعد هزيمتي الاشراف وبقدورة . وحال هذا النصر بين افريقية وبين السقوط في يد الصفرية ،

-
- (106) ابن عبد الحكم : صفحة 299 .
(107) الرقيق : ص 116 ، ابن مغازي : ج 1 ص 73 .
(108) ابن مغازي : نفس المصدر والمصينة .
(109) ذكر الرقيق انه عبا خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل ، وجعل على الطلائع شعيب ابن عثمان ، وعلى الساقة عمرو بن حاتم ، وعلى الميمنة عبد الرحمن بن مالك الشيباني . انظر : تاريخ افريقية والمغرب ص 119 .
(110) استمال حنظلة نفهاء المالكية الذين قاموا بدور التعبئة الروحية والمعنوية للجيش الى جانب اشتراكهم في القتال . انظر : الرقيق : ص 120 ، المالكي : ج 1 ص 13 و 144 . كما تام نساء القيروان بدور كبير في حض الرجال على الاستبسال فضلا عن اشتراك بعضهم في القتال كذلك . انظر : الرقيق : ص 120 ، ابن الاثير ج 5 ص 71 .
(111) الرقيق : صفحة 117 .
(112) الكامل ج 5 ص 71 ، Biquet : Op. Cit. P. 36 .
(113) تاريخ افريقية والمغرب ص 117 .
(114) نفس المصدر ص 122 ، ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن مغازي : ج 1 ص 63 .
(115) ابن عبد الحكم : ص 299 ، ابن مغازي : ج 1 ص 63 .
(116) اخبار مجبومة ص 36 ، الباجي المسعودي : ص 15 .
(117) يتضح ذلك من قول الليث بن سعد « ما من غزوة كنت احب ان اشهدا بعد غزوة بدر احب الى من غزوتي القرن والأصنام » . انظر : الرقيق : ص 122 ، ابن الاثير : ج 5 صفحة 71 .

وأكد نفوذ الخلافة في المغرب الأوسط .

لكن النفوذ الأموي في بلاد المغرب ما لبث أن تداعى بضعف الخلافة الأموية على أثر وفاة هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ (743 م) . ولعل من أبرز الأحداث دلالة على ضعف هيبة الخلافة بالمغرب تغلب عبد الرحمن ابن حبيب بن أبي عبيدة (118) على أفريقية سنة 127 هـ (745 م) ، وأرغامه حنظلة بن صفوان على مغادرتها ، وتسليم الخليفة مروان ابن محمد مضطرا بشرعية ولايته (119) .

والحق أن عبد الرحمن بن حبيب استطاع عن طريق الحيلة (120) والعنف معا قمع حركات الصفرية التي قامت في عهده ، ففضى على ثورة عروبة بن الوليد الصدي بتونس (121) ، كما بدد الائتلاف الصفري الذي قام بين عبد الله بن سكرديد وثابت بن وريدون الصنهاجي في باجة (122) . لكن أمر الصفرية لم ينقطع من المغرب كما ذهب ابن خلدون (123) ومن أخذ عنه (124) ، بل ازدادت ثوراتهم شدة بعد موت عبد الرحمن بن حبيب . ووجدوا في اشتغال الخلافة العباسية بمشاكلها (125) ، وفي الصراع حول الإمارة بين آل بيت عبد الرحمن بن حبيب فرصة مواتية لاستئناف حركاتهم .

ومرة أخرى تزعمت نفزاوة هذه الحركات ، فقد استطاع عاصم بن جميل زعيم ورفجومة (126) — وهي من بطون نفزاوة — (127) أن يوحد سائر بطون القبيلة ، فأنضم إليه رؤساء البطون وأيدوه ، ومنهم عبد الملك

(118) اشترك عبد الرحمن بن حبيب مع والده في موقعة بقدورة ، ونزح الى الاندلس ، مع بلج بن بشر . وهناك وقع في حراع مع بلج وثعلبة بن سلامة ، فلم يطب له المقام خصوصا في وجود أبي الخطار الحسام بن ضرار عامل حنظلة على الاندلس فغادرها الى تونس ، ودعى لنفسه فالتفت حوله البيهية . ثم دخل القيروان بعد انسحاب حنظلة منها سنة 127 هـ . وظل على ولائه الاسمي لبني أمية حتى قامت الدولة العباسية سنة 132 هـ ، فأعلن تبعيته للمصور . ثم خلع طاعته واستقل بالامر وظل يمارس نفوذا فعليا في افريقية بهزل من الخلافة حتى اغتيل سنة 137 هـ على يد أخيه الياس .

(119) ابن خلدون : ج 4 ص 190 .

(120) ابن مغازي : ج 1 ص 65 .

(121) ابن خلدون : المرجع السابق ص 190 .

(122) الرقيق : ص 126 ، ابن خلدون ج 6 ص 111 .

(123) العبر : ج 4 صفحة 190 .

(124) انظر : السلاوي : ج 1 ص 105 .

(125) ابن وردان : تاريخ الاغالبة ورقة 2 — مخطوط .

(126) ابن خلدون : ج 6 ص 115 . تزعم المصادر السنية أنه كان كاهنا مدعيا للنبوّة .

انظر : ابن الاثير : ج 5 ص 117 .

(127) الرقيق : ص 140 ، ابن عذاري : ج 1 ص 80 .

ابن أبى الجعد ويزيد بن سكوم (128) .

وبلغت نفزاوة الصفرية درجة من القوة جعلت عبد الوارث بن حبيب يلجأ إليها لمناصرته ضد ابن أخيه حبيب بن عبد الرحمن (129) . ووجد عاصم ابن جميل في ذلك الفرصة المواتية ، فرحب به ووقف معه في وجه خصومه ، ولم يعبأ بتهديدات حبيب عند ما طلب إليه تسليم عمه والتخلي عن مناصرته .
والحق به الهزيمة عند ما عهد إلى محاربته (130) .

ويبدو أن عبد الوارث بن حبيب في صراعه مع ابن أخيه أظهر الولاء لأبى جعفر المنصور (131) . ولصلته بعاصم بن جميل ، اعتقد أهل القيروان أن عاصمًا أيضًا من أنصار الخلافة العباسية .

وليس ببعيد أن يكون عاصم بدوره قد أظهر الولاء لبني العباس ليكسب أهل القيروان ، والا لما أقدم أهل القيروان على استدعائه بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق والدعاء للمنصور « (132) . وبذلك جذب أعدادًا غفيرة منهم ، فأنضموا إلى جيشه (133) .

أما حبيب بن عبد الرحمن فقد توجه للاقتاة الصفرية بعد أن استخلف على القيروان قاضيها (134) ، لكن عاصمًا تمكن هزيمته ففر إلى قابس ، واتخذ عاصم طريقه نحو القيروان . وخرجت جماعة القيروانيين بزعامة القاضي أبى كريب للحيلولة دون دخوله المدينة ، لكن زملاءهم في جيشه أنثوهم عن عزمهم ودعوههم إلى طاعته (135) ، فاستجابوا لهم وتركوا قاضيهم في جماعة قليلة من الفقهاء أجهز عليهم الصفرية (136) بظاهر القيروان سنة 139 هـ (137) (756 م) ودخل الصفرية المدينة واستولوا

(128) ذهب ابن خلدون والسلوى إلى أنها كانا من زعماء الإباضية ، لكن كتب الإباضية خلو من أى إشارة تؤكد ذلك ، بل تصورها على أنها من أعداء أبى الخطاب عبد الاملى بن السمع الإباضى . انظر : العبر ج 6 ص 115 ، الاستقصا ج 1 ص 109 .

(129) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 ، ابن الاثير ج 5 ص 117 . ابن خلدون ج 4 صفحة 191 .

(130) الرقيق : نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(131) ابن الاثير : ج 5 ص 117 .

(132) نفس المصدر والصحيفة .

(133) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .

(134) المالكي : ج 1 صفحة 110 .

(135) الرقيق : صفحة 140 .

(136) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 ، الدباغ : معالم الايمان ج 1 صفحة 171 .

(137) المالكي : ج 1 ص 107 و 110 .

عليها (138) .

ثم استخلف عاصم على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد ليثفرغ
للاحقة حبيب بن عبد الرحمن ، وتمكن من هزيمته عند قابس ، ففر الى
الاوراس لائذا بأهله (139) فاقتنى عاصم اثره ، والتحم معه في معركة
هزم فيها الصفرية ولقى حاتم حتفه (140) .

وحاول حبيب بن عبد الرحمن استرداد القيروان فزحف اليها بأنصاره ،
لكنه هزم وقتله عبد الملك بن أبي الجعد سنة 140 هـ (141) (757 م) .
وبذلك قضى الصفرية على الفهريين في المغرب وأضحت لهم السيطرة
الكاملة « على القيروان وسائر افريقية » (142) .

ويبدو أن الصفرية بعد أن اقتطعوا المغرب الأقصى والوسط ودانت
لهم افريقية والقيروان ، أصبحوا خطرا على بلاد المغرب الأدنى التي كانت
الغلبة فيها للمذهب الاباضي ، ولعل ذلك يفسر ما حدث من صراع بين
الاباضية والصفرية ، وقيام أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري
بالاستيلاء على القيروان واقتضاء الصفرية عنها . وتبدو وجهة هذا القول
إذا ما أدركنا حقيقة أهداف الاباضية في انشاء دولة لهم ببلاد المغرب بعد
نجاح دعوتهم بين بربر المغرب الأدنى . وقد سبق القول بأنهم شرعوا في
ذلك على اثر عودة دعائهم من البصرة سنة 140 هـ (757م) بعد اجماعهم الرأي
مع فقهاء المذهب ومشايخه على ابتداء « امامة الظهور » . ولما كان نجاح
الصفرية يشكل حجر عثرة أمام مشروعاتهم في قيام دولة اباضية ، أصبح
الاحتكاك بين القوتين الخارجيتين أمرا مؤكدا .

(138) تبلغ المصادر السنية في وصف فظائع الصفرية بالقيروان فتذكر أنهم « استحلوا
المحرم وارتكبوا الكبائر ، وسبوا النساء والصبيان » « وربطوا دوابهم في المسجد
الجامع » والواقع أن ذلك محض افتراء . انظر : الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى :
ج 1 ص 81 ، ابن الاثير : ج 5 ص 117 وتضيف هذه المصادر أن شيوخ القيروان
ونقباؤها استصرخوا الخلافة العباسية لتخليصهم من عسف الصفرية وما أصاب البلاد
على أيديهم « من ظلم فاش وأمر قبيح » انظر : المالكي : ج 1 ص 102 ، أبو العرب
تميم : طبقات علماء افريقية ص 30 .

(139) ابن خلدون : ج 4 ص 191 .

(140) الرقيق : ص 141 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 .

(141) نفس المصدرين والصفحتين ، ابن الاثير ، ج 5 ص 117 ، السلاوي ، ج 1 ص 110

(142) ابن خلدون : ج 6 صفحة 112 .

وعلى ذلك فلا محل لتصديق ما تقدمه المصادر السنية والاباضية (143) على السواء من تعليقات غير مقنعة لتبرير خروج أبى الخطاب وحروبه مع الصفرية فى القيروان ، اذ تذكر أن أبى الخطاب ما خرج « الا غضبا لله ولدينه » (144) استجابة لدعوة أهل القيروان لتخليصهم من عسف الصفرية. تصارى القول — أن أبى الخطاب بعد أن بايعه أنصاره بالإمامة توجه بجيشه نحو قابس محاصرها حتى سقطت ، فترك عليها عاملا من قبله وارتحل لمقاتلة الصفرية بالقيروان (145) ، وبث عبد الملك بن أبى الجعد فصائل من جيشه لتحول دون وصول الاباضية ، لكنها منيت بالهزيمة . فخرج بنفسه على رأس الصفرية والتقى بأبى الخطاب خارج القيروان ، فهزم جيشه وقتل فى المعركة (146) . ودخل أبو الخطاب المدينة سنة 141 هـ (758 م) وولى عليها عبد الرحمن بن رستم (147) ، ثم غادرها على وجه السرعة لمواجهة جيوش الخلافة التى أنفذها المنصور ، وعين عبد الرحمن ابن رستم عماله على سائر اقاليم افريقية التى خلصوها من الصفرية (148) . ويخيل لنا أن انهزام الصفرية فى افريقية أدى الى ارتفاع نجمهم مرة أخرى فى بلاد المغرب الاوسط ، حيث نجح أبو قررة الصفرى فى تكوين

(143) تجمع هذه المصادر على استبداد الصفرية بعرب القيروان وسوء معاملتهم ، وعلى استدعاء القيروانيين أبى الخطاب لتحريرهم من ظلم الصفرية ، وتذكر فى ذلك روايات شتى منها :

أ — أن رجلا اباضيا دخل القيروان وشاهد بنفسه بعض الصفرية يمتدون قسرا على امرأة فى المسجد الجامع ، فاعلم أبى الخطاب بالامر ، فخرج لينتقم منهم لاستباحتهم حرمة المسجد . انظر : الرقيق : ص 141 — 142 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، النويرى ج 22 ورقة 16 .

ب — أن أبى الخطاب قاتل الصفرية على اثر رسالة من إحدى القيروانيات تعلمه فيها أنها اخفت وليدتها فى حفرة تحت سرير خشيعة أن يفسدها الصفرية . انظر ، أبو زكريا : ورقة 7 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 12 .

ج — أن إحدى نساء القيروان خرجت من المدينة منادية « أغيثونى معاشر المسلمين » وفى رواية أخرى « أغثنى يا أبى الخطاب » ، فمد الله فى صوتها وسمعه أبو الخطاب فأجابها « لبيك يا اختاه » . انظر : أبو زكريا : ورقة 7 .

وهذه الروايات جميعا تميل الى المبالغة والطابع الاسطورى مما يشكك فى صحتها . كذلك فمن المستبعد أن يكون خروج أبى الخطاب سببه دافع اقتصادى كما ذهب الدكتور سعد زغلول عبد الحميد اعتمادا على قول للشماخى بأن عام 140 هـ الذى خرج فيه أبو الخطاب كان عام جدب . انظر : الشماخى : السير ص 127 ، سعد زغلول : المغرب العربى صفحة 310 .

(144) الشماخى : السير صفحة 127 .

(145) أبو زكريا : السيرة ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 .

(146) نفس المصدر والصلحات ، ابن الاثير ج 5 ص 118 .

(147) ابن عذارى : ج 1 ص 82 ، السلاوى : ج 1 ص 111 .

(148) أبو زكريا : ورقة 9 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 113.

امارة مستقلة بنواحي تلمسان ، كما تمكن أبو القاسم سمكو بن واسول من
أرساء دعائم دولة بنى مدرار في سجلماسة على اثر هزيمة الصفرية في
القيروان سنة 140 هـ .

انتقل اذن مركز الثقل في نشاط الصفرية من افريقية الى المغرب
الايوسط بعد تكوين أبو قرة الصفري امارته الصفرية في تلمسان . والواقع
أن الغموض يكتنف أصل أبي قرة ، فمن المؤرخين من يرجع بنسبه الى قبيلة
مغيلة ، ومنهم من ينسبهم الى بنى يفرن من زناتة (149) . ويرجع الخلاف
الى العرف الشائع عند البربر من انخراط القبائل تحت زعامة أكثرها قوة
ونفوذا . حقيقة أن بنى يفرن « كانوا اشد قوة وأكثر جمعا » ، لكن مغيلة
كانت « أشهر بالخارجية من بنى يفرن » (150) . ولما كانت القبيلتان
متجاورتين (151) ، فقد حدث اللبس حول أصل أبي قرة .
ومهما كان الامر ، فإن أبا قرة تزعم صفرية المغربين الاوسط والاقصى
بعد خالد بن حميد الزناتى (152) . واشترك في حصار القيروان الى جانب
عبد الواحد الهوارى سنة 124 هـ ، ثم عاد ادراجه الى تلمسان على اثر
هزيمة الاصنام . ويضيف الرقيق (153) أن عبد الرحمن بن حبيب هزمه
هزيمة ساحقة سنة 135 هـ (752 م) فتت في عضده ، فلم يسهم في حركات
صفرية نفزاوة ضد حبيب بن عبد الرحمن ، وتركها تتلقى سوء المصير على
يد أبى الخطاب الاباضى سنة 140 هـ . ولعل ذلك يفسر مبايعته بالامامة في
وقت متأخر سنة 148 هـ (765 م) — كما يذكر ابن خلدون (154) — بعد
أن انضوى صفرية المغرب الادنى تحت زعامته فضلا عن صفرية الأجزاء
الساحلية والغربية من المغرب الاوسط (155) .

(149) ذكر ابن خلدون في تاريخه انه « من مغيلة ، وهو الاصح في شأنه » انظر : العبر
ج 6 ص 112 . لكنه في موضع آخر يقول « وقد قيل أن أبا قرة من مطباطة وهذا
عندى صحيح ، ولذلك أخرت ذكر أخباره الى أخبار بنى يفرن من زناتة » . انظر :
العبر ج 6 ص 125 . ونفس الخلط نجده عند السلاوى حيث ذكره على أنه « أبا
قرة بن دوناس اليفرنى » ومرة أخرى يدموه « أبا قرة المغيلي » . انظر : الاستقصا
ج 1 صفحة 116 .

(150) ابن خلدون : العبر ج 7 ص 12 .

(151) نفس المصدر والصحيفة .

(152) نفس المصدر والصحيفة .

(153) تاريخ افريقية والمغرب ص 130 .

(154) العبر ج 6 ص 112 ، ج 7 ص 12 .

(155) نبذ تاريخية — جمع برونسال ص 49 ، محمد الشطيبي : الجبان ورقة 203 .

وفي تلك الاثناء كان محمد بن الاشعث الخزاعي (156) يوطد نفوذ الخلافة العباسية في افريقية (157) ، فاستطاع اقضاء الاباضية عن القيروان ، والحق بهم عدة هزائم دانت بعدها بلاد المغرب وافريقية لسلطانته « واطفا نار الفتنة فيها » (158) . وبديهي أن يتجه بعد ذلك الى محاولة استرجاع المغربين الاوسط والاقصى ، لذلك عول على انفاذ قائده الاغلب بن سالم التميمي على رأس جيش لمحاربة ابي قررة والصفريه فسي تلمسان سنة 148 هـ (159) (765 م) . ويخيل الينا أن اضطراب الجند العربي وثورتهم على ابن الاشعث (160) حالت دون قيام هذا الجيش بما ازمع القيام به ، اذ لا تطالعنا المراجع (161) باخبار عن الصراع مع ابي قررة الا ابان ولاية الاغلب بن سالم في نفس العام . فقد « بعث اليه المنصور عهده بولاية القيروان . . ثم اضطربت عليه الامور لخروج ابي قررة عليه واشتغاله بحربه » .

على كل حال — وجد ابو قررة في ثورات الجند الخلافي في افريقية فوصة موالية لاعداد قواته للقيام بالثورة واسقاط الحكم العباسي في القيروان (162) وادرك الاغلب خطورة الموقف فعول على الخروج اليه قبل أن تدهمه جيوش الصفريه في مقر الولاية (163) والتقى الخصمان في اقليم الزاب ، فأثر ابو قررة الانسحاب ، وقرر الاغلب اقتفاء اثره وضرب معقل قوته في تلمسان (164) وربما تجاوزت مطامحه تلمسان ذاتها ، فرنى ببصره الى تحرير بلاد المغرب الاقصى كلها حتى طنجة (165) . وكان ذلك سببا في ثورة جنده عليه وانصرافهم عنه ، تلك الثورة التي انتهت بقتله سنة 150 هـ (156) (767 م) . وقبع ابو قررة في تلمسان (167) يعد العدة لجولة اخرى .

(156) اخطأ ابن وردان حين ذكر أن الاشعث بن عقبة الخزاعي هو الذي اضطلع بهذه المهمة وليس ابنه الذي اجمعت عليه المصادر . انظر : تاريخ الاغالبه ص 1 مخطوط . Biquet : Op. Cit. P. 42.

(157) البلاذري : فتوح البلدان ص 275 .

(158) ابن خلدون : العبر : ج 6 ص 115 .

(159) ابن خلدون : ج 4 ص 192 ، ج 7 ص 12 .

(160) انظر : جغرافية المامون ص 184 .

(161) ابن الابار : الحلة السبراء ج 1 ص 69 ، ابن الاثير : ج 5 ص 217 .

(162) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيفة .

(163) ابن عذارى : ج 1 ص 86 .

(164) ابن خلدون : ج 6 ص 112 .

(165) ابن الاثير : ج 5 ص 217 .

(166) الباجي المسودي : الخلاصة النقية ص 18 .

(167) السلاوي : ج 1 صفحة 116 .

وفي هذا الوقت كان عمر بن حفص والى القيروان قد رحل الى اقليم الزاب (168) وحصن طبنة باقامة سور حولها (169) ليحول دون هجوم الصفرية على القيروان وليتخذ منها قاعدة للانطلاق الى مقلهم في تلمسان . ويبدو أن عمر بن حفص كانت الخلافة قد عهدت اليه بتصفية نشاط الخوارج في المغرب اباضية وصفرية (170) . ولعل ذلك كان سببا في ائتلاف الصفرية والاباضية لأول مرة في بلاد المغرب . فاجتمعوا على محاصرته بطبنة (171) . فمن الاباضية اشتركت جيوش ابي حاتم الملوذي وعبد الرحمن بن رستم والمسور بن هانيء في الحصار (172) ، كما أسهم رؤساء الصفرية كذلك ، فكان جيش ابي قرة اربعين الفا (173) ، ووصل عبد الملك بن سكرديد على رأس الفين من صنهاجة (174) فضلا عن صفرية مديونة بزعامة جرير بن مسعود (175) . وضرب الجميع الحصار حول طبنة وبها عمر بن حفص في خمسة عشر الف من العرب سنة 153 هـ (176) (770 م) .

وتجمع المصادر على أن عمر ابن حفص اغرى ابا قرة بالمال لينسحب هو واتباعه عن الصفرية . لكنها تختلف في ذكر التفاصيل ، فبعضها (177) يرجع أنه رفض الرشوة وقبلها أخوه الذي ارتحل بالمسكر ، فاضطر أبو قرة للانسحاب ، في حين يقرر البعض (178) الآخر أن عمرا استمال ابا قرة وليس اخاه . بينما نجد رواية ثالثة مؤداها (179) أن ابا قرة قبل الرشوة

-
- (168) ابن مغازي : ج 1 ص 88 .
(169) ابن الاثير : ج 5 ص 221 ، السلاوي : ج 1 ص 117 .
(170) ذكر ابن الاثير أن انتقال عمر بن حفص الى الزاب وتحصينه طبنة كان وفقا لمشورة المنصور . الكامل ج 5 ص 221 .
(171) الرقيق : صفحة 143 .
(172) ذكر ابن الاثير والنويري أن عاصم السدراتي الاباضي اشترك في حصار طبنة على رأس ستة آلاف من الاباضية . انظر : الكامل ج 5 ص 221 ، نهاية الارب ج 22 ورقة 21 . وهو قول مردود لأن عاصم مات مسموما سنة 140 هـ إبان حروب ابي الخطاب مع ورفجومة . انظر : أبو زكريا : ورقة 8 ، الشياخي : السير ص 128 .
(173) ابن عذاري : ج 1 ص 88 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 371.
(174) ابن الاثير : ج 5 صفحة 221 .
(175) مديونة إحدى بطون بني فاتن من ضريبة البثرية ، ومواطنها في نواحي تلمسان . ابن خلدون : ج 6 صفحة 125 .
ولا محل لتصديق رواية ابن خلدون القائلة بتشييع ورفجومة الصفرية لعمر بن حفص وقتالها الى جانبه . انظر : العبر ج 6 ص 115 .
(176) ابن مغازي : ج 1 صفحة 88 .
(177) ابن عذاري : ج 1 ص 89 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .
(178) الرقيق : ص 143 ، ابن خلدون : ج 6 ص 112 .
(179) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة ، السلاوي : ج 1 ص 117 .

هو وابنه وارتحل بقومه من الصفرية . وإمام هذا الاختلاف نشكك في الرواية من أساسها . والراجع أن يكون انسحاب الصفرية نتيجة اختلاف مع الإباضية ، إذ أن تعاونهما في بلاد المغرب ليس مألوفاً ، والمعروف أن الفرقتين الخارجيتين كانتا على خصومة وعداء كثيراً ما وصل إلى درجة الصراع والتناحر ، وهذا يفسر قيام أبي حاتم بمحاصرة القيروان (180) من دون الصفرية (181) . بينما عاود أبو قرّة قتال الحامية التي تركها عمر بن حفص بطبنة (182) بعد أن غادرها ليحول دون وقوع القيروان في يد الإباضية . وفي عودة أبي قرّة لمحاربة اتباع عمر بن حفص ما ينفي ما قيل عن قبوله الرشوة .

على كل حال — تسبب الخلاف بين الصفرية والإباضية في فشل حصار طبنة ، ونجح عمر بن حفص في هزيمة عبد الرحمن بن رستم الإباضي ، كما تمكن قائده المهنا بن المخارق بن غفار الطائي من هزيمة أبي قرّة وردع الصفرية (183) . وعاد أبو قرّة إلى مقره في تلمسان .

ولم تقم للصفرية قائمة بعد ذلك ، فضعف شأنهم ، حتى قضى عليهم يزيد بن حاتم الذي قدم إلى المغرب سنة 155 هـ (622 م) على رأس جيش كثيف أوغل به في نواحي المغربين الأوسط والأدنى (184) . كما كان الصراع بين الأدارسة والرسّامين حول تلمسان وما حولها من عوامل اختفاء الصفرية من المغرب الأوسط وتحول الكثيرين منهم في تلك الجهات إلى الولاء للأدارسة واتباعهم من آل سليمان ، بينما هاجر جزء كبير ممن بقوا على مذهبهم إلى سجلماسة التي أضحت ملاذاً للصفرية في بلاد المغرب .

أما عن صفرية إفريقية والمغرب الأدنى فقد بطش بهم يزيد بن حاتم أيضاً ، فتمتعت حركة ورفجومة سنة 157 هـ (774 م) على يد ابنه

-
- (180) ابن خلدون : ج 4 صفحة 193 .
(181) اختلط الأمر على الطبري لمذكر أن أبا قرّة اشترك في حصار عمر بن حفص في القيروان ذلك أن حصار القيروان الذي ضربه أبو حاتم المزورى حدث سنة 154 هـ وليس سنة 153 هـ . وقد وقع في هذا الخطأ كثيرون ممن نقلوا عن الطبري . انظر : تاريخ الرسل والملوك ج 8 ص 42 ، السلاوي : ج 1 ص 118 ، العيني : عقد الجمان ج 13 ورقة 16 .
ويؤكد معظم المؤرخين أن الذين حاصروا عمر بن حفص في القيروان كانوا جميعاً من الإباضية . انظر الرقيق : ص 143 ، ابن عذاري : ج 1 ص 89 ، 90 ، ابن خلدون ج 6 ص 119 ، ابن الأثير : ج 5 ص 222 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .
(182) الرقيق : ص 143 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .
(183) الرقيق : صفحة 143 .
(184) نفس المصدر : صفحة 159 .

المهلب وقائده العلاء بن سعيد (185) . كما فشلت ثورة الصفرية في بلاد الزاب التي تزعمها أيوب الهواري سنة 164 هـ (780 م) بعد أن رماهم يزيد بن حاتم بالمخارق بن غفار الطائي (186) ومن بعده العلاء بن سعيد ، وإلى العلاء يعزى الفضل في قمع الثورة وقتل قائدها والتنكيل بالصفرية أينما وجدوا في افريقية (187) ، حتى أن بربر ورفجومة رأس صفرية افريقية انقرض أمرهم وصاروا أوزاعا في القبائل (188) .

هكذا قدر ليزيد بن حاتم أن يبدد شمل الخوارج الصفرية في افريقية والمغرب الأوسط ، وتمكن الإدارة من تأسيس دولتهم في المغرب الاقصى على حساب نفوذ الصفرية ، وظلت دولة بنى مدرار بسجلماسة مؤثلا لصفرية بلاد المغرب ومركزا لتجمعهم ، فقد حققت هدفهم في قيام دولة صفرية خالصة في بلاد المغرب .

(185) نفس المصدر ص 161 ، ابن خلدون : ج 6 ص 115 ، السلاوي : ج 1 ص 118 ،
(186) ابن خلدون : ج 4 صفحة 193 .
(187) الرقيق : ص 162 ، ابن الاثير : ج 5 ص 223 .
(188) ابن خلدون : ج 6 ص 115 .

ثورات الخوارج الاباضية

سبق القول بأن المذهب الاباضى غلب على بلاد المغرب الادنى فانتشر بين قبائله وخاصة نفوسة وهوارة . ويبدو ان الخوارج الاباضية لم يكونوا قد تهيئوا بعد لمرحلة الظهور حتى بداية العقد الرابع من القرن الثانى الهجرى اى حتى قيام ثورة ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمع المعافى سنة 140 هـ (757 م) ، بينما سبق الخوارج الصفرية بزعامة ميسرة المطغرى الى الظهور سنة 121 هـ (739 م) فى المغرب الاقصى . ولعل السبب فى تأخر ثورات الاباضية يكمن فى قرب مواطنهم من القيروان مقر الامارة ومركز الجند العربى . يضاف الى ذلك قربها النسبى من عاصمة الخلافة الاموية وولاتها فى مصر مما يجعل مهمة الخلافة وولاتها فى مصر والمغرب فى قمع الحركات المعادية امرا اكثر سهولة من قمع ثورات الصفرية فى المغرب الاقصى .

ويبدو ان نجاح حركات الصفرية فى المغرب الاقصى اغرى اباضية المغرب الادنى بالتعجيل بالقيام بثورات مماثلة قبل ان يتهيئوا لها او تتوافر الظروف المناسبة التى تساعد على انجاحها . وجدير بالذكر ان المصادر الاباضية تسقط من اعتبارها كل نشاط للاباضية فى المغرب سابق على حركة ابي الخطاب عبد الاعلى سنة 140 هـ (757 م) فتعتبره اول الاثمة ، وتؤرخ لثورته باعتبارها بداية « لمرحلة الظهور » (189) . واذا كانت ثورة

(189) الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 3 ص 34 .

أبى الخطاب — حقيقة — تعد أول ثورة إباضية ذات طابع شامل وشكل منظم ، فقد سبقتها حركات أخرى لم تتمخض عن شيء سوى أضعاف الحركة الإباضية قبل أن يشتد عودها ، وتأجيل ظهور الإباضية على المسرح السياسى فى بلاد المغرب .

كانت هذه الثورات ثلاثا ، قامت أولاها سنة 126 هـ (744 م) بزعمامة عبد الله بن مسعود التجيبى الذى ترأس بربر هواره فى منطقة طرابلس متحديا حكم عبد الرحمن بن حبيب ، وأخذت هذه الحركة دون عناء بعد أن قبض أخو عبد الرحمن وعامله على طرابلس على التجيبى « وضرب عنقه » (190) .

ثم اجتمعت هواره على اثنين من زعمائها هما عبد الجبار بن قيس المرادى والحارث بن تليد الخضرى (191) . وزحف الحارث وعبد الجبار الى طرابلس وضربا عليها الحصار حتى استسلم عاملها (192) ، وأخذوا بثار التجيبى واقتصا من قاتله (193) . وانفذ عبد الرحمن بن حبيب ثلاثة جيوش لاسترداد طرابلس هزمها الإباضية جميعا (194) ، فلبأ الى الحيلة واستمال أحد شيوخ هواره وبعثه «ليستألف الناس ويقطع عن عبد الجبار هواره » (195) دون جدوى . فعقد العزم على الخروج بنفسه وقاد جيشا لاسترداد طرابلس وصل به حتى قابس ، ثم عاد أدراجه الى القيروان لما علم بتأمر أهلها على خلعه (196) . لكن حادثا مفاجئا أفضى الى مقتل الحارث وعبد الجبار سنة 131 هـ (749 م) كفى عبد الرحمن بن حبيب مئونة قتالهما .

-
- (190) ابن عبد الحكم : ص 301 ، ابوراس : مؤنس الاحبة ص 43 .
(191) تختلف المصادر حول كيفية اشتراكهما فى قيادة الثورة ، فذكر البرادى أنهما « كانا مشتركين فى الملك » أما الشهاخى فيرى أن أحدهما كان إماما والآخر وزيره ، وينهم من رواية لابن عبد الحكم — وهى الأرجح — أن عبد الجبار كان إمام الصلاة والحارث إمام الحرب ، انظر : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87 ، الشهاخى : السير ص 125 ، ابن عبد الحكم : ص 302 .
(192) ابن عبد الحكم : صفحة 301 .
(193) نفس المصدر والمصحفة .
(194) عن تفاصيل هذا الموضوع راجع : ابن عبد الحكم : ص 301 ، 302 ، الرقيق : ص 128 ، البرادى : الجواهر ورقة 87 ، Masqueray : P. 23 .
(195) ابن عبد الحكم : صفحة 301 .
(196) الرقيق : صفحة 128 .

وتختلف المصادر (198) حول دوافع هذا الحادث . والراجع انهما اختلفا حول مسائل فقهية أو تنازما حول الحكم (199) ، فاحتكما الى السيف فقتل كل منهما صاحبه . ومهما كان الأمر فقد تمخض الأمر عن حدوث الشقاق (200) بين جماعة الاباضية بالمغرب على غرار ما كان يحدث بين الخوارج المشاركة . ولم تجد نفعا نصائح فقهاء المذهب بالبصرة بالكف عن ذكر هذه المسألة ، فظلت تشغل اباضية المغرب حتى تولى ابو الخطاب الامامة سنة 140 هـ (201) (757 م) .

أما ثالث تلك الثورات فكانت من نصيب قبيلة نفوسة ، اذ بادر زعيمها اسماعيل بن زياد النفوسى بعد أن « عظم شأنه وكبر بيعه » (202) بالاستيلاء على قابس سنة 132 هـ (751 م) (203) . فخرج اليه عبد الرحمن بن حبيب وانفذ طلائعهم من الخيالة ليسبر غوره، لكن عامله على طرابلس التحم بنفوسة الاباضية وقتل زعيمها واسر كثيرا من رجالها (204) . واصطحب عبد الرحمن بن حبيب أسرى الاباضية الى طرابلس وذبحهم وامتنح الناس بهم « فكان يؤتى بالاسير من البربر فيأمر من يتهمة بتحريم دمه بقتله » (205) كما عهد الى عامله بطرابلس بتوزيع المغنم التي غنمها من الاباضية على جنده (206) ، واعاد بناء سور المدينة (207) لتحصينها من خطر الاباضية،

(198) ذكر بعض المؤرخين انهما اختلفا فانتحلا ، فقتل كل منهما الآخر ووضع سيفه في جسد صاحبه (ابن عبد الحكم : ص 302 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87) وذكر آخرون أن عبد الرحمن بن حبيب حاربهما فقتلهما (الرقيق ص 129 ، ابن الاثير ج 5 ص 116) . بينما نجد في رواية ثالثة أن عبد الرحمن بن حبيب اغتالهما خفية ، وأوصى القتلة بوضع سيف كل منهما في جسد الآخر اشارة للخلاف بين الاباضية . انظر : الدرجيني : ج 1 ورقة 12 ، على يحيى معبر : الاباضية في موكب التاريخ ص 46 ، 47.

(199) الشماخى : السير ص 125 ، Masqueray : Op. Cit. P. 23.

(200) اختلف الاباضية في تحديد ايها اخطأ في حق صاحبه ، ولم يلبث الخلاف أن تشعب الى مسائل فقهية وفلسفية جوهرها « هل يدفع الشك اليقين ؟ أم اليقين يدفع الشك ؟ » فقال البعض ها على ولايتها حتى يتبين أمرها ، بينما رأى البعض الآخر عدم البت في القضية ، فتحول الخلاف الفقهى الى انشقاق سياسى . . عن مزيد من التفاصيل راجع : البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 87 ، الشماخى : السير ص 125 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 11 ظهر .

(201) ايسو زكريا ، السيرة ورقة 6 .

(202) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(203) اطفيش : الامكان صفحة 53 .

(204) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .

(205) الرقيق : صفحة 128 .

(206) ابن عبد الحكم صفحة 302 .

(207) الرقيق : ص 129 ، ابن الاثير : ج 5 ص 116 .

ثم قفل عائدا الى القيروان في نفس العام .

ولا يخامرنا شك في أن جهود ابن حبيب وعماله على طرابلس في قمع حركات الاباضية قد فتت في عضدهم .

ويخيل الينا أن هذا هو ما دفع زعماء الاباضية في المغرب الادنى للرحيل الى البصرة للاسترشاد بمشايخ المذهب في الاعداد للثورة المنظمة الشاملة . وقد عادوا الى المغرب بعد أن مكثوا خمس سنوات بصحبة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وجماعة شيوخ المذهب وقد تذرعوا بالاساليب والوسائل الكفيلة بانجاح حركتهم . وحسبنا أن أبا عبيدة أشار عليهم باختيار أحد رجال المذهب من عرب المشاركة لزعامتهم لما له من دراية بأحوال المغرب ولحصافته ودربته بأصول السياسة وفنون الحكم (208) . ويبدو أنه أوصى أفراد الوفد المغربي بتعبئة قبائل الاباضية جميعا للاشتراك في الثورة ، فاشتراط ضرورة حشد القوى المادية والبشرية للقيام بالثورة (209) كما تخصص بعض أفراد الوفد في مسائل الفقه والشريعة لمواجهة ما يعين لهم من مسائل تتعلق بالثورة ومعاملة الخصوم وإدارة الاقاليم التي يتسنى لهم انتزاعها من الحكام العرب (210) وأخيرا أوصاهم بموافاته بتطورات حركاتهم وضرورة مشاورته فيما يعين لهم من أمور (211) .

وما أن عاد الوفد الى بلاد المغرب سنة 140 هـ (757 م) ، حتى بادر أعضاؤه بالاتصال بالقبائل وتهيئتها للقيام بالثورة ، ويذكر أبو زكريا (212) أن أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري — وهو الذي أشار أبو عبيدة بتقلده زعامة الحركة — أبدى نشاطا ملحوظا « فى الكتمان » فاتصل بمشايخ القبائل للتشاور في اعلان « امامه الظهور » . وقد كللت مساعيه بالنجاح ، فانضم اليه جمهرة الاباضية ، وكسب الكثير

(208) الشهاخي : السير ص 125 . يخرج ماسكراى من اختيار عربى لزعامة الحركة بان العامل الدينى حل محل عامل العصبية في إعطاء الحركة طابعها ، انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 29.

(209) الشهاخي نفس المصدر صفحة 124 .

(210) أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة : رسالة في أحكام الزكاة ورقة 114 — مخطوط .

(211) انظر : ملحق (1) .

(212) السيرة وأخبار الائمة ورقة 6 .

(213) اليعقوبى : تاريخه ص 118 ، البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 .

من الاتباع (213) ، وأجمع رؤساء المذهب على مبايعته بالامامة (214) .
وانضوت قبائل نفوسة وهوارة وزناتة وغيرها تحت لوائه (215) .
واستطاع أبو الخطاب مdahمة طرابلس على حين غفلة (216) ، وأرغم
عاملها عمرو بن عثمان القرشي (217) على مغادرتها واستولى على بيت
مالها (218) ، وأمن أهلها (219) .

وباستيلاء الإباضية على طرابلس اشتد ساعدتهم ، فاتخذوها قاعدة
للمذهب ، وبعثوا إلى أبي عبيدة مسلم بالبصرة يعلموه « بظهور الامامة » .
فاغتبط لذلك ونصحهم بالتضامن واقتفاء أثر السلف الصالح (220) . وجنح
أبو الخطاب إلى التوسع ، فاستولى على جزيرة جربة وجبل دمر سنة
140 هـ (221) (757 م) ، كما ضم قابس في نفس العام (222) ، ودانت
بلاد المغرب الأدنى بطاعته ، فبنى ببصره صوب افريقية .

ثم كان استيلاء الصفرية على القيروان وخروج أبي الخطاب وصراعه
مع الصفرية وهزيمتهم عند رقادة (223) ، ودخول المدينة بعد مقتل
عبد الملك بن أبي الجعد مقدم الصفرية ، ونجاح عامله عليها — عبد الرحمن
ابن رستم — في بث نفوذ الإباضية في سائر جهات افريقية (224) ، بعد

(214) تذكر المصادر الإباضية أن رؤساء المذهب كانوا يجتمعون في مكان يقال له صياد
— غربى طرابلس — بحجة اقتسام أرض اختلف القوم عليها ، أو للتأليف بين رجل
اختلف مع زوجته ، مداراة لوالى طرابلس . انظر : أبو زكريا : ورقة 6 ، الدرجيني :
ج 1 ورقة 11 . وتصور هذه المصادر أبا الخطاب على أنه فوجيء بعرض الامامة
عليه ، لكنه كان في الواقع على علم بأنه سيقولها منذ غادر البصرة مع الوفد
المغربى وفقا لمشورة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة .
انظر : أبو زكريا : ورقة 6 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 11 .

(215) أبو زكريا : ورقة 7 .

(216) تصور المصادر الإباضية سقوط طرابلس تصويرا روائيا أشبه ما يكون بسقوط
طروادة ، فذكرت أن الجيش الإباضى اختبأ داخل جواليق يحملها الجمال التى
دخلت المدينة على أنها قافلة تجارية فلما توسطت المدينة ، خرج الرجال شاهرين
أسلحتهم صائحين « لا حكم الا لله ولا طاعة الا لأبي الخطاب » .

انظر : أبو زكريا : ورقة 7 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 12 .

(217) الرقيق : ص 142 ، ابن عذارى : ج 1 ص 74 .

(218) أبو زكريا : ورقة 7 .

(219) نفس المصدر والصحيفة ، الدرجيني : ج 1 ورقة 14 .

(220) انظر : ملحق (I) .

(221) أبو راس : مؤنس الاحبة صفحة 45 .

(222) أبو زكريا : ورقة 8 ، الشماخى : السير ص 128 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 13 .

(223) البكرى : المغرب صفحة 28 .

(224) أبو زكريا : ورقة 9 .

مغادرة أبى الخطاب القيروان لمواجهة جيوش الخلافة التى بعثها المنصور لاستنقاذ افريقية (225) .

وقد أنفذ المنصور محمد ابن الاشعث الخزاعى على رأس جيش زاد عدده عن خمسين ألف مقاتل الى بلاد المغرب سنة 142 هـ (759 م) . ومهما اختلف المؤرخون (226) حول دوافع ارسال هذا الجيش الضخم ، فلا شك أن مهمته الاساسية كانت استرداد نفوذ الخلافة وهيبتها فى بلاد المغرب (227) بعد أن أضحت قسمة بين الصفورية والاباضية من الخوارج . ويبدو أن ابن الاشعث هاله أمر الاباضية الذين سيطروا على المغرب الأدنى وافريقية ، فأثر البقاء بمصر ، وأنفذ طلائعه بقيادة أبى الاحوص عمرو ابن الاحوص العجلى (228) الى المغرب .

وهذا هو ما حدا بأبى الخطاب عبد الاعلى الى مغادرة القيروان على وجه السرعة للقاء أبى الاحوص ، فالتقى به فى مغمداس (229) بناحية سرت (230) وهزمه واحتوى عسكره ، فعاد أبو الاحوص الى مصر مدحورا (231) .

ويخل لنا أن هذه الهزيمة فتت فى عضد ابن الاشعث ، فبعث المنصور اليه يستصرخه التعجيل بالتوجه الى المغرب بنفسه (232) ،

(225) ابن عذارى : ج 1 ص 82 ، ابن خلدون : ج 4 ص 191 ، الانتصارى : المنهل العذب صفحة 65 .

(226) ذكر مؤرخو السنة أن المنصور أنفذ الحملة استجابة لطلب فتحاء القيروان لتخليصهم من صف الصفورية .

راجع : المالكي : ج 1 ص 98 ، 102 ، أبو العرب تميم : ص 30 . بينما ذهب مؤرخو الاباضية الى أن ارسال الحملة كان نتيجة الحاح أحد رجال أبى الخطاب — ويدعى جميل السدراتى — بعد أن خرج عليه ورحل الى بغداد .

راجع : أبو زكريا : ورقة 9 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 15 ، الشماخى : ص 131 .

(227) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 .

(228) زعم ابن تغرى بردى أن أبا الاحوص أنفذ الى المغرب من قبل والى مصر حميد بن قحطبة ، وأضاف أن حميدا خرج بنفسه للقاء أبى الخطاب بعد هزيمة أبى الاحوص فهزمه وقتله ثم عاد الى مصر .

انظر : النجوم الزاهرة ج 1 ص 349 . والثابت أن ابن الاشعث هو الذى قام بالهمة

إبان ولاية حميد بن قحطبة لمصر .

انظر : ابن عذارى : ج 1 ص 82 .

(229) البكرى : ص 7 ، ابن عذارى ، ج 1 ص 82 .

(230) البكرى : نفس المصدر والمحيية ، السلاوى : ج 1 ص 114 .

(231) ذكرت المصادر الاباضية أن أبا الخطاب كان قد هزم جيشا آخر لابن الاشعث بقيادة العوام بن عبد العزيز البجلي قبل انتصاره على أبى الاحوص . انظر الشماخى : السير صفحة 130 .

(232) ابن مذارى : ج 1 ص 83 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 .

وعول ابن الاشعث على الاستعداد الكامل قبل مغادرته مصر ، فحشد في جيشه من القواد العظام ثمانية وعشرين قائدا (233) من بينهم الاغلب ابن سالم التميمي والمحارب بن هلال الفارسي والمخارق بن غفار الطائي (234) .

واستعد أبو الخطاب للقاء ابن الاشعث ، فربط بأرض سرت في سبعين الف (235) من الاباضية . لكن خلافا وقع في معسكره تمخض عن انسحاب اباضية لاعتقادهم بتحيزه الى هــوارة (236) . وبادر ابن الاشعث بالنزول بجيشه على موارد الماء بمكان يقال له تاورغا (237) ، ومنع عسكر أبي الخطاب من ارتياده (238) . فلما نشب القتال دارت الدائرة على الاباضية ، فقتل أبو الخطاب مع آلاف من رجاله (239) ، ونجى منهم نفر قليل لانوا بالحصون والقلل في الجبال (240) . وعول ابن الاشعث على استئصال شأفة الاباضية ، فأرسل قائده اسماعيل بن عكرمة الخزاعي الى زويلة وودان فقتل من بها من الاباضية (241) . كما لقي اباضية طرابلس عنقا شديدا من عامله

(233) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(234) النويرى : ج 22 ورقة 19 .

(235) أبو زكريا : ورقة 10 . ويبالغ ابن عذارى حين يذكر أن جيش أبي الخطاب بلغ مائتي ألف مقاتل ، انظر : البيان المغرب : ج 1 ص 82 .

(236) ابن عذارى : ج 1 ص 83 ، ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، النويرى : ج 22 ، ورقة 19 . وتذكر المصادر الاباضية أن العامة في جيش أبي الخطاب تخلوا عنه حين تظاهر ابن الاشعث بالانسحاب الى الشرق رغم تحذير أبي الخطاب وتجاهل تماما ذكر انسحاب اباضية زناتة . والحق ما ذهب اليه المصادر السنية في تفسير الانشقاق داخل معسكر الاباضية . يؤكد ذلك ما ورد بالمصادر الاباضية ذاتها من اشتراك نفوسة وهوارة وجريشة في معركة تاورغا الى جانب أبي الخطاب دون أن يرد بينها ذكر لزناطة .

انظر : أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجيني : ج 2 ورقة 15 ، الشماخي السير منصة 131 ، 132 .

(237) تقع بأرض سرت على مسيرة ثمانية أيام من طرابلس . الدرجيني : ج 2 ورقة 16 .

(238) أبو زكريا : ورقة 10 .

(239) تقدر المصادر الاباضية عدد القتلى بما يتراوح بين اثني الف وأربعة عشر الف . أما المصادر السنية فتصرف في تقديرها الذي يصل الى أربعين الف . راجع : أبو زكريا : ورقة 10 ، الشماخي : السير ص 132 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .

(240) أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 16 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 113.

(241) ابن عذارى : ج 1 ص 84 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .

المخارق بن غفار ، فقد أسرف في تقتيلهم وسبى ذراريهم (242) . ولم يسلم
اباضية زناتة من بطش ابن الاشعث على الرغم من خروجهم على أبى
الخطاب وعدم اشتراكهم في معركة تاورغا ، فقتل زعيمهم أبو هريرة
الزناتى في ستة عشر ألف من أصحابه (243) وعلى الرغم من هزيمة أحد
جيوشه أمام اباضية زهانة (244) ، فقد القى الرعب في قلوب اباضية
المغرب الأدنى ، فهابوه ودانوا له بالطاعة (245) .

وهكذا وضعت معركة تاورغا سنة 144 هـ (761 م) نهاية لامامة
الظهور التى استمرت أربعة أعوام سيطر الاباضية ابائها على افريقية
والمغرب الأدنى ، فلم يقو الاباضية بعدها على الظهور واضطروا الى
العمل فى تستر وكتمان وهو ما يعرف فى اصطلاحهم « بامامة الدفاع » .

تولى امامة الدفاع بعد مقتل أبى الخطاب يعقوب بن حبيب
المعروف بأبى حاتم المزوزى (246) سنة 145 هـ (762 م) . ويختلف
المؤرخون حول أصله ، فيذكر بعضهم (247) أنه من هواره ، وقيل من
سدراته (248) ، و فى قول ثالث أنه من مغيلة (249) ونحن نرجح الرواية
الاولى لان هواره من اشد قبائل الاباضية قوة واكثرها عددا ومشاركة فى
ثورات الاباضية . أما سدراتة فكان دورها ضئيلا فى الحركة الاباضية
بالمغرب ، بينما كانت مغيلة تدين بالمذهب الصفرى ، ومضاربها بنواحي
تلمسان اى أنها بعيدة عن مسرح نشاط الاباضية فى المغرب الأدنى
وافريقية (250) .

على كل حال — بويع أبو حاتم بالامامة سنة 145 هـ (251) (762 م) ،
وظل مستترا طيلة أربع سنوات قضاها فى جمع شمل جماعات الاباضية

-
- (242) الشماخى : السير ص 134 ، النويرى : ج 22 ورقة 19 .
(243) ابن الاثير : ج 5 ص 118 ، ابن عذارى : ج 1 ص 83 .
(244) الشماخى : السير صفحة 134 .
(245) ابن الاثير : ج 5 صفحة 118 .
(246) أخطأ الدرجينى فى تسمية أبى حاتم بـيعقوب بن لبيب ، وكذلك البرادى الذى نقل
عنه . راجع : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 17 ، الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(247) الدرجينى : ج 1 ورقة 17 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(248) البلاذرى : فتوح البلدان ص 75 .
(249) ابن خلدون : ج 6 ص 125 ، بروفنسال : نبذ تاريخية ص 49 .
(250) والصواب ان يكون من «مغيلة» وهى بطن من بطون هواره راجع : أبو زكريا :
ورقة 12 .
(251) نقل الشماخى عن الدرجينى خطاه فى جعل تاريخ مبايعة أبى حاتم بالامامة سنة 154 هـ
بدلا من سنة 145 هـ . انظر : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 17 ، السير ص 133 .

التي تفرقت على اثر حروب ابن الاشعث . وكان خلالها يرسل الصدقات الى عبد الرحمن بن رستم (252) الذي كان يعد العدة لقيام دولة بنى رستم الاباضية في المغرب الاوسط .

ويبدو انه في سنة 150 هـ (253) (767 م) آتس من نفسه قوة « فاراد الخروج على جند طرابلس وعامل أبى جعفر » (254) .

ويبدو أن عامل طرابلس تنبه لذلك فخرج اليه على رأس جنده وطلب من الاباضية الازعان لطاعته والدعوة للخليفة العباسي (255) ، فرفضوا ، فاقبلوا ، وانتصر الاباضية ودخلوا طرابلس . ونعتقد ان الاباضية امعنوا في البطش بأهل طرابلس من العرب — على غير عادتهم — تشفيا وانتقاما لما حل بهم من قبل (256) . وظل أبو حاتم مقيما بطرابلس حتى وصل عمر بن حفص الى افريقية سنة 151 هـ (768 م) .

حاول عمر بن حفص استرداد طرابلس واقتضاء الاباضية عنها ، فانفذ ثلاثة جيوش لهذا الغرض هزمها الاباضية جميعا (257) . كان اولها بقيادة الجنيد بن بشار الازدي ، فدهمه أبو حاتم بقباس وضرب عليه الحصار ، فبعث الجنيد يطلب العون من عمر بن حفص ، فانفذ اليه خالد ابن يزيد المهلبى على رأس أربعمئة فارس عدا الرجالة ، لكن أبا حاتم هزمه أيضا وحال دون دخوله المدينة . فعزز عمر بجيش ثالث بقيادة سليمان بن عباد المهلبى ، طارده الاباضية فعاد من حيث أتى . وكان عمر قد غادر القيروان اذ ذاك الى طبنة في اقليم الزاب ، فلم يتوان أبو حاتم عن اقتفاء أثر سليمان بن عباد (258) وضرب الحصار على القيروان

(252) أبو زكريا : ورقة 11 .

(253) برونسال : نبذ تاريخية ص 49 ، محمد الشطبي : الجبان ورقة 303 مخطوط .

(254) أبو زكريا : ورقة 11 .

(255) الدرجيني : ج 1 ورقة 17 ، الشماخي : السير ص 134 .

(256) يفهم ذلك من رواية لأبي زكريا يقول فيها أن أبا حاتم لام أصحابه على تعديهم وأمرهم برد ما أخذوه من أسلاب ، وهددهم بالتخلي عن الامامة ما لم يجيبوه . انظر : السيرة ورقة 12 .

(257) النويري : ج 22 ورقة 21 .

(258) من الملاحظ أن المصادر جميعا تضطرب وتختلط حين تسرد هذه الاحداث ، وقد اثبتنا ما نعتقد أنه الصواب على هدى تلك الروايات المختلطة . انظر : أبو زكريا ورقة 12 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 17 ، الشماخي : السير ص 134 ، ابن مغازي ج 1 ص 88 ، ابن الاثير : ج 5 ص 221 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 ،

سنة 153 هـ (259) (770 م) .

ثم غادر أبو حاتم القيروان ليسهم في حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) ، ذلك الحصار الذي اشترك فيه الاباضية مع الصفرية جنبا الى جنب لأول مرة . وقد اشترك أيضا عبد الرحمن ابن رستم ومعه خمسة عشر ألف فارس (260) ، والمسور بن هانيء الزناتى فى عشرة آلاف فارس (261) ، فضلا عن جموع الصفرية بقيادة أبى قرة . لكن الحصار لم يستمر طويلا ، فقد حدث نزاع بين الاباضية والصفرية أسفر عن فشله . وآثر أبو حاتم العودة لحصار القيروان ، بينما انسحب عبد الرحمن بن رستم برجاله الى تهودة . وهناك لحق به عمر بن حفص وأنزل به هزيمة عاد بعدها الى تاهرت مدحورا (262) . أما المسور الزناتى فالراجع أنه لحق بأبى حاتم وانضم اليه فى حصار القيروان (263) .

شدد أبو حاتم الحصار ، وضيق على أهل القيروان بجيشه البالغ مائة وخمسين ألفا (264) ، فاشتد الكرب بالمحاصرين ونفذ ما لديهم من المؤن والأقوات (265) ، واضطر كثيرون منهم الى الخروج من المدينة والانضمام الى الاباضية (266) .

ترك عمر بن حفص طبنة على وجه السرعة لفك الحصار عن القيروان ، وخرج الاباضية بأجمعهم ليجهزوا عليه قبل قدومه ، لكنه أخذ

(259) تخطئ المصادر الاباضية حين تزعم أن أبا حاتم حاصر ابن الأشعث فى القيروان وأرغمه هو وجنوده على الرحيل الى المشرق . فمن المعروف أن ابن الأشعث غادر القيروان سنة 148 هـ بعد ثورة الجند الخلائق عليه . وجدير بالذكر أن هذه المصادر تتجاهل ولاية عمر بن حفص افريقية فتسقطها ، ولا تورد شيئا من ثم عن الصراع بينه وبين الاباضية . راجع : أبو زكريا : ورقة 12 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 18 .

(260) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(261) ابن الاثير : ج 5 صفحة 221 .

(262) ابن خلدون : ج 6 ص 112 ذكر الرقيق أن ابن رستم فقد فى المعركة ثلاثمائة من رجاله بينما ذكر ابن عذارى أن عدد القتلى بلغ ثلاثة آلاف . راجع : تاريخ افريقية والمغرب ص 143 ، البيان المغرب ج 1 ص 19 .

(263) يفهم ذلك من قول ابن الاثير بأن أبا حاتم « كثر جمعه » بعد أن غادر طبنة . راجع الكامل ج 5 صفحة 222 .

(264) ابن عذارى : ج 1 ص 89 وتبالغ بعض الروايات فتذكر أن جيش أبى حاتم بلغ خمسة وثمانين ألف فارس وثلاثمائة وخمسين ألف رجل . راجع : الطبرى : ج 8 ص 42 ، البرادى : الجواهر ورقة 88 ، العينى : عقد الجمان ج 13 ورقة 16 .

(265) ابن الاثير : ج 5 صفحة 222 .

(266) الرقيق : ص 144 ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

طريقاً مغايراً ، فسلك طريق تونس بدلاً من الأريس (267) . وبأدر بشحن القيروان بالمؤمن والاقوات والميرة والرجال وأدوات الحصار (268) . وحفر خندقاً على باب أبي الربيع جعل عسكره من خلفه مؤثراً سياسة الدفاع (269) .

وقد عادت هذه السياسة على ابن حفص بأوخم العواقب ، فلم يتوان الإباضية عن قتاله ، واضطر للخروج لفك الحصار — الذى فرضه على نفسه — فهزم وارتد الى خندق أبى الربيع معتصماً به (270) . وتبعه أبو حاتم حتى جاوز مشارف الخندق ، كما وزع رجاله على سائر أبواب المدينة فمنع المحاصرين داخلها من الخروج ، وظلوا كذلك حتى نفذت اقواتهم (271) . وزاد الامر سوءاً ، اختلاف قواد عمر بن حفص عليه وتقاعسهم عن القيام بمحاولة يائسة لفك الحصار (272) وحين وصله خبر قدوم يزيد بن حاتم لنجدته ، استنكف الانتظار وآثر الموت ، فظل يقاتل الإباضية حتى قتل (273) فى منتصف ذى الحجة من سنة 154 هـ (771 م) .

عقد أبو حاتم صلحاً (274) مع جميل بن صخر — الذى تزعم الجند بعد مقتل أخيه لأمه عمر بن حفص (275) — ثم دخل القيروان « فأحرق أبوابها وثلم سورها » (276) واستخلف عليها عاملاً من قبله . واتجه الى طرابلس حين علم بمقدم يزيد بن حاتم على رأس جيش من الشرق لكنه اضطر للعودة الى تونس لقيام ثورات الجند العربى على عماله فى الزاب ،

(267) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، والأريس إحدى مدن إفريقية تقع غربى القيروان بمسيرة ثلاثة أيام . السلاوى : ج 1 ص 118 .

(268) الرقيق : ص 144 ، ابن عذارى : ج 1 ص 89 .

(269) النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(270) الرقيق : ص 144 ، النويرى ج 22 ورقة 21 .

(271) الرقيق : ص 145 ، ابن عذارى : ج 1 ص 90 .

(272) الرقيق : نفس المصدر والصحيفة ، النويرى : ج 22 ورقة 21 .

(273) الرقيق : نفس المصدر ص 146 ، ابن عذارى : ج 1 ص 90 . وثمة رواية لابن وردان تصور هرب عمر بن حفص الى جبل الأوراس وقتله غدراً أثناء فومه . راجع : تاريخ الاغالبية ورقة 5 — مخطوط .

(274) يبدو أن أبا حاتم كان يريد عقد الصلح على وجه السرعة ليتفرغ للقاء جيش يزيد بن حاتم ، ومن ثم اتسم الصلح بالتساهل المفرط مع غريمه ، فقد نص فيه على ألا يكره أحد من الجند على بيع سلاحه ودوابه وعلى أن كل دم أصابه الجند من البربر فهو هدر . انظر : الرقيق ص 146 ، النويرى : ج 22 ورقة 22 .

(275) ابن الأثير : ج 5 ص 222 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

(276) الرقيق : ص 147 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .

فنجح في تفريق بعضهم (277) ، وعهد الى بعض قواده بمهمة القضاء على البعض الآخر (278) ومضى الى طرابلس لمواجهة يزيد بن حاتم (279) والواقع ان ابا حاتم كان في موقف لا يحسد عليه ، ففضلا عن ضخامة حملة يزيد بن حاتم وحسن استعدادها (280) دب الخلاف داخل معسكره ، فانحازت قبيلة مليلة الهوارية الى يزيد (281) ، وكذلك بعض رجال نفوسة الذين استرشد بهم في الوقوف على عورات البلاد (282) .

على كل حال — تمكن ابو حاتم بادىء الامر من هزيمة طلائع جيش يزيد التي قادها سالم بن سودة التميمي (283) عند مغمداس (284) وقتل منها اعدادا غفيرة (285) . لكن لحسن بلاء يزيد وقيادته الجيش بنفسه (286) ، اضطر ابو حاتم الى الاعتصام بجبل نفوسة في موضع حصين خلف خندق حفرة الاباضية على وجه السرعة (287) غير ان يزيدا افسد خطته ، فتمكن من اجتياز الخندق ، والتحمت جيوشه بالاباضية فهزموهم « وقتل ابو حاتم ومن معه من اهل البصائر » (288) في المعركة .

(277) بدد ابو حاتم شمل جبل بن صخر وجنده عند تونس ، كما ارغم لمخارق بن غفار الطائي على مغادرة القيروان . انظر : الرقيق ص 148 .

(278) بعث ابو حاتم جرير بن مسعود الديوني في اثر عمر بن عثمان النهري الى ارض كتامة ، لكن جريرا هزم وقتل . انظر : الشماخي : ص 135 .

(279) الرقيق ص 159 ، ابن عذارى : ج 1 ص 91 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويري : ج 22 ورقة 22 .

(280) تجع المصادر على ضخامة الحملة فتقدر عددها بها يتراوح بين تسعين الف ومائة وعشرين الف ، نصفهم من الفرسان . انظر : اليعقوبي : تاريخه ص 120 ، البلاذري : فتوح البلدان ص 275 ، الرقيق : ص 159 ، وابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن عذارى : ج 1 ص 94 ، ابن خلدون : العبر ج 4 ص 195 ، العيني : ج 13 ورقة 16 ، الشماخي : السير ص 136 .

(281) ابو زكريا : ورقة 12 ، الشماخي : ص 136 .

(282) ابو زكريا : ورقة 13 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 .

(283) النويري : ج 22 ورقة 22 .

(284) مكان حصين بجبل نفوسة في نواحي طرابلس . راجع : الرقيق ص 159 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 .

(285) الرقيق : ص 160 ، النويري : ج 22 ورقة 22 . يعتقد الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ان ابا حاتم هزم في تلك المعركة على الرغم من اجماع المؤرخين اباضية وغير اباضية على انتصاره فيها . انظر : سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ص 329 ، ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، النويري : ج 22 ورقة 22 ، ابو زكريا ورقة 12 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 ، الشماخي : السير ص 139 .

(286) الرقيق : صفحة 160 .

(287) نفس المصدر والصحيفة ، ابن الاثير : ج 5 ص 223 ، النويري : ج 22 ورقة 22 .

(288) ابو زكريا : ورقة 13 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 ، النويري : ج 22 ورقة 22 .

كما قتل جمهور عظيم من الاباضية (289) ، بلغ ثلاثين الفا (290) . واستبدت بيزيد شهوة الثار لعمه عمر بن حفص (291) « فطلب الاباضية في كل سهل وجبل » (292) ويطش بهم . ثم استعمل احد عماله على طرابلس ونهض الى القيروان سنة 155 هـ (293) (772 م) .

والحق — أن تلك الضربة الماحقة التي ألحقها يزيد بن حاتم بالاباضية تعد نهاية لنشاط الخوارج الاباضية في صورته الشاملة المنظمة حقيقة أن حركاتهم لم تحبط بصورة نهائية في عهد يزيد ، لكنها كانت تفتقر الى التنظيم والشمول ، ومن ثم لم يجد امراء آل المهلب في افريقية عناء في قمعها وردعها . فتورة هوارة بزعامة ابي يحيى بن قرياس سنة 156 هـ (773 م) بنواحي طرابلس انتهت بكارثة لاباضية هوارة على يد عبد الله بن السمط الكندي الذي قتل ابا يحيى وعامة اصحابه (294) . وحسبنا اننا لم نسمع عن أى نشاط للاباضية طوال حكم يزيد بن حاتم الذي امتد حتى عام 170 هـ (786 م) ، ولذلك حق لابن عذارى (295) أن يقول « تهدنت افريقية ليزيد بن حاتم » . وإذا كان يزيد بن حاتم قد قضى على ثورات الاباضية في شكلها الشامل المنظم ، فإن خليفته داود بن حاتم تمكن من « حصد شوكتهم » (296) ، ففى عهده ثارت قبيلة نفزة الاباضية بجبال باجة بزعامة صالح بن نصير (297) ، ونجح في هزيمة قوات داود ، لكن سليمان بن الصمة أحد رجال داود تمكن من هزيمته (298) . كما حارب سليمان نفرة في معركة أخرى بشقنبارية (299) لم يقم لها قائمة من بعدها (300) . كما احبطت ثورة اباضية هوارة سنة 180 هـ (796 م) بزعامة عياض بن

-
- (289) اليمتوبى : تاريخه ص 12 .
(290) ابن خلدون : العبر ج 4 ص 193 ، وبيالغ النويرى فيذكر أن القتلى من معسكر يزيد كانوا ثلاثة فقط والصحيح ما رواه الرقيق من أن عددهم بلغ « ثلاثة رهط » انظر : النويرى نهاية الارب ج 22 ، الرقيق : تاريخ افريقية والمغرب ص 160 .
(291) الرقيق : صفحة 159 .
(292) نفس المصدر والصحيحة ، ابن عذارى : ج 1 ص 194 ، ابن الاثير ج 5 ص 223 .
(293) نفس المصادر والصفحات .
(294) ابن عذارى : ج 1 ص 94 ، ابن الاثير : ج 5 ص 4 .
(295) البيان المغرب ج 1 صفحة 94 .
(296) ابن خلدون : المبر ج 6 ص 113 ، السلاوى : ج 1 ص 120 .
(297) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 115 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(298) الرقيق : ص 169 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(299) احدى كور الاريس بافريقية . راجع الرقيق ص 169 .
(300) الرقيق : ص 169 ، ابن عذارى : ج 1 ص 99 ، ابن خلدون : ج 6 ص 113 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .

وهب الهواري (301) . أما اباضية نفوسة فقد استكانوا وغلبوا على
أمرهم بعد فشل حركة أبي حاتم . وقبل ذلك كان اباضية زناتة قد بطش
بهم ابن الأشعث سنة 144 هـ (760 م) .

وهكذا تصدعت حركات الاباضية في المغرب الأدنى وافريقية ، بينما
نجح عبد الرحمن بن رستم بمؤازرة اباضية المغرب الاوسط في تأسيس
دولة بتاهرت سنة 161 هـ (1977 م) ، تلك الدولة التي امتد نفوذها فيما
بعد لتضم اباضية المغرب جميعا بعد أن دانوا بالولاء والتبعية لائمتها ،
واقامت دليلا عمليا على نجاح ثورات الاباضية في تحقيق مراميها في تكوين
دولة اباضية بالمغرب .

(301) ابن الاثير : ج 5 ص 46 ، ابن خلدون : العبر ج 4 ص 195 ، ابن تيمزي بـردى :
ج 2 صفحة 90 .

نتائج ثورات الخوارج في بلاد المغرب

نخلص من هذا العرض لثورات الخوارج — صفرية وإباضية — في بلاد المغرب بعدة نتائج منها أن هذه الثورات كانت تتأثر — ان ضعفا وان قوة — بموقف الخلافة في الشرق أموية وعباسية ، واهتمامها بشؤون بلاد المغرب أو انصرافها عنها . وحسبنا أن اندلاع ثورات الخوارج في المغرب واكب اضطراب الخلافة الأموية وانشغالها بالخصومات القبلية والصراعات حول السلطة بين أفراد البيت الأموي (302) . وازدادت هذه الثورات تأججا وغلبت على بلاد المغرب جميعا بعد موت هشام بن عبد الملك سنة 125 هـ (303) (743 م) الذي كان يولى بلاد المغرب عناية خاصة ، « فوقع الاضطراب بافريقية » (304) وطرق الخلل . . لخفوت صوت الخلافة بالمشرق (305) . ويكفى أن عبد الرحمن بن حبيب اغتصب حكم افريقية له ولآله من بعده ، ففى غيبة الخلافة وعمالها آنذاك بلغت ثورات الخوارج أوجها حتى غدت القيروان ذاتها ميدانا للصراع بين الإباضية والصفرية ، وهو ما يعبر عنه ابن خلدون بقوله (306) « . . وأعزل

(302) الحميدى : جذوة المقتبس ص 8 ، الضبى ، بغية الملتبس ص 14 .

(303) أخبار مجموعة ص 36 .

(304) الحميدى : المرجع السابق ص 8 .

(305) الباجى المسمودى : الخلاصة النقية ص 15 .

(306) العبر : ج 6 صفحة 11 .

أمر الخارجية ورؤسها » . ولم يكن ذلك الا « لانشغال بنى أمية عن قاصية الثغور » (307) .

ومن الطبيعي أن تتفاقم ثورات الخوارج ويزداد خطرهما بقيام الدولة العباسية التي اهتمت في عهد السفاح بأمور المشرق أكثر من اهتمامها بأمور المغرب (308) ، فانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد وسع الهوة بين بلاد المغرب ومقر الخلافة (309) ، ومن ثم خرج عن طاعته « ما بين تاهرت وطبنة الى بلاد السودان وجميع مملكة الاندلس (310) .

وقد تغير الموقف تماما في خلافة المنصور ، فكانت سياسته قائمة على أساس الاحتفاظ بالمغرب وعدم التفريط فيه (311) ، فاختر ولاته من خاصته الاكفاء « من ذوى رأى الاصيل والخطر الجليل » (312) ، كابن الاشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم ، كما انفق المال بسخاء في اعداد حملاته على المغرب مع ما عرف عنه من بخل وشح (313) . وتغلب على مشكلة طول المسافة وبعد الشقة بين بغداد والمغرب بأن عهد الى ولاته بمصر بمسؤوليات اعداد الجيوش وقيادتها (314) . واقتفى الرشيد نفس السياسة من الاهتمام بأمور المغرب (315) . فقد حرص على اختيار ولاته من ذوى « الخداع والدهاء والغدر » (316) . كما كان على صلة دائمة بهؤلاء الولاة ، وكثيرا ما ساهم في رسم سياساتهم ووضع خططهم في محاربة الخوارج (317) . فاستطاع أن يحتفظ بافريقية بعد أن كادت تسقط في أيديهم (318) .

هذا وقد تأثرت ثورات الخوارج بشخصية الولاة وسياساتهم وما

-
- (307) المقرئ : نفع الطيب ج 1 صفحة 222 .
(308) عن الطابع الشرقى للخلافة العباسية واهمال السفاح لشؤون المغرب انظر : محمود اسماعيل : الاغالبية ، سياستهم الخارجية ص 1 ، 2 .
(309) عن الطريق البرية بين بغداد وبلاد المغرب انظر : قدامة بن جعفر : الخراج صفحة 220 — 225 .
(310) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص 258 .
(311) ابن الاثير : ج 5 ص 221 .
(312) الرقيق : ص 151 ، ابن عذارى : ج 1 ص 98 .
(313) البلاذرى : فتوح البلدان ص 275 ، ابن تفرى بردى : ج 2 ص 20 .
(314) ابن تفرى بردى : ج 2 ص 23 .
(315) ابن الاثير : ج 5 ص 221 .
(316) ابن طباطبا : الفخرى في الاداب السلطانية ص 127 .
(317) ابن البار : الحلة السراء ج 2 ، ص 358 .
(318) ابن الاثير ج 5 ص 221 ، Mercier : Histoire de l'Afrique. P. 142.
Muir : The Caliphate. P. 461.

هم عليه من قوة أو ضعف ، وما لسياساتهم من آثار في جمع شمل الجند أو بعثرته . فقد أدى نشوب الصراع القبلى بين القيسية واليمنية (319) الى ما حل بجيش كلثوم بن عياض القشيري من كارثة على يد الصفرية في موقعة بقدورة سنة 123 هـ (740 م) . وأثبتت تلك الموقعة أن الخوارج كانوا يفيدون من انقسام الجند العربى ، وهى حقيقة يؤكدتها سقوط القيروان واستيلاء الصفرية عليها ثم الاباضية بسبب الخلافات بين افراد الاسرة الفهرية (320) .

وكانت ثورات الخوارج تزداد تأججا ونجاحا حين كان الولاة يشغلون عنها بانقاذ حملاتهم خارج المغرب فكان الخوارج يجدون في غياب الجند العربى فرصة مواتية لتعبئة الجهود وعلان الثورة . وحسبنا أن أولى ثورات الخوارج التى تزعمها ميسرة قامت في الوقت الذى كانت فيه جيوش ابن الحبحاب تغزو في صقلية (321) . كما اندلعت هذه الثورات بصورة شاملة حيث « استشرى داء البربر وأعضل أمر الخارجية » (322) في وقت انشغال جيوش ابن حبيب بغزو سردينية وصقلية (323) . وقد استطاع ابن الأشعث بفضل كفايته العسكرية (324) أن يضعف الخوارج وأن « يضبط إفريقية » (325) ويحصن القيروان وطرابلس وطبنة (326) ، لكن لم يقدر له النجاح في القضاء نهائيا على ثوراتهم بسبب ثورة الجند العربى عليه وطرده من الولاية (328) . وكان القتل من نصيب الاغلب بن سالم لعقده العزم على استئصال شأفة الخوارج ومهاجمتهم في معانهم بتلمسان والمغرب الاقصى ، فقد ثار عليه جنده وقتلوه سنة 148 هـ (329) (765 م) وأعطوا بذلك الفرصة لاستفحال خطر أبى قررة الصفري .

كما ارتبطت هزائم الخوارج بكفاءة الولاة واستقرار أحوال الجند الخلافي ، ولا يخفى ما بلغه عمر بن حفص من شجاعة ودهاء وحسن

-
- (319) ابن عبد الحكم : صفحة 295 .
(320) ابن خلدون : العبر ج 3 ص 190 .
(321) الرقيق : صفحة 109 .
(322) ابن خلدون : ج 6 صفحة 111 .
(323) ابن الاثير : ج 5 صفحة 116 .
(324) الطبرى : ج 7 صفحة 459 ،
(325) ابن الاثير : ج 5 صفحة 118 .
(326) البكرى : ص 7 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(327) ابن عذارى : ج 1 ص 88 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
(328) ابن الاثير : ج 5 ص 119 ، السلاوى : ج 1 ص 115 .
- Biquet : Op. Cit. P. 42

بصيرة ، ولعل في رحيله عن القيروان وتحصينه طبنة ما ينم عن ادراك واع لمكن الخطر في نشاط الخوارج وافلاته من حصار خوارج المغرب اباضية وصفيرية اضاف الكثير الى قدراته الفذة وفي نهايته البطولية وموته وهو يقاتل الخوارج وحيدا ما جعل المؤرخين يطلقون عليه — بحق — لقب « هزار مرد » (330) . كما استطاع يزيد بن حاتم أن يتصدى لثورات الخوارج ، وبفضل كفايته ومقدرته « سكن الناس في افريقية » (331) . واثمر هذا الهدوء في عهد خلفه روح بن حاتم (332) . ثم قدم هرثمة بن اعين الى افريقية سنة 179 هـ (795 م) ليقتضى على ما بقى للخوارج من رمق ، وأعاد الحياة الآمنة الى بلاد المغرب (333) .

من ناحية أخرى — استفاد الخوارج من أخطاء عمال الخلافة بالمغرب ، وكانوا يتخيرون الوقت للخروج اعتمادا على تلك الأخطاء . فقد خرج ميسرة في الوقت الذي كان فيه جيش ابن الحبحاب في صقلية ، كما امتدت ثورات الخوارج وانتشرت ابان الازمات التي أصابت الخلافة في الشرق او أثناء الفتن القبلية بين الجند العربى قيسية ويمنية كالخصومة التي وقعت بين حبيب بن أبى عبيدة اليمنى وبين كلثوم بن عياض القيسى ، أو الصراع بين الجند العربى في افريقية وبين العناصر الفارسية والخراسانية في عهد ابن الأشعث والأغلب بن سالم . يضاف الى ذلك الصراع حول الولاية بين عبد الرحمن بن حبيب وبين حنظلة بن صفوان ، ثم الصراع الدموى داخل أسرة بنى حبيب ، فسححت للخوارج الفرصة لتحقيق انتصاراتهم التي اشرنا اليها .

كما تميزت حركات الخوارج في المغرب بالشمول وسعة الانتشار . وذلك بفضل الثورة الاولى التي قادها ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (739 م) ، فقد كانت نموذجا افتتاه ثوار المغرب الاوسط والادنى من الصفيرية والاباضية على السواء (334) . وجدير بالذكر أن هذا الطابع المنظم لحركات الخوارج ساعد على انتشارها في سائر ربوع المغرب في

(329) ابن خلدون : ج 6 ص 112 ، السلاوى : ج 1 ص 116 ، Muir : Op. Cit. P. 481.

(330) وتعنى بالفارسية « الف رجل » كتابة على شجاعته النادرة .

(331) ابن الأثير : ج 5 ص 4 .

(332) نفس المصدر ص 38 ، ابن خلدون : ج 5 ص 194 ، Biquet : Op. Cit. P. 44 .

(333) ابن عذارى : ج 1 ص 89 ، السلاوى : ج 1 ص 121 .

(334) حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 14 .

وقت واحد ، فما ان تظهر الثورة في ناحية حتى يمتد اثرها الى ما عداها من اقاليم المغرب فتجتاح البلاد من مشرقها الى مغربها (335) .

كما اشتهر الخوارج في حروبهم بالشجاعة والاستبسال شأنهم في ذلك شأن الخوارج في الشرق « فكانوا يخلقون الرعوس وترتفع اصواتهم بالتحكيم » (336) اذكاء للحماس الذى عوضهم عن نقص السلاح .

لقد كان العرب يعتمدون في خططهم على الفرسان بينما كانت جيوش الخوارج في الغالب من الرجال ، ومع ذلك ابتكر الخوارج من الوسائل ما كانوا يرهبون بها خيل العرب وفرسانهم ، فيوقفون تقدمهم برميها « بالاوزاف (337) وهى الجلود اليابسة فيها الحجارة » (338) . كما كانوا يعتمدون الى « الرمك الصعبة فيعلقون في اذنابها القرب والانطاع اليابسة ويوجهونها نحو الخيل فتنفّر » (339) .

والى جانب الحماس والشجاعة تميزت ثوراتهم في كثير من الاحيان بالتنظيم المحكم الدقيق . وحسبنا ان انتصارات ميسرة جاءت نتيجة اعداد وتخطيط ، فكانت جيوشه تهاجم معاقل العرب في وقت واحد (340) ، كما نجح خلفه خالد بن حميد الزناتى في تطويق الجيش العربى رغم ضخامته وايقاعه في « كمين البربر » (341) ، وحصار القيروان من ناحيتين من قبل عكاشة النفزاوى وعبد الواحد الهوارى في محاولة للاتباق عليها (342) كان نتيجة تدبير محكم بين القائدين الصفرين ، ولم يحل دون نجاحهما الا فطنة حنظلة بن صفوان لخطتهما وافسادهما . ومن أسباب نجاح عاصم بن جميل في الاستيلاء على القيروان براعته في ايهام أهلها بأنه يوالى الخليفة المنصور (343) . وكان انسحاب أبو قرة الصفرى أمام جيوش الاغلب ابن سالم تخطيطا ذكيا لجره الى اقاصى المغرب في بلاد كان سكانها من

(335) مجهول : أخبار مجموعة ص 29 ، ابن عذارى ج 1 ص 88 .

(336) أخبار مجموعة صفحة 32 .

(337) ابن عبد الحكم صفحة 295 .

(338) أخبار مجموعة صفحة 33 .

(339) نفس المصدر والصحيفة .

(340) أخبار مجموعة ، صفحة 29 .

(341) ابن الاثير : ج 5 صفحة 69 .

(342) نفس المصدر : صفحة 70 .

(343) نفس المصدر : صفحة 117 .

الخوارج الصفرية حتى يضمن القضاء عليها جميعا (344) . وتفيض المصادر الإباضية بالكثير عن خطط الإباضية في اعداد الجيوش ومباغثة الخصوم اعتمادا على وسائل التهميه والخداع . ومن امثلة ذلك سياسة ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمح في اعداد جيوشه خارج طرابلس ثم دخوله المدينة وجنوده « مستترين في جواليق يحملها الجمال » والاستيلاء عليها في غفلة من اهلها (345) على غرار ما هو مشهور عن حرب طروادة. الا ان ابا الخطاب ذاته كان ضحية حيلة دبرها ابن الاشعث تمكن بواسطتها من هزيمة الإباضية ، على الرغم مما تسوقه المصادر الإباضية من حجج تدلل بها على فطنة القائد الاباضى لحيلة ابن الاشعث (346) .

وفضلا عن ذلك فقد اتسمت حركات الخوارج في المغرب بالاصرار المستميت على البقاء رغم ما حل بهم من نكبات وخاصة في عهدي المنصور والرشيد ، وحسبنا في هذا الصدد مذابح ابن الاشعث في الإباضية ، وما لاقاه الإباضية والصفرية على السواء في المجازر التي قام بها يزيد بن حاتم وعماله .

حقيقة ان هذه الضربات أوهنت حركات الخوارج وفتت في عضدها ، لكنها لم تقض عليها قضاء تاما ، فكان الخوارج عقب تلك المحن يدأبون على اعادة التنظيم ولم الشمل سرا بزعامة من سموه « بامام الدفاع » (347)، فاذا ما انسوا من انفسهم قوة عاودوا الخروج وأعلنوا الثورة على الولاة ، وهذا يفسر استمرار هذه الثورات قرابة نصف قرن ، فلم تخب نارها حتى حققت اهدافها وقامت للخوارج دول ببلاد المغرب ذات طابع استقلالى قومى .

ويتضح هذا الطابع القومى بشكل ظاهر في قيادة ثورات الخوارج فباستثناء ابي الخطاب المعافرى — الذى كان من اصل عربى — تصدرت ثورات الخوارج قيادات من البربر بئرا وبرانس ، فميسرة من مطفرة ، وخالد بن حميد الزناتى من زناتة ، وعكاشة بن أيوب من نفزاوة ، وعبد الواحد

(344) ابن خلدون : ج 6 صفحة 112 .

(345) ابو زكريا : ورقة 7 .

(346) نفس المصدر ورقة 10 ، الشماخى : السير ص 132 .

(347) الشماخى : صفحة 133 .

الهورى من هوارى ، وعاصم بن جميل من ورفجومة ، وأبو قرى من مغيلة وكلهم من زعماء الصفرية . أما زعماء الإباضية ، فقد كان عبد الله بن مسعود التجيبى من هوارى ، وكذلك كان الحارث وعبد الجبار ، ومن نفوسة تولى اسماعيل بن زياد ، وكان أبو حاتم المزوزى من هوارى . ولا شك أن تصدر هذه الزعامات لثورات الخوارج فى بلاد المغرب تعبير حى عن شخصية المغرب الإسلامى المستقلة وتجسيد لدوره الإسلامى بعد اعتناق البربر مبادئ الخوارج .

هذا ، ولم تسلم حركات الخوارج من نقائص وسلبيات ، ولعل أهمها أنه لم يكن هناك ثمة تعاون بين فرقتى الصفرية والإباضية ، وهى آفة موروثة عن خوارج المشرق . ولا نعتقد أنها كانت فى المغرب من جراء التجمعات القبلية التى اعتمد عليها كل فريق ، ذلك أن المذهبين الإباضى والصفرى انتشرا بين البربر واعتنقت بعض بطون القبيلة الواحدة المذهب الصفرى فى حين اعتنق بعضها الآخر المذهب الإباضى كما هو الحال بالنسبة لزنانة وهوارى . إنما كان عدم التعاون مرده الى الخلاف الجوهرى بين عقائد كلتى الفرقتين وهو خلاف يحول دون التقائهما فلم يكن قدوم داعيتى الفرقتين الى المغرب على ظهر بعير واحد . يعنى تعاوننا مشتركا أو توحيدا للجهود كما توهم البعض — وخاصة ابن خلدون — ممن خلطوا بين نشاط الإباضية والصفرية فى المغرب ، بل اتخذت الفرقتان اتجاها مغايرا ، فبينما اتجه الإباضية الى الأقاليم الشرقية من بلاد المغرب ، يمم الصفرية وجههم شطر الأجزاء الوسطى والقصوى منه . وإذا كانت بطون زنانة المنتشرة فى سائر جهات المغرب قسمة بين الفرقتين ، فلم يقدر لها أن تكون همزة الوصل بينهما ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن إباضية زنانة كانوا معول هدم فى حركات الإباضية ، وحسبنا دورهم المخرب فى ثورة أبى الخطاب المعافرى (348) . وليس من شك فى أن ما حدث من صراع بين الإباضية والصفرية على القيروان سنة 140 هـ (757 م) كان من أهم أسباب اضعافهما ووقوعهما لقمة سائغة لجيوش ابن الأشعث فرقة بعد أخرى . وما يروى عن تعاون بينهما فى حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) أمر مشكوك فى صحته .

ومن عيوب خوارج المغرب أيضا ما حدث من خلافات وانشقاقات

(348) ابن عذارى : ج 1 صفحة 83 .

داخل كل من الفرقتين ، ويخيل إلينا أنها كانت من ميراث المشاحنات القبلية التقليدية التي عرفها تاريخ المغرب فمثلا نعتقد أن الخلاف على ميسرة واقصائه عن زعامة الصفرية وتولية خالد بن حميد الزناتي بدلا منه ، كان محاولة من زناتة لتزعم الحركة ، واقصاء مطغرة عن مركز الصدارة كان بسبب تلك النزعة الزناتية (349) . ومن المؤكد أن برغواطة اعتزلت النشاط الصفري واتخذت عقائدها طابع التطرف من جراء ما حل بحليفها ميسرة المطغري من اهمال ونكران (350) . وكذلك كان شأن الإباضية ، دب بينهم الخلاف والشقاق ، وقد سبقت الإشارة الى دور زناتة في تصدع حركة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع وتخليها عنه في وقت عصيب لاسباب قبلية كامنة في التنافس بينها وبين هواره . كما تولى بعض رجال نفوسة (351) ومليلة (352) عن أبي حاتم الملوزي وانضموا الى يزيد بن حاتم ، فأدى ذلك الى هزيمة الإباضية سنة 154 هـ (770 م) .

ويعاب على خوارج المغرب كذلك سطحية الفهم لمبادئ المذهب ، واسرافهم في تطبيق تعاليمه . لقد حضت مبادئ الخوارج على الثورة على ائمة الجور (353) ، لكن خوارج المغرب أعلنوا الثورة في كثير من الاحيان على الحكام العرب بغض النظر عن تعديهم وظلمهم أو عدلهم ونزاهتهم ، فلا شك أن بلاد المغرب حكمها ولاية مستنيرون دأبوا على الاصلاح من أمثال عمر بن حفص ويزيد بن حاتم ، لكن ثورات الخوارج استهدفت الحكم العربى عموما ، فلم يسلم هؤلاء الولاية من خطر الخوارج . كما أسرف الصفرية بوجه خاص في استخدام العنف والقسوة فكانوا يقتلون الاطفال ويسبون النساء انطلاقا من تطرف المذهب الصفري في معاملة الخصوم .

وآفة ثورات الخوارج عموما في المغرب عدم اتصالها وتنسيقها مع حركاتهم في الشرق ، ولو أحكم مثل هذا الاتصال لكانت نتائجها أكثر نجاحا ، ولما قدر للخلافة أن تصفى نشاط خوارج الشرق بمثل السهولة التي

(349) اليعتوبى : البلدان : صفحة 359 .

(350) عبيد الله بن صالح : نص جديد ص 224 ،
Marcais : La Berberie Musulmane. P. 48.

(351) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 18 .

(352) أبو زكريا : ورقة 12 ، الشماخي : السير ص 136 .

(353) البغدادي : الفرق بين الفرق 273 .

تمت بها (354) .

ومع ذلك كانت لثورات الخوارج آثار واضحة في تاريخ المغرب ، ذلك أن هذه الثورات احتوت سائر قبائل البربر يترا وبرانس ، ولم تكن حكرا على قبيلة زناتة كما يذهب جوتييه الذى نظر الى ثورات الخوارج على انها ثورات زناتة دون سواها ، الامر الذى جعلنا نقف عند رايه هذا محاولين أن نناقشه متبينين ما فيه من خطأ أو اسراف .

يقول جوتييه « ما هي مراكز الثورات ؟ وما هي القبيلة التى رفعت العلم الذى تركه كسيلة والكاهنة منكسا ، لقد اختلف المؤرخون العرب كعادتهم حول هذا الامر وان اجمع معظمهم في اقتضاب على ذلك الشيء الواضح للعيان ، على زناتة . لقد قامت الثورة بادىء الامر في طنجة ، وما لبثت ان وصلت الاتدلس على التو . . ثم انتشرت على طول الطريق من طنجة الى القيروان . . انتهت الثورة الاولى بمعركة الاشراف على وادى شلف ، والثانية على وادى سبو والثالثة في القرن على مشارف القيروان ، اما الرابعة فقد وقعت في الشرق بنواحي طرابلس . . وهذا يعنى أن الاحداث البارزة في الفترة ما بين عامي 743 ، 752 م (125 ، 135 هـ) تركزت حول طرابلس وتونس وتلمسان . اما تلك التى وقعت في عامي 757 ، 758 م (140 ، 141 هـ) فكانت القيروان ميدانها حين وقعت فريسة لورفجومة الصفرية . وقد تمثل رد الفعل العربى في حملة ابن الاشعث الذى هزم الخوارج في سرت واسترد القيروان لكنه اخفق في اقضاء الخوارج عن تلمسان التى كانت مركزا لحركة ابي قررة اليفرنى سنة 765 م (148 هـ) .

ثم استرد الخوارج طرابلس مرة اخرى ، ونصبوا الحصار حول القيروان . ويجمع المؤرخون على حصارهم طبنة سنة 770 م (153 هـ) ثم القيروان حيث صرع عمر بن حفص سنة 771 م (154 هـ) أثناء الحصار .

(354) من أهم حركات الإباضية في الشرق والمعاصرة لثوراتهم في المغرب حركة ابي حمزة وطالب الحق بالبين وحضر موت ، وقد تم القضاء عليها سنة 134 هـ وكذلك حركة الجلندى بعمان التى قتمت في نفس العام . انظر ابن الاثير ج 5 ص 145 ، 169 . أما حركات الصفرية فاشهرها ثورة شيبان الحروري بالموصل التى اخمدت سنة 130 هـ ابن الاثير : ج 5 ص 132 . وحركة شيبان بن عبد العزيز سنة 134 هـ ، وقد قتل على يد الجلندى الإباضى حين لجأ اليه هربا من العباسيين : انظر ابن الاثير : ج 5 ص 169 وحركة بلهد بن حرمة الصفري سنة 137 هـ ، وقد قتل في عهد المنصور سنة 138 هـ . راجع : ابن الاثير : ج 5 ص 180 ، 181 .

وتمثل رد الفعل العربى فى حملة يزيد بن حاتم وجهوده غربى القيروان فى الاريس وطبنة والزاب . وبعد ذلك حلت فترة سلام امتدت بين عامى 771 ، 778 م (154 ، 170 هـ) . وعلى ذلك فان ثورات الخوارج قد شغلت النصف الاخير من القرن الثامن الميلادى . .

فما هو اذن الميدان الذى دارت فيه تلك الاحداث التاريخية ؟ لقد دارت فى طنجة ووادى سبو وتلمسان ووادى شلف وهدنة وجنوب تونس وطرابلس ، وكلها تقع فى سلسلة السهول والهضاب العالية التى تقطنها زناتة . . لقد كانت روح زناتة اذن هى الدافع وراء هذه الاحداث . وليكن معلوما ان هذا الزلزال العظيم الذى اجتاحت بلاد المغرب كان يحركه — ضمن عوامل اخرى — عامل مغربى خالص ظهر على الاقل فى الثورات الاولى التى قامت فى طنجة . ويجب الا يغيب عن البال ان حركات الخوارج انطوت على عناصر تنتمى الى عالم الليفانت (يقصد الفرس والخراسانيين والعرب) . . وعلى الرغم من اسهام بعض القبائل كصنهاجة وكنانة فى ثورات الخوارج ، فمما لا شك فيه ان الزعامة فى هذه الحركات كانت دائما لزناتة . . وعلى ذلك نسلم بداهة بان ثورات الخوارج فى المغرب ما هى الا ثورة زناتة ، وان الدور الذى لعبته فى هذا الصدد هو اولى ادوارها على مسرح التاريخ المغربى » (355) .

ويخيل لنا ان مكن الخطأ فى رأى جوتيه هو نظرتة الى المناطق التى شهدت المعارك الكبرى بين الخوارج والعرب على انها مواطن قبيلة زناتة دون ان يفتن الى امرين : اولهما ، ان مواطن القبائل البدوية لم تكن ثابتة ثبوتا قاطعا ، فهى دائمة الترحال والانتقال بقطعانها وراء المراعى ومواطن الكلا . وثانيهما ، ان قبيلة زناتة كانت منتشرة فى بلاد المغرب من اُدناها الى اقصاها مختلطة بغيرها من القبائل ، فمواطنها كما يقول ابن خلدون (356) « فى سائر مواطن البربر بافريقية والمغرب ، فمنهم ببلاذ النخيل ما بين غدامس والسوس الاقصى ، ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحي افريقية وبجبل أوراس ، والاكثر منهم بالمغرب الاوسط ، ومنهم بالمغرب الاقصى اُمم اخرى » . فالمعارك الكبرى اذن لم تقع فى مواطن زناتة وحدها انما فى « سائر مواطن البربر » .

(355) راجع : Gautier : Les Siecles obscurs du Maghreb. P.P. 264 - 269.

(356) العبر : ج 7 صفحة 2 .

ثم أن جوتيه بنى رأيه على أساس أن المؤرخين العرب القدامى ذكروا أن زناتة وحدها تزعمت ثورات الخوارج وساعدت على قيامها . والحقيقة أننا لم نجد مؤرخا واحدا يشير الى مثل هذا الامر البتة . بل نجد عندهم من الاشارات ما يدل على عكس ذلك ، فابن خلدون (351) مثلا يقول عن ثورات الخوارج في عهد عبد الرحمن بن حبيب « . . فاستشرى داء البربر ، وأعضل أمر الخارجية ورؤسها ، فانتفضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الامر بكل ما كان داعين الى بدعتهم ، وتولى كبر ذلك يومئذ صنهاجة » .

ويكفى أن نشير الى ثورات الخوارج لنتبين هذا الاسراف في القول . فأولى الثورات في بلاد المغرب سنة 121 هـ (739 م) قامت بزعامة مطغرة أول الامر ، ثم تصدت زناتة بعد ذلك لقيادتها حين أقصى ميسرة وحل خالد ابن حميد الزناتى محله في زعامة الثورة . وإذا كانت زناتة قد برزت في هذه الحركة فذلك لا يعنى انها كانت وقفا عليها ، بل ساهمت فيها قبائل المغرب الاقصى برمتها ، وهذا يفسر قول ابن الاثير (358) بأنها « شملت المسلمين والكفار » .

وإذا كانت زناتة قد تزعمت هذه الثورة في مرحلتها الاخيرة فان صوتها قد خفت بعد ذلك ، ثم عادت الى الظهور في حركة أبى قررة الصفري . اما الثورة الصفرية الثانية التى تزعمها عكاشة بن أيوب النفاوى وعبد الواحد الهوارى سنة 124 هـ (742 م) فقد لعبت هوارة ونفزة (359) دور الصدارة فيها ، واشتركت فيها زناتة كحليف لعبد الواحد الهوارى (360). اما ثالث ثورات الصفرية التى مكنت الصفرية من القيروان سنة 139 هـ (756 م) ، فقد قامت على أكتاف قبيلة نفزة بصفة عامة ورفجومة بصفة خاصة (361) ولم نسمع عن صوت لزنانة في ثورات الصفرية في اقليم الزاب ، فقد كانت مقصورة على قبيلتي نفزة وهوارة (362) .

ولم يكن لزنانة دور يذكر في ثورات الاباضية ، فقد كانت الزعامة

(357) العبر ج 6 صفحة 111 .

(358) الكامل ج 5 صفحة 70 .

(359) ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .

(360) ابن عبد الحكم : نفس المصدر والقيمة .

(361) الرقيق : ص 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 80 .

(362) ابن خلدون : ج 2 ص 193 .

فيها لهوارة (363) . فحركة عبد الله بن مسعود التجيبي سنة 126 هـ (744 م) وثورة الحارث وعبد الجبار التي استمرت حتى عام 131 هـ (749 م) كانتا حكرا على اباضية هواراة في أحواز طرابلس (364) . بينما تزعمت نفوسة الحركة التالية بزعامة اسماعيل بن زياد النفوسى سنة 132 هـ (750 م) (365) . ولا نجد لزنانة ذكرا الا في حركة ابي الخطاب المعافري سنة 140 هـ (757 م) وهى حركة كانت هواراة مركز ثقلها بينما لعبت زنانة فيها دورا غير مشرف (366) . وثورة الاباضية العظمى التي قام بها ابو حاتم الملووزى كانت ثورة هواراة أيضا ، وكان ابو حاتم نفسه من مليلة وهى بطن من بطونها (367) ، وظلت هواراة وحدها قائدة للحركات الاباضية التى قامت فى سنتى 156 هـ (368) (773 م) و 180 هـ (796 م) (369) فى المغرب الادنى الى جانب ثورة نفزة بباجة التى قمعها داود بن حاتم (370) .

قصارى القول — أن زنانة أسهمت فى ثورات الخوارج الصفرية مع غيرها من القبائل ، وكانت القيادة فى هذه الثورات متداولة بين مطفرة وزنانة ونفزة وهواراة ومغيلة على التوالى . بينما يعتبر اسهامها فى حركات الاباضية ضئيلا للغاية ، فقد تصدرت هواراة دون منازع هذه الحركات من البداية حتى النهاية .

ومهما يكن من أمر فقد أسفرت ثورات الخوارج عن قيام دولتين ببلاد المغرب احدهما للصفرية سنة 140 هـ (757 م) ومركزها سجلماسة والاخرى للاباضية وعاصمتها تاهرت سنة 161 هـ (778 م) ، وكذلك كان قيام دولة الاغالبة فى افريقية سنة 184 هـ (800 م) بمثابة رد الفعل العربى لقيام دول من البربر ، فقد حرص الرشيد على ضمان استمرار نفوذ الخلافة فى افريقية حتى ولو كان هذا النفوذ اسبيا ، ومن ثم فقد أقر قيام الامارة الاغلبية لتحويل دون زوال هذا النفوذ ولتقف حاجزا أمام خطر الدولة الادريسية العلوية والدولتين الخارجيتين المدراية والرستمية .

(363) نفس المصدر ج 6 ص 144 .

(364) ابن عبد الحكم : ص 301 ، 302 .

(365) نفس المصدر ص 302 .

(366) ابن عذارى : ج 1 ص 83 .

(367) ابو زكريا : ورقة 12 .

(368) ابن عذارى : ج 1 ص 94 .

(369) ابن الاثير : ج 5 ص 46 .

(370) ابن خلدون : ج 6 ص 110 ، النوبرى : ج 22 ورقة 23 .

الباب الثالث

دول الخوارج في بلاد المغرب

كللت ثورات الخوارج الصفرية بالنجاح في المغرب الأقصى على يد ميسرة وخليفته خالد بن حميد الزناتي ، كما نجح الخوارج الاباضية فسي بسط نفوذهم على المغرب الأدنى بعد قيام « امامة الظهور » على يد ابي الخطاب المعافري سنة 139 هـ (756 م) . غير أن نشاط الخوارج لازمه انفضال حين رنوا بأبصارهم صوب افريقية لسببين رئيسيين ، اولهما : التنافس بين الصفرية والاباضية على امتلاك القيروان واندلاع الحرب بينهما سنة 140 هـ (757 م) ، الامر الذي اضعفهما معا ، فوقعوا لقمة سائغة لحيوش ابن الاشعث سنة 141 هـ (758 م) . وتسبب هذا التنافس أيضا في فشلهم في حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 153 هـ (770 م) ، وأسفر اختلافهم عن تنكيل يزيد بن حاتم بهم جماعة في اثر اخرى سنة 155 هـ (772 م) .

وثانيهما : صحوه الخلافة العباسية وحرصها على دعم نفوذها في افريقية بانفاذ الحملات المتتالية التي عهد بقيادتها الى قواد اكفاء من أمثال ابن الاشعث والاغلب بن سالم وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم .

ولذلك استحال استمرار نشاط الخوارج في افريقية وخاصة بعد قيام حكم آل المهلب الاتوياء في القيروان وعدم توانيهم عن ملاحقة حركاتهم ومناهضتها . عندئذ اتخذت حركات الخوارج طابعا عمليا (I) ، فعزفوا عن مناطق النفوذ العربى نهائيا واتجهوا الى المناطق الصحراوية النائية بالمغربين الأقصى والاوسط حيث عول الصفرية على اقامة دولة في جنوبى المغرب الأقصى معقل الخوارج الصفرية كانت سجلماسة عاصمة لها . بينما أثر الاباضية اقامة دولتهم بالمغرب الاوسط حيث تضرب كثير من القبائل التى تدعى بالمذهب الاباضى مثل زناتة ولماية وهوارة ولواتة وسدراتة

(1) Marçais, G : La Berberie Musulmane. P. 141.

وغيرها (2) . واتخذوا من مدينة تاهرت عاصمة لها .

والواقع ان ظهور دولتي الخوارج يمثل نقلة هامة في تاريخ الخوارج وتاريخ المغرب على السواء . فقد توجت دعوتهم في بلاد المغرب بتحقيق اهدافها في اقامة دولة خارجية (3) بعد ان فشلوا في تحقيق ذلك بالشرق واتاح ذلك لهم ان ينعموا بالاستقرار السياسي بعد حروب استمرت ما يقرب من نصف قرن من الزمان . ومن ناحية اخرى فان قيام دولتي الخوارج كان بمثابة تعبير عن روح القومية والاستقلال عند المغاربة . فضلا عن الآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها بلاد المغرب وهو ما سندرسه فيما بعد مفصلا .

(2) النوسى : صفحة 4 .

(3) ابو زكريا : ورقة 13 .

أولا :

دولة بني مدرار الصفرية

أ - قيام دولة بني مدرار

كان الخوارج الصفرية سباقين الى انشاء دولتهم في سجلماسة سنة 140 هـ (757 م) ، كما كانت لهم الاسبقية من قبل في المبادرة بالثورة سنة 121 هـ (739 م) . غير أن المؤرخين الغربيين (4) درجوا على التقليل من شأن هذه الدولة فاعتبروها مجرد دويلة لا يعتد بدورها في تاريخ بلاد المغرب . ويخيل اليها ان الباعث على ذلك يكمن في امرين أساسيين ، أولهما : أن دولة بني مدرار كانت دولة داخلية صحراوية لم تسهم بدور مباشر في التيارات السياسية العالمية — كدولة الاغالبة المعاصرة لها على سبيل المثال — واقتصرت نشاطها على المشاركة في حركة التجارة عبر الصحراء شمالا وجنوبا .

وثانيهما: ندرة المعلومات عن هذه الدولة بدرجة جعلت المؤرخين يحجمون عن التاريخ لها ، فظل تاريخها يلفه الغموض والابهام (5) . وعلى كل حال — استطاع الخوارج الصفرية في سنة 140 هـ (757 م) أن يستنفذوا من اضطراب الاحوال في افريقية وقيموها دولتهم

(4) انظر : Gautier : Op. Cit. P. 292, Biquet : Op. Cit. P. 47

(5) انظر المقدمة .

في سجلماسة على وادي ملوية (6) ، فعمال الخلافة في المغرب شغلوا آنذاك عن الاقاليم الغربية والجنوبية بتدعيم نفوذها في المغرب الأدنى وإفريقية (7) ، فوجد الصفرية في ذلك فرصة مواتية لتأسيس دولتهم في مأمن من نقمة الخلافة وعمالها .

وينم اختيارهم إقليم تافيلست بأقصى الصحراء الكبرى من حكمة وذلك أن هذا الإقليم النائي من بلاد المغرب يمثل نهاية العمران من ناحية الجنوب والغرب (8) والطريق إليه غاية في الوعورة إذ يمتد خلال متاهات من القنار والرمال ، ولذلك فهو في حماية طبيعية اتاحت لبربر مكناسة أن يتخذوا من قصبته سجلماسة (9) عاصمة لهم .

ومكناسة هي العصبية التي ارتكزت عليها دولة بني مدرار (10) وليست زناتة أو نفوسة (11) ، ومواطنها على وادي ملوية (12) — حيث تقع سجلماسة في أعلاه — هذا الوادي يصب في البحر المتوسط ، وكذلك تقطن بعض بطونها في نواحي تازا وتسول بالمغرب الأقصى (13) . وبربر مكناسة من البتر وبتونهم كثيرة منها « صولات وبوحات وبنو ورفلاس وقيصارة وورقطننة وورصطف » (14) وكلهم من سكان الصحراء (15) .

واسهمت عناصر أخرى غير مكناسة في قيام الدولة ، ولعل من أبرزها بربر صنهاجة وزويلة وزناتة وزنوج السودان وأهل الربيض الأندلسيين ، ويفهم هذا من قول اليعقوبي (16) بأن عناصر شتى استقرت

(6) البكري صفحة 149 ،
Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. Vol. I. P. 243.

(7) ابن عذاري : ج 1 صفحة 73 ،
Bel : Op. Cit. P. 95.

(8) البكري : ص 148 ، الاستبصار ص 200 ، التلغشدي : ج 5 ص 163 .

(9) الاصطخرى : المسالك والممالك ص 34 ،

Marcais, G : La Berberie Musulmane. P. 143.

كولين : مادة سجلماسة — دائرة المعارف الإسلامية ص 298 .

(10) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،
Gautier : Op. Cit. P. 292. Bel : Op. Cit. P. 167.

(11) انظر : ابن الخطيب : أعيال الاعلام ج 3 ص 137 ، عبد الرحمن بن زيدان : اتحاد
اعلام الناس ج 1 ص 62 ، مؤنس : ثورات البربر ص 187 .

(12) وهو نهر زيز كما يسميه اليعقوبي . انظر : البلدان ص 359 ، كولين : المرجع
السابق صفحة 298 .

(13) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(14) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة .

(15) نفس المصدر والصحيفة .

(16) البلدان : صفحة 359 .

في سجلماسة ، فقبائل صنهاجة اللثام من مسوفة وملتونة كانت تضرب في أحواز سجلماسة على طول المفازة بينها وبين غانة السودانية (17) ويبدو أنهم كانوا من الكثرة بالمدينة حتى أن البكرى وصف سكانها بأنهم « كانوا يلتزمون النقاب » (18) . ونعلم أن عنصر السودان أسهم في قيام دولة بنى مدرار، فكانت جماعات منهم تقيم باقليم تافيلت بعد اعتناقهم المذهب الصفري على يد أبى القاسم سمكو بن واسول (19) . وحسبنا أن أول من تولى الامامة في الدولة كان سودانيا يدعى عيسى بن يزيد الاسود .

وكان اشتغال بربر زويلة — ومواطنهم جنوبى سجلماسة — بالوساطة التجارية ومرافقه القوافل عبر المفاوز ما بين سجلماسة وبلاد السودان سببا في اعتناقهم المذهب الصفري ومشاركتهم صفرية تافيلت في انشاء دولة بنى مدرار (20) .

وعلى الرغم من استبعاد الرواية القائلة بتأسيس ربح الأندلس مدينة سجلماسة وأن أول أئمة الدولة كان منهم (21) ، فلا شك في أنهم قاموا بدور واضح في تدعيم الدولة بعد نزول أعداد غفيرة منهم بسجلماسة واعتناقهم المذهب الصفري (22) ، وخاصة فيما يتعلق بالنواحي المهنية والعمرانية .

على أن الفضل يعزى الى مكناسة في جمع شمل هذه العناصر جميعا في نظام سياسى واحد بعد أن كانت تضرب في اقليم تافيلت دونما صلة أو رباط يجمعها (23) ، فتمكن زعيمها أبو القاسم سمكو بن واسول من تجميعها حول المذهب الصفري وضمها في كيان واحد . ويعزى دور مكناسة القيادي هذا الى اسبقيتها في اعتناق المذهب الصفري ، فقد وصلها فى وقت مبكر إذ تلقاه المكناسيون « عن أئمتهم ورؤسهم من المغرب » (24) فكان زعيمهم أبو القاسم سمكو على صلة بعكرمة منذ وصوله الى القيروان، وهو من أشهر دعاة الصفرية في بلاد المغرب على الإطلاق . وبعد نشره

(17) مجهول : الاستبصار ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 231 .

(18) المغرب صفحة 148 .

(19) نفسه : صفحة 149 .

(20) الاصطخرى : ص 34 ، الاستبصار ص 201 ، المقدسى : احسن التقاسيم ص 231 .

(21) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .

(22) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 80 .

(23) النفوسى : الازهار الرياضية ج 2 ص 93 .

(24) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292.

المذهب بين قومه من مكناسة ، عكف على بثه بين سكان اقليم تافيلت ، وهذا يخالف قول صاحب الازهار الرياضية (25) بأن المذهب الصفري انتقل الى مكناسة عن طريق اهل تافيلت في وقت متأخر اثناء شروعه في اقامة دولة بنى مدرار . اذ الثابت ان بربر مكناسة وزعيمهم ابي القاسم سمو اشتركوا في ثورة ميسرة المطغرى سنة 121 هـ (26) (739 م) .

ولم نقف على دور لابي القاسم في ثورات الصفرية بعد ميسرة ، ويبدو أن سيطرة زناتة على الحركة ، وتولى من هم اقل منه مكانة وسابقة في المذهب زعامتها ، جعله يعزف عن المشاركة فيها ، أو لعله زهد في اسلوب الثورة وآثر الانقطاع لنشر المذهب في الاصقاع الجنوبية تمهيدا لانشاء دولة للصفرية هناك ، فتوجه الى تافيلت حيث تضرب جماعات من السودان وبعض بطون صنهاجة وهم غالبية سكانها (27) . وجدير بالذكر أن هذه الجماعات « كانوا اهل بادية وحواضر وحراشات » (28) ، فكانوا يعملون بالرعى والزراعة (29) الى جانب التجارة (30) كما عرفوا بالتدين وحب العلم والرغبة في طلبه الى جانب شدة البأس والنجدة وقوة العريكة ، « فهم اهل علم وسلاح » (31) . لذلك وجد فيهم ابو القاسم سمو — الملقب بمدرار (32) — ضالته المنشودة ، فكانوا اعونا له على انشاء الدولة التي نسبت اليه .

نزل ابو القاسم ارض تافيلت سنة 138 هـ (33) (755 م) واشتغل

(25) النسوي : صفحة 93 .

(26) ابن خلدون ج 6 ص 130 ، Gautier : Op. Cit. P. 292 .

(27) اليعقوبي : البلدان صفحة 359 .

(28) اسماعيل حامد (جامع) : نبذة في تاريخ الصحراء القصوى ص 7 .

(29) نفسه : صفحة 3 .

(30) مجهول : الاستبصار . صفحة 200 .

(31) اسماعيل حامد : المرجع السابق ص 7 .

(32) نرجح أن مدرارا كان لقب ابي القاسم كما يذهب ابن الخطيب ، وليس اسم جده كما اعتقد ابن عذارى ، أو اسمه هو حسبما ذكر صاحب كتاب الاستبصار ونجد في رواية أخرى لابن الخطيب خلطا بين شخص ابي القاسم سمو وبين عيسى بن يزيد ، فينسب دور ابي القاسم الى عيسى ولا يورد للاول ذكرا . أما البكري فينسب الفضل في قيام الدولة المدرارية الى جهود ابي القاسم لكنه يشير الى لقبه . وجدير بالذكر أن رواية البكري عن دولة بنى مدرار اصح الروايات وأكثرها صدقا ، وقد أخذ بها كبار الدارسين مثل مورنل وبرسييه . انظر : ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 138 ، 140 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، الاستبصار ص 201 ، البكري : ص 149 ، Mercier : Histoire de l'Afrique : P. 243.

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(33) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 138 .

بالرعى وأخذ يتصل بغيره من الرعاة الذين كانوا ينتجعون بقطعانهم موضع سجلهماسة ، ويعلمهم أصول المذهب الصفري (34) ، وأصبحت خيمة أبى القاسم بمثابة مجمع يلتقى به أنصاره (35) . ولما اشتد ساعده وكثر أتباعه نصبوا خيامهم الى جواره (36) ويذهب بعض المؤرخين (37) الى أن أبا القاسم شرع فى اعلان قيام دولته سنة 140 هـ (757 م) لما بلغ عدد أنصاره أربعين رجلا ، « فعندئذ بايع بالامامة عيسى بن يزيد الاسود وحمل قومه من مكناسة على طاعته » .

على كل حال — كانت مبايعة عيسى بن يزيد الاسود بالامامة (38) وهو من موالى العرب (39) — وانصياع صفرية مكناسة لبيعته بعد أن حملهم أبو القاسم على الاعتراف بامامته (40) ، تطبيقا عمليا لرأى الخوارج فى الامامة . ولما كان عيسى بن يزيد الاسود لا يرقى الى منزلة أبى القاسم سمو من حيث السابقة فى المذهب او الافضلية فى العلم ، فإن اختياره

(34) لا اعتبار لما يقال عن أن أبا القاسم كان إباضيا (الأزهار الرياضية ج 2 ص 93) أو أنه كان إباضيا صغريا كما ذهب ابن خلدون (المعبر ج 6 ص 130) . فنحن نعلم أن أبا القاسم كان من دعاة عكرمة مولى ابن عباس و « مقدم الصفرية » انظر : برونسسال : نبذ تاريخية ص 48 ، الشطبيى : الجبان ورقة 203 .
(35) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.
(36) البكرى : ص 149 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .
(37) نفس المصدرين والصفحتين ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، الاستبصار ص 201 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 352.

(38) النفوسى : صفحة 93 .
(39) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .
(40) ينفى هذا ما ذهب اليه بل من التفاف بربر مكناسة حول عيسى بن يزيد ومبايعته طائعين مختارين . La religion Musulmane. P. 176. والواقع أن الفضل يعزى الى أبى القاسم سمو فى تقديم عيسى بن يزيد ، ولعل ذلك كان سببا فيما درجت عليه بعض الروايات من الخلط بينهما ، إذ تذهب الى أن الذى تولى الامامة شخصا أسود يدعى مدرارا . وتزعم أنه كان حدادا قدم من الأندلس بعد موقعة الرض . انظر : البكرى : ص 149 ، الاستبصار ص 201 ،

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 523.
ومن المعروف أن أهل الرض رحلوا عن قرطبة سنة 198 هـ بينما قامت دولة مدرار سنة 140 هـ . انظر : ابن خلدون ج 4 ص 126 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 523.

ومع ما تنطوى عليه تلك الرواية من أخطاء فلا شك فى أهمية مغزاها لما تبرزه من نزوح أعداد غفيرة من الأندلسيين بعد حادث الرض الشهير الى سجلهماسة ، واستيطانهم بها — على غرار ما فعلوه بفاس — واسهامهم فى عمارتها واشتغالهم بالحرف والصناعات كالحداثة وأعمال البناء وغيرها . انظر : ابن خلدون : ج 3 صفحة 126 ، Condé : Op. Cit. P. 262. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى صفحة 405 .

للإمامة يدل على ثقل وزن عنصر السودان ورجحانه على سائر العناصر الصفرية باقليم تافيلت . ومما يؤكد ذلك أن غالبية بربر مكناسة لم يكونوا قد انتقلوا بعد من مواطنهم الأولى ليستقروا في اقليم تافيلت ، فلم يحدث هذا الا بعد اختطاط سجل مكناسة ، يؤيد ذلك قول ابن خلدون (42) « . . وبعد أن اختطوا سجل مكناسة سنة 140 هـ دخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم » .

أجمع الصفرية اذن على مبايعة عيسى بن يزيد بالإمامة (43) سنة 140 هـ (757 م) . وفي نفس السنة شرعوا في اختطاط سجل مكناسة (44) لتكون حاضرة للدولة (45) . وقد أصبحت سجل مكناسة مركزا للإمارة (46) ومقرا للمذهب الصفرى .

وقد حرص الصفرية على انشاء هذه العاصمة في مكان حصين ، فأقاموها في « موسطة الصحراء » (47) جنوبى تلمسان بعشرة مراحل ، وفي موضع التقاء فرعى نهر ملوية (48) . وأسس الصفرية حصنا في وسط المدينة أسموه العسكر ، كما أسسوا المسجد الجامع ودار الإمارة (49) . ثم أقبل الناس على بناء دورهم حول الحصن (50) ، فانتسح العمران حتى جاوزت المدينة فرعى نهر ملوية (51) . وقد أسهم في بنائها معماريو الاندلس

(41) المعبر ج 6 ص 130 ، النفوسى : ص 93 .

(42) المعبر ج 6 ص 130 ، النفوسى : ص 93 .

(43) لم يرد بالمصادر ذكر تقلد أمراء بنى مدرار الخلافة أو الإمامة باعتبارهم رؤساء روجيين وسياسيين كما يفهم من لقب الإمام أو الخليفة . ونعتقد أن سبب ذلك يمكن في أن تواريخ الصفرية لم تصل إلينا ، وكل ما وصلنا عنهم مستمد من المصادر المعادية لهم . . عن ألقاب الإمامة والخلافة . انظر : حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص 60 .

(44) الثابت أن مدينة سجل مكناسة استحدثتها بنو مدرار ولم يكن لها وجود من قبل على عكس ما قيل من أن الاسكندر ذو القرنين أسسها لتكون موطنًا للمعزة والمرضى من جنوده ، فتلك رواية أسطورية ، وما ذكره الحسن الوزان من أن أحد قواد الرومان أسسها باسم Sigillm mese مقب احدى انتصاراته . انظر : كولين : مادة سجل مكناسة - دائرة المعارف الإسلامية - ص 298 .

(45) المقدسى : صفحة 219 .

(46) كان يتبع سجل مكناسة عدد من الحصون والمنازل والقرى كدرعة وتدانقوست وأثر ايللا وحصون النحاسين وهلال وغيرها . انظر : اليعقوبى : البلدان ص 359 ، المقدسى : صفحة 219 .

(47) المراكشى : المعجب ' صفحة 357 .

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(48) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،

(49) المقدسى : صفحة 231 .

(50) الاستبصار : صفحة 201 .

(51) الادريسي : صفحة 60 .

فضلا عن اليهود الذين استقروا بها لاستغلال التبر (52) . كما أسس سورها سنة 208 هـ (823 م) في عهد اليعس بن أبى القاسم ، وبه من الأبواب اثنتى عشر بابا (53) . « منها الباب القبلى والباب الغربى وباب غدير الجزارين وباب زنانة » (54) . ويصف ابن حوقل (55) — الذك زارها فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى — أبنيته بأنها « شاهقة كأبنية الكوفة » . لأنها بنيت بالصخر فبقيت قائمة عدة قرون حتى وصفها ابن مقديش (56) بأنها « مسنة » .

ولما كانت سجلماسة محصورة بين فرعى نهر ملوية ، فقد توفرت لها المياه . لهذا عمل عيسى بن يزيد على تنظيم الافادة منها ، فشق القنوات « وصرف الى كل ناحية قدرها من مائة » واستكثر من غرس النخيل (57) . وهذا يعنى أن تأسيس سجلماسة ارتبط به تحول فى حياة السكان من الرعى والبداءة الى الزراعة والاستقرار (58) ، ولا غرو فقد غدت سجلماسة مدينة النخيل والاعناب والفاكهة (59) . وقد أفاض الجغرافيون (60) والرحالة فى وصف غروبها التى غطت مساحة قدرها أربعين ميلا . وإلى جانب الفاكهة تنوعت المحاصيل « حسب زرع مصر فى الفلاحة » (61) مما حدا بالادريسي (62) الى أن يصف المدينة بأنها « كثيرة الخضر والنبات » . وبفضل هذه المنتجات المتعددة قدر لها أن تلعب دورا تجاريا هاما فى بلاد المغرب (63) والسودان حتى أضحت سكانها « سراة مياسير يباينون سائر أهل المغرب بالمخبر والمنظر » (64) .

ولا شك فى أن هذا الازدهار الاقتصادى الذى واكب انشاء سجلماسة

(52) الاستبصار : صفحة 202 .

(53) نفس المصدر : صفحة 201 .

(54) المتدسى : صفحة 231 .

(55) المسالك والممالك : صفحة 65 .

(56) نزهة الانظار : صفحة 11 .

(57) ابن الخطيب : أعمال الاعلام ج 3 ص 139 .

(58) الاستبصار : صفحة 201 . Juliene : Op. Cit. P. 339 .

(59) البكرى : صفحة 148 .

(60) انظر : البكرى ص 148 ، ابن حوقل : ص 65 ، الطقشندى : ج 5 ص 164 .

(61) ابن حوقل : ص 65 ، سعيد بن مقديش : ص 10 .

(62) صفة المغرب : صفحة 60 .

(63) نفس المصدر والمصينة .

(64) ابن حوقل : ص 65 ، الطقشندى : ج 5 ص 164 .

ساعد على تدعيم دولة بنى مدرار ، فقد غدت قبلة للخوارج الصفرية في بلاد المغرب بأسره . وقصدها جموع الصفرية من كل صوب لائذين هربا من انتقام ولاية بنى العباس من آل المهلب . وكان لذلك أثره في تقوية الكيان السياسى لدولة كانت تعاني من نقص في السكان (65) . كما أدت هذه الهجرات بدورها الى نتائج سياسية غاية في الأهمية في التطور السياسى لدولة بنى مدرار ، اذ هجرت بقية بطون مكناسة مواطنها الأصلية ، واستقرت بالمدينة الجديدة ، وغدت أكثر العصبية واثقواها ، واهلها ذلك للزعامة السياسية والتطلع لمنصب الإمامة .

ثم انتقلت الإمامة بالفعل الى أبى القاسم سمكو ، حين سخط صفرية مكناسة على الامام عيسى بن يزيد ونحوه ، وولوا زعيمهم أبا القاسم سمكو مكانه . وما يسوقه المؤرخون من أسباب في هذا الصدد تتسم بالإبهام وتفتقر الى التحديد ، اذ ذكر بعضهم (66) «أنهم نقموا عليه كثيرا في أحواله»

وثمة رأى ثالث ساقته البكرى (68) . حيث قال أن «أبا الخطاب قال يوما لأصحابه في مجلس عيسى ، السودان كلهم سراق حتى هذا ، وأشار على عيسى . فأخذوه وشدوه وثاقا الى شجرة في رأس جبل وتركوه كذلك حتى قتله البعوض » . كما يذهب ابن الخطيب (69) الى أن الصفرية — بعد قتل عيسى بن يزيد — «ولو على أنفسهم أبا الخطاب الصفري» . ويرجح الدكتور سعد زغلول عبدا لحמיד (70) أن يكون أبو حاتم الإباضى أو عبد الرحمن بن رستم هو الذى أمر صفرية سجلماسة بعزل امامهم وقتله .

ولحق — ان البكرى ومن أخذ عنه قد جانبهم التوفيق . وليس أدل على ذلك من أن مقتل عيسى بن يزيد حدث سنة 155 هـ (772 م) (71) أى بعد أن ظل اماما لمدة خمسة عشر عاما (72) ، بينما قتل أبو الخطاب المعافرى سنة 144 هـ (761 م) في معركة تاورغا . كما أن المصادر الإباضية — على وفرتها — لم تشر الى مثل هذا الامر ، فلم يكن من المألوف تدخل

-
- (65) البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، مجهول : الاستبصار ص 201 .
(66) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، الاستبصار : ص 112 .
(67) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن الاثير : ج 6 ص 3 .
(68) المغرب صفحة 149 .
(69) أعمال الاعلام ج 3 صفحة 139 .
(70) تاريخ المغرب العربى صفحة 401 .
(71) ابن الاثير : ج 6 ص 3 ، القلقشندي : ج 5 ص 165 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .
(72) البكرى : صفحة 148 .

الإباضية والصفيرية بالمغرب في شؤون بعضها البعض (73) ، الأمر الذي يشكك في هذه الرواية من أساسها .

ومع ذلك يستفاد منها أن عيسى بن يزيد انحرف عن خط المذهب ، وأسرف في تطبيقه واشتط في أحكامه . كما أن نقمة الصفيرية عليه وتعذيبه وقتله بطريقة قاسية تنم عن تطرف الخوارج الصفيرية وميلهم إلى العنف (74) لكن الذي نؤكد أنه الدافع الأساسي للثورة عليه هو ازدياد قوة مكناسة بعد قدوم بطونها من مواطنيها الأصلية إلى سجلماسة ، وتطلعها إلى الحكم والسلطة .

على كل حال — آلت الإمامة إلى أبي القاسم سمكو ، وظلت من بعده حكرا على صفيرية مكناسة التي اختصت باختيار الأئمة من آل بيت أبي القاسم وأخذ البيعة لهم من جمهور الصفيرية في سجلماسة وتوابعها (75) .

وعكف أبو القاسم طيلة إمامته (155 — 168 هـ) (76) (772 م — 784 م) على إرساء قواعد دولته ، عازفا عن المشاركة في ثورات الصفيرية في العصر العباسي الأول ، ولعل هذا يفسر قول ابن خلدون (77) ومن أخذ عنه (78) أن أبا القاسم « خطب في عمله للمنصور والمهدي من بنى العباس » . والواقع أن أبا القاسم لم يسهم في حركات الصفيرية الأخيرة لا لكونه تابعا للخلافة العباسية — كما يذهب ابن خلدون — ولكن لاحتساسة بعدم جدوى هذه الحركات التي اتخذت شكل ثورات غير منظمة ولانشغاله من ناحية أخرى بمشاكل دولته الجديدة . وليس ببعيد أن يكون قد اضطر أمام هذه المشاكل إلى مسالمة الولاة العباسيين في المغرب ومن المحتمل أن يكون قد وعدهم بتبعية اسمية ليضمن سلامة دولته التي لم تكن قد

(73) انظر : بنو مدرار والرسامين .

(74) الشهرستاني : ص 121 ، Gautier : Op. Cit. P. 299.

(75) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 553, Bel : Op. Cit. P. 167.

(76) ابن عذارى : ج 1 صفحة 215 .

(77) العبر ج 6 صفحة 130 .

(78) السلاوي : ج 1 صفحة 112 .

استقرت بعد ، وأن كان من الراجح أن دولة بنى مدرار تمتعت باستقلال
سياسى تام عن سلطة الخلافة وعمالها .

وهكذا — استطاع أبو القاسم سمكو بن واسول المكناسى « مقدم
الصفرية » (79) بالمغرب الأقصى تحقيق أهداف الخوارج الصفرية باقامة
دولة لهم فى بلاد المغرب توارثها بنوه من بعده .

(79) يخلط ابن خلدون بين الاباضية والصفرية ، فيذكر أن أبا القاسم كان « أباضيا صفريا »
وهو قول سبق تخطئته لأن أن أئمة بنى مدرار جميعا كانوا من
الخوارج الصفرية . انظر : المبرج 6 ص 130 .
ومن خطأ ابن خلدون انظر : ابن حزم : نقط العروس ص 76 ،
كولين : دائرة المعارف الاسلامية — مادة سجناسة ص 289 .

ب - سياسة بني مدرار الداخلية

تأثرت سياسة بني مدرار الداخلية — بدرجة كبيرة — بعاملين أساسيين ، العامل العنصرى والدينى ، فتعيين الامراء وعزلهم ، وقيام الثورات والفتن ، واحتدام المنازعات بين افراد البيت المدرارى ، واتساع الدولة وتقلصها ، وقوتها وضعفها ، كل ذلك كان مرتبطا اشد الارتباط بالصراع القبلى او الخلاف المذهبى .

وقد تمثل العامل العنصرى القبلى فى تباين الكيان الاجتماعى فى سجللماسة واختلاف عناصر سكانها ما بين بربر وسودان وأندلسيين ، فضلا عما هو معروف من انقسام البربر الى بتر وبرانس . ولئن كان المذهب الصفرى اطارا جمع هذه العناصر جميعا وخفف من حدة النزعات العنصرية والتناحر القبلى داخل الدولة المدرارية ، الا أننا لا نعدم وجود اقلية دينية لعبت دورا واضحا فى أحداث الدولة . كان هناك اليهود الذين هيمنوا على مصائر البلاد الاقتصادية باحتكارهم استغلال مناجم الذهب والفضة فى درعة (80) . والمعتزلة « الذين كانوا يبعثون بزكاة أموالهم الى رئيسهم بتاهرت يصرفها حيث شاء » (81) . كما وجد بسجللماسة اقلية من الخوارج الإباضية كان لها دورها البارز فى تطور الاحوال السياسية داخل دولة بني مدرار (82) .

والحق أن المصادر لا تمدنا بمعلومات وفيرة عن السياسة الداخلية (83) ، ومع ذلك يمكن القول بأن الصراع العنصرى ظهر واضحا

(80) الاستبصار صفحة 202 .
(81) البرادى : الجواهر المنتقاة ورتة 93 — مخطوط .
(82) النسوى : ج 2 صفحة 94 .
(83) انظر : المقدمة .

في الاحداث المتعلقة بقيام الدولة . فنعلم أن تقليد عيسى بن يزيد الاسود امامة الصفرية كان مرتبطا بتفسيق عنصر السودان على سائر العناصر الاخرى القاطنة باقليم تافيللت . كما كانت هجرة مكناسة الى هذا الاقليم سببا في سيطرتها على مصائر الدولة واحتكارها الامامة وتفوقها على سائر العناصر والقبائل الاخرى التي اختفى صوتها تماما فيما حدث من صراع على الامامة بين افراد بنى مدرار المكناسيين .

اما العامل المذهبي فيظهر بوضوح في نشاط الاباضية بسجلماسة ، ومما يؤكد دورهم في تاريخها السياسي ما درج عليه بعض المؤرخين من الخلط بين أئمتهم وبين أمراء سجلماسة الصفريين ، واعتبار بعضهم بعض أمراء آل مدرار من الاباضية . فابن الخطيب (84) يذهب الى أن الصفرية بعد قتلهم عيسى بن يزيد الاسود « ولوا عليهم أبا الخطاب الصفرى » الذى احتضن أبا القاسم سمكو وعقد له الامر من بعده . وقد سبق أن فندنا تلك الرواية واثبتنا أن أبا القاسم سمكو المكناسى تولى الامامة على اثر مقتل عيسى بن يزيد سنة 155 هـ (772 م) واحتفظ بها حتى وفاته في سنة 168 هـ (85) (784 م) .

ولم نقف على دور للاباضية في عهد الياس بن أبى القاسم الملقب بأبى الوزير (86) ، ذلك لان المصادر لا تمدنا بأية أخبار عن أحوال الدولة في عهده الذى امتد حتى عام 174 هـ (87) (790 م) . ويبدو أنه كان خاملا فاطر المهمة مما جعل الصفرية ينقمون عليه حكمة « فانتفضوا عليه وخلعوه وولوا مكانه أخاه اليسع » كما يذهب ابن خلدون (88) ولا يبعد أن يكون أخوه دبر أمر خلعه واقصائه ليظفر بالامارة لنفسه حسبما ذكره البكرى (89)

-
- (84) اعمال الاعلام ج 3 صفحة 141 .
(85) ذكر ابن الخطيب - خطأ - أن وفاة أبى القاسم سمكو حدثت سنة 199 هـ . راجع : اعمال الاعلام ج 3 صفحة 142 .
(86) البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 . وفي رواية أخرى لقب بـ « الوزير » . انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 صفحة 112 .
(87) البكرى : ص 150 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 . وهذه الرواية أكثر ثقة من غيرها التى تضطرب في تحديد مدة حكمه وسنة خلعه . فابن عذارى يذكر أنه خلع سنة 170 هـ ، وابن خلدون يجعل ذلك سنة 194 هـ ، أما ابن الخطيب فيقول بأن أمارته لم تتجاوز سنة أشهر خلعه بعدها . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 215 ، المعبر ج 6 ص 130 ، اعمال الاعلام ج 3 ص 142 .
(88) المعبر ج 6 صفحة 130 .
(89) المغرب صفحة 150 .

ومع ذلك نعتقد أن فتن الإباضية قد تفاقمت في عهده ، وهذا يفهم من جهود خليفته اليسع بن أبى القاسم الملقب بأبى المنصور (90) (174 — 208) (91) (790 — 823 م) . في قمعها . فقد طمعوا في تقلد الامارة بعد استئلالهم بنواحى درعة الشهيرة بمعادنها (92) . غير أن اليسع عمد الى تعبئة الجند والانصار (93) الى أن تسنى له اعداد جيش قوى تمكن به من اخماد الفتنة « وظفر بمن عانده » (94) .

ويبدو انه أسرف في البطش بخصومه حتى وصف بأنه « كان جبارا عنيدا ، فظا غليظا » (95) . لقد قضى على الفتنة في مهدها ، وأظهر مذهب الصفرية (96) بعد أن « قاتل عليه » (97) في حروب انتصر فيها جميعا حتى قيل بأنه « دوح المغرب » (98) . وأسفرت هذه الحروب عن مد نفوذ الدولة حتى درعة ، وفرض الخمس على ما يستخرج بها من معادن (99) .

ويبدو أن هذه الحروب الطويلة التي خاضها أحدثت أضرارا بسجلها سنة وتخريبا بعمائرهما وسورها ، ولعل جموع الإباضية بالمدينة لعبوا دورا في هذا الصدد . وهذا ما يرجحه اقدام أبى المنصور اليسع على اخلاء المدينة واعادة تخطيطها ، فتخبرنا المراجع (100) أنه امر القبائل

(90) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، القلتشندى : ج 5 ص 165 . وقد لقبه البكرى « بابى المنتصر » وكذلك ابن عذارى . انظر : المغرب ص 149 والبيان المغرب ج 1 ص 215 . ومما يؤكد خطأ تلك الرواية ما ذكره البكرى في مكان آخر بأنه لقب « بابى المنصور » . انظر : المغرب ص 150 . أما لقب « أبى المنتصر » فقد كنى به ابنه فيما بعد .

(91) أجمع المؤرخون على وفاة أبى المنصور اليسع سنة 208 هـ . انظر : البكرى : ص 149 ، ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 143 ، القلتشندى : ج 5 ص 165 . لكنهم اختلفوا في تقدير سنى حكمه ، فابن عذارى يذكر انه ظل أميرا ثمانية وثلاثين عاما ، وابن خلدون يذكر أنه قضى في الحكم أربعة عشر عاما ، وابن الخطيب يحدد مدة حكمه بثمانية أعوام . وسبب هذا الاختلاف يرجع الى اختلافهم حول تاريخ تقلده الامارة ، فابن عذارى يجعله سنة 170 هـ وابن خلدون يحدده بسنة 194 هـ وابن الخطيب يذكر أنه تولى الامارة سنة 200 هـ . والصحيح ما ذكره البكرى من أنه تولى الامارة سنة 174 هـ وظل بها أربعة وثلاثين عاما . انظر : نفس المصادر والصفحات .

(92) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص 80 .

(93) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

(94) البكرى : صفحة 150 .

(95) نفس المصدر والمصحفة ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .

(96) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(97) البكرى : ص 150 ، ابن خلدون : ج 6 ص 130 .

(98) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .

(99) البكرى : ص 150 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 142 .

(100) القلتشندى : ج 5 ص 165 ، النفوسى : ج 2 ص 94 .

بمبارحة سجلماسة وسكنى الصحراء . ثم أعاد بناء مسجدتها الجامع واختط بها المصانع والقصور حتى استردت بهاءها وزينتها (101) وشرع في تحصينها ببناء سور جديد اتفق فيه أموالا طائلة بذلها من ماله الخاص (102) . وقد بنى أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب (103) وجعل به اثنتى عشر بابا صنع معظمها من الحديد (104) . ولما انتهى من اتمام تعمير سجلماسة ، أعاد تقسيم خططها بين القبائل بما يكفل له الهيمنة على سائر أجزائها والسيادة على كافة سكانها (105) . بذلك استطاع أبو المنصور اليسع أن يحقق أهدافه وأصبح لا ينازعه في الإمامة منازع . ومن هنا يمكن اعتبار حكمه عصر الازدهار والاستقرار في تاريخ دولة بنى مدرار .

يؤكد ذلك تطلع جيرانه من بنى رستم الاباضية الى كسب وده ليأمنوا جانبه من ناحية ، وليضمنوا الاستقرار والامن لآخوانهم في المذهب بسجلماسة من ناحية أخرى ، يفسر ذلك تزويج عبد الرحمن بن رستم إحدى بناته لأحد أبناء أبي المنصور اليسع ويدعى مدرار . لربط الدولتين الخارجيتين بصلة المصاهرة (106) . وقد أثمرت تلك المصاهرة ، فاستكان الاباضية بسجلماسة لحكم أبي المنصور ودانوا بطاعته حتى وفاته سنة 208 هـ (823 م) .

لكن ثوراتهم اندلعت من جديد في عهد مدرار بن أبي المنصور اليسع الذى خلف أباه وتلقب بالمنتصر (107) ، اذ ما لبث الصراع بين الاباضية والصفيرية في سجلماسة أن وجد طريقه الى البيت المدرارى . وتجمع المصادر (108) على أن المنتصر مدرارا كان له ولدين يدعى كل منهما ميمونا ، أحدهما من زوجته الرستمية والآخر من زوجة أخرى تدعى

(101) ابن خلدون : ج 6 ص 130 — 131 ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(102) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، ابن الخطيب ج 3 ص 143 .

(103) ابن عذارى : نفس المصدر والصحيفة .

(104) البكرى : صفحة 148 .

(105) نفس المصدر والصحيفة ، السلاوى : ج 1 ص 112 .

(106) النفوسى : ج 2 ص 94 ، Bel : Op. Cit. P. 168 .

(107) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، التلشندي : ج 1 ص 165 .

(108) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

بقية فعرف ابنها بميمون بن بقية (109) . وتضيف أن المنتصر كان يؤثر ابن الرستمى على أخيه حتى أنه عهد اليه بولاية عهده (110) . وكان ذلك بداية انتصارا لاباضية سجلماسة ، فازر صفريتها ميمون بن بقية ، ودخل الطرفان فى صراع استمر ثلاثة أعوام (221 — 224 هـ) (111) (835 — 838 م) كان المنتصر ابانها سليلب الإرادة . ثم أقدم المنتصر على خرق تقاليد الامامة فخلع نفسه وولى ابن الرستمى مكانه بعد طرده ابن بقية من سجلماسة (112) . واغضب هذا التصرف شيوخ الصفريّة بالمدينة لانتهاكه تعاليم المذهب من ناحية ، ولخوفهم من وقوع البلاد تحت سيادة الاباضية (113) من ناحية أخرى ، فصمموا على خلع ابن الرستمى ، وتم لهم ما أرادوا . ويذكر النفوسى (114) أن ذلك تم بتحريض من ميمون بن بقية لرؤساء الصفريّة ومقدميهم . غير أنهم حين عرضوا عليه الامامة أبى واكتفى بطرد أخيه ابن الرستمى الى درعة (115) ، فأعادوا أباه مدرارا للامامة (116) .

لكن المنتصر ما لبث أن بعث فى طلب ابنه ابن الرستمى من درعة ليؤليه الحكم مرة أخرى ، وعندئذ أرغمه الصفريّة على التحدى وباععوا ميمون بن بقية سنة 224 هـ (117) (838 م) ولقبوه بالامير (118) . وبادر ميمون الامير بطرد أبيه من سجلماسة الى بعض القرى (119) ، فظل بها حتى وفاته سنة 253 هـ (867 م) (120) .

(109) ثمة تحريف ببعض المراجع فى اسمى زوجتى المنتصر . فمن المعروف أن الرستمى تدعى « أروى » والآخرى تسمى « بقية » لكن ابن الخليل يطلق على الأولى « هنىو » والثانية « تقيّة » كما نجد عند ابن خلدون والسلوى تحريفا لكلمة « بقية » الى « بنى » والصواب ما ذكره البكرى وابن عذارى . أنظر : أعمال الاعلام ج 3 ص 143 ، العبر ج 6 ص 131 ، السلوى : ج 1 ص 112 .

(110) النفوسى : صفحة 295 .
(111) ابن عذارى : ج 1 صفحة 216 .
(112) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(113) النفوسى : صفحة 95 .
(114) الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 95 .
(115) ابن خلدون : ج 6 صفحة 131 .
(116) البكرى : ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، القلقشندى : ج 5 ص 165 .
(117) البكرى : صفحة 150 .
(118) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، السلوى : ج 1 ص 112 .
(119) ابن عذارى : ج 1 صفحة 139 .
(120) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، القلقشندى : ج 5 ص 166 .

وبقى ميمون اميرا حتى توفي سنة 263 هـ (121) (877 م) . ولا نعلم شيئا من أخباره الا ما ذكره ابن خلدون (122) من انه كان مستبدا في حكمه وكان مضطرا الى ذلك ليواجه فتن الاباضية ومؤامراتهم . ويبدو أن جمهورهم هجر سجلماسة الى درعة لاستجماع قواهم ومناصرة ميمون ابن الرستمى على الظفر بالامارة ، وهذا ما حدا بمحمد بن ميمون الامير ان يقتفى اثرهم ويناهض حركاتهم ، اذ يخبرنا ابن الخطيب (123) بأنه « غزا وظهر بلاد القبلة » . ويبدو أنه استأصل شأفة الاباضية في هذه الاصقاع ، فلم نسمع عن حركات لهم طوال حكمه وقد توفي سنة 270 هـ (124) (884 م) . ويخيل لنا أن الدولة الدرارية في ذلك الحين تخلصت من مشاكلها الداخلية وحقت الامن والهدوء في سائر ربوعها ، فانصرفت الى التوسع خارج حدودها وقد اضطلع بتلك المهمة خليفة الامير محمد بن ميمون ويدعى اليسع بن ميمون بن مدرار بن اليسع بن أبى القاسم (125) الملقب بالمنتصر (126) .

وبدئى ان يتطلع اليسع الى ضم صفرية مطفرة لدولته ويوحد صفرية المغرب الاقصى تحت لوائه ، وجدير بالذكر أن مطفرة اذ ذاك كانت تحت حكم الادارسة الذين اسرفوا في اضطهاد الصفرية داخل دولتهم ، ومن المحتمل أن يكون شيوخها قد اتصلوا بالعاهل الدرارى لتحريرهم باعتباره امام الصفرية ببلاد المغرب . ويذكر ابن الخطيب (127) أن اليسع المنتصر عقد العزم على الاضطلاع بتلك المهمة ، فشرع في تجنيد الجيوش لهذا الغرض، ولم يثنه عن عزمه سوى مداهمة الخطر الشيعى سجلماسة نفسها .

ففى عهده وقعت حادثة الغزو الشيعى لسجلماسة التى انتهت بقتل اليسع وسقوط الدولة الدرارية سنة 297 هـ (911 م) وهو ما سنفصله فى الباب الرابع .

وهكذا — لعبت الخلافات العنصرية والقبلية والمذهبية دورا موحها فى سياسة دولة بنى مدرار الداخلية .

(121) البكرى : ص 150 . ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

(122) العبر : ج 6 صفحة 131 .

(123) أعمال الاعلام : ج 3 صفحة 144 .

(124) نفس المصدر صفحة 145 .

(125) البكرى ص 150 ، ابن عذارى : ج 1 ص 216 .

(126) ابن عذارى : ج 1 صفحة 216 .

(127) أعمال الاعلام : ج 3 صفحة 145 .

ج - علاقات بني مدرار الخارجية

كانت دولة بني مدرار دولة داخلية صحراوية ، فلم تسهم بدور كبير في احداث عصرها ، بل انصرف هم امرائها الى الحفاظ على استقلالها السياسي ، ومذهبها الديني ، ومصالحها الاقتصادية . لكنها مع ذلك لم تكن بمنأى عن التيارات السياسية في العالم الاسلامي عموما وفي بلاد المغرب بوجه خاص ، فكان على امرائها ان يتخذوا موقفا — ان وديا وان عدائيا — حيال القوى الاسلامية الكبرى او ما يدور في فلكها من الدول الصغرى ببلاد المغرب . حقيقة ان دورهم كان سلبيا على وجه العموم ، ونادرا ما بادروا بالخروج عن دائرة العزلة السياسية التي فرضتها طبيعة بلادهم الجغرافية ، ومع ذلك يمكن ان نشير الى علاقاتهم السياسية بطابعها الودي او العدائي ، وبجوانبها السلبية او الايجابية مع كافة القوى الاسلامية المعاصرة في بلاد المغرب ، فضلا عن الدولة العباسية والاندلس وبلاد السودان (128) .

على كل حال — كانت سياسة بني مدرار الخارجية تسير في اتجاهين بارزين ، عاقت عدائية تجاه الخلافة العباسية ودولة الاغالبسة ودولة الادارسة ، ثم علاقات ودية مع بني رستم والامويين بالاندلس .

١ - العلاقات العدائية :

(1) بنو مدرار والعباسيون :

اتخذت علاقات بني مدرار بالخلافة العباسية وعمالها في المغرب

(128) ذكر مورنل — وهو صاحب اكبر واشمل مؤلف في تاريخ المغرب — مملقا على سياسية بني مدرار الخارجية « نحن لا نعلم ثمة علاقات خارجية لهذه الاسرة اللهم الا عن صلاتها مع دولة الاغالبسة » . انظر : Les Berbers. Vol. 2. P. P. 24 - 25.

طابعاً عدائياً . حقيقة أن هذا العداء لم يصل الى درجة قيام الحروب بين ائمة سجلماسة وأمراء القيروان ، فقد شغل كل منهم بمشاكله الذاتية عن مناجزته خصومه ، وحالت الظروف السياسية والعوامل الجغرافية دون تفاحرهم ، فانصرف هم الخلافة وعمالها الى الاحتفاظ بأفريقية واستقطوا اقاصى بلاد المغرب من حسابهم بعد ان انسلخت تماماً عن نفوذهم . كما أثر الأمراء المدراريون حياة الهدوء والموادعة داخل بلادهم النائية بعد ما تعرضت له حركات الخوارج على أيدي ولاية بنى العباس منذ ولاية محمد ابن الاشعث حتى عهد هرثة بن أعين . ومن ثم قنع العباسيون باستخلاص افريقية وحمايتها من أخطار الخوارج ، كما زهد أمراء سجلماسة فى مناجزة ولاية القيروان ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة اعداد الجيوش بسجلماسة فى اقصى الجنوب لخوض حروب غير مأمونة العواقب فى اقصى الشمال ، وانصرفوا لمواجهة المشاكل الداخلية فى دولتهم ، فضلاً عن الاهتمام بمصالحهم التجارية كوسطاء فى حركة التجارة عبر الصحراء شرقاً وشمالاً وجنوباً .

وقد ادى هذا الى ان بعض المؤرخين اعتبروا أمراء سجلماسة عمالاً للعباسيين بسبب عزوف الطرفين عن محاربة بعضهما البعض ، فيذكر مرسية (129) أن « بنى مدرار كانوا يعترفون بالتبعية للعباسيين » أما فورنل (130) فيقرر « أن أمراء سجلماسة كانوا يدعون لبنى العباس » . وكذلك بل (131) فإنه يقول « وليس غريباً أن يدخل أمراء سجلماسة فى علاقات التبعية للعباسيين رويداً رويداً » . وربما كان بروفنسال (132) أكثر انصافاً فى قوله « كان المدراريون فى كثير من فترات حكمهم يتبعون بغداد اسمياً » . ويخيل إلينا أن هؤلاء المؤرخين قد اعتمدوا على نصين عند ابن خلدون ، ذكر فى أحدهما (133) أن أبا القاسم سمكو بن واسول « خطب فى عمله للمنصور والمهدى من بنى العباس » ، وفى الآخر (134) أن « الشاكر لله أعلن ولاءه لبنى العباس عندما قام بحركته ضد الفاطميين » . كما اعتمدوا أيضاً على رواية أخرى مشكوك فيها تفيد أن اليسع بن مدرار

Histoire de Constantine P. 92. (129)

Les Berberes. Vol. 2. P. 22. (130)

La religion musulmane. Vol. I. P. 168. (131)

Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. I. P. 249. (132)

(133) المبرج 6 من 130 ، السلاوى : ج 1 من 112 .

(134) نفس المصدر صفحة 131 .

أمير سجلماسة أودع عبيد الله المهدي السجن على اثر رسالة من الخليفة العباسي يأمره فيها بالقبض عليه .

وأذا صح ما ذكره ابن خلدون من خطبة أبي القاسم سمو للمصور والمهدي في سجلماسة ، فإنه قد فعل ذلك خوفا من عمال الخلافة في المغرب من أمثال يزيد بن حاتم وخلفائه ممن عرفوا بالقوة والبطش في ملاحقة حركات الخوارج . واقدام أبي القاسم على هذا العمل يدخل في إطار « مبدأ التقية » الذي تجيزه تعاليم المذهب الصفرى (135) تحاشيا لآخطار محدقة بدولته وهى لم تزل في المهد .

أما مناداة الشاكر لله بالدعوة لبنى العباس ، فمن المعتقد أنها كانت لهدف سياسى هو تأليب أهل السنة ببلاد المغرب ضد الفاطميين الشيعة ، وهو ما فعله أبو يزيد مخلد بن كيداد في ثورته على الفاطميين .

وحسبنا أن الشاكر لله ضرب العملة باسمه — من دون الخليفة العباسى (136) — كما لقب نفسه « أمير المؤمنين » (137) ، بما يؤكد صدق قول القلقشندي (138) « فدعا لنفسه مموها بالدعاء لبنى العباس » .

أما عن الرواية المتواترة عن حبس اليسع بن مدرار للمهدي بسجلماسة وفقا لمشيئة الخليفة العباسى فالمعتقد أنها مشوبة بالخلط والاضطراب الامر الذى يشكك في صحتها . يقول ابن خلدون (139) « . . . ولحق عبيد الله الشيعى وابنه أبو القاسم بسجلماسة لعهد ، وأوعز المعتضد اليه في شأنهما — وكان على طاعته — فاستراب بهما وحبسهما » بينما يذكر في مقدمته (140) أن « المعتضد أوعز الى الاغلبية امرأ افريقية بالقيروان وبنى مدرار بسجلماسة بأخذ الآفاق عليهما (المهدي وابنه) واذكاء العيون في طلبهما ، فعثر اليسع صاحب سجلماسة من آل مدرار على خفى مكانهما ببلدة واعتقلهما مرضاة للخليفة » . وفي رواية ثالثة (141)

(135) انظر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص 51 .
(136) انظر : Lavoix : Catalogue des monnaies musulmano, P. 402.

(137) صبح الاعشى : ج 5 ص 167 ،

Lane-Poole : Catalogue of the collection of Arabic coins, P. 328.

(138) نفس المصدر والصحيفة .

(139) المعبر : ج 6 صفحة 131 .

(140) مقدمة ابن خلدون : ج 1 صفحة 240 .

(141) المعبر : ج 3 صفحة 363 .

يقول ابن خلدون « وذهب عبيد الله الى سجلماسة وبها اليسع بن مدرار فأكرمه ثم جاء كتاب زيادة الله ، ويقال كتال كتاب المكتفى بأنه المهدي الذي داعيه في كتامة فحبسه » .

ولا يمكن ان تكون هذه الروايات المضطربة ذريعة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بنى مدرار وبين العباس كما ذهب بل (142) . والاكثر غرابة ان يقال ان « أمير سجلماسة كان سنيا » (143) .

وممكن الاضطراب في روايات ابن خلدون قوله في اولى رواياته ان الخليفة المعتضد هو الذي أوحى الى ابن مدرار بالقبض على المهدي ، بينما يذكر في روايته الثالثة ان ابن مدرار استجاب لطلب الخليفة المكتفى وليس المعتضد . فضلا عن ذلك فان هذه الروايات لا تحدد ما اذا كان الخليفة العباسي أم الأمير الأغلبى هو الذي بعث بكتبه ليستحث اليسع بن مدرار القبض على المهدي ، ومهما كان الأمر فان عبيد الله المهدي كان معروفا لدى أمير سجلماسة الذي كان يحله ويكرمه (144) ، وكان المهدي يغدق الهدايا والصلوات على حكام البلاد الذي مر بها أو أقام فيها ، « فمنهم من لم يعرفه وأكرمه لذلك ، ومنهم من عرفه وترك التعرض له لما كان منه اليه ، ومنهم من عرفه وقدره » (145) . ولم ينكر المهدي نسبه وأنه « يدعو الى الرضى من آل محمد » حين سأل ابن مدرار ، بل كتم عنه صلته بداعيته أبى عبد الله الشيعي ونفى معرفته له (146) .

ويخيل لنا ان ابن مدرار حين قبض عليه وحبسه لم يقصد بذلك « مرضاة الخليفة » أو لانه « كان على طاعته » كما ذهب ابن خلدون ، بل أقدم على ذلك حين علم « بأنه هو الذي يدعو الى بيعته أبو عبد الله الشيعي بافريقية » (147) ، الذي كان خطرا على سائر دول المغرب هدها بالزوال (148) ، وقد نمت ذلك الى علمه « من جهات كثيرة » (149)

(142) انظر : La religion musulmane en Berberie. P. 156.

(143) انظر : حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص 54 .

(144) شرح الاخبار ص 31 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 70, Mamour : Op. Cit. P. 107.

(145) شرح الاخبار : صفحة 32 .

(146) نفس المصدر والصحيفة .

(147) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 272 .

(148) شرح الاخبار : صفحة 32 .

(149) نفس المصدر والصحيفة .

وليس عن طريق الخلافة العباسية وحدها .

قصارى القول أن واقعة المهدي بسجلماسة لا تدل على تبعية آل مدرار لبنى العباس بقدر ما تدل على خوف الامير المدرارى على دولته من الخطر الشيعى الجديد . فالقول بتبعية الاسرة المدرارية للخلافة العباسية امر يتعارض والظروف السياسية التى قامت فيها دولة بنى مدرار ، كما لا يستقيم مع طابعها الدينى المذهبى المتطرف ، وواقع صلاتها السياسية بالقوى المعادية لبنى العباس .

فقيام دولة بنى مدرار بسجلماسة كان على حساب النفوذ العباسى فى بلاد المغرب ، فاقطع هذا الجزء نهائيا عن سلطان الخلافة ، واستقل به أمراء بنى مدرار « عن ولاية القيروان والعرب » (150) « وخلعوا طاعة الخلفاء » (151) . ولما كانت دولة بنى مدرار بمثابة مجمع للخوارج الصفرية اساسا ، فقد غلب عليها الطابع الدينى المذهبى ، وجدير بالذكر أن مذهب الخوارج عموما لا يعترف بامامة بنى العباس باعتبارهم مغتصبين للخلافة « وكلهم يجب الخروج عليهم ومقاتلتهم وعزلهم ان امكن او قتلهم » (152) . واذ لم يكن بمقدور صفرية المغرب الاقدام على ذلك ، فلا اقل من مناصبتهم العداء وانكار شرعية امامتهم . وليس من المقبول أن يدين صفرية سجلماسة لبنى العباس فى الوقت الذى كان اخوانهم فى المذهب يعانون من سطوة الخلافة بالشرق ، ففى السنوات 162 هـ ، 169 هـ ، 171 هـ ، 178 هـ (779 ، 786 ، 788 ، 895 م) عمد العباسيون الى استئصال شأفة الخوارج الصفرية فى قنسرين وارض الموصل والجزيرة وارض السواد ، فأبادوا جموعهم وقتلوا زعماءهم وبطشوا بجيوشهم (153) . واستمرت تلك السياسة طوال القرن الثالث الهجرى حتى ضعفت شوكة الخوارج الصفرية فى الشرق الاسلامى (154) . ولا غرابة بعد ذلك اذ اضمر أمراء بنى مدرار بسجلماسة العداء للخلافة العباسية وعمالها فى المغرب وأقدموا على مشايعة الد أعدائها وهم بنو أمية بالاندلس .

(150) ابن خلدون : ج 6 ص 130 ، السلاوى : ج 1 ص 112 ، كولن : مادة سجلماسة بدائرة المعارف الاسلامية : ص 289 .

(151) الطغشندى : ج 5 صفحة 164 .

(152) البغدادى : الفرق بين الفرق : ص 273 ، احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 ص 337 ، Bel : Op. Cit. P. 168.

(153) انظر : ابن الاثير : ج 6 ص 162 ، 169 ، 171 ، 178 .

(154) نفس المصدر : ج 7 ص 61 ، 67 ، 74 ، 75 ، 119 ، 155 ، 156 ، 157 .

2 - بنو مدرار والغالبة :

من الطبيعي أن تكون علاقات الاغالبة ببنى مدرار امتدادا لعلاقات بغداد بسجلماسة ، فدولة الاغالبة التي قامت بافريقية سنة 184 هـ (800 م) كانت تدين بالولاء السياسى والتبعية الاسمية للخلافة العباسية على الرغم مما تمتعت به من استقلال ذاتى ، وحسبنا أنها كانت تمثل البقية الباقية لنفوذ الخلافة فى بلاد المغرب وقاعدتها لاسترداد سلطانها المفقود فى هذه الجهات . ولا غرو فقد سمح الرشيد بقيام هذه الدولة حرصا منه على استمرار نفوذه فى افريقية من ناحية واسترداد هذا النفوذ فى الاجزاء التى انسلخت عنه من ناحية أخرى لو استطاع الاغالبة الى ذلك سبيلا (155) . ومن ثم عادى الاغالبة أعداء الخلافة فى المغرب ومنهم بنو مدرار .

لكن الذى لا شك فيه أن هذا العداء لم يبلغ حد التناحر والصراع بين الدولتين ، فأنصرف الاغالبة عن مشاكل المغرب لتحقيق أهدافهم التوسعية فى حوض البحر المتوسط . وربما كان وجودهم وسط حشد من الأعداء (156) دافعا لهم على تولية الظهر للقارة والاتجاه الى البحر ، وبديهي أن يخفف هذا الاتجاه من حدة عدائهم لبنى مدرار وخاصة أن الآخرين كانوا بعيدين عن متناول خصومهم ، حيث قامت الدولة الرستمية حائلا بين الطرفين (157) وتعرضت بذلك للاحتكاك مع الاغالبة .

وإذا كانت دولة بنى مدرار قد سلمت من مناجزة أمراء القيروان وتطاولهم ، فذلك لا يعنى انتفاء عداوتهم ، أو بمعنى آخر لم يكن عدم قيام الحروب بين سجلماسة والقيروان دليلا على الود المتبادل كما ذهب فورنل (158) . والحقيقة أن كلا من الطرفين لم يعبأ بالآخر طالما لم يكن بوسعه أن يسير الجيوش لقتاله ، ومن ثم اتخذت عداوتهما طابع الاغفال وعدم الاكتراث .

ومن الخطأ أن يفسر ذلك على أنه استكانة من جانب بنى مدرار

(155) الاصطخرى : ص 37 ، Vonderhey den : Op. Cit. P. 8.

(156) كانت دولة الاغالبة محاطة بعدد من القبائل المعادية سياسيا ومذهبيا ، وهذه القبائل هي بنو يفرن الصفرية وأوربة الادريسية ، ولماية ونفوسة الإباضية الوهبية ، وهوارة النكارية ، وزواغة الخلفية ، وكتامة الشيعية الاسماعيلية . انظر : Masqueray : Op. Cit. P. 195.

(157) انظر الخريطة .

(158) راجع : Les Berberes Vol. 2. P. 22.

وقناعة منهم بالتبعية للأغلبية ، فقد ذهب ابن أبى دینار (159) الى أن « اليسع بن مدرار كان يحكم سجلماسة لبني الاغلب » . ويخيل لنا انه استنتج هذا القول من حادثة القبض على عبيد الله المهدي بسجلماسة على اثر رسالة بعثها الامير زيادة الله بن الاغلب ومقا لرواية بعض المصادر (160) او ارفقتها برسالة اخرى للخليفة العباسي في رواية اخرى (161) . وقد سبق ان ذكرنا ان الامير المدراري اقدم على سجن المهدي انتقاء للخطر الشيعي الذي هدد دولته . لقد كان قبض اليسع على المهدي وسجنه بسجلماسة من قبيل التوافق غير المقصود بين أهداف الخلافة والامارة وبين مصالح الاسرة المدرارية التي تهددها خطر الشيعة ، ولا يعنى هذا الحدث وجود أدنى نفوذ للأغلبية على امراء بني مدرار .

لقد كان الخلاف السياسي والمذهبي بين الامارتين الاغلبية والمدرارية يحول دون أدنى تقارب بينهما ، ولا غرو فقد هادن بنو مدرار جيرانهم الرستميين كيما يتفرغوا لمواجهة الاغلبية عدوهم المشترك . كما التقوا بأموى الاندلس للوقوف امام اطماع الاغلبية في المغرب والحيلولة دون تسربهم الى ما وراء حدود افريقية . ولعل من أهم ما يبرز أسباب الجفوة والعداء بين المدراريين والاغلبية ما تعرض له الخوارج الصفرية من بطش واضطهاد في القيروان ، فقد كان اعتناق المذهب الصفري تهمة تصم صاحبها بالمرقوق والعصيان والزندقة (162) . وعلى الرغم مما يقال (163) عن تسامح الاغلبية مع أهل المذاهب الاخرى بالقيروان ، فقد تعرض الصفرية — بوجه خاص — لاضطهاد شديد — بعد ولاية سحنون قضاء القيروان — فقد حظر عليهم الاجتماع والصلاة في المسجد الجامع (164) ، وبتدت حلقاتهم (165) ، كما منعوا من تعليم الصبيان وتاديبهم (166) ، وتعرض من خالف ذلك لمزيد من البطش والتعنيف (167) .

(159) المؤنس في اخبار افريقية وتونس ص 49 .

(160) انظر شرح الاخبار — ملحق (1) ص 32 من كتاب :

Ivanova : Ismaili tradition., Mamour : Op. Cit. P. 107.

(161) افتتاح الدعوة . ص 43 ، ابن خلدون : ج 3 ص 363 ، المتريزي : اتعاظ الحنفا ص 84 ، الخطط : ج 1 ص 350 .

(162) أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية : ص 80 .

(163) انظر : حسن حسني عبد الوهاب : ورقائق عن الحضارة العربية : ج 1 ص 58 .

(164) أبو العرب تميم : المرجع السابق ص 102 .

(165) المالكي : رياض النفوس : ج 1 ص 276 .

(166) الدباغ : معالم الايمان . ج 2 ص 55 .

(167) أبو العرب تميم : ملحق ص 102 .

كل ذلك قمين بأن يذكرى العداء بين بنى مدرار والغالبة ، وينفى بشكل قاطع أى قول بوجود علاقات ودية بينهما ، كما يدحض الزعم القائل بتبعية امراء سجلماسة لبنى الأغلب .

3 - بنو مدرار والادارسة :

تحفل المراجع بكثير من القرائن والشواهد (168) التى تؤكد طابع العداء الصارخ بين بنى مدرار والادارسة ، فقد قامت دولة الادارسة بالمغرب الأقصى سنة 172 هـ (789 م) على حساب نفوذ الخوارج الصفرية ، اذ نعلم انهم اقتطعوا هذه الجهات عن نفوذ الخلافة وولاتها بالقيروان منذ ثورة ميسرة سنة 121 هـ (739 م) . فلما نجح ادريس الاول فى اقامة دولته ، ذوى شأن الصفرية فيها وتعرضوا للبطش والاضطهاد من جانب آل ادريس ، وزاد هذا العداء (169) حدة بسبب الخلاف المذهبى ، فالادارسة من الشيعة الزيدية ، وبنو مدرار من الخوارج الصفرية ، ولا يخفى العداء التقليدى بين الشيعة والخوارج .

لا ننكر وجود حاجز جبلى يفصل بين الدولتين ، وأن الطبيعة الجبلية فى المغرب الأقصى شكلت نوعا من الحماية لكلتى الدولتين (170) الى حد كبير ، لكن ذلك لم يكن عائقا دون امكانية غزو احداها للآخرى . فثمة طريق ممهد يبدأ من « فاس الى صفرو فقلعة مهدى فتادلة فوادى شعب الصفا » ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث توجد سجلماسة (171) . وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق فتخرج « من باب الغوارة بفاس الى مدينة سجلماسة » (172) حيث تتوافر الزروع والمياه فى اقليم أغمات الموجود على يساره (173) . بل لا يخالجننا شك فيما ذهب اليه جورج

(168) ذهب بعض الدارسين الى صعوبة تتبع علاقات بنى مدرار بالادارسة بسبب ندرة المعلومات . انظر : حسن عبد العواد : دولة الادارسة ص 250 ، Basset : Op. Cit. P. 333.

(169) أخطأ البعض حين انتهى الى أن « حسن الجوار كان العلاقة السائدة بين دولة الادارسة ودولة سجلماسة » . انظر : حسن عبد العواد : دولة الادارسة صفحة 253 .

(170) ابن فضل الله العبرى : مسالك الابصار ج 5 قسم 2 ورقة 17 - مخطوط .

(171) الادريسي : صفحة 76 .

(172) ابن أبى زرع : صفحة 53 .

(173) ابن حوقل : صفحة 65 .

مارسيه (174) بأن « ادريس الاول وخلفائه كانوا عازمين على استئصال شأفة صفرية تافيلالت ». ويخيل اليها أنهم عزفوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعهم الحاد مع الاغالبية الذين نجحوا في اشارة القلاقل وحيك المؤامرات في وجه أئمة فاس ، فاغتالوا ادريس الاول (175) والثانى (176) ، ومولاهما (177) راشد والبوا وزراءهم وكبار دولتهم عليهم ، واستمالوا بعضهم الى جانبهم (178) . كذلك كان ضعف الدولة بعد موت ادريس الثانى ونشوب الخلافات بين افراد الاسرة الادريسية (179) من أسباب تقاعس الادارسة عن غزو سجلماسة ، واكتفائهم بتصفية نفوذ الصفرية داخل دولتهم ، فضلا عن استقطاع بعض أطراف الدولة المديارية .

أما عن بنى مدرار ، فلم يكن بوسعهم — أمام مشاكلهم الداخلية — الشروع في تدبير غزو بلاد الادارسة خاصة في عهده ادريس الاول والثانى . وحين اتيح لهم القيام بهذا الدور في عهد اليسع بن مدرار ، دهمه الخطر الفاطمى الذى قضى على بنى مدرار والادارسة معا . لكن بنى مدرار لم يعدموا وسائل الكيد والدس لجيرانهم ، واثارة القلاقل في دولتهم عن طريق صنائعهم من الصفرية في الدولة الادريسية .

وقد اتخذ هذا العداء السياسى بين فاس وسجلماسة مظاهر من الفعل ورد الفعل ، كان الادارسة يمسكون فيها بزمام المبادرة ، بينما لاذ بنو مدرار ازائها بالصمت حينما وتصدوا لمواجهةها حينما آخر .

وتجلت مظاهر العداء فيما قام به ادريس الاول من حملات لاستئصال شأفة صفرية تلمسان من بنى يفرن الزناتيين (180) بعد ان بايعته القبائل الصفرية الاخرى قسرا ، ومن بينها بعض بطون مكناسة (181) .

ففى منتصف رجب من عام 173 هـ (790 م) توجه ادريس على

La Berberie Musulmane et l'orient. P. 124.

(174)

(175) ابن أبى دينار : المؤنس : ص 99 ، اطيئش : الامكان ص 81 .

(176) ابن الأبار : الحلة السراء ص 200 .

(177) ابن خلدون : ج 4 صفحة 13 .

(178) النويرى : ج 22 ورقة 28 .

(179) البكرى : صفحة 123 .

(180) اطيئش : الامكان ، صفحة 57 .

(181) ابن خلدون ج 4 ص 12 ، محمد على السنوسى : الدرر السنية : ص 44 .

رأس حملة الى تلمسان وأخضع أهلها دون عناء (182) ، وظل مقيما بها حتى عام 174 هـ (791 م) ليوطد نفوذه فيها . ثم أسند حكمها الى أخيه سليمان (183) ، وعاد الى ويلي . وهكذا قدر له الاستيلاء على كل معاقل الصفرية في بلاد المغرب الاقصى فيما عدا سجلماسة . غير ان اغتياله المفاجيء شجع صفرية تلمسان على الانتفاض ، وظلوا خارجين على الادارسة حتى عام 197 هـ (813 م) حين عول ادريس الثانى على اعداتهم الى طاعته ، فأعد الحملة التى جهزها « لمحو آثار دعوة الخوارج الصفرية » (184) فى تلك السنة واستمر يحاربهم طيلة ثلاث سنوات (185) الى ان أدعنوا لطاعته (186) .

ولم يستطع صفرية سجلماسة مديد العون لآخوانهم بتلمسان واستنقاذهم من ضربات الادارسة ، ويعزى ذلك الى استحالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسان الا عبر اراضى الدولة الادريسية ، فكان الطريق اليها يمر بدرعة وأغمات وتادلا وفاس ومنها الى تلمسان (187) .

وعول خلفاء ادريس الثانى على اقتطاع الاجزاء المجاورة لدولتهم والتابعة لبنى مدرار ، فتمكن عبد الله بن ادريس — الذى تولى أغمات والسوس الاقصى وبلاد نفيس — من مد نفوذه على صنهاجة اللثام الضاربة حول سجلماسة واستولى على بعض الحصون التابعة لبنى مدرار (188) . كما اقتطع يحيى بن ادريس بلدة تامدلت — قرب درعة — وهدد بحرمان بنى مدرار من مناجم درعة الغنية بالذهب والفضة (189) .

وتمثل رد الفعل من جانب بنى مدرار فى تحريض الصفرية فى فاس

-
- (182) ابن أبى زرع القرطاس : ص 22 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I P. 475.
(183) نفس المصدر والصحيفة .
(184) ابن خلدون : ج 4 ص 13 ، عبد الرحمن بن زيدان : اتحاد اعلام
الناس : ج 2 ص 19 .
(185) ابن أبى زرع : ص 69 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 198 ،
السنوسى : الدرر السنية . ص 59 .
Masqueray Op. Cit. P. 172.
(186) اطنيش : الامكان : ص 57 ،
(187) الادريسي : صفحة 81 .
(188) اليعقوبى : البلدان ص 359 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 71 .
(189) اليعقوبى : نفس المصدر والصحيفة .

على الثورة ضد الأمير على بن عمر بن ادريس . وبالفعل نجح أحد صنائعهم ويدعى عبد الرزاق الصفرى فى لم شمل صفرية مديونة وغيانة ومكناسة وغيرهم ، واستولى على مدينة صفروى — جنوبى فاس — وبايعه كافة الصفرية فى نواحيها ، ثم اتجه بجموعه الى فاس وهزم على بن عمر ابن ادريس الذى فر لائذا بقبيلة أوربة ، وتمكن عبد الرزاق من دخول العاصمة ، وخطب له على منابر عدوة الاندلسيين . لكن حركته لم تستمر طويلا ، فقد استدعى اهل عدوة القرويين يحيى بن القاسم بن ادريس المعروف بالعدام وبايعوه بالامامة . وتمكن العدام من طرد عبد الرزاق الصفرى من عدوة الاندلسيين ، وظل يقاتل الصفرية فى عدة وقائع حتى فل شوكتهم وقتل زعيمهم سنة 293 هـ (907 م (190)) ونحن نرجح ما ذهب اليه جورج مارسيه (191) من أن حركة عبد الرزاق الصفرى هذه كانت من تدبير بنى مدرار فى سجلماسة ، ومما يرجح ذلك قيامها فى المناطق المجاورة للامارة المدرارية وامتدادها الى الشمال حتى وصلت الى قصبة دولة الادارسة .

ولعل ما احدثته تلك الحركة من تصدع فى دولة الادارسة ، وما وصلت اليه دولة بنى مدرار من قوة واستقرار على عهد اليسع بن مدرار هو ما جعل الأمير المدرارى يعد العدة لبسط نفوذه على اخوانه فى المذهب المقيمين داخل الدولة الادريسية . فعول على تجهيز جيش يغزو به دولة الادارسة لتحقيق هذه الغاية ، لكن جهوده فى هذا الصدد لم تتم بسبب تعرض بلاده للخطر الشيعى (192) . . وهكذا غلب طابع العداء على العلاقات السياسية بين سجلماسة وفاس .

ب — العلاقات الودية :

(1) بنو مدرار والرستميون :

اتخذت علاقات بنى مدرار ببنى رستم طابعا وديا ، تمثل فى سياسة حسن الجوار التى حرص كل منهم على مراعاتها . ومن ثم انعدمت الحروب

(190) انظر : البكرى : ص 125 ، ابن أبى زرع : ص 112 — 115 ، ابن خلدون : ج 4 ص 15 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 208 — 209 ، السلاوى : ج 1 ص 162 ، سلفاتور كوسا : تواريخ مدينة فاس ص 6 ،

Masqueray : Op. Cit. P. 172.

La Berberie Musulmane. P. 126.

(191)

(192) ابن الخطيب : اعمال الاعلام : ج 3 ص 145 .

بينها على الرغم مما كان بين الصفرية والاباضية من تنافر وصل الى درجة الصراع ابان ثورات الخوارج في بلاد المغرب .

وفي تقديرى أن هذا التقارب مرتبط بالظروف السياسية القاسية التى واجهتها حركات الخوارج فى المغرب على اثر الحملات الضخمة التى عكف بنو العباس على انفاذها لقمع ثورات الخوارج فى المغرب ابتداء بحملة ابن الاشعث سنة 141 هـ (758 م) ، تلك الظروف الصعبة التى أحدثت تحولا عمليا فى سياسة الخوارج فى المغرب حيث لجأوا الى اقاصى الجنوب ، وأقاموا دولتين متجاورتين احدهما للصفرية فى سجلماسة سنة 140 هـ (757 م) والاخرى فى تاهرت للخوارج الاباضية سنة 162 هـ (779 م) .

فوحدة الظروف السياسية المتمثلة فى العداء لبنى العباس وعمالهم بالقيروان وكذلك الادارسة ومصادقة أموى الاندلس ، ووحدة الظروف الجغرافية والتشابه فى نمط الحياة القائمة على البداوة واختلاط القبائل وانتقالها بين الدولتين المتجاورتين ، فضلا عن وحدة المصير ، كل ذلك حدا ببنى مدرار وبنى رستم الى المصادمة وتحاشى الشقاق والخلاف وكل ما يوجب الخصومة والعداء (193) . لكن الثابت أن العلاقة بينهما لم تتعد مجرد تجنب الخصومة والعداء ، فلم تتطور الى مرحلة التحالف أو حتى التعاون المشترك بسبب الخلاف المذهبى والعداء التقليدى بين الصفرية والاباضية فى المغرب . وعمدت الدولتان الى تجنب الحروب وتحاشى التدخل فى الخلافات التى كانت تنشب بين الاقليات الاباضية فى سجلماسة وبين أمراء بنى مدرار ، أو تلك التى حدثت بين صفرية تاهرت وبين أئمتها (194)، فقد صم حكام كل دولة آذانهم عما تعرض له اخوانهم فى المذهب داخل الدولة الاخرى حرصا على السلام .

فالمعروف أن عدة آلاف من الاباضية أقاموا بدولة بنى مدرار (195) ، وقد سبققت الإشارة الى دورهم فى مناهضة أمراء بنى مدرار ، وطمعهم فى السلطة ، وما قام به أمراء سجلماسة من قمع حركاتهم والبطش بهم . وحسبنا أنهم كانوا موالين لرؤسائهم من مشايخ المذهب بتاهرت أكثر من ولائهم للدولة التى كانوا يعيشون فى كنفها ، فقد درجوا على ارسال زكاة

(193) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

(194) ابن المصير : صفحة 52 .

(195) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

أموالهم الى مثايخهم بتاهرت ليصرفوها حيث شاؤا (196) . ولا مرأى في
أن مشكلة الاقلية الاباضية في دولة بنى مدرار كانت أهم المشاكل التي واجهها
أمراء سجلماسة على الاطلاق .

كذلك لم تخل تاهرت من وجود اقلية من الخوارج الصفرية لها
وزنها (197) . وقد استقرت غالبيتهم في حصن « تالغمت » المشرف على
المدينة (198) وبديهي أن يسهموا في احداث الدولة الداخلية ويقفوا موقف
المعارضة من ائمة تاهرت . فيخبرنا ابن الصفير (199) أنهم لعبوا دورا
بارزا في الثورة على أبى حاتم يوسف بن محمد ، حيث انضموا لاهل
تاهرت من غير الاباضية ضد الامامة الرستمية .

وقد حرص حكام سجلماسة وتاهرت على تحاشي التدخل في هذه
الفتن . فأحجموا عن اذكائها أو تشجيعها ، ولولا تغاضيتهم عنها ؛ « لكائت
الحروب بينهم متوالية والفتن متتابة » ع حيث يطلب كل فريق منهم
الانضمام الى امام مذهبهم ويظهر التظلم حقا أو باطلا من مخالفة في المذهب
الحاكم عليه « (200) بل بادر بعضهم الى توثيق اواصر الود بين الدولتين
عن طريق المصاهرة ، فطلب اليسع بن أبى القاسم سمكوا من عبد الرحمن
ابن رستم تزويج ابنه مدرارا من أروى ابنة عبد الرحمن (201) مؤملا
تعضيد حكمه في سجلماسة بجيرانه الرستميين وقبل الامام الرستمى « رغم
اعتراض المعارضين والمنكرين » مستهدفا توثيق علائق الوداد بين المملكتين
فلا يطرقه منهم طارق سوء ، ولا يأتية من قبلهم ما يكدر راحته أو يوجب
له خلفا أو خلا في داخلية (202) » .

وعلى الرغم من تصور هذه المصاهرة عن تحقيق اهدافها في ايجاد
حل لمشكلة الاقليات المذهبية داخل الدولتين ، الا انها أدت الى حرص
المدراريين والرستميين « على تحقيق التضامن والوئام بين دولتي الخوارج »

(196) ابن الصفير : ص 46 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورثة 93 — مخطوط .

(197) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

(198) نفس المصدر : صفحة 69 .

(199) تاريخ الائمة الرستميين ص 51 ، 52 .

(200) النفوسى : صفحة 94 .

(201) ابن خلدون : ج 6 صفحة 131 ،

Provencal : Op. Cit. P. 249, Bel : Op. Cit. P. 168.

(102) النفوسى : ج 2 صفحة 94 .

— كما ذهب جوتيه (203) — واحجام كل منهما عن التدخل في الامور الداخلية فقد مارس حكام كل من الدولتين سيادة كاملة على سائر الاقليات المذهبية داخل دولتهم « من الاباضية والصفرية والواصلية » (204) جميعا، ولم يتساعوا من وجود صلات بين هذه الاقليات وبين شيوؤها سواء فى تاهرت او سجلماسة (205) .

2 — بنو مدرار وامويو الاندلس :

لم يحل الاختلاف المذهبى بين بنى مدرار واموي الاندلس ، ولا البعد الجغرافى بين سجلماسة وقرطبة دون وجود صلات ودية بينهما ، فقد جمعها العداء المشترك للخلافة العباسية والاغلبة والادارسة . وقد سبق ان وقفنا على اسباب الجفوة بين سجلماسة وبغداد والقيروان وفاس .

ولا يخفى العداء التقليدى بين قرطبة وبغداد ، فحسبنا ان قيام الدولة الاموية بالاندلس تم على حساب النفوذ العباسى هناك ، ولما كان الاغلبة على ولاء لبنى العباس (207) ، فقد ورثوا عداوتهم لاموي الاندلس ، وازداد هذا العداء حدة بسبب التنافس البحرى بينهما فى وسط وغرب البحر المتوسط . بل ان نجاح الاغلبة فى هذا التنافس البحرى وتهديدهم النفوذ الاموي فى جزر البليار كان من العوامل التى دفعت عبد الرحمن الثانى (206 — 238 هـ) (208) (821 — 853 م) الى توثيق صلاته مع امارات المغرب . واذا كانت الامارة الاموية فى قرطبة قد اخفقت فى توطيد صلاتها بالادارسة (209) ، الا انها نجحت فى اقامة علاقات طيبة مع بنى رستم وبنى مدرار الذين التقوا فى مصالحهم السياسية مع اهداف الامارة الاندلسية . ذلك ان المصالح السياسية سمت على الاختلاف المذهبى بين بنى مدرار الصفرية وبنى امية السنة ، كما ان وحدة المصير تغلبت على الاحتاد القديمة بين الخوارج والامويين . ولم تحل شقة البعد

(203) انظر : Les Siecles obscurs. P. 293.

(204) ابن خلدون : ج 6 ص 121 ، البرادى : الجواهر ورقة 93 ، اطيئش : الامكان ص 57 ، ياقوت : معجم البلدان ج 3 ص 815 .

(205) الشماخى : السير صفحة 223 ، 224 .

(206) النويرى : ج 22 ورقة 26 ، 27 .

(207) نفس المصدر والورقات .

(208) ابن عبد ربه : العقد الفريد . ج 4 ص 493 .

(209) ابن مغازى : ج 2 ص 106 ، Scott : Op. Cit. Vol. I. P. 456.

بينهما دون امكانية الاتصال ، حقيقة لم يكن لبنى مدرار موانئ على ساحل البحر المتوسط (210) ، لكنهم لم يعدموا وجود منافذ على ساحل الاطلنطى كانت على صلة دائمة بموانئ الاندلس كاشبيلية وشاطبة (211) . ومن ثم فليس من المستغرب ان تحفل مدن الاندلس في ذلك الحين بعناصر صفرية من سجلماسة (212) كما غصت سجلماسة بالكثيرين من اهل الاندلس (213).

والواقع ان المؤرخين لا يقدمون معلومات وفيرة تساعد على تتبع هذه الصلات الودية قبل عهد الامير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 — 273 هـ) (214) (853 — 898 م) ، لكنه من الراجح انها ترجع الى عهد عبدالرحمن الداخل (138 — 172 هـ) (215) (755 — 788 م) المعاصر لامراء بنى مدرار الاوائل والذي استقل بالاندلس في ظروف مماثلة لتلك التى اقام فيها بنو مدرار دولتهم بالمغرب . ونعتقد ان نجاحه في ذلك شجع بنى مدرار على الاقدام على اقامة حكمهم المستقل بسجلماسة .

ويبدو ان هذه العلاقات الودية قد تكررت اواخر عهد الحكم بن هشام (180 — 206 هـ) (797 — 821 م) على اثر ثورة الربض بقرطبة ونزوح اعداد غفيرة منهم الى سجلماسة (216) . لكن الجفوة لم تدم طويلا فسرعان ما استعادت العلاقات طابعها الودى في عهد الخليفة عبد الرحمن الثانى الذى وثق صلاته ببنى مدرار ، وخاصة بعد استفحال الخطر الاغلبى في البحر المتوسط . ومن المحتمل ان يكون ميمون بن مدرار الملقب بالامير قد آزر صديقه الاموى عبد الرحمن الثانى في مواجهة القحط الذى حل ببلاد الاندلس سنة 232 هـ (847 م) ، فبعث اليه ما توافر لديه من الحنطة والسكر والتمر (217) . وازدادت صلات الود في عهد الامير محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم الذى اتسم عصره بالاستقرار السياسى (218)

-
- (210) اليعقوبى : البلدان صفحة 359 .
(211) الحميرى : حفة جزيرة الاندلس : ص 21 ، ابن الدلائى : نصوص من الاندلس صفحة 18 ، 19 ، Provencal : Op. Cit. P. 248 .
(212) ابن بشكوال : الحلة ج 2 ص 418 ، ابن الفرضى : تاريخ العلماء والرواة ج 1 صفحة 123 .
(213) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(214) ابن عبد ربه : ج 4 صفحة 493 .
(215) نفس المصدر : صفحة 488 .
(216) ابن خلدون : ج 4 صفحة 126 .
(217) جغرافية المأمون ورقة 197 ، الطلشندي : ج 5 ص 164 ،
Conde : Op. Cit. Vol. I. P. 291.
(218) ابن عبد ربه : ج 4 ص 494 .

في الوقت الذي نعم فيه امراء سجلماسة بالامن والهدوء في عهد ميمون الامير واليسع المنتصر ، حتى ادى ذلك الى أن يعتبر المؤرخون الامير الاندلسي صاحب سيادة فعلية على امراء سجلماسة . يقول ابن عذارى (219) « . . وكان الامير محمد مأمولا محبوبا في جميع البلدان ، وكان محمد بن افلح صاحب تاهرت لا يقدم ولا يؤخر في اموره ومعضلاته الا عن رايه وامره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » ، كما يضيف ابن الخطيب (220) « . . وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة » . ولا شك ان هذا القول ينطوى على مبالغة لا سند لها من الواقع ، فليس ثمة ما يشكك في الاستقلال التام الذي تمتعت به دولتي بنى مدرار وبنى رستم .

كان من البديهي أن تتوطد صلات المودة والصداقة هذه وتزداد رسوخا بظهور الخطر الشيعي في بلاد المغرب وتطلعهم الى الاندلس اذ اهتم امويو الاندلس بمتابعة اخبار الدعوة الفاطمية عن طريق اصدقائهم في سجلماسة وتاهرت ، وخاصة بعد الانتصارات المتوالية التي احرزها داعيتهم ابو عبد الله الشيعي على دولة الاغالبة (221) . ولا شك ان بنى مدرار ارتاعوا بدورهم لهذا الخطر ، ومن المحتمل أن يكونوا قد بذلوا جهودا للاشتراك مع اموي الاندلس في مجابهته . لكن هذه الجهود لم تسفر عن شيء ، فقد سقطت دولة بنى مدرار سنة 297 هـ (909 م) في يد الشيعة دون أن يحرك أمير الاندلس ساكنا ، ولم تقم قرطبة بجهود لمناوءة الفاطميين في المغرب الا في عهد عبد الرحمن الناصر (222) . وهكذا لم تتمخض صلات الود والصداقة بين سجلماسة وقرطبة عن نتائج سياسية ذات بال .

والخلاصة ان علاقات بنى مدرار الخارجية تأثرت بظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية وطبيعتها الجغرافية ومذهبها الديني .

(219) البيان المغرب ج 1 صفحة 116 .

(220) اعمال الاعلام ج 2 صفحة 22 .

(221) ابن عذارى : ج 1 ص 150 ، محمود بكى : التشيع في الاندلس ص 111 .

(222) عول الناصر على مناهضة الفاطميين في بلاد المغرب لشغلهم عن التفكير في غزو الاندلس واستطاع بالفعل أن يستحوذ على بعض معاتل العدو كسبته وطنجة . ولعل حرص الحكم المستنصر من بعده على معرفة طبيعة بلاد المغرب واحوال سكانها كان تهيدا لد نفوذه فيها واتصاء الفاطميين عنها . انظر : مجهول : اخبار مجموعة ص 155 ، الضبي : بغية الملتبس ص 131 .

ثانيا :

دولة بني رستم الاباضية

أ - قيام دولة بني رستم

يرتبط قيام دولة بني رستم بمؤسسها عبد الرحمن بن رستم الفارسي الاباضي ، فاليه يعزى الفضل في تأسيس دولة للخوارج الاباضية كان حكمها في أسرته من بعده . وليس غريبا أن يرضخ بربر المغرب الاوسط لزعامة امام من غير البربر ، فان كافة الدول التي قامت ببلاد المغرب حتى قيام الدولة الفاطمية اعتمدت على شخصيات من غير البربر تمتعت بمنزلة دينية خاصة (223) في معظم الاحيان .

وغنى عن الذكر ان المصادر جميعا تتفق على انتماء عبد الرحمن بن رستم الى الفرس ، وتجمع على نسبته لطبقة الحكام الاكاسرة ، لكنها تختلف في التفاصيل . فابن خلدون (224) يذكر أنه « من ولد رستم أمير الفرس بالقادسية » والبكري (225) ينسبه الى « سابور ذي الاكتاف الملك

(223) ينطبق هذا القول على دول بني مدرار وبني رستم والادارسة والاغالبة والفاطمين وكذلك امارة برغواطية .

(224) المبرج ج 6 ص 121 . وهي رواية خاطئة لان رستم هذا قتل سنة 16 هـ ، وتولى عبد الرحمن سنة 168 هـ فيكون قد عمر أكثر من مائة وخمسين عاما .

(225) المغرب : صفحة 67 .

الفارنسي « ، بينما ترجح تواريخ الخوارج (226) صلته « بكسرى انو شروان ملك الفرس » .

وتضطرب تواريخ الإباضية حين نتحدث عن نشأة عبد الرحمن وتورد من الروايات ما يشير الى ان امر المغرب سيؤول الى الفرس (227) ، وتصور رستم والد عبد الرحمن على انه كان يدرك هذه النبوءة التي سوف تتحقق على يد ذريته ، فانتقل الى العراق ومنها الى مكة على اهل الرحيل الى المغرب لتحقيق نبوءته . ورواية ابن عذارى (228) عن نشأة رستم وابنه عبد الرحمن بالحجاز أكثر قبولا ، فهو يذكر ان بهراما والد رستم كان من موالى عثمان بن عفان ، ولما مات رستم والد عبد الرحمن تزوجت امه من أحد الحجاج المغاربة الذي اصطحبه معها الى بلاد المغرب . والراجع ان وصول عبد الرحمن الى المغرب حدث في اواخر القرن الاول الهجرى (229) ، فنعلم انه كان شابا يافعا عند ما قدم سلمة بن سعيد يدعو للمذهب الإباضى في بلاد المغرب ، ويخبرنا الشماخى (230) عن لقاء عبد الرحمن بسلمة وشغفه بتعاليمه « وتعلق قوله بقلبه » .

ثم توجه عبد الرحمن بن رستم الى البصرة وانضم الى اخوانه المغاربة في حلقة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة سنة 135 هـ (752 م) ، حيث قضى خمس سنوات في حضرته يتلقى اصول المذهب وغروعه ويعد مع اخوانه « حملة العلم المغاربة » مع مشايخ المذهب في البصرة لاقامة « امامة الظهور » عقب عودتهم الى بلاد المغرب .

ولما عادت بعثة المغاربة الى المغرب سنة 140 هـ (757 م) وتولى أبو الخطاب المعافى الامامة ، اختار عبد الرحمن بن رستم قاضيا على طرابلس (231) . وعند ما اقصى أبو الخطاب الصفرية عن القيروان ودخلها سنة 141 هـ (758 م) تولى عبد الرحمن بن رستم حكمها نيابة

-
- (226) أبو زكريا : ورقة 5 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 138 .
(227) تنفيض هذه المصادر بذكر احاديث منتحلة ومأثورات عن كبار الصحابة — مشكوك فيها — تبين لمضائل الفرس وعظيم شمائلهم ومفضلهم على الاسلام ، وتنبيه عن قيامهم باعادته الى سيرته الاولى ، عن طريق اقامة دولة لهم في بلاد المغرب . انظر : أبو زكريا : ورقة 2 ، 5 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 9 .
(228) البيان المغرب : ج 1 ص 277 .
(229) ينفى هذا ما قاله ابن خلدون من ان عبد الرحمن قدم الى افريقية « مع طوابع الفتح » انظر : العبر : ج 6 ص 121 .
(230) السير : صفحة 123 .
(231) النفوسى : ج 2 صفحة 84 .

عنه (232) في حين توجه أبو الخطاب للاقاة جيوش ابن الأشعث ، فكان عبد الرحمن لذلك « خليفة على إفريقية » (233) .

وقد خرج عبد الرحمن بجيش القيروان لنجدة امامه حين دهمته جيوش ابن الأشعث ، لكنه توقف عند قابس عند ما وصلته أنباء قتله وهزيمة جيوشه ، واضطر للعودة الى القيروان لثورة اهل قابس عليه ، لكنه أسرع بمبارحتها عند ما علم بثورة أهلها على نائبه فيها (234) . وتخطىء توارىخ الاباضية (235) حين تزعم ان عبد الرحمن بن حبيب استولى على القيروان اذ ذاك وانه ظفر بابن رستم وهم بقتله لولا شفاعاة بعض القيروانيين فيه ، فأطلقه ابن حبيب على ان يغادر القيروان ثوا ، لان هذه الاحداث وقعت سنة 144 هـ (761 م) بينما قتل عبد الرحمن ابن حبيب سنة 137 هـ (236) (754 م) ، وانتهى حكم أسرته بمقتل ابنه حبيب على أيدي الصفرية سنة 140 هـ (237) (757 م) .

والمعتول ان يكون عبد الرحمن قد نزل القيروان في محاولة لجمع شمل الاباضية فيها ، ثم أسرع بمغادرتها لثورة أهلها على الاباضية من ناحية ولوصول ابن الأشعث وجيوشه اليها من ناحية أخرى (238) .

وبديهي أن يتجه عبد الرحمن الى المغرب الأوسط لاثذا بالقبائل الاباضية هناك . وكانت رحلته هذه شاقة وعسيرة ، اذ آثر المسير فى الطريق الجنوبى المار بقسطنطينية — وهو طريق وعر وطويل — الى أن وصل الى جبل سوفنج (239) فاتخذ منه ملاذا لمناعته (240) . ثم اخذت جموع الاباضية تفد اليه ، فقصده شيوخ المذهب ورؤسائه من طرابلس وما جاورها (241) ، كما توجه اليه علماء الاباضية واعلامهم من سائر

(232) ابن عذارى : ج 1 ص 277 ، ابن خلدون : ج 6 ص 111 .

(233) البكرى : صفحة 68 .

(234) أبو زكريا : ورقة 10 ، الننوسى : ص 2 .

(235) أبو زكريا : ورقة 10 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ، الننوسى : ص 2 .

(236) الرقيق : صفحة 124 .

(237) نفس المصدر : ص 141 ، ابن عذارى : ج 1 ص 81 .

(238) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .

(239) ذكر الننوسى أن هذا الجبل مجهول الموقع ، ويعتقد دهبز انه هو نفس الجبل المعروف بسونليف الكائن بين مدينتى سلالة والسومر . انظر : الازهار الرياضية

ج 2 ص 3 ، المغرب الكبير . ج 3 ص 256 .

(240) أبو زكريا : ورقة 11 .

(241) نفس المصدر والمصحفة ، Gautier : Op. Cit. P. 301 .

اقاليم المغرب (242) . وعول عبد الرحمن على جمع شمل اتباع المذهب بهدف استرداد نفوذه ، ولعل هذا ما حدا بمحمد ابن الاشعث الى اقتفاء اثره بقصد القضاء عليه قبل استفحال خطره . فتخصن عبد الرحمن بالجبل وخذق على نفسه (243) . وضرب ابن الاشعث وجيشه الحصار على ابن رستم ورجاله دون طائل ، فاضطر للعودة من حيث اتي بعد ان حل الوياء بجيشه ، وافنى كثيرين من رجاله (244) ، فضلا عن خوفه من تمرد اهل القيروان عليه ولما يكن قد وطد فيها سلطانه بعد (245) .

وبرحيل ابن الاشعث اتيح لابن رستم ومن معه من شيوخ المذهب واعلامه الاتصال باباضية المغرب الاوسط ، فغادر سوفجج الى تاهرت القديمة ، وكانت تنزل حولها قبائل من هواره ولواتة ومكناسة ومزاتة ولماية واغلبها اباضية (246) ، وقد احسن ابن رستم الاختيار لنزوله في اقليم عامر بالخوارج الاباضية (247) . وبديهي ان ترحب هذه القبائل بمقدمه وخاصة اباضية لماية « لقديم حلف بينه وبينهم » (248) ايام كان نائبا لابي الخطاب على افريقية ، فلم يعتمد ابن رستم اذن — كما زعم جوتييه (249) — على قبيلة زناتة .

على كل حال — اثمرت اتصالات ابن رستم باباضية المغرب الاوسط ، فآزره في حصار عمر بن حفص بطبنة سنة 151 هـ (768 م) ، وكانت هزيمتهم في تهودة في نفس العام سببا في اقتناعهم بضرورة تأسيس دولة تلم شمل اباضية المغرب ، وانشاء مدينة تكون قسبة للدولة ومركزا للمذهب .

وقد تريت الاباضية في اختيار موضع مدينتهم ، وحرصوا على اقامتها « في مكان جيد الهواء ، كثير المياه ، خصب الارض ، قابل للعمارة ، مأمون من العدو » (250) . وطفق الرواد يجوبون اطراف الاقليم بحثا عن

(242) النفوس : صفحة 3 .

(243) نفس المصدر والمصحفة .

(244) ابو زكريا ، ورقة 11 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 17 .

(245) النفوس : صفحة 3 .

(246) نفس المصدر : ص 4 ،

Mercier : Histoire de l'établissement des Arabes ... P. 79.

(247) ابن خلدون : ج 6 ص 121 ، مارييه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية : صفحة 92 .

(248) ابن خلدون : نفس المصدر والمصحفة .

(249) انظر : Les Siecles obscurs. P. 312.

(250) النفوس : صفحة 6 .

الموضع المختار ، واجمعت آراؤهم على استحسان موضع تاهرت (251) . وكان هذا الموضع في مكان مسطح مرتفع (252) ، فهو ملائم ليكون مكانا لعاصمة « أمثال هؤلاء السكان الجبليين » (253) ، فضلا عن ملاءمته للرعى ، فهو بمثابة « منتجع صيفي للقبائل الرعوية في شمالي الصحراء » (254) ، هذا بالإضافة لوقوعه « في قلب ديار الاباضية ومنزلهم » (255) ، « ووقوعه بين نهر يأتى من الجنوب يسمى مينة وآخر ينبع من عيون ويشق مجراه الى أن يصب في وادي شلف » (256) . فهذا المكان اذن غيضة بين ثلاثة انهار (257) ، توجه انظارها نحو الداخل وتولى ظهرها للبحر الذى تبعد عنه بمسيرة ثلاث مراحل (258) .

ولهذه الميزات الفريدة ساوم الاباضية سكان موضع تاهرت من بربر صنهاجة (259) على بيعه فأبوا ، لكنهم سلموه اليهم على ان يستصلحوه ويكون لهم نصيب من خراجه . ثم أخذ الاباضية في تأسيس المدينة ، فشرعوا في ازالة الآجام وحرق الاشجار تمهيدا لاختطاطها (260) . وقد استعانوا بالاموال التى كانت ترد اليهم من اباضية طرابلس في اختطاط المدينة وتعميرها (261) . ثم بادروا باختطاط تاهرت سنة 161 هـ (262) (777 م) ، وبدأوا ببناء المسجد الجامع ، فأقاموه على أربع بلاطات (263) في المكان الذى خصصوه لصلاتهم عند ما كانوا يزيلون الاشجار ويمهدون الأرض (264) . وتلى ذلك بناء القصور والبيوت (265) والاسواق

-
- (251) أبو زكريا : ورقة 13 ، الشماخى : السير : ص 139 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 9 .
(252) الشماخى : صفحة 146 .
(253) Bernard : Op. Cit. P. 134.
(254) Farouhy : Apersian dunasty in noth Africa P. 14.
(255) Ibid. P. 12
(256) البكرى : ص 66 ، 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .
(257) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .
(258) اليعقوبى ، البلدان : ص 358 ، سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ص 375 .
(259) البكرى : صفحة 68 .
(260) أبو زكريا : ورقة 13 .
(261) نفس المصدر ورقة 11 .
(262) ابن عذارى : ج 1 ص 277 . وهى رواية أكثر دقة من رواية ابن خلدون ومن أخذ منه حيث يجعل تأسيس تاهرت سنة 144 هـ . انظر : المبر : ج 6 ص 121 ، السلوى : ج 1 ص 115 .
(263) ابن عذارى : ج 1 صفحة 277 .
(264) أبو زكريا : ورقة 13 ، الشماخى : السير ص 139 ، النوسى : ص 8 .
(265) الدرجيني : ج 1 ورقة 19 ، الشماخى : السير ص 139 .

والحمائم والفنادق (266) . ويبدو أن نزاعا نشب بين الاباضية وبين بربر صنهاجة آنذاك ، فيخبرنا البكري (267) « انهم كانوا يبنون النهار ، فاذا جن الليل وأصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم » . والراجح أن الاباضية ردعهم بالقوة واجلوهم عن المكان برمته حتى قال ابن رستم « هذا بلد لا يفارقه سفك دم ولا حرب أبدا » (268) . ويدهى أن يهتموا بتحسين المدينة وحمايتها ، فأقاموا سورا حولها (269) جعلوا له ابوابا اربعة (270)، وأصبحت المدينة الجديدة في مأمن من أعدائها ، ولا غرو فقد أطلق عليها « معسكر عبد الرحمن بن رستم (271) وقيل « المعسكر المبارك » (272). وأضحت تاهرت على اثر ذلك حاضرة للدولة ، وقصبة لعديد من المدن والقرى والقلاع والحصون التابعة لها (273) .

بادر رؤساء الاباضية ومشايخهم باختيار امام بعد اختطاط تاهرت حتى تستكمل دولتهم طابعها السياسى وتبلغ امامتهم « مرحلة الظهور » . والواقع أن ثمة خلاف بين المؤرخين حول توقيت مبايعة ابن رستم بالامامة ، وهذا الخلاف يدور حول ما اذا كانت المبايعة قد تمت على اثر مقتل أبى الخطاب ونزول عبد الرحمن بن رستم على اباضية المغرب الاوسط ، أو أن ذلك لم يحدث الا بعد اختطاط تاهرت يقول البكري (274) « بعد أن هرب عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله وترك القيروان اجتمعت اليه الاباضية وانفقوا على تقديمه » . ويقول ابن خلدون (275) « لحق عبد الرحمن بن رستم بأباضية المغرب الاوسط من البرابرة ونزل على لماية . . فاجتمعوا اليه وبأيعوه بالخلافة » . أما النفوسى (276) فيذهب الى « أن علماء المذهب بعد انشاء المدينة تداولوا وقالوا : قد علم ما حل بنا من الشتات والافتراق

(266) البكري : صفحة 68 .

(267) المغرب . صفحة 67 .

(268) نفس المصدر صفحة 68 .

(269) النفوسى صفحة 8 .

(270) هـ : باب الصبا وباب المنازل وباب الاندلس وباب المطاحن . راجع البكري : ص 66 .

(271) نفس المصدر : صفحة 68 .

(272) أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 ، ياقوت : ج 1 ص 816 .

(273) من هذه المدن والقلاع يمه وتاغليه وهزارة ومنداس وسوق ابراهيم وجبل تجان وشلف والبطحة والزيتونة والخضراء وتنس وتامزيت وفكان وغيرها . انظر : المقدسى :

احسن التقاسيم ص 219 .

(274) المغرب صفحة 68 .

(275) المعبر ج 6 صفحة 121 .

(276) الازهار الرياضية ج 3 ص 83 .

بعد وفاة إمامينا (يقصد أبا الخطاب وأبا حاتم) ومبارحتنا طرابلس ، وقد
أجمعنا على اختيار مكان غيرها يليق بمنصب الإمامة ويكون ملجأ للإسلام .
وإذا رزقنا بهذا المكان وتم تحصينسه على حسب المرام وجب نصب
إمام (277) »

وفي تقديرى أن عبد الرحمن بن رستم بويغ بالإمامة مرتين : الأولى
على أثر موت أبى الخطاب سنة 144 هـ (761 م) ونزوله على إباضية
المغرب الأوسط . والثانية سنة 162 هـ (779 م) بعد تأسيس تاهرت .
كانت مبايعته الأولى على أنه « إمام دفاع » نظرا لما تعرض له الإباضية
من بطش على يد جيوش ابن الأشعث ولا ينفى هذا ما حدث من مبايعة
إباضية طرابلس لأبى حاتم الملووزى فى ذات الوقت بإمامة الدفاع (278) ،
ففقه الإباضية يجوز وجود إمامين فى وقت واحد « إذا وجد بينهما عدو
يخشى بأسه ، أو لبعده المسافة » (279) . فلا غرابة فى وجود إمامين
للإباضية أحدهما فى المغرب الأدنى والآخر فى المغرب الأوسط وفى ضوء
ذلك يمكن تفسير إرسال أبى حاتم الأموال لابن رستم لتكون له عوناً على
بدء « إمامة الظهور » (280) . فلما استتب الأمر لإباضية المغرب الأوسط
بعد إنشاء تاهرت وتحصينها سنة 161 هـ (778 م) ، لم يكن هناك ما
يحول دون تجديدهم مبايعة عبد الرحمن بن رستم « لإمامة الظهور » سنة
162 هـ (779 م) وخاصة بعد نزوح كثير من إباضية المغرب الأدنى إلى
تاهرت ليعيشوا فى كنف الإمامة الجديدة بعد مقتل أبى حاتم الملووزى
« إمام الدفاع فى طرابلس » (281) .

أجمع مشايخ الإباضية إذن على اختيار عبد الرحمن (282) « لدينه
وسابقته ومكانه وغير ذلك من حميد الصفات » (283) وحسبه أنه كان

(277) وقد اختلفت آراء المحدثين لهذا السبب وتفاوتت مذكروا أن المبايعة تمت قبل إنشاء
المدينة ، ثم ذكروا فى مواضع أخرى أنها حدثت بعد تأسيسها . انظر : سعد زغلول
عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ص 380 ، 383 ، السيد عبد العزيز سالم :
المغرب الكبير ص 542 ، 545 .
(278) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .
(279) أطنيش : الامكان ص 107 ، 108 .
(280) أبو زكريا : ورقة 11 .
(281) نفس المصدر ورقة 13 ، انظر : مقدمة تاريخ ابن الصغير Motylinski : P. 5.
(282) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسى : ص 83 .
(283) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 . وقد رأى الإباضية الشروط المتعارف عليها فى اختيار
الإمامة وهى « العلم والعدالة والكنية وسلامة الحواس والامضاء » دون اشتراط
الأصل القرشى كما هو شأن أهل السنة . انظر : ابن خلدون ، المقدمة ج 2 ص 522 .

« أحد حملة العلم الخمسة » الى المغرب ، وعامل ابي الخطاب على افريقية (284) فضلا عن انه « ليس له من قبيلة تمنعه اذا تغير او تبدل » (285) ، ومن ثم ارتضته القبائل لتتخاضى تسلط احداها عليها اذا ما حظى رئيسها بالامامة (286) .

وقبل عبد الرحمن بن رستم الامامة سنة 162 هـ (287) (779 م) « على سنة الله ورسوله وآثار الخلفاء الراشدين » (288) بعد ان عامده رؤساء المذهب « على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه » (289) ، واصبح اول ائمة الدولة الرستمية التى اشتقت اسمها من اسمه .

وشرع عبد الرحمن بعد بيعته فى العمل على توطيد حكمه وارساء دعائم دولته ، ومواجهة المشاكل المصاحبة لقيام الدول سواء فيما يتعلق بسياستها الخارجية أو الداخلية وجدير بالذكر أنه كرس جهوده لمواجهة الابعاء الداخلية ملتزما سياسة المهادنة فى الخارج ، فقد حرص على موادعة عمال بنى العباس فى افريقية (290) — كما اصهر الى اليسع بن ابي القاسم رغبة فى مسالة بنى مدرار (291) .

ولما اطمأن الى سلامة دولته من الاخطار الخارجية شرع فى ارساء دعائمها . وكان عليه ان يبسط نفوذه على سائر القبائل داخل حدودها ويستكمل انشاء عاصمتها ويرسى نظمها فى الحكم والادارة .

والواقع انه كان بحاجة الى الاموال ليستعين بها على مواجهة تلك المهام فضلا عن تعبئة الجند وشراء الاسلحة واسترضاء الاتباع (292) . ويخيل لنا انه استعان باباضية المشرق فى هذا الصدد ، وبديهى ان يخفوا لغونه وشده ازره لتحقيق آمالهم فى اقامة دولة اباضية كبرى (293).

(284) الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(285) ابن الصنير : ص 6 ، ابو زكريا : ورقة 9 ، الشماخى : السير ص 140 ، Masqueray : Op. Cit P. 58, Farouhy : Op. Cit. P. 139.

(286) ابن الصنير : ص 9 .

(287) ليس صحيحا ما أورده بعض مؤرخى الاباضية من رفض عبد الرحمن بن رستم الامامة سنة 140 هـ قبل ان تعرض على ابي الخطاب المعافى . انظر : الشماخى : السير

ص 140 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(288) الشماخى : السير ص 140 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 19 .

(289) ابن الصنير : ص 9 ، النفوسى ص 84 .

(290) النفوسى : صفحة 93 .

(291) نفس المصدر والمصحفة .

(292) النفوسى : صفحة 86 .

(293) ابن الصنير : ص 10 .

فبادروا بانفاذ بعثه محملة بالاموال الى تاهرت (294) وتفيض مصادر الاباضية (295) بمزيد من التفصيلات حول بعثة المشاركة في تاهرت ، واعجابهم بحكم الامام عبد الرحمن وما هو عليه من زهد وعدل وورع وتسليمهم الاموال له ، وحرصه على استشارة اهل الراى فى كيفية توزيعها وانفاقها ، وتلبيته مشورتهم بأن تنفق فى ثلاثة اوجه « ثلثا فى الكراع وثلثا فى السلاح وثلثا توزع فى فقراء المسلمين وضعفائهم » .

واستطاع عبد الرحمن بهذه الاموال تسليح رجاله من الاباضية ، وتمكن بفضلهم من بسط سيادة الدولة على سائر قبائل البربر الضاربة داخل حدودها ، وانضوت كافة الجماعات داخل تاهرت وخارجها تحت لواء المذهب الاباضى فى شكل ائتلاف شمل البربر وما عداهم من العناصر الاخرى (296) .

وفضلا عن ذلك فقد اولى عبد الرحمن النواحي الاقتصادية والعمرانية اهتماما كبيرا ، وتذكر المصادر جهوده فى غرس البساتين وشق القنوات واثامة المطاحن عليها (297) . كما زاد فى تعمير تاهرت واثام الفنادق والمباني الخاصة للتجار ورتب الاسواق ونسقها ، ونظم الاحتساب عليها ، فقصدها التجار من سائر ارجاء العالم الاسلامى وخاصة من فارس والعراق والقيروان وسجلهاسة (298) فضلا عن بلاد السودان (299) . وقد اسهم هذا الازدهار الاقتصادى فى تدعيم الدولة الرستمية ، وليس ادل على انتعاش احوال الامامة فى ذلك الحين من رفض عبد الرحمن معونة اخرى بعثها اليه اباضية المشرق (300) ، الذين ابتهجوا لاستقرار الامامة واشتداد ساعدها فاعترفوا بها « ووصلوا الامام بكتبهم ووصاياهم » (301) .

(294) يذكر فروخى ان هذه الاموال بعثها خوارج فارس والبحرين ، بينما تروى المصادر الاباضية انها من لدن خوارج البصرة . وليس من المستبعد أن يكون اباضية فارس والبحرين قد بعثوا بهذه الاموال الى البصرة حيث يوجد مشايخ المذهب الذين ارسلوها بدورهم الى بلاد المغرب . انظر : ابو زكريا : ورقة 14 ،

Faroughy : Op. Cit. P. 14.

(295) انظر : ابو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 20 ، الشماخى : السمر ص 140 ، 141 ، الننوسى : ص 86 ، 87 .

(296) ابن الصغير : ص 12 ، الننوسى : ص 88 ،

Smith : The Ibadites. P. 279.

(297) نفس المصادر والمنحفات .

(298) ابن الصغير : صفحة 16 ، Faroughy : Op. Cit. P. 14.

(299) نفس المصدر : ص 13 .

(300) نفس المصدر ص 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 .

(301) الننوسى ص 87 ، Julien : Op. Cit. P. 333 .

وعكف عبد الرحمن على تنظيم دولته وتوطيد سلطانه ، ولا شك أنه استفاد من عبقرية الفرس في الحكم والادارة ، ومع ذلك فقد غلب الطابع الدينى المذهبى على ما اتخذه من اجراءات في هذا الصدد فكانت نظم الادارة والقضاء والشرطة والاحتساب وادارة بيت المال ونظم الجباية والصدقات كلها تسير وفقا لتعاليم المذهب الاباضى (302) ، مع مراعاة ظروف السكان باعتبار غالبيتهم من البدو الرحل (303) .

وبذلك استطاع ابن رستم أن يرسى قواعد الدولة ويضع نظمها الادارية (304) والمالية (305) ويكسبها « رونق الملك » (306) وحسبه نجاحا قدرته على التصدى للمشاكل الداخلية والخارجية الكثيرة التى واجهته . فبفضل سياسته في مهادنة القيروان وسجلماسة ، وبفضل قدرته على ايلاف العناصر والعصبيات المختلفة داخل الدولة « لم ينقم عليه احد في خصومة ولا حكومة » (307) « ولم يكن على يديه افتراق » (308) .

ولكى يضمن استمرار الاستقرار لدولته اوصى قبل وفاته (309) بتعيين مجلس شورى يختار امام الدولة من بين أعضائه .

وهكذا نجح عبد الرحمن بن رستم في اقامة دولة أباضية في تاهرت وتتويج ثورات الخوارج الاباضية في بلاد المغرب بتأسيس أسرة حاكمة ضمت معظم اقاليم المغربين الأدنى والاوسط ، ظل أئمتها يتناوبون حكمها قرابة قرن وربع قرن من الزمان .

(302) ابن الصغير : صفحة 16 .

(303) مجهول : الاستبصار : صفحة 179 ، Gautier : Op. Cit. P. 300.

(304) البعقوبى : البلدان : صفحة 149 .

(305) ابن الصغير : صفحة 16 .

(306) النفوسى : صفحة 90 .

(307) الشماخى : صفحة 140 .

(308) أبو زكريا : ورقة 14 .

(309) اختلف المؤرخون في تحديد سنة وفاته ، تذكر بعضهم أنه توفي بعد سنتين من امامته أى

سنة 164 هـ انظر : اطفىش : بعض تواريخ أهل وادى ميزاب : ص 101 .

بينما ذكر ابن عذارى أنه مات سنة 168 هـ انظر : البيان المغرب ج 1 ص 277 .

والراجح ما أورده النفوسى من أن وفاته وقعت سنة 171 هـ انظر : الازهار

الرياضية : ج 2 صفحة 99 .

ب - سياسة بني رستم الداخلية

اضطربت أحوال الدولة الرستمية بعد عبد الرحمن بن رستم فامتلات بالفتن السياسية والانشقاقات المذهبية والصراع العنصري⁽³¹⁰⁾ حدا بالمؤرخ جوليان (310) الى القول بأن تاريخ تاهرت لم يكن سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية . والواقع ان تلك الظاهرة اكثر بروزا ووضوحا في الدولة الرستمية اكثر منها في اية دولة اخرى دول المغرب المعاصرة لها . حقيقة ان هذه الاضطرابات رغم كثرتها لم الى سقوط الاسرة الحاكمة في تاهرت لكنها على كل حال فتت في عهد واوهنت من نفوذها في كثير من اقاليمها وخاصة الاجزاء الشرقية منها لم تمارس عليها سوى مجرد تبعية اسمية ، بل كثيرا ما انسلخ عن تاهرت بعض هذه الجهات مثل جبل نفوسة ونفزاوة وجربة وطرابلس و ونعتقد ان هذه الاضطرابات يرجع بعضها الى اسباب فقهية مذ بينها يعزى بعضها الآخر الى عوامل عنصرية او قبلية او طائفية . و ان معظم القلاقل الداخلية في عهد الائمة الثلاثة الاول اتخذت في الاعم طابع الانشقاق المذهبي في حين وضع الطابع العنصري القبلي سائر الحركات التي قامت في عهد الامامين الرابع والخامس ، بينما عهدي الامامين الاخيرين بالصراع على الحكم بين افراد البيت الرستمي فضلا عن ظهور الطوائف المذهبية غير الاباضية كعامل جديد في الصراعات . ولم تخل هذه الاضطرابات السياسية - في كثير من الاحيان من وجود مؤثرات خارجية . وعلى ذلك يمكن التمييز بين ادوار ثا واضحة في مسار التطور السياسي الداخلي لدولة بني رستم، كان الدور

re de l'Afrique Septentrionale. P. P. 335, 36.

(310)

فيها — ويشمل عهدى عبد الوهاب بن رستم وابنه أفلح — يمثل سطوة الإمامة وقوتها ، وقدرتها على احباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبى سواء بالقوة كما فعل الامام عبد الوهاب او عن طريق السياسة كما فعل أفلح بن عبد الوهاب .

اما الدور الثانى ، فيشمل عهدى أبى بكر بن أفلح واخيه أبى اليقظان محمد ، وهو يمثل الصراع العنصرى والقبلى ، وفيه خفت صوت الإمامة ووهنت قوتها ، ونجحت بعض العناصر فى اغتصاب السلطة فى تاهرت ، ولم يستردها البيت الرستمى الا بتعزيد عناصر اخرى . ولم يحل دون سقوط الإمامة سوى ضعف العصبية من جراء الصراع بينها ، واسلوب الملاينة والموازنة الذى اتبعه أبو اليقظان محمد فى موقفه من هذه العصبية.

ويتسم الدور الاخير من الحكم الرستمى — ويشمل امامتى أبى حاتم يوسف بن محمد واليقظان بن أبى اليقظان — بتداعى الإمامة واضمحلالها وتحكم عامة تاهرت فى تعيين الائمة وعزلهم ، وطمع الطوائف والفرق غير الاباضية فى تقلدها انهاء للحكم الرستمى الاباضى ، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة واقاليمة الشرقية . كما زادت الحالة سوءا بتفاقم الخلاعات داخل البيت الرستمى وتدبيرهم المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض لتسبب الحكم . وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على سقوط دولة بنى رستم سنة 297 هـ (909 م) .

وفيما يلى تفصيل دراسة هذه الاطوار الثلاثة فى سياسة بنى رستم الداخلية .

الدور الاول (171 — 258 هـ) (788 — 873 م) .

الانشقاقات المذهبية :

تم اختيار عبد الرحمن بن رستم للإمامة سنة 162 هـ (779 م) وفقا لمبايعة اهل الحل والعقد واجماع كافة مشايخ القبائل ، كما كانت سياسته الادارية والمالية تقوم على المساواة وعدم التعصب لعصبية دون سواها . وبالاجمال كانت امامته متمشية مع تعاليم المذهب الاباضى ، الامر الذى هيا لحكمه الثبات والاستقرار . على أن الخروج عن هذه السياسة فى عهد ابنه عبد الوهاب (171 — 208 هـ) (788 — 824 م) وحفيده أفلح (208 — 258 هـ) (788 — 873 م) سبب الاضطرابات والقتال التى حفل بها حكميهما .

فقد تحولت الإمامة عن مبدأ الاختيار الى فكرة التنصيب بالتوريث (311) كما ظهرت سياسة الميل لعناصر دون سواها وتمكينها من الاستئثار بمراكز الدولة ووظائفها ، مما شكل خروجاً عن تعاليم المذهب الإباضي ، وتمزقاً للوثاق الذي ربط بين عناصر وعصبيات شتى ، ونجم عن ذلك انفراط العقد الذي جمع هذه القوى جميعاً لتبرز حزازاتها في شكل حركات وثورات على الائمة اتخذت في أغلبها طابع الانشقاق المذهبي (312) .

وكانت أولى هذه الثورات وأخطرها حركة يزيد بن فندين وجماعته التي عرفت « بالنكار » (313) . وتكمن الدوافع الأساسية لثورة ابن فندين في رفض امامة عبد الوهاب لعدم اعترافه بجماعة المشورة — التي اقترح ابن فندين استرشاد الامام برأيها (314) — ولأن جماعة المذهب لم يجمعوا على امامته لذلك (315) ، ولأن في جماعة الإباضية من ييز عبد الوهاب علماً (316) ، ومن ثم يصبح مقتصباً للإمامة يضاف الى ذلك نغمته على سياسة عبد الوهاب الادارية ومحاباته لبعض العناصر والقبائل واختصاصهم بمناصب الدولة دون غيرهم (317) ، وبالذات نفوسة (318) والعجم (319) .

وقد نجح ابن فندين في استمالة العديد من الانصار (320) ، ونحى بهم خارج المدينة حيث تأهبوا لقتال عبد الوهاب وجماعته (321) . ويبدو أن القتال نشب بين الجماعتين بالفعل ، وأن الدائرة دارت على عبد

(311) ابن الصغير : صفحة 16 ، 20 .

(312) انظر : ابن الصغير : المقدمة : صفحة 6 .

(313) انظر : السوفى : شرح السؤالات ورقة 99 ، 115 مخطوط . وعرفوا أيضاً « بالنجوية » لانهم اكلوا الاجتماع والنجوى ، كما اطلق عليهم اعداؤهم أسماء أخرى ، فمروا « بالشعبية » لادخالهم الشعب والفرقة في المذهب ، وقيل « الشغبية » لاحداثهم الشغب ، كما دعوا « بالنكاث » لنكتهم ببيعة عبد الوهاب . انظر : أبو زكريا : ورقة 16 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 .

(314) الدرجيني : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 102 .

(315) ابن الصغير : ص 18 . والاجماع من شروط صحة الإمامة عند فقهاء الإباضية ، كما هو الحال عند أهل السنة . انظر : الشهاخى : شرح مقدمة اصول الفقه ورقة 64 — مخطوط ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص 5 .

(316) أبو زكريا : ورقة 15 .

(317) الشهاخى : السير : صفحة 146 .

(318) ابن الصغير : صفحة 22 .

(319) النفوسى : صفحة 114 .

(320) الدرجيني : ج 1 ورقة 22 .

(321) عرف أنصار عبد الوهاب « بالوهبية » كما يذهب ابن الصغير وليس كما يعتقد البرادى بانهم ينسبون الى عبد الله بن وهب الراسبى . انظر : سيرة الائمة الرستبيين ص 16 ، الجواهر المنتقاة ورقة 89 .

الوهاب ، يفهم هذا من رواية للنفوسى (322) يقول فيها « أن الامام اضطرب الى طلب الهدنة ووضع أوزار الحرب حقنا للدماء الى أن يكتبوا لآخوانهم المشاركة بايضاح القضية » . وقبول ابن فندين مبداً تحكيم فقهاء المذهب في الشرق في قضية الامامة (323) ، مما يؤكد ايمانه بعدالة موقفه وشرعيته ، ومما يدحض دعوى المصادر الاباضية في أنه ثار لاسباب شخصية صرفة (324) .

على كل حال — يذهب مؤرخو الاباضية الى أن شيوخ المذهب فى مصر — وعلى رأسهم شعيب بن المعرف — أفتوا فى صالح عبد الوهاب فقالوا « الامامة تامة والشرط باطل » (325) . وكذلك جماعة فقهاء المذهب فى مكة ورئيسهم الربيع بن حبيب (326) الذين بعثوا جوابهم (327) الى عبد الوهاب وابن فندين حيث أفتوا « بأن الامامة صحيحة والشرط باطل » وأنه « يجوز تولية رجل من المسلمين اذا كان فيهم من هو اعلم منه » (328) .

ويخيل الينا أن فتوى المشاركة كانت فى صالح ابن فندين بدليل وصول فقهاء مصر ورئيسهم شعيب بن المعرف وانضمامهم الى ابن فندين فى الثورة على عبد الوهاب (329) ، ثم ورود عبارة عند الشماخى (330) توضح أن « المشاركة عابوا على عبد الوهاب أشياء وأمره أن يرجع عنها » وكذلك ضعف الرواية الاباضية الوهبية التى تصور تريث الربيع واخوانه فى اصدار فتواهم ريثما يجتهدوا (331) ويتباحثوا فى مسألة تعد من بديهيات الفقه

(322) الازهار الرياضية : ج 2 ص 106 .

(323) أبو زكريا : ورقة 15 ، الشماخى : السير ص 146 .

(324) تزعم هذه المصادر أن ابن فندين قام بالثورة لأن الامام عبد الوهاب لم يختره لتولى أحد المناصب العامة « التى اقتص بها أهل العلم والبصيرة فى الدين » . انظر : أبو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 .

(325) الشماخى : السير : صفحة 147 .

(326) تقلد الربيع زعامة المذهب فى الشرق بعد موت أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة . وقد عرف بتميمته فى الأصول والفروع وتبحره فى مسائل الامامة والولاية والبراءة وفقاً للقرآن والسنة . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 116 . الوجلانى : الدليل لاهل العقول : ج 2 ص 75 .

(327) انظر : الملحق رقم (4) .

(328) من المعروف أن الشريعة الاسلامية تجيز امامة المفضل اذا لم يكن مقصرا فى شروط الامامة مع وجود الامضل ، وكذلك يجوز الفقه الاباضى امامة المفضل اذا كان على شئ « من الغناة والفضل » . انظر : الماوردى : ص 8 ، أبو زكريا : ورقة 16 .

(329) الدرجينى : ج 1 ورقة 16 .

(330) السير : صفحة 147 .

(331) أبو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 106 .

الاباضى . ومهما كان الامر فان ما تذكره المصادر الاباضية (332) من أن شعيب بن المعرف « خرج من مصر في نفر من أصحابه بغير مشورة من مشايخ مصر طمعا في الامارة » أمر مبالغ فيه ، والاقترب للتصديق أنه توجه لنصح عبد الوهاب وانهاء الخلاف في تاهرت ، فلما لم يجبه انضم الى ابن فندين وخرجت جموع النكار الى الجبال المحيطة بتاهرت واستقروا في كدية عرفت « بكدية النكار » . أما الرواية المتواترة (333) التي توردها هذه المصادر عن تدبير النكار مؤامرة اغتيال عبد الوهاب فهي ذات طابع أسطوري بحث ، كما ان أسلوب الاغتيال كان مرفوضا عند الخوارج (334) .

على كل حال — تأهب الطرفان للقتال فكان النكار « يدخلون المدينة ويخرجون منها بالسلاح » (335) كما « أمر الامم رعيته وأصحابه بامساك السلاح » (336) وانتهاز النكار فرصة غياب عبد الوهاب عن تاهرت وبادروا بمهاجمتها والاستيلاء عليها ، ولما كانت المدينة محصنة ومسورة ، فقد أغلق الوهبة أبوابها ، ونجح أفلح بن عبد الوهاب (337) بمن معه في صددهم ، ثم تتبعهم وهزمهم وقتل ابن فندين وكثيرا من النكار ، ولادت فلولهم بالجبال واستقروا في كديتهم . أما شعيب بن المعرف فقد هرب الى طرابلس ، وأخذ يؤلب اباضيتها على الامامة في تاهرت (338) .

ونشك أيضا فيما يروى من اغتيال النكار ميمون بن عبد الوهاب

(332) انظر : أبو زكريا : ورقة 16 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 ، الشماخى : السير ص 147 ، النفوسى : ص 108 .

(333) عن هذه الرواية الاسطورية انظر : أبو زكريا : ورقة 16 ، الشماخى السير : ص 103 — 106 .

(334) الثابت أن مبادئ الخوارج تنكر هذا الأسلوب وتحض على المواجهة الملتية للخصوم كما يتضح من مبادئ الاستعراض والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واعلام الخصوم وأخذ الحجة عليهم قبل قتالهم . . الخ . ونلاحظ أن الخوارج في حروبهم — سواء في المشرق أو في المغرب — التزموا بهذه المبادئ وخاصة الاباضية منهم حتى بلغت مثاليته حد عدم تتبع المدبر وتحريم نهب الخصوم . . الخ . وما حدث من تدبير اغتيال على بن أبى طالب كان حادثا فريدا له دوافعه الخاصة . انظر السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 ، الاسفرائي : التبصير في الدين : ص 28 .

(335) الشماخى : السير : صفحة 148 .

(336) الدرجيني : ج 1 ورقة 24 .

(337) تحفل المصادر الاباضية بتمصص روائية عن شجاعة أفلح واستبساله في الزود عن المدينة . انظر : أبو زكريا : ورقة 18 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 25 ، النفوسى : صفحة 111 — 121 .

(338) نفس المصادر والصفحات . وجدير بالذكر أن اختلاف انتهاء الاباضية حول موقف شعيب وانقسامهم بين مؤيد ومعارض مما يبرز الطابع المذهبي للحركة . وهذا شأن خلافا للخوارج في الشرق أيضا . من هذه الخلافات انظر : الشماخى : السير : صفحة 151 .

وتمثيلهم بجثته (339) ، فهذا الأسلوب غير مألوف عند الخوارج عموماً — كما سبق القول — ولو صح قول البكري (340) أن ميمونا هذا كان ابناً لعبد الرحمن بن رستم وليس لعبد الوهاب ، لبطلت تلك الرواية من أساسها . واغلب الظن أن مؤرخي الإباضية الوهبية اصطنعوها لتبرير حملة عبد الوهاب على النكار بقصد استئصال شأفتهم . ومهما يكن من أمر ، فقد أفلح عبد الوهاب في هزيمتهم وقتل منهم أعداداً غفيرة (341) . لكنه لم يقض عليهم نهائياً ، فظلوا معتمدين بكديتهم في جبال تاهرت ثم ظهروا على المسرح السياسي بعد ذلك في ثورة بربر سدراته ومزاته الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب .

وكان من الطبيعي أن تتصل الفلول الباقية من النكار — بعد أن وهنت شوكتهم (342) — بقبائلهم المقيمة خارج تاهرت ليعاونوهم في محاولة الخروج على الإمام عبد الوهاب (343) ، وكانت غالبيتهم تنتمي إلى قبيلتي سدراته ومزاته الضاريتين على جانبي حدود الدولة الأغلبية في إقليم الزاب (344) . ولا يخامرنا شك في تحريض الأغلبية لهم على إثارة العراقيين في تاهرت . على كل حال ، فقد قدموا إلى ذويهم بكدية النكار (345) وانضموا إليهم في معارضة إمامة عبد الوهاب (346) واعتصموا معهم بكدية النكار « خارج تاهرت » (347) . وأحس عبد الوهاب بخطرهم ، فدهمهم وأطبق عليهم بأنصاره وقتل منهم خلقاً كثيراً « إلا من شدد وولى » (348) ، لاذا بمواطنهم الأولى . ويبدو أن هذه الهزيمة فتتت في عضدهم ، وأوهنت شوكتهم ، فلم تقم لهم بعدها قومة طوال عهد الدولة الرستمية (349) . وتمكن عبد الوهاب بذلك من قمع حركة « الانشقاق الإباضي الأول » (350) المعروف بثورة النكار .

-
- (339) انظر : أبو زكريا : ورقة 18 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 25 .
(340) المغرب : صفحة 67 .
(341) تنرف المصادر الإباضية في تقدير عدد القتلى فتذكر أن عدد من تسمى منهم باسم هرون — أقل الاسماء — بلغ ثلاثمائة . انظر : الدرجيني : ج 1 ورقة 25 .
(342) الشماخي : السير : صفحة 154 .
(343) ابن الصغير : صفحة 20 .
(344) النفوسي : صفحة 129 .
(345) ابن الصغير : صفحة 20 .
(346) النفوسي : صفحة 130 — 131 .
(347) ابن الصغير : صفحة 20 .
(348) نفس المصدر والمصحفة .
(349) نفس المصدر والمصحفة .
(350) نفس المصدر والمصحفة ، النفوسي : ص 133 .

ومما لا شك فيه أن حركات النكار رغم اخمادها ، شجعت على قيام ثورات أخرى على الحكم الرستمي ، وصدق النفوسى (351) اذ قال بأن الامامة « أضحت مرمى لسهام الطاعنين والظاعنين » . وجدير بالذكر أن هذه الثورات ظلت طوال عهدي عبد الوهاب وافلح ذات طابع مذهبي في الغالب ، سواء ما قام به جمهور الاباضية وتمخض عن انشقاقات داخل المذهب ، أو ما قامت به الطوائف المذهبية الأخرى كالواصلية على وجه التحديد .

فقد تشجع الواصلية الضاربون في كنف الدولة الرستمية ، وهبوا لمناوئة الامامة الاباضية في تاهرت اعتقادا منهم بخروج عبد الوهاب على الشريعة واغتصابه الامامة قسرا . ولو صح ذلك ، فالراجح أنهم تذرعوا بهذه الدعوى اخفاء لمطامعهم في الانسلاخ عن الحكم الاباضى وانتهاز فرصة انشغال عبد الوهاب بثورات النكار (352) لتحقيق هذه المطامع . وليس من المستبعد أن يكون « عزمهم في الخروج من حكم الامام » (353) تمهيدا للانضمام لآخوانهم بدولة الادارسة . فتذكر المصادر أن حركتهم لم تقتصر على واصلية الدولة الرستمية فحسب ، بل ضمت كافة عناصرهم « من كل اوب » (354) . حيث تجمعوا خارج تاهرت لقتال الاباضية (355) . وهذا امر طبيعي اذا ما ادركنا سياسة عبد الوهاب القائمة على التعصب والمحابة وقد اذكى هذا التنافر بين الواصلية والامامة الرستمية عوامل مذهبية وقبلية ، اذ لا يخفى العداء التقليدى بين الخوارج والمعتزلة — أو الواصلية — الناجم عن الخلاف الفكرى بينهما (356) ، وحسبنا ما كان يحدث من مساجلات ومعارك جدلية بين أقطاب الاباضية في الشرق وبين واصل بن عطاء راس الواصلية (357) كما زاد التشاحن القبلى من غلواء هذا العداء، فمن المعروف أن قبيلة لواتة الاباضية كانت على عداء مرير لبعض بطون

(351) الازهار الرياضية ج 2 ص 20 .

(352) أبو زكريا : ورقة 19 .

(353) النفوسى : صفحة 117 .

(354) الدرجينى : ج 1 ورقة 26 .

(355) اطينش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب ص 38 .

(356) على الرغم من التقارب بين فكر المعتزلة والخوارج في مسألة الوعد والوعيد ، فهناك كثير من القضايا التى اختلفوا حولها اختلافا جوهريا ، كمسألة مرتكبى الكبائر ،

والراى فى أصحاب صلين وغيرها . . انظر : الشهرستانى : ص 50 — 52 .

(357) الدرجينى : ج 1 ورقة 105 .

زناتة الواصلية ، بل يذهب مسكراى (358) الى أن هذه البطون الزناتية لم تعتنق مذهب الواصلية الا نكاية في لوأة التي دانت بالمذهب الاباضى .

ومهما كان الامر — فقد كان الواصلية يشكلون اقلية لها وزنها عدتها ثلاثين الفا يسكنون الخيام ويضربون خارج تاهرت (359) . هذا فضلا عن اقامتهم ببلدة ايزرج — قرب تاهرت عاصمة الرستميين (360) ، ولكون غالبيتهم من زناتة فقد نجحوا في اثارة كثير من بطونها ضد عبد الوهاب (361).

واجتمع الثوار من الواصلية خارج تاهرت وهددوا بالقضاء على الامامية الرستمية حول عام 195 هـ (811 م) (362) .

وقد جرت بين الطرفين مساجلات كلامية ، تلتها معارك حربية كان الظفر فيها للواصلية (363) . واضطر عبد الوهاب لعقد هدنة مع خصومه ، في الوقت الذى بعث فيه الى اتباعه بجبل نفوسة طالبا المدد (364) . وتسرف المصادر (365) الاباضية في ذكر روايات مبالغ فيها عن القدرات الخارقة التى تميز بها النفوسيون سواء في فنون الحرب او في أساليب الجدل والمناظرات كما تبالغ في وصف اللقاء بين الاباضية والواصلية والانتصار الذى أحرزه الامام في ساحة الجدل وفي ميدان القتال (366) . والراجع ان عبد الوهاب استطاع بمساعدة نفوسة هزيمة الواصلية وتفريق جمعهم ، اذ لم نقف لهم بعد على حركات طوال عهد الدولة الرستمية ،

(358) انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 120.

(359) البكرى : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .

(360) اليمتوبى : البلدان منحة 80 .

(361) الدرجينى : ج 1 ورقة 16 ، Lewcki : Etudes Ibadites. P. 29.

(362) هذا التاريخ تقريبى ، اعتمادا على ما هو معروف من أن الامام على اثر حروبه مع الواصلية توجه الى جبل نفوسة حيث ضرب الحصار حول طرابلس في العام التالى انظر ابو زكريا : ورقة 21 ، Lewcki : Melanges Berberes. P. 269.

(363) يذهب هذا من اشارة للشماخى تقول ان عبد الوهاب « كان زاهدا في سفك الدماء » ، ومن طلبه العون من جبل نفوسة ، ومما ذكره ابو زكريا عن الفتى المعتزلى الذى قتل كل من بارزه من الاباضية : انظر : السير ص 154 ، السيرة ورقة 19 .

(364) تذكر الرواية الاباضية ان أهل الجبل بعثوا الى الامام اربعة أشخاص فقط كل واحد منهم بمائة « أحدهم للمناظرة ، والآخر لتفسير القرآن ، والثالث لل مبارزة ، والرابع للمحاجة في المسائل الفقهية » وهى رواية غير مقبولة انظر : ابو زكريا : ورقة 19 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 26 ، الشماخى : السير : ص 155 ، النفوسى : ص 119 .

(365) نفس المصادر والصفحات .

(366) انظر : ابو زكريا : ورقة 22 ، الدرجينى : ورقة 28 .

وهو ما عناه الشماخي (367) بقوله « فوضعت الحرب أوزارها ، ودخل المعتزلة في طاعة الامام » .

على ان حركة تمرد اخرى اقل خطرا واجهت عبد الوهاب ، قامت بها بعد بطون قبيلة هواره الضاربة جنوبى تاهرت (368) . ونحن نخالف ابن الصغير (369) رايه في اعتبار هذه الحركة ثانى الانشقاقات الاباضية، ذلك ان الانشقاق الثانى حدث عند ظهور فرقة الخلفية الى جانب الوهبيّة والنكار وحسبنا أن تمرد هواره كان خلوا من أى حافز مذهبي ، ولم يحدث نتيجة خلاف فتهى حول قضية عامة وانما وقع كرد فعل لتنافس بين الامام عبد الوهاب وبين زعيم الاوس — وهى بطن من بطون هواره — حول الزواج من احدى بنات شيخ قبيلة لواتة (370) النازلة جنوبى تاهرت على وادى ميناس (371) فقد ازمع زعيم الاوس (372) مصاهرة شيخ لواتة ، لكن عبد الوهاب حال دون ذلك بأن تزوج اللواتية — فارتحل زعيم الاوس بجموعه من هواره عن مضاربهم ونزلوا بمكان يبعد عن تاهرت بعشرة أميال عرف «بوادى هواره» . ومن هناك طفقوا يغيرون على اتباع عبد الوهاب وانصاره ، الامر الذى جعله يستعين بأحلافه من نفوسة وغيرها ويعد جيشا قوامه ألف فارس عدا حشود هائلة من الرجالة (373) . وباغت عبد الوهاب خصومه على غرة ، ودارت معركة طاحنة عند نهر اسلان قتل فيها الكثير من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الثوار وفرار فلولهم الى جبل ينجان (374) .

وكانت آخر الثورات التى واجهت حكم عبد الوهاب حركة خلف بن السمع في شرقى الدولة الرستمية ، وهى التى أسفرت عن ثانى الانشقاقات الاباضية اذ ما كاد عبد الوهاب يفرغ من مواجهة الحركات والثورات التى اندلعت في تاهرت وما حولها حتى داهمته في آخر عهده

(367) السير : صفحة 157 .

(368) البكرى : صفحة 67 .

(369) سيرة الائمة الرستبيين : صفحة 20 .

(370) ابن الصغير : صفحة 20 .

(371) ابن خلدون : ج 6 صفحة 117 .

(372) ويعملون ايضا ببنى مصالة او مسالة . انظر : ابن الصغير : ص 20 .

(373) النفوسى : صفحة 134 .

(374) ابن الصغير : ص 22 ، ويوجد هذا الجبل في منطقة جرداء على مقربة من البحر

المتوسط . انظر : اليعقوبى : البلدان . ص 356 .

ة في منطقة طرابلس وجبل نفوسة (375) التابعة للإمامة (3) — اتخذت طابعا دينيا . واستفحل خطر الحركة واقتطعت الدولة الرستمية الشرقية خلال السنوات الأخيرة من حكم ردحا طويلا من عهد ابنه أفلح .

لف بن السمع زعيم الانشقاق الاباضي الثاني سليل بيت المذهب الاباضي في بلاد المغرب . فهو حفيد ابي الخطاب ، السمع « أول أئمة الظهور » ، وابوه السمع بن ابي الامام (377) عبد الوهاب وساعده الايمن ، وعامله على لذلك اكتسب آل ابي الخطاب منزلة كبيرة بين اباضية المغرب . هذا اقدامهم على مبايعة خلف بن السمع بالولاية على اثر سمح بن ابي الخطاب (378) . ويخيل لنا أن الامام عبد على نفوذه في هذه النواحي من جراء قيام حكم وراثي فيها ، ابي الخطاب ما استباحه هو واسرته من الخروج على مبدا بدا الوراثية في الحكم ، ومن ثم لم يقر شرعية ولاية خلف بن ، كما ضرب صفحا عن توصلات اباضية الجبل لابقائه واليا (380) .

—
سة من اوسع قبائل البربر واكثرها انتشارا ، فمن بطونها بنو زمور وبنو ماطوسة وتغرب شعوبها في احواز طرابلس وجبل نفوسة حتى مشارف ، وان كان الجبل هو معتلمهم الاصلى ، ويبلغ طوله من الشرق الى الغرب ثة أيام وارتفاعه نحو ثلاثة أيام ، وهو عامر بالمدن والقلاع والقرى والضياع . واهم مدنه شروس ومسيف وجادو .

وسة تدين بالمسيحية قبل اعتناقها الاسلام ، واعتنقت المذهب الاباضي في رن الثاني الهجري ، وأسهمت في ثورات الاباضية في المغرب الادنى وافريقية امر . ولما قامت الدولة الرستمية بتاهرت كان النفوسيون من أشد مناصريها مها ، ولا غرو فقد حظوا باهم المناصب العامة في الدولة « فكانت نفوسة تقديم القضاة وبيوت الاموال وانكار المنكر في الاسواق والاحتساب على . الا أنه على الرغم من تبعيتهم للإمامة في تاهرت ، كانوا شبه مستقلين . المسافة بينهم وبين تاهرت . انظر : اليعقوبي : البلدان . ص 349 ، : ص 15 ، ابن حوقل : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 114 ، الاستبصار ، الشماخي : السير : ص 192 ، 273 ،

Basset. Les sancturs du Djebel .. P. 426, Despois : Op. Cit.

لى : ج 2 ص 20 ، على يحيى معمر : الاباضية ص 75 .

ى : البلدان ص 349 .

، : صفحة 165 .

، : ورقة 25 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 31 ، النفوسى : ص 151 .

يا : نفس المصدر والمصحفة .

سدر والمصحفة .

على ان غالبية الاباضية في هذه النواحي اصرروا على موقفهم ، واعلنوا خروجهم على امامة عبد الوهاب ، وبايعوا خلف بسن السمع بالامامة (381) محتجين بجواز ازدواج الامامة ما وجد عدو يفصل بين اتباع المذهب ، او لصعوبة الاتصال وطول المسافة بينهم وبين تاهرت (382) لكن وجد بين اباضية الجبل من تمسك امامة عبد الوهاب ، وتذهب مصادر الاباضية (383) الى ان غالبتهم كانوا من جماعة المشايخ والفقهاء ، فبعث اليهم عبد الوهاب رسالة امتدح فيها موقفهم (384) وولى عليهم احدثهم ويدعى ابا عبيدة عبد الحميد الجنائني (385) . ومن ثم حدث انشقاق سياسي اتخذ صبغة فقهية مذهبية . وجوهر الخلاف كمن في امرين : اولهما مدى حقوق الرعية في تعيين عمالها ، والآخر شرعية وجود امامين في وقت واحد . وفي تقديرنا ان تعاليم المذهب الاباضي ترجح راي خلف واصحابه (386) ، ولعل ذلك يفسر انضمام غالبية اهل الجبل اليه ، ومهما كان الامر ، فقد احتد الخلاف بين الحزبين وطرحت القضية برمتها على فقهاء المذهب بالشرق للافتاء فيها (387) . وتذكر المصادر الاباضية (388) — كعادتها — انهم افوتوا في صالح الامام وخطأوا موقف خلف واتباعه .

وايا ما كانت الفتوى ، فقد نجح خلف في الاستحواذ على معظم انحاء الجبل دون ان يحرك عامل عبد الوهاب ساكنا او ان يخف الامام لمواجهة نفسه . ويخيل الينا ان عبد الوهاب وعامله حين اعوزتهما القدرة على ردع الثوار لجأ الى الجبل ، فأتبع عبد الوهاب اسلوب التجسس (389)

(381) نفس المصدر والصحيفة .

(382) اطفيش : الامكان : ص 107 ، 108 .

(383) انظر : ابو زكريا : ورقة 25 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 31 ، النفوسى : ص 151 .

(384) انظر : ملحق رسم (3) .

(385) ابو زكريا : ورقة 25 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 31 .

(386) ثمة رواية لابي الربيع الوسياني تقول ان احد مشايخ نفوسة ممن تلقوا العلم على الامام عبد الوهاب اخذ عنه مبدءا حق الرعية في اختيار ولايتها . انظر : الوسياني :

سير ابي الربيع ورقة 79 — مخطوط . وقد افنى الربيع بن حبيب بجواز تعدد الائمة بقوله « لا بأس باجتماع امامين او ائمة في زمان واحد اذا فصل بينهم سلاطين لا تطاق او قوم لا يطاقون . او حال بعد المسألة » . انظر : اطفيش : الامكان ص 107 ، 108

(387) بعثوا بذلك كتابا الى ابي سليمان محبوب بن الرحيل شيخ اباضية الشرق بعد الربيع ابن حبيب . انظر : الشماخي : السير : ص 181 .

(388) ابو زكريا : ورقة 25 ، النفوسى : ص 151 .

(389) يلهم ذلك من رواية للنفوسى تقول ان شخصا يدعى عمرو بن يانس كان يندس بين اصحاب خلف « ويكتب الامام بكل ما يسمعه » . انظر : الازهرار الرياضية

ج 2 صفحة 155 .

للإيقاع بين خلف وأتباعه ، كما بعث الى المبرزين من أنصار خلف يستميلهم ويمنيهم بالاموال والضياع (390) . لكن ذلك لم يجد فتىلا .

ومات الامام عبد الوهاب (391) ومعظم اجزاء الدولة الشرقية في حوزة خلف بن السمع (392) . واستمرت حركة خلف وتفاقم خطرهما خلال نحو عشرين عاما من حكم أفلح بن عبد الوهاب ، فيخبرنا أبو زكريا (393) انه حتى عام 221 هـ (836 م) كان خلف لا يزال يعمل على اقضاء أبى عبيدة عبد الحميد ، الذى أقره أفلح على ولايته على المناطق التى فى حوزته . ويعتقد لويسكى (394) ان خلفا كان يسعى لضم كافة الاقاليم التى كانت فى نطاق حكم جده أبى الخطاب . وقد تمكن بالفعل من مد نفوذه حتى بلدة تيمتى وما وراءها شرقا (395) منتهزا تقاعس أفلح عن مساعدة عامله الكهل الذى آثر العافية (396) . وضمن خلف بذلك السيطرة على الاراضى الخصبة والمراعى الغنية فضلا عن بها من الاباضية ، فقد دخلوا فى « رايه وبدعته » على حد قول أبى زكريا (397) . وتصور المصادر الاباضية (398) قيام خلف بالاغارات المتواصلة على املاك أبى عبيدة بقصد السلب والنهب ، وان الاخير نجح فى ردعها . لكننا نشك فى ذلك اذا علمنا من هذه المصادر ذاتها ان ابا عبيدة كان يستجدى مسالة خلف

(390) الوسيانى : سير أبى الربيع ورقة 30 .
(391) اخلف المؤرخون فى تحديد سنة وفاة عبد الوهاب كشأنهم فى تحديد تواريخ سنى حكم سائر ائمة بنى رستم فابن عذارى يذكر ان عبد الوهاب حكم عشرين عاما ابتداء من سنة 180 هـ التى مات فيها والده ، فيكون تاريخ وفاته تبعا لذلك سنة 200 هـ . بينما يحدد النفوسى هذا التاريخ بسنة 190 هـ على أساس انه ابستم فى الحكم تسعة عشر عاما ابتداء من سنة 171 هـ . ولا ندري كيف توصل جورج مارسية الى تحديد عام 208 هـ كتاريخ لوفاة عبد الوهاب . وان كنا نرجح صحة هذا التاريخ على أساس ما ذكره ابن حيان عن ايفاد عبد الوهاب قبل موته سفارة من أبنائه الى الاندلس سنة 207 هـ . انظر : البيان المغرب : ج 1 ص 278 ، الازهار الرياضية : ج 2 ص 163 ، مادة بنى رستم بدائرة المعارف الاسلامية : ص 93 ،
Provencal : Op. Cit. P. 244.

(392) على الرغم من تضعضع نفوذ الامامة على اقاليمها الشرقية فى اخريات عهد عبد الوهاب ، فان نفوذه ظل قائما على بقية اجزاء دولته ، حيث دان له عماله بالطاعة فى نواحي قسطنطينية ووزنقة ودمر وزواغة وجربة وقنصة ونفزاوة وقنطرة فخلا عن تاهرت ونواحيها . انظر : الشماخى : السير ص 161 ، النفوسى : ص 165 .

(393) السيرة : ورقة 28 .
Etudes Ibadites. P. 115

(394) النفوسى : صفحة 167 .
(395) أبو زكريا : ورقة 26 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 32 .
(396) السيرة : ورقة 26 .
(397) نفس المصدر ورقة 27 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 33 ، الشماخى : السير . ص 184
(398) والنفوسى : صفحة 167 .

وموادعته (399) وأن خلفا خيره بين انكار امامة عبد الوهاب والدعوة له وبين قتاله (400) . ومن المؤكد أن أبا عبيدة لم يستجيب لدعوته ، فقد اجتاحت خلف بجموعه (401) أراضى خصمه سنة 221 هـ (402) (836 م) ، والتقى بأبى عبيدة ورجاله (403) عند سفح الجبل في معركة يذكر مؤرخو الإباضية (404) أنها انتهت بهزيمة خلف وانسحابه الى تمتى ، فلم تقم له قائمة بعدها الى « أن مات بزيغه » . ولكننا نعلم أن حروبا وقعت بين خلف وبين أيوب بن العباس — خليفة أبى عبيدة — هزم فيها خلف عند فاغيس — قرب تمتى (405) — الامر الذى يشكك في رواياتهم .

ويخيل إلينا أن خلفا ظل يتمتع بنفوذ في معظم جهات طرابلس وجبل نفوسة حتى وفاته ، وأن انصاره من نفوسة وزواغة الذين عرفوا « بالخلفية » ظلوا مواليين لابنه المعروف بالطيب حتى أواخر عهد الدولة الرستمية .

وكانت هذه الاقاليم الشرقية أيضا مرتعا لحركة أخرى مناوئة للإمامة في تاهرت تزعمها فرج بن نصر المعروف بنفاث ، وأسفرت عن ثالث الانشقاقات في الجماعة الإباضية (406) .

كان الانشقاق الاول نتيجة خلافات فقهية حول مسائل الامامة وسياسة عبد الوهاب في تعيين عماله ، وكان الانشقاق الثانى بسبب قضية تعدد الائمة وحق الرعية في اختيار عمالها ، أما الخلاف الثالث فكان من جراء الاخلال بشرعية الامامة واهدار رسومها . (407) على يد أفلح بن عبيد انوهاب ، فضلا عن سياسته « في استعمال العمال والسعاة لجباية الحقوق

(399) بعث أبو عبيدة رسالة الى خلف يقول فيها « واذا نزعتم يا خلف يدك عن الطاعة فكن في حيزك وأكون في حيزي ودع الحرب » انظر : نفس المصادر والصفحات .

(400) نفس المصادر والصفحات .

(401) ذكر الدرجيني أنها بلغت أربعة آلاف بينما تجمع المصادر الإباضية الأخرى على أن عدتها أربعين ألفا . انظر : الدرجيني : ج 1 ورقة 33 ، أبو زكريا : ورقة 27 ، الشماخي : السير : ص 184 ، النفوسى : ص 168 .

(402) شذ الدرجيني عن إجماع مؤرخى الإباضية ، فذكر أن القتال حدث سنة 211 هـ . انظر مطبقات الإباضية : ج 1 ورقة 34 ، أبو زكريا : ورقة 280 ، النفوسى : ص 173 .

(403) تقدر مصادر الإباضية جيش أبى عبيدة بها يتراوح بين ثلاثمائة وسبعمائة رجل . انظر : نفس المصادر والصفحات .

(404) أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخي : السير : ص 187 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 34 .

(405) النفوسى : صفحة 175 .

(406) أبو زكريا : ورقة 28 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 34 .

(407) الدرجيني : ج 1 ورقة 35 .

الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية » (408) .

وعلى الرغم مما تورده المصادر الإباضية (409) من تفسير لحركة نفاث باعتباره مارقا على الإمامة لأسباب ودوافع ذاتية ، فإن ذلك لا ينفي قط كون نفاث نائرا صاحب آراء واجتهادات في المذهب الإباضي (410) وداعية (411) لانقاذ الإمامة الإباضية مما تردت فيه من امتهان على عهد أئمة بنى رستم . فقد آلت الإمامة الى أفلح بن عبد الوهاب توا بعد وفاة أبيه سنة 308 هـ (823 م) ، مما يؤكد استقرار مبدأ الوراثة واختفاء مبدأ الاختيار في الحكم الرستمي . وكان مثل هذا الانتهاك لتعاليم المذهب كفيلا باثارة عالم فقيه مثل فرج بن نصر « الذي أعطى في العلم منزلة عظيمة ، والفقه والفهم » (412) . ومن ثم عول على الخروج على إمامة أفلح ، واتخذ من قرينته المجاورة لقنطرة مركزا لدعوته وانصاره . ولقيت دعوته اقبالا كبيرا بين إباضية نفوسة وزواغة (413) ، وعبثا حاول عامل قنطرة اقناعهم بالعدول عن آراء نفاث والالتزام بطاعة الامام (414) .

فقد وجدوا في « النفائية » مبررا لتظلمهم من دفع الاموال والجبايات والرسوم التي كان يحصلها عمال الامام (415) . كذلك ام تفلح تحذيرات افلح لعماله بأخذ رعاياهم بالشدة وتجنبيهم الدخول في طاعة نفاث (416) . فيبدو أن هؤلاء الرعايا أعلنوا الثورة على عمالهم فبعث الامام اليهم متلفعا واعدادياهم باجابة مطالبهم في تغيير من يشاعون من هؤلاء العمال (417) .

(408) النفوسى : صفحة 195 .

(409) تصور هذه المصادر خروج نفاث لتفضيل الامام أفلح سعد بن أبى يونس عليه وتعيينه عاملا على قنطرة . انظر أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخي : السير : ص 195 . والدرجيني : ج 1 ورقة 35 ، النفوسى : ص 197 .

(410) Lewcki : Melanges Berberes .. P. 270.

(411) ذكر الوسياني أنه سمي بنفاث « لانه ينفث في الاسماع بدعته » انظر : سير أبى الربيع : ورقة 10 .

(412) أبو زكريا : ورقة 30 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 35 .

(413) الدباغ : معالم الايمان : ج 1 ص 220 .

(414) أبو زكريا : ورقة 29 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 36 .

(415) النفوسى : صفحة 195 .

(416) انظر : نص رسالة افلح لعماله في هذا الصدد عند النفوسى . الازهار الرياضية : ج 2 ص 214 - 218 .

(417) جاء في رسالة افلح الى رعيته ما يلى : « . . ومن عاب أحدا من عمالنا بخصلة من الخصال ، أو أنكر عليه شيئا فليرفع ذلك إلينا ، فنكون نحن الذين يغيرون . . » النفوسى : صفحة 203 .

كما أرسل الى نفاث يأمره بالكف عن دعوته وحببه في العودة الى الطاعة (418) .

· ونعتقد أن سياسة التودد والملاينة هذه قد أثرت في تثبيط عزيمة نفاث ، وتصدى الكثيرين من مشايخ نفوسة لمناهضته (419) ، وانصراف معظم أتباعه عنه . فتخبرنا المصادر أن نفاثا آثر الرحيل الى الشرق حيث نزل بفداد وانكب على دراسة كتب المذهب ونسخ ما تسنى له نسخه منها . فلما عاد وجد أنصاره قد وهنوا وتفرقوا (420) . وان كنا نشك فيما زعمته من أنه « تاب ورجع عن مسائله التي خالف فيها » (421) بدليل وجود كثيرين ممن اعتنقوا آراءه حتى أواخر القرن الخامس الهجرى (422) .

وإذا كانت الانشقاقات المذهبية قد تفتشت في الاجزاء الشرقية من الدولة الرستمية ، فإن خطرا جديدا ظهر في آخر حكم أفلح هدد قلب الدولة ذاته ، ونعنى به صراع العصبية العنصرية والقبلية . لكن أفلح استطاع بذكائه وحذقه السياسى (423) تجنب الامامة في عهده شر هذا الخطر ، واتبع في ذلك وسائل شتى تدل على براعته في الحكم والسياسة الى جانب ما اتصف به من شجاعة نادرة (424) .

ومن هذه الوسائل تخليه عن مبدأ المركزية في الحكم — وهو مبدأ تكرهه القبائل البدوية كثيرا — وعاد الى مبدأ الشورى ، فكان يأخذ برأى مشايخ القبائل ورؤسائها في تعيين ولاته وعناله ضاربا صفحا عن

(418) النفوسى : صفحة 204 .

(419) ثمة مثل أورده الدرجين يدل به على دور نفوسة في مقاومة حركة نفاث ، جاء على لسان أحد المشايخ ويدعى أبو مهامر ، قال « تنبح جروة أبى مهامر لنلا يأكل الذئب الغنم ، وقد كاد يأكلها ، حتى أتت سلاق ويغوا . . هرب الذئب فأمنت الغنم » . يعنى بالجروة نفسه ، وبالذئب نفاث بن نصر ، وبالغنم نفوسة ، وبالسلاق مهديا وعمروسا (من مشايخ الجبل) وهما من منزل يقال له ويغوا ، ويعنى يأكل الذئب الغنم ، استحواذ نفاث على أهل الجبل . . « انظر : طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 134 وعلى الرغم من تشكيك البرادى في صحة هذا المثل — لان الشيخ مهدى النفوسى قتل أثناء حصار الامام عبد الوهاب بطرابلس سنة 196 هـ — فلا شك أن له دلالة على مدى نفوذ نفاث وامتداد دعوته ، فضلا عن دور نفوسة في مطاردته حتى هرب الى الشرق وانصرف عنه معظم أتباعه . انظر : الجواهر المنتقاة : ورقة 106 .

(420) أبو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 37 .

(421) النفوسى : صفحة 210 .

Lewcki : Melanges Berberes. P. 270.

(422) انظر :

Motyliniski : Op. Cit. P. 6.

(423) النفوسى : صفحة 183 ،

(424) تفيض تواريخ الاباضية بقصص وبطولات نادرة قام بها أفلح في حربه مع النكار وبربر هواره في حياة والده . انظر : الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .

اعتراضات آل بيته في هذا الصدد (425) . وفضلا عن ذلك فقد فرض رقابة دائبة على هؤلاء العمال والولاة حتى لا يتمادون في ارهاق الرعية بالمغارم والجبايات ، والزمهم بمراعاة تعاليم المذهب في سياستهم المالية ، ثم اتاح لهم مزيدا من السلطات داخل عمالاتهم (426) ، فضمن بذلك اقرار العدالة مع لا مركزية الحكم وهو الاسلوب الامثل في دولة يشكل البدو غالب سكانها . كما عول افلح على استمالة القبائل اليه (427) ، وتخبرنا المراجع (428) عن حرصه على اتخاذ تراجمة يجيدون لغة البربر . وافلح في احداث نوع من التوازن بين هذه القبائل جنبه مشقة الدخول في صراع معها . واتبع في ذلك شتى ضروب الحيل ، فقد اخذ بالمبدأ المشهور « فرق تسد » (429) « فأرشي ما بين كل قبيلة ومجاورها » (430) ، « وألقى موجبات التخالف بين كل مقدم وأتباعه وبث الجواسيس بين شعوب تلك القبائل بطرق سياسية وتدبيرات باطنية كفته مئونة القتال » (431) .

لهذا اتسم عهد افلح بالهدوء والاستقرار السياسي (432) ، وحظى بحب الاباضية واعجابهم (433) « فألقى بيده يميناً وشمالاً ، وتمكن في امامته واطردت له الامور » (434) ، ولم يبق في أيامه منازع ، ولا اجمع جهاته الا طائع (435) . واعتبر مارسية (436) عهد افلح العصر الذهبي للدولة الرستمية ، اذ بعد موته في سنة 258 هـ (437) (873 م) ضعفت هذه الدولة .

-
- (425) ابن الصغير : صفحة 25 .
 (426) النفوسى : صفحة 188 .
 (427) نفس المصدر : صفحة 68 ،
 (428) انظر : ابن الصغير : ص 27 ، النفوسى : ص 68 .
 (429) مارسية : مادة بنى رستم - دائرة المعارف الاسلامية ص 94 ،
 Faroughy : Op. Cit. P. 15.
 (430) ابن الصغير : صفحة 27 .
 (431) النفوسى : صفحة 183 .
 (432) ابن الصغير : صفحة 27 .
 (433) نفس المصدر : صفحة 25 .
 (434) أبو زكريا : ورقة 29 ، الشماخى : السير : ص 187 .
 (435) الدرجينى : ج 1 ورقة 34 .
 (436) انظر : مادة بنى رستم - دائرة المعارف الاسلامية ص 94 .
 (437) ذكر أبو زكريا أن افلح ظل في الامامة ستين عاما ، بينما يقول ابن الصغير أنه حكم حسين عاما . ونحن نرجح رواية ابن الصغير ، ومن ثم تكون وفاته سنة 258 هـ على أساس توليه الامامة سنة 208 هـ كما سبق القول . وعلى ذلك فقد اخطأ النفوسى حين ذهب الى أن افلح مات سنة 240 هـ . انظر : أبو زكريا : ورقة 31 ، ابن الصغير : ص 25 ، النفوسى : ص 221 .

وهكذا — أتسمت هذه المرحلة من تاريخ بنى رستم بكثرة الثورات والفتن التى تلونت فى غالبها بالطابع المذهبى واتخذت شكل الانشقاقات المذهبية فى كيان الجماعة الاباضية . لكن هذه الثورات وان تمخضت عن انسلاخ بعض البقاع الشرقية عن سلطان الامامة فى تاهرت ، الا انها لم تشكل خطرا على سلامة الدولة ذاتها ، وبفضل سياسة العنف والشدة التى اتبعها عبد الوهاب ، وبفضل دهاء افلح وحذقه السياسى تخطت الدولة الرستمىة هذه الاخطار لتواجه مرحلة عصيية فى تطورها السياسى .

الدور الثانى (258 — 281 هـ) (788 — 895 م)

الصراع القبلى والعصرى :

قلنا ان الطابع الدينى غلب على المرحلة السابقة ، فشكل أحداثها ولونها بمسحة مذهبية واضحة وسبق القول ايضا ان قيام الدولة الرستمىة كان على اساس مذهبى حيث اجتمع الاباضية من شتى العناصر والقبائل فى المغرب فى كنف الامامة الرستمىة وليس على اساس عصبيية قائمة بذاتها . ومن ثم كان المذهب الاباضى هو الرابطة الوحيدة التى جمعت بين هذه العصبىيات المختلفة ، وبالضرورة فان انتهاك تعاليم المذهب وتحول الامامة الى ملك ، قد قضى على هذا الرباط الوثيق الذى جمع هذه العصبىيات وفجر ما بينها من حزازات عصبيية قبلية ونعرات عنصرية .

وقد بدت بوادر التناحر القبلى العنصرى داخل الدولة الرستمىة فى عهد عبد الوهاب الذى تمكن من فض ائتلاف قبيلتى هواراة ولواتة ، ومحق تمرد هواراة حين ازمنت العصيان . كما ان افلح بن عبد الوهاب آخر من اندلاع هذا الصراع حينما بفضل حسن سياسته ، لكنه أسهم من ناحية أخرى بسياسته القائمة على التفرقة بين القبائل فى اذكاء النزعات القبلية والعنصرية التى بقيت فى الصدور الى ان « اخترمته المنية » (438) ثم تفجرت بعد وفاته فى شكل حروب دامية أنهكت هذه العصبىيات من ناحية وضععت نفوذ الائمة وهيبة الامامة من ناحية أخرى .

فقد ضمت الدولة الرستمىة قبائل متعددة من البربر كهواراة ونفوسة ومزاتة ولواتة وسدراتة ولماية ، فضلا عن عناصر مختلفة من الفرس والعرب والجند الافريقى . وقد ساعدت فترة السلام الطويلة التى نعمت

(438) ابن الصغير : ص 27 ، محمد بن تاويت . دولة الرستميين . ص 122 .

بها تاهرت أبان حكم أفلح بن عبد الوهاب على أحداث تحول خطير في أحوال هذه العناصر والقوى المختلفة .

فالقبايل البدوية كلواتة وهوارة ومزاتة جنح معظمها الى الإقامة حول تاهرت وآثرت حياة الاستقرار والاستغلال بالزراعة والتجارة حيث جنت منها أرباحا طائلة « فأتخذت العين والخيول ، ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة » (439) أما نفوسة التي أقامت بعض بطونها في العدو فقد نالت حظوة الأئمة وآثروها بالوظائف العامة « فكانت تلى عقد تقديم القضاة وبيوت الاموال وانكار المنكر في الاسواق والاحتساب على الفساق » (440).

وبلغت العناصر الفارسية في الدولة الرستمية شأوا كبيرا لكون الأئمة من أصل فارسي ، فأوكلوا اليهم قيادة الجيوش وأسمى المناصب ، فضلا عن سيطرتهم على النواحي التجارية والثقافية (441) ، فأقاموا القصور والمنازل حول تاهرت « وشكلوا دولة داخل الدولة الرستمية » على حد قول فروخي (442) .

كما وفدت على تاهرت جموع من العرب والجند الافريقي بعد فشل ثوراتهم على الامراء الاغالبية (443) ، فأقبلوا على سكنى تاهرت هربا من بطش هؤلاء الامراء من ناحية ، وطمعا في الثراء عن طريق الاشتغال بالتجارة التي ازدهرت في عاصمة الرستميين من ناحية أخرى . ثم هناك قوة أخرى كانت ممثلة في أجناد الأئمة من أفراد البيت الرستمي الذين عرفوا « بالرستمية » (444) فضلا عن اتباع السمع بن أبي الخطاب الذين انشقوا على خلف بن السمع وهربوا الى تاهرت ودخلوا في خدمة بنى رستم ، وعرفوا لذلك « بالسبحية » (445) .

ويمكن تقسيم هذه القوى جميعا الى قسم موالى للامامة الرستمية، ويشمل نفوسة والفرس والرستمية والسبحية والآخر مناوئ لها يضم

(439) ابن الصغير : صفحة 27 .

(440) نفس المصدر والصحيحة .

(441) نفس المصدر : ص 26 ، 27 ، Lewcki : Melanges Berberes .. P. 273

(442) انظر : Apersian dunasty in North Africa. P. 15.

(443) النفوسى : صفحة 231 .

(444) ابن الصغير : صفحة 27 .

(445) نقل جورج مارسيه عن ابن الصغير تحريف كلمة « السبحية » الى « المسيحية » فقال بوجود عناصر مسيحية في تاهرت وقتلت الى جانب بنى رستم . انظر : ابن الصغير : ص 36 ، مارسيه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 94 .

العرب والجند الافريقى فضلا عن بعض القبائل الضاربة حول تاهرت ،
وان تأرجحت بعض هذه القوى بين الولاء والعداء لبنى رستم احيانا .

تأججت نار الصراع القبلى والعنصرى على اثر وفاة افلح بن عبد
الوهاب فبادرت نفوسة بقتصيب ابنه أبى بكر اماما رغم اعتراض فقهاء
المذهب (446) ، على خلاف ما أورده النفوسى (447) بأن اهل الحل
والعقد من سائر القبائل والعصبيات هم الذين قاموا ببيعته . ومما زاد
الطين بلة أن أبى بكر بن افلح لم يكن جريئا قويا كجده عبد الوهاب ولا داهية
حصيفا كأبيه افلح ، بل كان غرا لين العريكة شفوفا بالآداب
والتواريخ (448) ، ميالا الى الترف والملذات ، زاهدا فى الادارة
والحكم (449) . ويبدو أنه حاول الاستعانة باحدى القوى الموجودة بتاهرت
من دون نفوسة التى كانت تمقتها بقية العناصر الاخرى ، فوطد صلاته
بالجند والعرب وصاهر زعيمهم محمد بن عرفة وسلم اليه مقاليد الدولة ،
وركن الى الدعة والخمول . واستبد ابن عرفة بتصرف شؤون الامامة
من دون الامام « حتى كانت الامارة بالاسم لابى بكر وبالحقيقة لمحمد
ابن عرفة » (450) .

ونظرا للعداء التقليدى بين كافة العناصر بتاهرت وبين العرب فقد
خسر أبو بكر ولاءها جميعا باستثناء بعض بطون هواره التى ارتزته فى
حين استاء بعضها الآخر من سياسته وغادروا المدينة واحوازها الى
مواطنهم الاولى .

وبدئها أن ينقم الرستمى عليه سياسته وينضموا لنفوسة التى
ساءها خذلانه اياها بعد أن أوصلته للامامة ، كما ساءها ارتماؤه فى أحضان
الجند والعرب (451) أما الفرس فقد آثروا الحياد والتريث ولكنهم كانوا
على أهبة الاستعداد لاغتصاب الامامة كلما سنحت الفرص (452) . وفى

(446) احتج الشيخ عبد العزيز بن الاوز — المعروف بتعمقه فى الفقه الاباضى — على ذلك
مخاطبا نفوسة بقوله « الله سائلكم معاشر نفوسة ، اذا مات واحد جعلتم مكانه
آخر ، ولم تجعلوا الامر للمسلمين وتردوه اليهم فيختارون من هو اتقى وأرضى » .
انظر : ابن الصغير : ص 31 ، 47 .

(447) الازهار الرياضية : ج 2 صفحة 222 .

(448) ابن الصغير : صفحة 31 .

(449) نفس المصدر : صفحة 32 .

(450) نفس المصدر : صفحة 31 .

(451) نفس المصدر : ص 32 ، النفوسى : ص 224 .

(452) نفس المصدر : صفحة 32 .

تلك الظروف وصل أبو اليقظان محمد بن افلح — اخ الامام — الى تاهرت (453) وعهد اليه أبو بكر ببعض مسؤوليات الادارة والقضاء ، فسيرها على احسن ما يكون ، حتى « حمد له الشراة ذلك » (454) .

واضمر أبو اليقظان حقدا على ابن عرفة وحزبه ، وساءه استبداده وتسلمه ، وشاركه في ذلك نفوسة والرستمية ، فحرض اخاه على اغتيال ابن عرفة سرا (455) وتم له ما اراد (456) . ويحاول مؤرخو الاباضية انكار تدبير هذا الحادث ونفى قيام الامام بتنفيذه ، دفاعا عن آل البيت الرستمى . فأبو زكريا (457) والدرجيني (458) اكتفيا بالاشارة الى ان الناس فوجئوا بابن عرفة قتيلا دون أدنى اشارة الى ظروف مقتله ، أما النفوسى (459) فيبرىء أبا اليقظان من تهمة التحريض على قتل ابن عرفة ، وينسبها الى احد نصحاء الامام . لكن هذه الروايات جميعا تضعف امام رواية ابن الصغير المالكي الذي يؤكد ان أبا اليقظان دبر الحادث . وأن أبا بكر نفذه . على كل حال — تمخض الحادث عن نوع من الفوضى السياسية عممت تاهرت ، وتحفزت سائر القوى للخروج من هذه الفوضى ظافرة بالامامة ، ودخل بعضها مع البعض الآخر في ائتلافات وتحالفات للافادة من الظروف . فقد هب العرب والجند مطالبين بثأر زعيمهم ابن عرفة ، وانضوا تحت لواء احدهم ويدعى محمود بن الوليلي (460) . كما وقفت الرستمية الى جانب الامام أبى بكر (461) . أما الفرس فقبعوا في قصورهم خارج المدينة يدبرون أمر الاستيلاء عليها (462) . بينما لاذت قبائل البربر خارج تاهرت بالصمت مترقبة نتائج الصراع .

نشب القتال بين الجند والعرب من ناحية وبين الامام والرستمية من ناحية أخرى ، وقتل من الطرفين خلق كثير (463) . فاغتنتم الفرس الفرصة

(453) كان أبو اليقظان أسيرا في بغداد ، اذ قبض عليه عمال العباسيين وهو في طريقه لاداء فريضة الحج ثم أفرج عنه وعاد الى تاهرت . انظر : ابن الصغير : ص 31 .

(454) ابن الصغير : صفحة 32 .

(455) نفس المصدر : صفحة 33 .

(456) عن تفصيل اغتيال ابن عرفة . انظر : ابن الصغير : ص 34 — 36 .

(457) السيرة . ورقة 31 .

(458) طبقات الاباضية ج 1 ورقة 37 .

(459) الازهار الرياضية . ج 2 ص 226 ، 227 .

(460) ابن الصغير : ص 36 ، النفوسى : ص 230 .

(461) ابن الصغير : صفحة 36 .

(462) نفس المصدر : صفحة 37 .

(463) ابن الصغير : ص 37 ، النفوسى : ص 231 .

وحاولوا الاستيلاء على تاهرت . عندئذ تضامن الرستمية مع الجند والعرب وتصدوا لقتال الفرس وأسروا منهم أعدادا غفيرة (464) . ثم انسحب الامام والرستمية من حلبة الصراع ، والحق الجند والعرب بالفرس عد هزائم وأضرمو النيران في منازلهم . وخشى أبو اليقظان ونفوسة من خطر أنجند والعرب فانضموا للفرس « وصارت كلمتهم وكلمة العجم واحدة » (465) .

واحتدم القتال بين الفريقين وتبادلا النصر والهزيمة الى ان اسفر الصراع عن انتصار الجند والعرب . وارغم أبو اليقظان وحلفاؤه على مغادرة المدينة ، فنزل الفرس بموضع يقال له تنابغيت — على بعد مرحلتين من تاهرت — كما اعتصمت نفوسة بحصنها خارج المدينة ويعرف « بقلعا نفوسة » ، أما أبو اليقظان فلاذ بالرستمية بموضع يسمى أسكيدال جنوب تاهرت (466) . وصفت المدينة للجند والعرب بعد أن اعتزل أبو بكر الامام « وانسلخ منها » (467) ولحق أتباعه من الرستمية والسحمية بأبى اليقظان سنة 260 هـ (468) (874 م) .

لكن الجند والعرب لم ينعموا طويلا بالسيطرة على زمام الامور في تاهرت ، فقد أقتصاهم عنها بربر هواره ، وآلت اليهم السلطة فيها طوال ثمان سنوات . ونحن نعلم أن بربر هواره كانوا قد تمردوا على حكم الامام عبد الوهاب ، وأنه بطش بهم فتفرقت جموعهم ورحل معظمهم الى جبل ينجان ، وعاد الباقون الى مضاربهم جنوبى تاهرت كما نعلم أن فريقا من هؤلاء آرر ابا بكر بن أفلح في بداية امامته بينما أثر فريق آخر اللحاق بجبل ينجان . ثم كان ما جرى من صراع بين سائر القوى في تاهرت ، وظفر الجند والعرب في النهاية بالسيطرة على زمام الموقف فيها . وادى هذا الصراع الذى استمر عامين (469) الى اضعاف أطرافه جميعا ، فوجدت هوارا الفرصة مواتية للسيطرة على تاهرت . وقد غادرت جموع هواره مضاربه

(464) نفس المصدر والصحيفة ، نفس المصدر : ص 232 .

(465) نفس المصدر : ص 38 ، نفس المصدر والصحيفة .

(466) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 235 .

(467) الدرجينى : ج 1 ورقة 37 والمصادر الاباضية لا تذكر شيئا عن مصر ابي بكر ب أفلح بعد اعتزاله الامامة . بينما يذكر ابن عذارى أن أهل تاهرت أعادوه الى المدينة حيث ظل بها حتى وفاته والراجح أنه عاد الى تاهرت بعودة أخيه ابي اليقظان معه الذى تولى الامامة من بعده . انظر : ابن عذارى : البيان المغرب : ج 1 ص 278

(468) ابن الصغير : صفحة 39 .

(469) النفوسى : صفحة 236 .

بجبل ينجان بزعامة شيخهم محمد بن مسالة (470) واقتحموا تاهرت دون عناء ، ونصبوا ابن مسالة أميرا عليهم (471) . وظل ابن مسالة « يدبر شؤونها ويدير أحوالها على حسب ما يراه » (472) وتخبرنا المراجع (473) أن حكمه اتسم بالهدوء والاستقرار .

لكن النعرات القبلية ما لبثت أن تجددت داخل تاهرت ، فوقع خلاف بين هواره ولوالة انتهى بطرد اللواتيين خارجها ونزولهم بحصنهم القريب من اسكيدال حيث أقام أبو اليقظان والرستمية (474) . ثم حدث ائتلاف بين لوالة وأبي اليقظان ، فأجمعت على بيعته بالامامة سنة 261 هـ (875 م) ، ثم بادرت غالبية القبائل ببيعته أيضا وانكرت حكم ابن مسالة (475) وحاول أبو اليقظان دخول تاهرت عنوة دون جدوى وتكررت محاولاته طيلة سنوات سبع ، لم يفلح فيها بطائل . فبعث يستمد العون من جبل نفوسة ، فأمدوه ، واستطاع دخول المدينة دون قتال سنة 268 هـ (882 م) بعد أن أمن أهلها على أرواحهم وأموالهم (476) .

وكان على الامام أبي اليقظان أن يتهج سياسة الاعتدال وتهذبة الخواطر بعد ما عانته البلاد من حروب أهلية شاملة . وقد نجح في ذلك إلى أبعد الحدود بفضل ورعه وتقاه (477) وحرصه على مراعاة تعاليم المذهب في أحكامه ، ولا غرو فقد عرف بتفقه في المذهب وبتواليفه في أصوله وفروعه والرد على مخالفه (478) .

وقد حرص أبو اليقظان على اجتناب سياسة التعصب وإثارة بعض القبائل والعناصر بمناصب الدولة دون البعض الآخر . وعلى الرغم من مساعدة نفوسة ومعاونتها له على دخول تاهرت ، قلل مما كانت تتمتع به من امتيازات في عهود أسلافه ، فحرّمها من تولى القضاء وأبقى لها إدارة

(470) يعتقد ماسكراي أن ابن مسالة كان أباضيا نكاريا لكن المصادر لا تؤيد هذا الرأي ، فالنفوسى يصفه بأنه « أباضى المذهب » ومن المعروف أن مؤرخى الإباضية يمتبسون نكرة النكار مارقة على جماعة المذهب من الوهبة . انظر : الأزهار الرياضية ج 2 صفحة 236 ، .

(471) النفوسى : صفحة 236 .

(472) نفس المصدر والمحيطة .

(473) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 236

(474) نفس المصدرين والصلحتين .

(475) ابن الصغير : ص 40 ، النفوسى : ص 238 .

(476) نفس المصدرين والصلحتين .

(477) ابن الصغير : صفحة 44 .

(478) أبو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 ، 37 .

بيت المال (479) والحسبة ، واتخذ أبو اليقظان مجلسا للمشورة يضم شيوخ القبائل ووجهاء كافة العناصر المقيمة بتاهرت (480) ، ولم يأنف من مخالطة رعاياه والجلوس اليهم لبحث شكواهم (481) . كما تسامح مع اتباع المذاهب والفرق الأخرى من الكوفيين والصفرية والمعتزلة والمالكية، وأباح لهم الصلاة في المساجد جميعا فيما عدا المسجد الجامع (482) ويحدثنا ابن الصغير (483) أن شيوخ هذه الفرق كانوا يدخلون في محاورات ومناظرات — مع فقهاء الإباضية في جو مفعم بالحرية والتسامح . واختار عماله ممن عرفوا بالورع والتقوى ، وزودهم بنصائحه وتوجيهاته وأمرهم بقراءة نداء وجهه الى رعاياه ، حضهم فيه على اجتناب الفرقة واتباع سنة السلف الصالح (484) .

لذلك ، استقامت له الأمور حتى شبهه النفوسى (485) بجده عبد الرحمن بن رستم ، كما روى عنه ابن الصغير (486) أقوالا وأفعالا جعلت حكمه يحوز رضى كافة العناصر على اختلافها « فلم ينقم عليه أحد شيئا مما ولى من أفعاله ما خلا أولاده فانهم ربما خرجوا عن الواجب من أفعالهم » (487) .

والواقع أن ابن الصغير يكشف عن ظاهرة خطيرة بدأت بوادرها فى

(479) ابن الصغير : ص 41 وبرغم ذلك افتننت نفوسة بحكه ، فكان شيوخها يلزمون مجالسه ويقفون بباب داره يهللون ويكبرون من أول الليل حتى الفجر . انظر : ابن الصغير : ص 47 ، أبو زكريا : ورقة 31 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 33 ، النفوسى : صفحة 245 .

(480) ابن الصغير : ص 44 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(481) ابن الصغير : صفحة 44 .

(482) نفس المصدر : صفحة 42 .

(483) نفس المصدر : ص 44 ، 45 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 92 .

(484) انظر : ملحق رقم (5) .

(485) الأزهار الرياضية : ج 2 ص 240 .

(486) يزخر تاريخ ابن الصغير بعدد من القصص والروايات الدالة على عدل أبي اليقظان ونزاهته ، وحرصه على أموال الدولة ، أشبه ما تكون بتلك التى نسجت حول عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . انظر : سيرة الأئمة الرستبيين : ص 48 — 49 .

(487) نفس المصدر السابق : ص 48 . وثمة من القصص التى وردت عند ابن الصغير تصور اعدام أبنائه وخدامه وحراسه على اغتصاب الأموال وهتك الأعراض . انظر : سيرة الأئمة الرستبيين . ص 42 — 45 .

آخر عهد ابي اليقظان وتفاقت بعد موته (488) لتودى بالدولة الرستمية ، وهي مفاسد البلاط الرستمي ، وتفشى الخلاف الاسرى ، والتناحر على الحكم ، وما صاحب ذلك كله من سقوط هبة الامامة واضمحلال المذهب الاباضي ، وظهور الطوائف المذهبية المخالفة للاباضية ودورها في توجيه احداث العصر الرستمي الاخير .

الدور الثالث (281 — 297 هـ) (895 — 909 م)

النزاع الاسرى وفتن الطوائف غير الاباضية

انضى التناحر القبلى والصراع العنصرى الى اضعاف شوكة — سائر العصبيات ، كما ادى الى انهيار هبة الائمة وانتهاك مكانة الامامة ، حيث اصبح تنصيب الائمة وعزلهم لعبة فى ايدى عامة المدينة وغوغائها ، كما برز نفوذ البلاط ونفوذ نساء الاسرة الرستمية كعامل موجه لاحداث هذه الحقبة . ووجدت الطوائف الدينية والمذهبية فى تلك الظروف فرصة سانحة « لتببيت خبر الاباضية » (489) واغتصاب الحكم فى تاهرت ، فعمدت الى التدخل فى النزاع بين افراد البيت الرستمي واذكاء الخصومة بين المتنازعين منهم على منصب الامامة تمهيدا للوثوب عليها . والراجح ان هذه الطوائف تواطأت مع توى خارجية كالعباسيين والافالبة والادارسة والشيعنة الفواطم لاسقاط الحكم الرستمي .

فقد كانت تاهرت وما حولها موطنًا لكثيرين من معتنقى المذاهب والفرق غير الاباضية . فكانت اقلية لها وزنها من الخوارج الصفرية تعيش فى كنف الدولة الرستمية ولهم حصن خاص بهم يسمى « تالفمت » بضواحي تاهرت (490) . كما كانت جموع المعتزلة تضرب خارج تاهرت متوثبة للانتقام لما حل بها على يد عبد الوهاب بن رستم . ويشير ابن الصغير (491)

(488) توفى ابو اليقظان محمد سنة 281 هـ ابن الصغير : ص 49 ، ابن عذارى : ج 1 ص 278 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 93 ، مارسية : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية ص 93 . ولما كان قد تولى الامامة سنة 261 هـ حسبها ذكرنا سلفا ، فتكون مدة حكمه عشرين عاما ، وليست سبعا وعشرين كما ذكر ابن عذارى ، او اربعين عاما حسبها ذهب ابو زكريا ومن اخذ عنه . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 278 ، ابو زكريا : ورقة 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 37 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(489) ابن الصغير : صفحة 51 .

(490) النفوسى : صفحة 94 .

(491) سيرة الائمة الرستمين : صفحة 51 .

الى وجود كثير من الكوفيين والمالكية في تاهرت ذاتها ، في حين يذكر أبو زكريا (492) ان المذهب الشيعي كان له انصار في عاصمة الرستميين .

وقد ارتفع شأن هذه الطوائف والفرق في تاهرت في اواخر العصر الرستمي بسبب ضعف العصبية القبلية والعنصرية من جراء الصراع بينها ، وبسبب سياسة التسامح التي اتبعها أبو اليقظان محمد في اواخر سني حكمه مع اتباع هذه المذاهب والفرق ، وحسبنا على ذلك دليلا ان خطب على بن أبي طالب كانت تتلى على منابر تاهرت (493) فلا مشاحة بعد ذلك اذا ما وجدنا هذه الطوائف والفرق غير الاباضية فضلا عن الشيع الاباضية المعادية للبيت الرستمي — تتآمر على اسقاط حكم الرستميين بعد وفاة أبي اليقظان محمد وتولية ابنه أبي حاتم يوسف سنة 281 هـ (895 م) .

والواقع ان تنصيب أبي حاتم ينم عما وصلت اليه الإمامة الاباضية من تدهور ومهانة ، فقد اختصه أبوه قبل وفاته بولاية عهده تحت تأثير زوجته غزالة (494) . وبعد موت أبي اليقظان « بادر العوام والفتيان دون القبائل » بمبايعته « فكبروا حوله وحملوه على الايدي والاعناق حتى أوصلوه الى داره ، ثم أرسلوا الى القبائل فبايعته » (495) . واثار ذلك استياء الرستمية فحاولوا — دون جدوى — الحفاظ على هبة الإمام بحجب الامام ومنعه من مخالطة العوام « التي ارادت الدنو اليه في كل الاوقات على ما كانت تعرف قبل امارته » (496) . ولهذا رحل يعقوب ابن افلح — عم أبي حاتم — عن تاهرت ونزل عند زواغة « الخلفية » (497) .

وشجع ذلك على تداخل الكوفيين وغيرهم من الطوائف المذهبية في الامر وتوسيع شقة الخلاف بين الامام والرستمية وبين عوام المدينة (498) حتى اندلعت الحرب في تاهرت من جديد (499) . والواقع ان مؤرخي

(492) السيرة واخبار الائمة ورقة 36 .

(493) ابن الصغير : صفحة 42 .

(494) نفس المصدر : صفحة 50 .

(495) نفس المصدر والصحيفة ، النفوس : ص 265 ، P. 7. ، Op. Cit. Motylinski

(496) ابن الصغير : صفحة 50 .

(497) النفوس : صفحة 266 .

(498) ابن الصغير : صفحة 51 .

(499) ابن مغازي : ج 1 صفحة 278 .

الاباضية (500) يتغاضون عن ذكر هذه المهازل التي تردت فيها امامة ابي حاتم، فصوروه وقد « اطردت له الامور ، ولم ينقم عليه أحد من رعيته في حكم ولا فعل » لكن ابن الصغير المالكي الذي عاصر تلك الفترة وعين احداثها كشف لنا عما حاول هؤلاء المؤرخون اخفائه . فيذكر أن مشايخ الكوفيين — على وجه الخصوص نجحوا في تأليب العامة على ابي حاتم — ودبروا مع زعمائهم امر اغتياله . وتنبه أبو حاتم لما دبر له ، فطرد هؤلاء الزعماء خارج تاهرت. لكن المشايخ انضموا للعامة وثاروا على ابي حاتم وطرده ومن معه من الرستمية فضلا عن انصاره من نفوسة والعجم واعادوا زعماءهم الى المدينة (501) .

وعول أبو حاتم على تأليب القبائل ضد اهل المدينة ، وبذل الاموال لهذا الغرض ولجأ الى قبائل صنهاجة من غير الاباضية . وقدر له أن يحشد جموعا غفيرة من لواتة وصنهاجة والعجم فضلا عن نفوسة والرستمية زحف بهم الى المدينة وضرب عليها الحصار في ثلاثة مواضع (502) . وكاد المحاصرون أن يستسلموا لابي حاتم ويعترفوا بامامته لولا اصراره على تسليم زعماء العامة وشيوخ الفرق ، فرفضوا واستأنفوا القتال ، وبعثوا في استدعاء يعقوب بن افلح من زواغة ، فاقبل ، وبايعوه بالامامة سنة 282 هـ (503) (896 م) .

وفت ذلك في عضد ابي حاتم ، وفارقت له لواتة وانضمت لعمه يعقوب (504) لكن ذلك لم يمنعه من معاودة الهجوم على تاهرت ، فهزم وفارقه العجم كذلك (505) . ثم عقدت هدنة بين الطرفين بفضل مساعي شيخ مزاتة (506) تمكن أبو حاتم خلالها من استمالة كثيرين من زعماء المدينة عن طريق الاموال والهبات . فعتدوا العزم على بيعته ، ولما علم يعقوب بن افلح بذلك غادر المدينة بمن معه من شيوخ الطوائف وتوجه الى

(500) انظر : ابو زكريا : ورقة 32 ، الدرجيني ج 1 ورقة 37 ، الشماخي : السير صفحة 262 .

(501) ابن الصغير : ص 51 ، النفوسي : ص 268 .

(502) نفس المصدر : ص 52 ، نفس المصدر : ص 270 .

(503) ابن الصغير : صفحة 53 .

(504) نفس المصدر والصحيفة ، النفوسي : ص 271 ، 272 .

(505) نفس المصدر والصحيفة ، نفس المصدر . ص 272 .

(506) من المعروف أن مزاتة كانت تمنتق المذهب الاباضي ، وان كان اعتناقها اياه سطحيا انظر اليقوي : البلدان ص 344 .

زواغة (507) بعد أن مكث في الحكم أربعة أعوام (508) . ودخل أبو حاتم تاهرت سنة 286 هـ (900 م) في حماية زعماء عامتها (509) .

ونعتقد أن أبا حاتم لم يكن بوسعه استرداد نفوذه الحقيقي على المدينة بعد عودته إليها بفضل زعماء العامة فيها . وبديهي أن ينعكس نفوذ أهل تاهرت على ما اتخذه من إجراءات عقب تقلده الإمامة . فلم يكن بمقدوره إلا أن يصدر عفوا عاما على سائر أهلها (510) ، وقد كان إلى عهد قريب يشترط على زعمائهم والاقتصاص منهم حتى يفك الحصار الذي ضربه على تاهرت . كما أعوزته القدرة على البت في سياسة الدولة بمفرده ، فقد شاركه فيها مشايخ المدينة « أباضية وغير أباضية » (511) ولم تعد مناصب الدولة حكرا على نفوسة والعجم ، بل برزت عناصر جديدة لم تتول مثل ذلك من قبل (512) وتحولت السلطة الحقيقية في تاهرت إلى هؤلاء العمال ، فكان صاحب الشرطة « يأخذا بالتهمة ، ويضربا على الظنة » (513) ، أما الإمام فلم يكن له من السلطة سوى الاسم .

ويبدو أن يعقوب بن أفلاح ومن هرب معه من مشايخ الكوفيين كانوا من وراء حركة الطيب بن خلف بن السمع في شرقي الدولة الرستمية ، ذلك أن يعقوبا غادر تاهرت ونزل على زواغة بأحواز طرابلس سنة 286 هـ (900 م) كما أن زواغة كانت لا تزال على ولائها لتعاليم خلف بن السمع ، والتفت حول ابنه الطيب بعد وفاته . ولما كانت مضاربها مجاورة لمنازل نفوسة الموالية للأسرة الرستمية ، فقد كان الاحتكاك بينهما أمرا لا محيد عنه . والواقع أن معلوماتنا في هذا الصدد مستمدة من المصادر الإباضية التي تصور حركة الطيب وزواغة على أنها تمرد من جانب زواغة لخروجها

(507) ابن الصغير : ص 56 ، النسوي : ص 275 .

(508) ابن عذاري : ج 1 ص 278 .

(509) ابن الصغير : صفحة 56 .

(510) امتدح الشاعر بكر بن حباد التاهرتي أبا حاتم راجيا عفوه في قصيدة منها :
نقلت جناني يوسف بن محمد فطال على الليل وهو تمير
أبا حاتم ما كان ما كان بفضه ولكن أنت بمسد الأمور أمسور
وأكرم عفو يؤثر الناس أمره إذا ما على الإنسان وهو قدير
انظر النسوي : صفحة 276 .

(511) ابن الصغير : ص 56 ، البرادي : الجواهر المنتقاة ورقة 103 .

(512) نستشف ذلك من اسمي عبد الله بن أبي الشيخ الذي ولي القضاء وإبراهيم بن مسكين الذي ولي الشرطة ويخيل إلينا أنهما كانا من العرب المالكية والاحناف .
انظر : ابن الصغير : ص 56 ، الشماخي : السير : ص 263 .

(513) ابن الصغير : ص 56 ، الشماخي : السير : ص 263 ، البرادي : الجواهر المنتقاة . ورقة 103 .

على زعامة نفوسة (514) . ومع ذلك فالراجح أن يعقوب بن أفلح كان من وراء هذه الحركة مستهدفا إثارة القلاقل في وجه أبي حاتم ، فليس من محض الصدف أن يثور الزواغيون في هذا الوقت بعينه .

على كل حال — تحفل تواريخ الإباضية (515) بذكر انتصارات الياس ابن منصور على الطيب وانصاره من الخلفية الذين ولوا الادبار لانذين بجزيرة جربة وسيوف النفوسيين تجهز على فلولهم (516) وتشير هذه المصادر (517) الى أن الطيب اعتصم بقصر أحد شيوخها ممن كانوا على مذهب خلف ، وأن الياس بن منصور رشاه بالمال فسلمه اليه بدون قتال وعاد به الى الجبل حيث « عاد الى مذهب أهل الحق » وقضى على حركته .

ونعتقد أن السمية من زواغة ويعقوب بن أفلح لم يركنوا للدعة بعض القبض على الطيب بن خلف وسجنه بجبل نفوسة على يد الياس بن منصور عامل الجبل من قبل أبي حاتم ، فقد كانوا على صلة بأفراد البيت الرستمي المناوئين لإمامة أبي حاتم ، واشتركوا معهم في تدبير مؤامرة اغتياله ، وكان الشيخ الزواغي ، السمي أبو الخطاب وسيل بن سنتين همزة الوصل بين يعقوب بن أفلح والمتآمرين من البيت الرستمي (518) حتى تمت المؤامرة بنجاح، وقتل أبو حاتم يوسف على يد أبناء أخيه سنة 294 هـ (906 م) (519) .

وآلت الإمامة الى أحدهم ويدعى اليقظان بن أبي اليقظان محمد . ولا نعرف عن أخباره شيئا لعزوف الإباضية عن ذكر إمامته باعتباره مغتصبا لها (520) . والراجح أن عهده اتسم بالقلقل والفتن سواء من جانب الطوائف الدينية غير الإباضية التي كانت تطمح في الإمامة دون أن تنالها — أو من جانب أبناء أبي حاتم يوسف وأتباعهم للاخذ بثأر أبيهم . وهذا يفهم

(514) أبو زكريا : ورقة 32 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 38 ، النفوسى : ص 38 .

(515) نفس المصادر والصفحات .

(516) لا غرابة فيما حدث من تتبع النفوسيين غلول زواغة والأجهاز عليهم ، علما بأن تعاليم المذهب الإباضى تحرم تتبع المدبر والأجهاز على الجرحى . انظر : الوردجلى : الدليل لأهل العقول ج 3 ص 54 . ذلك لأن هذه التعاليم الإباضية تشترط في الفار المدبر أن يكون بدون مأوى يلوذ به ، فإن كان له مأوى جاز تتبعه وقتل حربه . انظر : Motylinski : l'Aqida des Abadites. P. 512.

ولما كان للمدبرين من زواغة مأوى في جزيرة جربة ، استحل النفوسيون الأجهاز على فلولهم .

(517) أبو زكريا : ورقة 33 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 39 ، النفوسى : ص 279 .

(518) النفوسى : صفحة 291 .

(519) ابن عذارى : ج 1 صفحة 278 .

(520) السوفى : شرح السؤالات ورقة 99 .

من رواية لابی زكريا (521) تقول بأن بنت أبى حاتم وأخيها توجهتا الى أبى عبد الله الشيعى ودعوه لدخول تاهرت والانتقام من قتلة أبيهما ، وأن المالكية والواصلية والشيعة والصفرية « شكوا اليه إمارة الفرس » .

مهما كان الامر ، وضع الغزو الشيعى لتاهرت سنة 297 هـ (909 م) حدا لامامة اليقظان بن أبى اليقظان ونهاية للدولة الرستمية برمتها .

وهكذا — كان تاريخ بنى رستم سلسلة من القلاقل والاضطرابات الداخلية ، اتخذت شكل الانشقاق المذهبى ، والصراع القبلى والعنصرى والتناحر الاسرى والطائفى .

(521) السيرة ورتة 36 .

ج - علاقات بني رستم الخارجية

تأثرت سياسة بني رستم الخارجية بوضع دولتهم الجغرافي ومذهبها الديني وظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية فقد كانت دولة صحراوية داخلية ، ولهذا لم نسمع عن نشاط بحري لبني رستم ولم يسهموا فى حركة الفتوح التى احتكرها جيرانهم الاغالبية فى الحوض الاوسط من البحر المتوسط . وقد حتم الوضع الجغرافي للدولة الرستمية وتشابك حدودها مع دول الاغالبية والادارسة وبني مدرار ، ان تدخل فى علاقات مع هذه الدول على الرغم من جنوح ائمتها الى العزلة والانصراف الى مواجهة مشاكلهم الداخلية . لقد فرضت رابطة الجوار على بني رستم ان يحددوا علاقاتهم بأمرء القيروان العباسيين ومن بعدهم الاغالبية السنة والادارسة العلويين وبني مدرار الصفرية ، ان عداا وان ودا . وقد تأثرت هذه العلاقات بجانبها الودى والعدائى — الى حد كبير — بمذهب الدولة الدينى ، فلما كان بنو رستم من الخوارج الاباضية فقد عادوا الحكم السنى بالقيروان والعلوى بفاس ، وهادنوا خوارج سجلماسة الصفرية . كما دعمت الظروف السياسية التى عاشتها الدولة الرستمية سياسة العداا للقيروان وفاس وسياسة المهادنة لسجلماسة ، فقد قامت الدولة على انقراض نفوذ الخلافة العباسية فى المغرب الاوسط ، وعجز عمال الخلافة فى القيروان عن الحيلولة دون قيامها ، لهذا كان على الاغالبية — عمال بنى العباس — ان يضطلعوا بتنفيذ مشيئة الخلافة فى مناهضتها . واذا كانت دولة الادارسة قد قامت فى المغرب الاقصى على حساب نفوذ الخوارج ، فلم يكن هناك مناص من عداا ائمة تاهرت لائمة فاس لاقتطاعهم بعض الاجزاء الشمالية الغربية من الدولة الرستمية . وقد اجتمعت الدولتان الرستمية والمدرارية على عداا القيروان وفاس ، ولهذا حرص حكامهما على الالتزام بسياسة حسن

الجوار ازاء بعضهم البعض . ولما كان أمويو الاندلس يعادون العباسيين والاغلبة والادارسة ، فقد عقد بنو رستم معهم اواصر الصداقة والود . كما أوثقوا صلاتهم بأباضية المشرق لما جمعهم من وحدة المذهب الديني والمصير السياسي . والحقيقة ان الرستميين انصرفوا لتوطيد صلاتهم بالجنوب مدفوعين بمصالحهم التجارية ، وساعد على ذلك ما كفلته الظروف الجغرافية من حماية طبيعية لقلب دولتهم ، فلم ينامجوا اعداءهم الا بما تقتضيه ضرورة الدفاع ، بل احيانا كانوا يغضون الطرف عن اطماع جيرانهم في اطراف الدولة ، فلم يحركوا ساكنا حين ضم الادارسة تلمسان وما حولها وسلخوها عن نفوذ تاهرت .

وقد كانت كافة حروبهم مع جيرانهم للدفاع فقط باستثناء مرة واحدة اتخذوا فيها موقف الهجوم ، لما حاصر عبد الوهاب بن رستم طرابلس سنة 196هـ (812 م) . كما لم تتعد صلاتهم الودية اكثر من تبادل السفارات والهدايا ولم تصل فقط لدرجة التحالف او التعاون لمواجهة العدو المشترك . وعلى ذلك يمكن القول بأن سياسة بنى رستم الخارجية قامت في جوهرها على تحاشي الاخطار والتزام الدفاع ، وكانت اميل الى السلم منها الى العدوان . ومع ذلك يمكن تقسيم هذه العلاقات الى شقين ، عدائية وودية ، فعلاقات بنى رستم بالعباسيين والاغلبة والادارسة كانت ذات طابع عدائي . اما علاقاتهم مع بنى مدرار وبنى امية بالاندلس واباضية المشرق ، فقد اتسمت بالطابع الودي .

١ - العلاقات العدائية :

1 - بنو رستم والعباسيون :

لا يخفى ما كان بين بنى رستم وبنى العباس من خلاف مذهبي وعداء سياسي ، فقد تأصل هذا العداء منذ عهد العباسيون الى مناهضة حركات الخوارج - ومنهم الاباضية - في المشرق ، والغرب على السواء . وحسبنا ان ما حل باباضية المغرب من كوارث انما تم على أيدي ولاة المنصور والرشيد بالقيروان منذ ولاية ابن الاشعث ومن تلاه من امراء الاسرة المهلبية ، وقد لجأ عبد الرحمن بن رستم الى جوف الصحراء حيث أسس دولته هربا من هؤلاء الولاة واتقاء لبطشهم .

والواقع ان أباضية المغرب وجدوا في دولة بنى رستم ملاذا حصينا

من خطر ولاية القيروان ، فلم يقدر لاي منهم اجتياح اراضي الدولة الرستمية بعد فشل محمد بن الاشعث في حصار عبد الرحمن بن رستم ومن معه من الاباضية بجبل سوفج سنة 145 هـ (762 م) بل حاول ابن رستم وجماعته الانتقام لما حل بالاباضية من بطش جيوش ابن الاشعث ، فخرج على رأس خمسة عشر ألف من رجاله لحصار عمر بن حفص بطبنة سنة 154 هـ (771 م) مع سائر اباضية المغرب وصفريته ، لكنه عاد مدحورا بعد هزيمته عند تهودة أمام جيش عمير بن معمر بن عيسى السعدي قائد عمر بن حفص (522) .

وبسبب هذه الهزيمة ، وما لحق اباضية المغرب الادنى من بطش يزيد بن حاتم (523) ، أثر عبد الرحمن بن رستم الانصراف الى تأسيس دولته دون أن يمضى في مناجزة ولاية القيروان . فبعث الى روح بن حاتم طالبا مهادثته حتى يتفرغ لمواجهة الاعباء التي واكبت قيام دولته ويبدو أن الخلافة العباسية آنذاك تطلعت الى دعم نفوذها في افريقية ، وغضت الطرف — الى حين — عن بسط سلطانها على بلاد المغرب الاوسط والاقصى، فقبل واليها على القيروان موادة عبد الرحمن بن رستم (524) .

ومن الطبيعي أن تظل هذه السياسة قائمة في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن لما حفل به حكمه من قلائل وثورات في الوقت الذي جنح فيه روح بن حاتم الى السلم لتقدم العمر به . وقد اختلف المؤرخون في تحديد اى من الطرفين بادر بطلب المودة ، فمنهم (525) من يشير الى أن عبد الوهاب بن رستم هو الذي طلب من روح تجديد الهدنة ، ومنهم (526) من يذكر أن روحا طلب المودة . وان عبد الوهاب اجابه الى ما اراد . وقد خرج جوتييه (527) من الرواية الاولى بأن آراء القيروان استقطبوا من اعتبارهم استرداد نفوذهم على المغرب الاوسط فتفاوضوا عن مناوئة الدولة الرستمية . بينما استخلص فورنل (528) من الرواية الثانية أن الدولة الرستمية أصبحت قادرة على الوقوف من ولاية القيروان موقف الند للند .

(522) ابن خلدون : ج 4 ص 193 ، النويري : ج 22 ورقة 21 .

(523) ابن خلدون : نفس المصدر : ص 194 .

(524) النفوسى : صفحة 93 .

(525) انظر : ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 10 .

(526) ابن خلدون : ج 4 ص 194 ، النويري : ج 22 ورقة 23 .

(527) Les Siecles Obscurs. P. 294.

(528) Les Berberes - Vol. I. P. 288

ومهما كان الامر ، فالذى يعنيننا ان الطرفين جنحا الى السلم ، وآثرا العافية على الدخول فى صراع لم يكونا على استعداد لخوض غماره وتحمل مغيبته .

واستثمرت سياسة تحاشى الصدام بين ائمة تاهرت وامراء القيروان قائمة حتى سنة 184 هـ (800 م) . حين قامت دولة الاغالبية فى افريقية لترث اسباب العداء مع بنى رستم وتنوب عن بنى العباس فى الاضطلاع بمناهضة حكمهم .

ومن الجدير بالتنويه ان الموادعة بين امراء القيروان وائمة تاهرت لا تعنى انتفاء العداء بينهما ، فالعداء بين تاهرت وبغداد ظل قائما ، ولم يتوان الخلفاء عن اغتنام ما سنجح لهم من فرص فى الكيد للدولة الرستمية واثارة المتاعب فى وجه ائمتها وادرك الرستميون ما اضره بنو العباس لهم من خصومة وعداء ، فأحجم عبد الوهاب بن رستم عن اداء الحج خشية الوقوع فى يد « المسودة » (529) وبرر له فقهاء المذهب الاباضى عزوفه هذا « بعدم امان الطريق » ، فأمان الطريق — شرعا — من شروط الحج (530) .

وليس ببعيد ان يكون العباسيون قد توجسوا خيفة من اتصال ائمة تاهرت باباضية الشرق لتدبير المؤامرات وتنظيم الثورات المناوئة لحكمهم (531) ، ومن ثم درجوا على بث عيونهم لمراقبة وفود المغاربة فى مواسم الحج . ولعل فى حادثة القبض على الامير الرستمى ابنى اليقظان محمد ابن افلح بمكة وايداعه السجن (532) ببغداد ما ينهضه دليلا على ذلك .

كذلك رحب العباسيون بالثوار الخارجين على بنى رستم ، ووجد هؤلاء فى بغداد ملاذا آمنا بعد اخفاق حركاتهم . والراجح ان العباسيين تعاونوا معهم على اسقاط الحكم الرستمى فى تاهرت ، فنفاث بن نصر الثائر على افلح بن عبد الوهاب الرستمى بادر بالهرب الى بغداد حين ضيق عليه عمال الامام على جبل نفوسة حتى اوشكوا على الظفر به . وتشيد مصادر الاباضية بما لقيه نفاث من حظوة وحفاوة فى بلاط الخلافة ، حتى ان الخليفة

(529) ابو زكريا : ورقة 23 ، النفوسى : ص 140 .

(530) ابو زكريا : ورقة 23 .

(531) ابن الصغير : صفحة 28 .

(532) عن حادثة القبض على ابن اليقظان محمد وسجنه ثم اطلاق سراحه . انظر : ابن

الصغير : ص 27 — 29 ، ابو زكريا : ورقة 31 ، 32 ، الدرجينى : ج 1 ورقة

37 ، 38 ، النفوسى : ص 259 — 264 .

اطلعه على المحظور من أمهات الكتب والدواوين في المذهب الإباضى . وليس بعيد أن يكون نفاث قد تأمر مع الخلافة على بث الشقاق في الدولة الرستمية اثر عودته ، وإذا كان لم يوفق في النيل من سلطان تاهرت في اقاليم الدولة الشرقية فان حسبه نجاحه في احداث انقسام مذهبى سياسى وتكوين فرقة عرفت (بالنفاثية) ظلت معادية للسلطة الحاكمة في تاهرت طوال عصر الدولة الرستمية .

وقد وضع تأمر بنى العباس على اسقاط امامة تاهرت في العصر الرستمى الاخير ، فطائفة الكوفيين بتاهرت لعبت دورا بارزا في مناوئة الامامة الرستمية في ذلك الحين ، وتواطأت مع زعماء العامة في العاصمة الرستمية لاقضاء أبى حاتم يوسف عن السلطة وطرده خارج المدينة (534). وفي وجود بكر بن حماد التاهرتى — أخ محمد بن حماد — زعيم عامة تاهرت — ببغداد (535) قبيل وقوع تلك الاحداث ، وعودته الى تاهرت واشترأكه في تنحية أبى حاتم ثم اعتذاره اليه راجيا عفوه بعد عودته للسلطة (536) ، ما يشير الى تواطؤ الخلافة العباسية مع المارقين على بنى رستم وتديرهم المكاييد ضد الدولة الرستمية وهذا كله يؤكد ما ذهبنا اليه من تأصل العداء بين الطرفين .

2 — بنو رستم والاغالبية :

اتخذت العلاقات بين بنى رستم والاغالبية طابعا عدائيا صرفا . وكان لذلك اسبابه المذهبية والسياسية والجغرافية ، فالاغالبية كانوا سنة ، ومذهب مالك المعروف بعدائه لسائر النحل المتطرفة ساد افريقية الاغلبية ، بينما تعصب بنو رستم للمذهب الإباضى ، وهو رغم اعتداله يذهب الى تكفير مخالفيه (537) ومفضلا عن ذلك فالاغالبية كانوا عمال الخلافة العباسية وأداتها في افريقية ، ورمز نفوذها الوحيد في بلاد المغرب ، ولا غرو فقد قامت سياستهم الخارجية على مصادقة اصدقاء الخلافة ومعاداة أعدائها .

(533) انظر : أبو زكريا : ورقة 30 ، 31 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 36 ، 37 النفوسى : ص 206 — 209 .

(534) ابن الصغير : ص 51 ، النفوسى : ص 268 .

(535) المالکى : رياض النفوس : ج 1 ص 409 ، الدباغ : معالم الايمان : ج 2 ص 192 .

(536) النفوسى : صفحة 276 .

(537) المقصود هنا تكفير الحكام فقط وليس الرعية . انظر : البغدادى : الشرق بين الشرق " صفحة 106 .

ومن ثم كان على أمراء بنى الاغلب أن يناهضوا أئمة تاهرت جريا على سنة الخلافة وتنفيذا لمشيئتها، كما لم يتقاعس بنو رستم عن مناجزة جيرانهم الاغلبة باعتبارهم أعداء سياسيين ومذهبيين على الرغم مما عرفوا به من المسألة والحرص على تحاشي اسباب التطاول والصراع (538) .

لقد فرضت الظروف الجغرافية على الدولتين أن تتخذ العلاقات بينهما شكلا عدوانيا ، فلم يكن ثم محيد عن الصدام أمام تشابك الحدود وعدم وضوح معالمها . لقد أحاطت الدولة الرستمية بافريقية الاغلبية من الشرق والغرب والجنوب (539) ، ولم يكن هناك ما يمنع رعايا الدولتين من القبائل البدوية من الحركة والانتقال والاختلاط في مناطق الحدود (540) ، ومن هنا اختلط الأمر على بعض الجغرافيين (541) فنسبوا بعض البلدان والكور الرستمية — كغدامس وتهودة وودان — الى دولة الاغلبة . والذي يعيننا هو أن الصدام بين رعايا الدولتين في مناطق الحدود كان لا ينقطع ، فالتليم الزاب ونواحي بلزمة شهدت صراعا داميا بين فقهاء المالكية وأتباع المذهب الاباضي (542) . وجدير بالتنويه أن جمهور الاباضية بتلك النواحي لم يكن برمته مواليا للرستميين ، فجماعتي الخلفية من زواغة والنكار من هوارة — ومنازلهما جنوبي تونس — (543) كانتا على عداء مع بنى رستم ، وليس من المستبعد أن يكون الاغلبة قد اصطنعوا بعض هذه العناصر لاثارة العراقيين والقتال في الدولة الرستمية ، يفسر هذا قول لوتورنو (544) بأن جماعات الاباضية بنواحي قسطينية — بلاد الجريد — لم يتعرضوا لاضطهاد الاغلبة . ولكن الذي لا شك فيه أن جمهور الاباضية الوهبية من لواتة وهوارة في تلك الاصقاع لقي عسفا وعنفا على أيدي بنى الاغلب وعمالهم (545) .

كما كانت حدود دولة الاغلبة الشرقية غير واضحة المعالم ، فقبائل نفوسة الاباضية كانت تضرب قرب طرابلس التابعة لبنى الاغلب ، وامتدت ديارها حتى مشارف القيروان ذاتها (546) . ومن ثم كانت هذه المناطق

(538) النفوسى : صفحة 93 ،

Gautier : Op. Cit. P. 294, Vonderheyden : Op. Cit. P. 267.

(539) انظر : الخريطة .

(540) مجهول : الاستبصار : ص 179 .

(541) راجع : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 87 .

Masqueray : Op. Cit. P. 220.

Lewcki : Etudes Ibadites. P. 73.

La Revolte d'Abou - Yazid. P. 105.

(542) ابن خلدون : العبر : ج 4 ص 203 ،

(543) ابن عذارى : ج 1 ص 167 ،

(544) انظر :

(545) ابن خلدون : ج 4 ص 203 .

(546) اليعقوبى : البلدان ص 349 .

ميدانا حافلا بالصراع بين الدولتين الاغلبية والبرستمية .

وليس صحيحا ما ذهب اليه مؤرخو الغرب (547) من انتفاء طابع العداء بين الاغلبية وبنى رستم وقولهم بأن كليهما نعم بحدود آمنة عازفا عن شهر السلاح في وجه جاره . حقيقة ، لم يصل التشاحن بينهما الى حد يهدد وجودهما بسبب انشغال الاغلبية بمواجهة مشاكلهم الداخلية فضلا عن النشاط البحرى الذى ضربوا فيه بسهم وافر ، ونفس الشيء يقال عن بنى رستم واهتمامهم بحركة التجارة مع الجنوب . هذا فضلا عن بعد المسافة ووعورة الطرق بين تاهرت وافريقية ، فقد كانت المسافة بينهما مسيرة شهر على ظهور الابل (548) . لكن ذلك لا يعنى قط أحجام حكام الدولتين عن الاغارة على املاك بعضهم البعض على امتداد الحدود ، وخاصة في الجهات الشرقية ، بل دابوا على بث الفتنة واثارة العراقيل وتحريض العناصر المعادية للحكم . واذا كان البرستميون الاوائل قد احرزوا النصر في المرحلة الاولى فان الاغلبية ظفروا به بعد ذلك في اواخر العصر البرستمي .

بدا النزاع البرستمي الاغلبى في منطقة طرابلس ، وسببه ان هذه المدينة كانت تابعة للاغلبية ، وقد امتد نفوذ عاملها على بعض بطون هوارا الاباضية الضاربة بجوارها ، وعدتها ثلاثمائة اسرة (549) . وبديهي ان يطمح هؤلاء الاباضية في الاستقلال عن سلطان الاغلبية للدخول في طاعة بنى رستم (550) ، فدابوا على اثارة المتاعب في وجه العامل الاغلبى على طرابلس ، وغمدت جماعات منهم الى الاغارة على المدينة وبث الرعب بين سكانها (551) فكان عاملها يسرف في الانتقام من الاباضية بها حتى لقد خرجت جموع غفيرة منهم ولجأوا الى الصحراء (552) . ويبدو انهم استمدوا العون من جيرانهم اباضية نفوسة ، فقد نجحوا عام 196 هـ (812 م) في اجتياح طرابلس . والحقوا بها الخراب والدمار . وهب

Vonderheyden : Op. Cit. P. 268,

(547) انظر :

Marcais : La Berberie Musulmane. P. 107,

Huart : Histoire des Arabes. Vol. I. P. 321.

(548) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص 88 .

(549) المالكي : رياض النفوس : ج 1 ص 216 ، Idris : Contribution ... P. 199.

(550) أبو زكريا : ورقة 23 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 30 ، النفوسى : ص 146 .

(551) الاتصارى ، نفحات القسرين ورقة 7 — مخطوط ،

Brockelman : Op. Cit. P. 150.

(552) النفوسى : صفحة 144 .

ابراهيم بن الاغلب لاستنقاذ نفوذه ، فرمى الثوار بابنه عبد الله الذى أفلح في استرداد المدينة واثخن في الاباضية تنكيلا ثم حصنها ببناء سور حولها (553) . واستعان الاباضية بالامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن — وكان اذ ذاك بجبل نفوسة — فاستجاب لهم وخرج على رأس جيش من نفوسة وغيرها وضرب الحصار حول طرابلس (554) . ولم يستطع عبد الوهاب اقتحام المدينة ، فقد أغلق عبد الله الاغلبى أبوابها وبأثر القتال من باب واحد وتمكن جنده من اغتيال بعض مشاهير الاباضية (555) ، كما استلح عن طريق جواسيسه افساد خطط المحاصرين (556) .

وكاد عبد الوهاب ان يعود من حيث اتى ، لولا ان أسعفه الحظ بموت ابراهيم بن الاغلب واستدعاء ابنه عبد الله الى القيروان لتقلد الامارة (557) . فاضطر عبد الله الى التسليم بمطالب الرستميين في انضمام اباضية هواراة الى دولتهم وانسلاخهم عن نفوذ عامل طرابلس الاغلبى ، ونص في الاتفاق على ان « يكون البلد والبحر لعبد الله وما كان خارجا عن ذلك لعبد الوهاب » (558) هكذا انتصر عبد الوهاب بسبب اضطرار عبد الله الى وقف الحرب وعودته الى القيروان ، بل شجعه ذلك على الاجترار على الاراضى الاغلبية ذاتها فضرب صفحا عن الاتفاق واستولى على قابس — وهى ميناء على البحر كان تابعا للاغالبية (559) — ، وكذلك آلت اليه بعض القرى والحصون الاخرى ثم عبرت جيوشه الى جزيرة جوبة واستولت عليها ، وعاد عبد الوهاب الى جبل نفوسة ومنه الى تاهرت بعد ان ولى عماله على هذه النواحي الجديدة (560) وشغل الاغالبية الاول بمشاكلهم الداخلية عن تصحيح الوضع على حدودهم الشرقية ، كما قنع الرستميون بما احرزوه من مكاسب ، ، ولم يتمادوا في سياسة التوسع مغتتمين فرصة ثورات الجند في افريقية على الامارة الاغلبية . وهذا

(553) ابن الاثير : ج 6 ص 60 .

(554) نفس المصدر والصحيفة ، ابو زكريا : ورقة 21 ،

Fournel : Op. Cit. Vol. 2. P. 150.

(555) ابو زكريا : ورقة 23 ، الشهاخى : السير ص 160 .

(556) النفوسى : صفحة 145 .

(557) ابن الاثير : ج 6 ص 60 .

(558) نفس المصدر والصحيفة ، الشهاخى : السير : ص 161 .

(559) اليمتوبى : البلدان ص 349 ، 350 .

(560) ابن خلدون : ج 6 ص 122 ، الشهاخى : السير : ص 161 ، النفوسى : صفحة 146 ، 147 .

ما حدا ببعض الاحزاب المعارضة لعبد الوهاب ان تستنكر فتوره « وقلة محاربتة للسودة (561) » .

ودرج افلح بن عبد الوهاب — الذى اشتهر بالدهاء والسياسة — على تحريض اتباعه من البدو الاباضية المقيمين ببلاد الجريد لاثارة القلاقل فى دولة الاغلبة ، ويذكر ابن خلدون (562) انهم تمردوا على العامل الاغلبى بقسطنطينية وارادوه قتيلا ، وان الامير أبى عقال الاغلبى سير اليهم الجيوش ، واستأصل شأفتهم ومن المشكوك فيه ان يكون أبو عقال قد قضى نهائيا على ثورات الاباضية فى افريقية الجنوبية ، ويبدو ان ذلك كان دافعا لخليفته الامير محمد الاغلبى على الاهتمام بتوطيد نفوذه فى تلك النواحي ففى سنة 239 هـ (854 م) أسس مدينة جديدة سماها العباسية فى بلاد الجريد لمواجهة اخطار الاباضية ، ولتكون قاعدة امامية للافارة على ناهرت ذاتها فضلا عن منافستها للعاصمة الرستمية فى تجارة العبور (563) غير ان افلح بن عبد الوهاب بادر بمواجهة الخطر الاغلبى ، وافلح فى تدمير العباسية ، واضرم فيها النيران (564) .

كما حاول اباضية نفوسة وهوارة الاستيلاء على طرابلس فى عهد احمد بن محمد الاغلبى (242 — 249 هـ) (857 — 864 م) ولم ينقذها سوى جلب واليها الامدادات من القيروان فحال دون سقوطها سنة 245 هـ (860 م) . وهكذا اتسمت سياسة بنى رستم فى عهدي عبد الوهاب وافلح بالقوة فأمسكا بزماء المبادرة فى صراعهما مع الاغلبة ، ونجحا فى مواجهة اخطارهم بل واقتطاع أجزاء من دولتهم على ان الاغلبة سرعان ما رجحت كفتهم بعد موت افلح بن عبد الوهاب ، اذ منيت الدولة الرستمية بأخطار الصراع العنصرى والطائفى فى الداخل . فلم يعدم الاغلبة وجود صنائع واتباع عملوا لحسابهم فى مناهضة أئمة بنى رستم فى ذلك

(561) الشماخى : السير ص 194 . ويعنى الشماخى بالسودة بنى الاغلب
الصال العباسيين .

(562) العبر : ج 4 صفحة 200 .

(563) النفوسى : صفحة 189 ،

Mercier : Histoire de l'Afrique Septentrionale. P. 285.

(564) البلاذرى فتوح البلدان ص 277 ، ابن خلدون : ج 4 ص 200 — 201 ،
Fournel : Op. Cit. Vol. I, P. 513.

(565) ابن خلدون : ج 4 ص 201 ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 398.

الحين (566) . ولا يخفى دور شخص يدعى خلف الخادم — من موالى الاغالبية — فى تأليفت الثوار على ابي بكر بن افلح حتى اقصوه عن الامامة وطردوه خارج تاهرت ويحدثنا ابن الصغير (567) انه كان يبذل الاموال للثوار بسخاء ، الامر الذى يدل على تواطؤ بنى الاغلب وتآمرهم على اسقاط الحكم الرستمي .

وفى سنة 267 هـ (881 م) اشتركت جيوش الاغالبية جنبا الى جنب مع اباضية نفوسة فى قتال جيش العباس بن احمد بن طولون — الذى خرج من مصر غازيا افريقية — ، وهذا لا يعنى عودة الوثام بين بنى رستم والاغالبية فقد قاتلت نفوسة العباس لا « لانقاذ طرابلس وبنى الاغلب من ظلمه » كما ذهب النفوسى (568) ، ولا تلبية لطلب ابن قريهب عامل الاغالبية على طرابلس كما قال سعيد بن مقديش (569) ، وانما لان خطره هدد بنى الاغلب وبنى رستم على السواء (570) . فبعد استيلاء العباس على لبدة ، بطش بجمهور الاباضية هناك « وتعدى سودانه على بعض حرم البوادي وهتكوا الحجب » (571) ولما كان هؤلاء من رعايا بنى رستم ، فقد استنجدوا بعاملهم على جبل نفوسة ويدعى الياس بن منصور فى الوقت الذى بعث فيه العباس اليه يدعوه للدخول فى طاعته (572) . فهب العامل الرستمي لدرء خطر العباس دون سابق اتفاق مع الاغالبية (573) . مصداق ذلك خروج عامل طرابلس الاغلبى على رأس جيش انفذ اليه من القيروان والتحامه مع ابن طولون قبل قدوم الاباضية من نفوسة (574)

(566) ابن الصغير : صفحة 27 .

(567) سيرة الائمة الرستمين ص 37 ، النفوسى : ص 632 .

(568) انظر : الازهار الرياضية : ج 2 ص 255 .

(569) انظر : نزعة الانتظار ص 121 .

(570) Basset : Les Sanctures .. P. 93.

(571) ابن عذارى : ج 1 صفحة 157 .

(572) ابن الداية : سيرة احمد بن طولون ص 61 . وقد جاء فى خطاب العباس الى الياس بن منصور « . . اقبل بسهمك وطاعتك والا وطيت بلدك بخيلى ورجلى وابحت رحبك » وجاء فى رد الياس « . . لقد بلغنى من تبجح افمالك ما لا يسمنى التخلف معه عن جهادك . وانا على اثر رسالتى اليك » راجع : البلوى : سيرة احمد بن طولون ص 254 ، النفوسى : ص 258 .

(573) تصور بعض المصادر هذا الحادث باعتباره يخص كلا من الطرفين على حدة ، دون ادنى اشارة الى اشتراكهما فى مواجهته . انظر : الورجلانى : الدليل لاهل العقول ج 3 ص 54 ، الخزرجى : اخبار الدول المنقطعة وربة 29 ،

Lewcki : Etudes Ibadites. P. 49.

(574) البلوى : سيرة احمد بن طولون ص 254 .

مقد وصلوا في اليوم التالي (575) ، واشتركوا مع الاغالبية في قتال العباس (576) . وحين هزم العباس ، استأثر الاغالبية بالمغانم والاموال الطائلة (577) دون الاباضية الذين رفضوها « زهدا وتعففا » على حد قول المصادر الاباضية (578) .

وعمد ابراهيم بن احمد الاغلبى الى اتباع طرق شتى في صراعه مع الرستميين الذين وقفوا موقف الدفاع . ففى سنة 269 هـ (883 م) اوغلت جيوشه في مضارب القبائل الاباضية ببلاد الجريد ، وتمكن من وضع حد لشغبهم (579) . وبث الفرقة بين اباضية نفوسة باصطناع مسائل فقهية اختلف شيوخهم حول تأويلها (580) .

ويبدو انه فعل ذلك توطئة للاطاحة بمعقل القوة في الدولة الرستمية، بغزو جبل نفوسة ، هذا هو ما حدث فعلا سنة 293 هـ (897 م) واختلفت الروايات في تفسير دوافع هذا الغزو ، فبعضها (581) تعزوه الى اعتراض نفوسة الجيش الاغلبى الزاحف نحو مصر الطولونية ، وبعضها (582) الآخر يزعم ان الامير الاغلبى كان قادما على رأس جيش من بغداد لغزو تاهرت فاعترضته نفوسة دفاعا عن عاصمة الرستميين ، بينما يذهب ابن عذارى (583) الى ان جيش ابن الاغلب كان متوجها الى طرابلس لتأديب عاملها ، فاعترضته نفوسة ومنعته من المرور ، في حين يقول الشماخى (584) باجتماع نفوسة على قتال الامير الاغلبى لانه « انسد

-
- (575) نفس المصدر : ص 255 ، النويرى : ج 26 ورقة 7 .
(576) البلوى : ص 255 ، المغريزى : الخطط ج 1 ص 320 .
(577) البلوى : ص 255 ، ابن عذارى : ج 1 ص 158 ، الشماخى : السير ص 225 .
الورجلانى : ج 3 صفحة 54 .
(578) النفوسى : ص 257 ، الورجلانى : ج 3 ص 54 ومن المعروف ان المذهب الاباضى يقر الغلبة في حالة قتال مخالفيه في المذهب . انظر : ابو غانم الصغرى : المدونة ورقة 43 ، السوفى : شرح السؤالات ورقة 173 .
(579) ابن خلدون : ج 4 صفحة 203 .
(580) ذكر الشماخى ان ابراهيم بن احمد اهدى نفوسة سينا ، فاختلف شيوخهم حول كيفية التصرف فيه فرأى البعض رده اليه ، ورفض البعض الاخر « لانه عون له على باطلة ، بينما قال فريق ثالث بكسره ودفعه ، فاعترض الآخرون على ذلك « لان عطايا الملوك جائزة » ... فوقع بذلك خلاف افضى الى شقاق بينهم » . انظر : السير : صفحة 264 .
(581) النويرى : ج 22 ورقة 37 .
(582) أبو زكريا : ورقة 33 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 39 ، النفوسى : ص 281 .
(583) البيان المغرب ج 1 ص 173 ، 174 ، Vonderheyden : Op. Cit. P. 272 ، Zaki Hasan : Les Tulunde. P. 161.
(584) السير : صفحة 268 .

وتعدى « وعلى الرغم من اختلاف هذه الروايات ، فهي تجمع على اعتراض اباضية نفوسة الجيش الاغلبى عند مكان يقال له قصر مانو — بين قابس وطرابلس (585) — سنة 283 هـ (897 م) فقامت معركة بين الطرفين قضى فيها على غالبية النفوسيين (586) وعلى اثر الاجهاز على نفوسة ، نزل الجيش الاغلبى على اباضية قنطرة ونفزاوة فبطش بهم واسر جندهم (587) ، وسيق الاسرى الى القيروان حيث عذبوا ثم قتلوا (588). وفى العام التالى بعث الامير الاغلبى جيشا الى نفوسة اثخن فيها ، وعاد بثلاثمائة اسير قتلوا ومثل بهم « فنظمت قلوبهم فى حبال علقت على بساب تونس » (589) .

وهكذا — شغلت الامامة فى تاهرت بمشاكل الصراع حول السلطة عن تقديم العون لاباضية المغرب الادنى (590) ، فتركوا وشأنهم يتلقون ضربات الاغلبة حتى وهنوا وضعفوا ، وبضعفهم تداعت الدولة الرستمىة (591) ولولا ما حل بدولة الاغلبة من اضطراب سياسى فى عهدهما الاخير ، وانصراف امرائها لمجابهة الخطر الشيعى ، لامكنهم غزو تاهرت نفسها ، واسقاط الاسرة الرستمىة . لكن الدولتين المتعاديتين جمعتهما فى النهاية وحدة المصير ، فقد وقعتا فريسة للغزو الشيعى سنة 297 هـ (909 م) .

3 — بنو رستم والادارسة :

رغم ما ساد علاقات بنى رستم بالادارسة من بداء نتيجة خلافاتهم المذهبية والاجتماعية والسياسية فان المصادر الاباضية تلوذ بالصمت التام فلا تذكر شيئا البتة عن هذه العلاقات ، وقد فسر كثيرون من الدارسين (592) هذا الصمت على انه دليل على ما ساد هذه العلاقات من طابع الود وحسن

-
- (585) ابو زكريا : ورقة 33 .
(586) نفس المصدر : ورقة 34 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 40 .
(587) نفس المصدر والمصحفة .
(588) الوسيانى : سر ابي الربيع " ورقة 3 ، النويرى : ج 22 ورقة 37 .
(589) ابن هذارى : ج 1 ص 174 ، Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 576.
(590) النفوسى ص 286 .
(591) الدرجينى : ج 1 ورقة 41 .
(592) انظر : محمد بن تاويت : دولة الرستميين ص 117 ، محمد على دبور : المغرب الكبير ' ج 2 ص 387 ، حسن عبد المواد : دولة الادارسة : ص 245 .

الجوار ، لكن كتابا آخرون ذكروا (593) حقيقة هذه العلاقات وانطوائها على الخصومة والعداء . وسبب هذا العداء أن الادارسة كانوا من الشيعة الزيدية بينما كان بنو رستم من الخوارج الإباضية ، كذلك كانت دولة الادارسة دولة حضر ، بينما غلب الطابع البدوي على الدولة الرستمية . هذا فضلا عما كان بينهما من تنافر سياسى — بسبب صداقة بنى رستم لبنى مدرار والامويين فى الاتدلس اعداء الادارسة — على الرغم من اشتراكهما فى معاداة الخلافة العباسية .

وجدير بالذكر أن الادارسة — مدفوعين بهذه الخصومة المذهبية والتباين الاجتماعى والعداء السياسى — عولوا على الاغارة على املك دولة الرستميين واقتطاع بعض اجزائها ، بينما ركن الرستميون الى المسالمة لقصور فى قوتهم ، فلم يكن بوسعهم مناجزة جيرانهم الاقوياء ، واذا كانت غزوات الادارسة لم تشكل خطرا على حكومة تاهرت — حسبما اعتقد ماسكراى (594) ، فحسبهم اقتطاع اقليم تلمسان — وسكانه من مغراوة وبنى يفرن الزناتيين — من بنى رستم وضمه الى دولتهم .

ولم يكن ثمة ما يحول دون احتكاك الادارسة بجيرانهم الرستميين ، خاصة وأن دولتهم ارتبطت فى قيامها وتوسعها بخوارج المغربيين الاقصى والوسطى مغالبية القبائل التى بايعت ادريس الاول كانت على مذهب الخوارج ، فزناتة ، وزواغة ولماية ولواتة وسدرانة ونفزة — وهى اباضية المذهب — رحبت بادريس الاول ودخلت فى طاعته (595) ، وان ظلت بعض بطونها على مذهبها وولائها لبنى رستم . وكان على ادريس وخلفائه ان يدخلوا فى صراع مع بنى رستم اذا ما ارادوا التوسع شرقا لضم هذه البطون واستئصال شأفة الخوارج فى منطقة تلمسان واسافل شلف ، وقد تحقق لهم ذلك بالفعل فيما يتعلق بأباضية زناتة بالذات (596) .

(593) انظر : Masqueray : Op. Cit. P. L XXIV, Gautier : Op. Cit. P. 295.

(594) انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 220.

(595) ابن ابي زرع : القرطاس " ص 16 — 18 ، ابن خلدون : ج 4 ص 12 ، الكتانى : المغرب : ورقة 13 مخطوط ، محمد على السنوسى ، الدرر السنية ص 44 ،

Gautier : Op. Cit. P. 274.

(596) تصور بعض المصادر ان الادارسة نجحوا فى اقتطاع كائى الاجزاء الشمالية من الدولة الرستمية حتى لاصقت حدودها الشرقية دولة الاغالبة . انظر : عبد الرحمن ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس : ج 2 ص 5 ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى : صفحة 221. 274. Vonderheyden : Op. Cit. P. 274. لكن الواقع ان بنى رستم احتفظوا بنفوذهم على بعض هذه الجهات حيث شكلت املكهم حاجزا بين الاغالبة والادارسة . انظر البيهقي : البلدان ص 352. 295. Gautier : Op. Cit. P.

ففى سنة 173 هـ (789 م) توجه ادريس الاول على رأس جيش للاستيلاء على تلمسان واخضاع قبائل مغراوة وبنى يفرن وغيرهم من انخوارج الصفرية والاباضية (597) ، وتمكن من دخولها دون كبير جهد (598) .

ونجح فى توحيد جموع زناتة فى غربى بلاد المغرب تحت لوائه ، واستولى على مدينة ذات اهمية استراتيجية خاصة « فتلمسان قفل بلاد المغرب » (599) ذات شهرة تجارية عريضة (600) ، فضلا عن قوة بشرية كبيرة (601) سلخها عن نفوذ دولتى الخوارج .

ويبدو أن الامام عبد الوهاب الرستمى حاول استعادة نفوذه فى هذه النواحي ، لكنه لم يجرؤ على غزو تلمسان (602) . ولم يكن بوسعه سوى تاليب اصهاره من بنى يفرن ، فقاموا بالثورة على الادارسة ، وظلوا بمنأى عن نفوذهم الى ان اخضعهم ادريس الثانى سنة 197 هـ (813 م) فدانوا له بالطاعة من جديد وتخلوا نهائيا عن مذهب الخوارج (603) . بل حاول زعماء مغراوة وبنى يفرن اغراء بنى رستم للدخول فى طاعة الادارسة ، فلم يستجيبوا ، وناصبواهم العداء ودخلوا معهم فى حروب فتت فى عضد بنى رستم على عكس ما يذكره مارسيه (604) من « خروج تاهرت ظافرة من هذا الصراع » فالثابت أن الامامة الرستمية لم تقم بمحاولة جدية فى هذا الصدد ، واقتصر الامر على مجرد اغارات محدودة قامت بها جماعات من نفوسة ردا على اعتداءات بنى يفرن على رعايا الدولة الرستمية (605) .

وفضلا عن اغارات بنى يفرن ومغراوة على الاطراف الشمالية للدولة الرستمية حرص الادارسة على اثاره العراقيل فى تاهرت نفسها ، ولا يخامرنا شك فى أن ادريس الثانى كان من وراء تمرد الواصلية على عبد

(597) نعلم أن عبد الرحمن بن رستم تزوج من يفرنية وأنجب منها ابنه عبد الوهاب ، انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، النفوسى : ص 100 ، Masqueray : Op. Cit. P. 57.

(598) ابن أبى زرع : ص 22 ، الكتانى : الازهار . ص 5 ، الجزنائى : زهرة الاسى : صفحة 10 .

(599) سعيد بن مقديش : صفحة 18 .

(600) البكرى : صفحة 76 .

(601) البيهقي : البلدان : صفحة 80 .

(602) ابن الصغير : صفحة 17 .

(603) ابن أبى زرع : ص 69 ، الجزنائى : ص 22 : محمد على السنوسى : الدرر السنية ص 45 ، سلفاتوركوسا : تواريخ مدينة فاس : ص 4 ،

Mercier : Histoire de l'Afrique . Septentrionale . P. 89.

(604) انظر : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية : ص 93 .

(605) الشماخى : السير ٢ ص 197 — 198 Lewcki : etudes Ibadites. P. 36.

الوهاب الرستمى سنة 195 هـ (606) (811 م) ، فمن المعروف أن طنجة كانت معقلا لواصلية المغرب (607) ، وأن أوربة دانت بمذهب الواصلية ، كما اقبلت بعض بطون زناتة على اعتناقه كذلك (608) ، ومعلوم أن أوربة كانت عصب دولة الادارسة ، وأن ولاء زناتة الغرب تحول الى بنى ادريس ، وبديهي الا تقطع الصلة بين الواصلية الضاربين خارج تاهرت وبين معاقلهم فى دولة الادارسة ، وليس غريبا اقدام الادارسة على استغلال هذه الصلة فى اثاره العراقل امام خصومهم من بنى رستم ، مصداق ذلك قول أبى زكريا (609) « فتكاثفت كلمة الواصلية ، واجتمعوا من كل نقب ، وجاعوا من كل اوب . . واطهروا مخالفة الامام » .

وأغلب الظن أن ثورات هوارة على الائمة الرستميين لم تخل كذلك من تحريض الادارسة ، فمواطنها الاصلية كانت داخل دولة الادارسة (610) حيث اتخذت من جبل ينجان معقلا وملاذا حين تعرضت لبطش عبد الوهاب ابن رستم . ومن المرجح أن تكون حركتها التى انتهت باستيلاء زعيمها محمد ابن مسالة على السلطة فى تاهرت سنة 260 هـ (874 م) قد قامت بمساعدة آل ادريس وتحريض منهم .

ومن المحقق أن تلك المؤامرات التى امعن الادارسة فى نسج خيوطها لم تقابل بأدنى مبادرة من قبل بنى رستم للرد عليها ، وذلك مما يشكك فى تصور جوتييه (611) للعلاقات الرستمية الادريسية على أنها موجات من « الافعال وردودها » ، ولا محل لتصديقه فى تعطيل انشاء مدينة فاس بخوف ادريس الثانى من تأمر بنى رستم على دولته بالتواطؤ مع العناصر الحائقة على آل ادريس داخل بلادهم .

لم يكن بوسع الائمة الرستميين مجازاة الادارسة فى تدبير المكائد ، واحداث الشقاق ، كما عزفوا نهائيا عن محاولة استرداد نفوذهم المفقود فى الاتاليم الشمالية والساحلية ، على الرغم مما حل بدولة الادارسة من

(606) أبو زكريا : ورقة 19 ، محمد على دبور : ج 3 ص 485 ، حسن عبد العواد : دولة الادارسة : ص 246 .

(607) قدامة بن جعفر : الخراج ص 295 ، النفوسى : ص 116 .

(608) أبو زكريا : ورقة 19 .

(609) السيرة واخبار الائمة ورقة 29 .

(610) ابن خلدون : ج 4 صفحة 14 .

(611) Les siècles obscurs. P. P. 290, 291.

(612) ابن خلدون : ج 4 ص 14 ، Jalien : Op. Cit. P. 344.

ضعف وتفتت أثر وفاة ادريس الثاني سنة 213 هـ (828 م) (612) . فقد آلت تلمسان وما حولها الى آل سليمان (613) واضحت ولاية حاجزة بين الدولتين . وقد تعرضت ولاية تلمسان للتجزئة والتمزق السياسى أيضا ، فقسمت الى ثلاثة أقسام بين أبناء محمد بن سليمان ، اذ استقل ابنه محمد بمدينة تلمسان وعيسى بأرشقول ، أما جراوة فكانت من نصيب ادريس ثم آلت الى ابنه عيسى المكنى بأبى العيش (614) . هذه الفرقة السياسية (615) أفضت الى اضعافهم جميعا الامر الذى حدا بفورنل (616) الى الاعتقاد باستعادة زناتة لنفوذها القديم فى هذه الجهات . ومع ذلك لم تسلم الدولة الرستمىة من أخطارهم ومؤامراتهم .

لقد ضعفت الدولة الرستمىة بعد أفلح ابن عبد الوهاب ، وشغل ائمتها بأحداث تاهرت وما جاورها ، فاجتراء أمراء آل سليمان على اقتطاع بعض البلاد والقلاع التابعة لبنى رستم (617) ، كمدينة الخضراء وسوق ابراهيم وغيرها (618) بعد البطش بسكانها من الاباضية (619) ، دون أن يحرك أئمة تاهرت ساكنا (620) . فضلا عن ذلك فقد أسهموا فى إثارة

(613) ينتسب آل سليمان الى سليمان بن عبد الله - أخ ادريس الأكبر - الذى نجا من معركة نخ ولحق بأخيه فى المغرب الاقصى بعد تأسيس دولة الادارسة سنة 172 هـ . ولما فتح ادريس تلمسان جعل سليمان واليا عليها . ويخيل الينا أنه غادر تلمسان بعد ثورة زناتة بزعامة محمد بن خزر واتجه الى نواحي تاهرت حيث لم يطبله المقام هناك طويلا . ويبدو أن خلافا وقع بينه وبين راشد - مولى الادارسة - بعد موت ادريس الاول جعله لا ينزل وليلى على اثر ثورة ابن خزر ويتجه الى نواحي تاهرت . لكنه ما لبث أن لحق بادريس الثاني حيث شب عن الطوق ، وصحبه فى حملته على تلمسان لاستردادها . وقد مات ابن اقامة ادريس الثاني فى تلمسان ، وخلفه ابنه محمد فى ولايتها من قبل ادريس الثاني . انظر : البكرى : ص 77 ، ابن خلدون : ج 4 ص 17 ، سلفاتور كوسا : ص 14 . مبارك الميلى : تاريخ الجزائر ج 2 ص 49 ،

Lavoix : Catalogue des Monnaies .. P. 398.

(614) ابن خلدون : ج 4 ص 17 .

(615) من مظاهر استقلال هذه الامارات حرص أمرائها على سك عملة خاصة بهم خالية من أى اشارة الى تبعيتهم للادارسة . وهك صورة لدينار - ضرب فى سوق ابراهيم فى عهد أحمد بن عيسى : الوجه : لا اله الا الله وحده لا شريك له . الكتابة الدائرية : لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . الوجه الاخر : محمد رسول الله - أحمد بن عيسى . انظر :

Lavoix : Op. Cit. P. 397.

Les Berberes. Vol. 2. P. 13.

(616) المقدمى : صفحة 218 .

(617) اليعتوبى : البلدان : ص 352 ، 353 .

(618) النفوسى : صفحة 70 .

(620) يرى الاستاذ محمد على دبور أن بنى رستم تنازلوا من هذه البلاد طائعين مختارين لآل سليمان العلويين . وهو رأى يجانب الصواب بالقياس الى ما كان بين الطرفين من خصومة سياسية وعداء مذهبى . انظر : المغرب الكبير : ج 3 ص 336 .

الفتن والثورات التي أضعفت الحكم الرستمي في سنيه الأخيرة ، فبكر بن حماد — أخ محمد بن حماد زعيم الثوار على أبي حاتم يوسف — كان على صلة مربية بأبي العيش عيسى بن ادريس العلوي حاكم جراوة (621) ، وبأحمد بن القاسم بن ادريس حاكم مدينة كرت (622) . ولما أخفقت الثورة ، واستعاد أبو حاتم الإمامة هرب كثيرون من الثوار لائذين بآل سليمان والادارسة (623) .

هكذا — اتسمت علاقات بني رستم السياسية مع الادارسة بطابع العداء ، وأسفر الصراع بين الدولتين عن تغلب الادارسة واستكانة بني رستم .

ب — العلاقات الودية :

(1) بنو رستم وأباضية الشرق :

سبق القول بأن أباضية الشرق عمدوا الى أساليب الدعوة السرية والتنظيم السياسي على اثر فشل حركة عبد الله بن أباض التميمي في عهد مروان ابن محمد الأموي ، فطفقوا يرسلون من مركزهم في البصرة دعواتهم الى الأمصار المتطرفة كخراسان وجنوبى الجزيرة العربية والمغرب لنشر المذهب الإباضى وإقامة دولة أباضية خالصة ، وأسفرت هذه الجهود عن فشل الدعوة في خراسان ، ونجاحها في الجزيرة العربية والمغرب .

ففى جنوبى الجزيرة العربية ، قامت دولة أباضية ضمت عمان واليمن وبعض أقاليم الحجاز برئاسة أبى عبد الله بن يحيى الكندى ، المعروف بطالب الحق ، والتي سقطت سنة 130 هـ (748 م) غير أن فلول الإباضية تمركزوا فى حضر موت بزعامة الجلندى الذى قتل سنة 134 هـ على يد الجيوش العباسية (624) . ولم يحل ذلك دون قيام دويلات للإباضية فى عمان . كان

(621) ساق بكر بن حماد أبياتا من الشعر امتدح بها أبا العيش تدلل على هذه الصلة ، منها :

سائل زواغسة عن طعان سيونه ورباحه نى العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها والخيل تفرغ فى الوشيح الذيل

انظر : النفوسى : صفحة 70 .

(622) النفوسى : صفحة 74 .

(623) نفس المصدر : صفحة 77 .

(624) ابن الاثير : ج 5 ص 145 ، 169 ، أحمد امين : ضحى الاسلام : ج 3 ص 338 .
ولا صحة للرواية القائلة بمعامرة الجلندى لإمامة عبد الرحمن بن رستم . انظر :
أطيش : الامكان . صفحة 107 .

آخرها امامة الصلت بن مالك التي دالت سنة 280 هـ (625) . (896 م) . وكانت هذه الحكومات الاباضية في عمان على نسق الدولة الرستمية في المغرب ومعاصرة لها . وكانت وثيقة الصلة بجماعة الاباضية الام في البصرة . فضلا عن مشايخ المذهب بمكة والمدينة (626) ولم يكن هناك ثمة ما يحول دون التقاء اباضية عمان واباضية المغرب — واغلبهم من نفوسة (627) — في مواسم الحج (628) وان كنا نشك في وجود صلات وثيقة بينهما ، فالمصادر خلو من ذلك تماما في الوقت الذي تزخر فيه بالكثير عن صلات اباضية البصرة بعمان وتاهرت وحرصهم على دعم الحكم الاباضى فيها (629) .

لقد ظل التنظيم السياسى السرى لاباضية البصرة قائما يتداول رئاسته فقهاء المذهب جيلا بعد جيل رغم عنف الضربات التي كالحا بنو العباس للخوارج في المشرق . واستمرت صلاتهم باباضية المغرب ابان مرحلة الثورة وبعدها ، لما جنحوا الى الاستقرار السياسى واقاموا دولة بنى رستم .

وفي كلتي المرحلتين دأبوا على دعم اباضية المغرب ماديا وروحيا ، فأرسلوا اليهم الاموال ، واقتوهم في مشاكلهم السياسية والمذهبية ، وتدخلوا لنسوية خلافاتهم بابداء النصائح وارسال البعوث . كما حرص زعماء اباضية المغرب على الاستنارة بخبرة شيوخهم المشاركة في السياسة والحكم والاستزادة من تبحرهم في العلم وتفقههم في المذهب ، فدأبوا على انفاذ بعوثهم للدراسة على مشايخ البصرة ، وحكموهم فيما عن لهم من مشاكل وخلافات ، واستمدوا منهم الكتب والتأليف وخاصة ما تعلق منها بالمذهب الاباضى .

وقد سبقت الاشارة الى دور ابى عبيدة مسلم بن ابى كريمة في التنظيم والاعداد لامامة ابى الخطاب عبد الاعلى بن السمع ، ومتابعته احوالها ، وحرصه على تجنيب اباضية المغرب الخلاف والشقاق الذى

(625) المسعودى : مروج الذهب : ج 4 ص 245 .

(626) الوسيانى : سر ابى الربيع ورقة 3 ، Masqueray : Op. Cit. P. XIV

(627) الوسيانى : نفس المصدر والصحيفة .

(628) يذكر مارسيسه أنه عن طريق هؤلاء الحجاج انتقلت بعض الانباط الفنية من بلاد المغرب الى مصر ، وخاصة تلك التقاليد الفنية المتعلقة بكنائس المغرب ، فقد وجدت طريقها الى الاديرة المصرية بعد تلونها بلون قبطى خاص . انظر :

La Berberie Musulmane. P. 116.

(629) الشماخى : صفحة 114 .

سببته مسألة الحارث وعبد الجبار .

وبديهي أن تتوطد هذه الصلات بقيام دولة بنى رستم ، وحسبنا أن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم تتلمذ في حلقة أبى عبيدة بالبصرة ، ونجاحه في تأسيس دولة اباضية بالمغرب اعتبر نصرا لاباضية المشرق ايضا ، فقد نظروا اليه باعتباره « امام الظهور » (630) لسائر اتباع المذهب في كافة أرجاء العالم الاسلامي .

ويبدو ان جماعة هائلة من اباضية الشرق هرعوا الى تاهرت بعد انشائها هروبا من بطش بنى العباس ورغبة في العيش في كنف الدولة الرستمية (631) فقد تطلع اباضية الشرق الى قيام دولة لهم تضم المشرق والمغرب معا (632) ، فانبروا يعضدون الدولة الرستمية ، وبادروا بانفاذ المساعدات المالية ليستعين بها عبد الرحمن بن رستم على مواجهة مشاكل دولته آملين ان تكون نواة للدولة الكبرى المنشودة . وليس أدل على تعاطف ابن رستم مع اباضية الشرق من رفضه لمزيد من هذه الاموال حين تدعمت دولته واشتد ساعدها (633) .

كذلك جزعت جماعة المذهب في الشرق لما ظهرت الاضطرابات والانشقاقات في الدولة الرستمية في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن وخاصة ما مس الجانب المذهبي منها ، كانشقاقات النكار والخلفية وما انتهت اليه من افتراق الاباضية في المغرب . وجدير بالتنويه ان المتخاصمين كانوا يحتكمون في خلافاتهم الى مشايخ المذهب في الشرق ، فقد هادن يزيد ابن فندين — زعيم النكار — الامام عبد الوهاب ريثما ترد فتوى المشاركة حول الامامة المشروطة ، وسياسة الامام في تنصيب عماله (634) .

كما احتكم الامام عبد الوهاب وخلف بن السمع الى فقهاء المشاركة في مسألتى تعدد الائمة وحق الرعية في اختيار عمالها (635) . ولم يتوان اعلام المذهب وفقهائه عن البت في تلك المسائل او القضايا . وعلى الرغم مما تصوره المصادر الاباضية من أن فتاوى المشاركة كانت في صالح الامامة ، فلا نعدم وجود ما يشير الى استيائهم من سياسة عبد

(630) أبو زكريا : السيرة : ورقة 18 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 25 .

(631) انظر ابن ناويت دولة الرستمين : ص 109 .

(632) ابن الصغير : صفحة 10 .

(633) نفس المصدر : ص 14 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 21 .

(634) أبو زكريا : ورقة 15 ، الشماخي : السير : ص 146 .

(635) الشماخي : السير : صفحة 181 .

الوهاب وانتهاكه تعاليم المذهب وخروجه على أحكامه (636) . وعلى أية حال ، فإن حرصهم على تحاشي الشقاق ورأب الخلاف أفضى بهم الى تهدئة الخواطر بإسداء النصح لاطراف النزاع جميعا (637) .

كان حرص رؤساء التنظيم الام في البصرة على استمرار الامامة في تاهرت ودعمها شغلهم الشاغل ، فقد أفتوا بجواز تقاعد الامام عن الحج حرصا على سلامته (638) ، كما كلفوا أنفسهم مشقة نسخ آلاف التأليف والتصانيف لتزويد المكتبة « المعصومة » بتاهرت بها (639) . ولا غرو فقد وجدت هذه الكتب اقبالا لدى اباضية المغرب ، فأقبلوا على دراستها وتصدوا للانحرافات المذهبية وخروج الائمة في سياساتهم عن تعاليم المذهب (640) على هدى ما ورد فيها .

كما حرص المشاركة على انفاذ بعوئهم لتفقد احوال الدولة الرستمية (641) والتدريس في مساجدها (642) والافتاء في مشاكلها وقضاياها (643) . فضلا عن ذلك فقد نقلوا معهم الى المغرب تقاليد الحضارة والفن الشرقي (644) .

ومن المعروف أن المتاجر والسلع الشرقية كانت ترد الى تاهرت عن طريق الاباضية المشاركة ، فيخبرنا الشماخي (645) أن الربيع بن حبيب — خليفة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة — كان يبعث أخاه بصحبة ما يحتاجه الامام عبد الوهاب من صنوف البضائع والسلع الشرقية .

والمصادر خلو من أية اشارة الى استمرار هذه العلاقات بعد امامة عبد الوهاب باستثناء اشارة عابرة أوردها بعض مؤرخي الاباضية (646) عن اهتمام أفلح بن عبد الوهاب بتوالييف اعلام المذهب من المشاركة —

(636) الشماخي : السير ص 147 .

(637) انظر : ملحق رقم (4) .

(638) أبو زكريا : ورقة 23 .

(639) البرادي : رسالة في بعض كتب الاباضية . ورقة 207 ، الشماخي : السير . ص 162 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 26 .

(640) الوسياني : سير أبي الربيع ورقة 79 .

(641) الشماخي : السير . صفحة 165 .

(642) نفس المصدر : صفحة 279 .

(643) نفس المصدر : ص 228 ، الوسياني : ورقة 2 .

(644) Marçais, G : La Berberie musulmane. P. 116.

(645) السير . صفحة 161 .

(646) انظر : الوسياني : ورقة 70 ، البرادي : رسالة في بعض كتب الاباضية ورقة 206 .

وخاصة ما كتبه أبو سفيان محبوب بن الرحيل — وحضه رعيته على اتباع سننهم . ولو صح ذلك ، لكان أفلح آخر أئمة بنى رستم الذين اعترف جمهور الاباضية باممتهم كما يذهب الوردجاني (647) . ونعتقد أن استياء اعلام المذهب في الشرق من خروج عبد الوهاب على تعاليم المذهب تطور الى رفض وانكار لامامة خلفائه ، فقد تحولت الامامة الى ملك وراثي ، وضاعت هيبتها ، وامتهنت رسومها ، فكان ذلك قمينا بعزوف اباضية الشرق عن مناصرة الدولة الرستمية والاتصال بحكامها .

2 — بنو رستم وأمويو الاندلس :

اتخذت علاقات بنى رستم بأموي الاندلس طابعا وديا برغم اختلافهما مذهبيا ، فقد أوجبت الضرورة السياسية عقد أواصر الصداقة بين تاهرت وقرطبة ، اذ اشترك الطرفان في عداء بنى العباس والاغالبية والادارسة (648) ، وكان الاغالبية على وجه الخصوص خطرا عليهما معا ، فلم يكن ثمة بد من اتصال بنى رستم باحدى القوى الكبرى المعاصرة ، كما كان أمويو الاندلس ينشدون عقد صلات مع القوى المناوئة لبنى الاغلب في المغرب ومن ثم التقى الطرفان حول مصالحهما السياسية المشتركة رغم خلافاتهما المذهبية والتاريخية .

وقد بالغ فورنل (649) وماسكراى في تقدير مدى ما وصلت اليه هذه العلاقات ، فبالا بوجود « تحالف سياسى رسمى » بين تاهرت وقرطبة ضد عدوهما المشترك ، وبرر فورنل ومارسيه (650) ذلك بما « كان من تحالف تقليدى ، بين أموي الاندلس وبين بربر زناتة الذين كانوا عصب الدولة الرستمية » والثابت أن دولة بنى رستم قامت على اكتاف قبائل نفوسة وهوارة ولواتة ولماية وغيرها (651) ، بينما تحولت قبائل زناتة من مغراوة وبنى يفرن — الضاربة في شمالي الدولة الرستمية — عن ولائها لبنى رستم ودانت بالطاعة للادارسة (652) . ومن ناحية اخرى لم تتعد علاقات بنى رستم ببنى أمية بالاندلس علاقات الود وتبادل السفارات

(647) الدليل لاهل العقول ج 2 ص 76 .

(648) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 1 ص 32 ، Provençal : Op. Cit. P. 245

(649) انظر : Les berberes Vol. I. P. 514, Chronique d'Abou Zakaria. P. 220.

(650) انظر : Loc. Cit, La berberie musulmane et l'Orient P. 104.

(651) النيسوى : صفحة 4 .

(652) ابن أبى زرع : ص 69 ، سلفاتوركوسا : تواريخ مدينة ناس : ص 4 .

والهدايا ، ولم تصل قط الى درجة التحالف أو القيام بعمل سياسي أو عسكري مشترك ضد أعدائهما ، رغم تعرض الدولة الرستمية لاغارات الاغالبية والادارسة ، وتهديد الاغالبية للنفوذ الاندلسي في حوض البحر المتوسط الغربى .

وقد أرجع بعض (653) المؤرخين بداية هذه العلاقات الى وقت مبكر وذكروا أن عبد الرحمن بن معاوية الاموى « لاذ ببلاط بنى رستم حينما من الدهر قبل اجتيازه الى الاندلس » ، وأكد مرسييه (654) — اعتمادا على المقرئ — أنه قضى زمنا في تاهرت ونواحيها قبل رحيله الى الاندلس . وقول مرسييه هذا صحيح اذا كان يعنى تاهرت القديمة ، وليست تاهرت التى أقامها ابن رستم سنة 161 هـ (778 م) فمن الثابت أنه نزل عند قبيلة نفزة الضاربة بتلك النواحي وقضى هناك زمنا عند أخواله (655) ، ثم جاز الى الاندلس سنة 138 هـ (755 م) (656) . وقد حاول الميلى (657) تبرير قول دوزى ومؤنس ، فذكر أن عبد الرحمن بن رستم أجاز عبد الرحمن الاموى الى قبائل المغرب الاوسط اعتمادا على نفوذه هناك قبل تأسيسه تاهرت . لكن رواية دوزى ومؤنس وتفسير الميلى غير صحيحة ، فعبد الرحمن بن رستم فضلا عن عدم تأسيسه دولته فى الوقت الذى وطأ فيه عبد الرحمن الاموى أرض المغرب سنة 133 هـ (751 م) ، لم يكن له نفوذ فى بلاد المغرب الاوسط آنذاك ، فصلاته بقبيلة لماية بالمغرب الاوسط لم تقم الا بعد ولايته القيروان كنائب لآبى الخطاب المعافى سنة 141 هـ (658) (758 م) ويخيل الينا أن الامر التبس على دوزى ومن نقل عنه ، فخلطوا بين شخصيتى عبد الرحمن بن رستم وعبد الرحمن بن حبيب أمير افريقية فى ذلك الحين (659) .

والمعقول أن تكون تلك الصلات قد بدأت بعد رحيل عبد الرحمن بن

-
- (653) انظر Dozy : Spanish Islam. P. 166 مؤنس : فجر الاندلس : ص 664 .
(654) انظر : Histoire de l'établissement des Arabes ... P. 76 .
(655) كانت أم عبد الرحمن من سبأيا نفزة ، انظر : ابن عذارى : ج 2 ص 62 . ابن الأبار : الحلة السراء : ج 1 ص 35 . وقد ذكر ابن الخطيب أنه نزل على مغيلة وليس على نفزة . انظر : اعمال الاعلام : ج 2 ص 8 .
(656) ابن الأبار : صفحة 35 .
(657) انظر : تاريخ الجزائر ، ج 2 ص 16 .
(658) ابن خلدون : ج 6 ص 121 . مارسية : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الإسلامية . صفحة 92 .
(659) ابن عذارى : ج 2 صفحة 60 .

رستم الى المغرب الاوسط واختطاطه مدينة تاهرت ، فيبدو ان ابن رستم استعان بخبرة الاندلسيين في انشاء المدينة وتعميرها ، ولا غرو فقد سمي احد ابواب المدينة « باب الاندلس » (660) ، وان كان بروفنسال (661) قد تشكك في وجود مثل تلك الصلات المبكرة . لكن وجود مغاربة اباضية في بلاد الاندلس اذ ذاك يرجح ما ذهبنا اليه ، فقد غص اقليم الجزيرة بالكثيرين منهم ، ومنهم من تقلد بعض الوظائف العامة في امارتى عبد الرحمن الاول وابنه هشام (662) . ويبدو ان نفوذ هؤلاء الاباضية — ومنهم بعض افراد البيت الرستمى — (663) قد ازداد بدرجة استثارت الاندلسيين في عهد الحكم الاول ، فانبرى الشعراء يهيبون به البطش بهم (664) ، فخرج اليهم بنفسه ونزل الجزيرة « وحمل السيف على اكثر اهلها » (665).

وهذا يفسر قول ابن حيان (666) بترحيب عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم بالثائرين على الحكم الاموى ، وتشجيعه عبد الله البلاسى — عم الحكم — للوثوب على الامارة في قرطبة وانتزاع الحكم من ابن اخيه .

وزالت تلك الجفوة بين تاهرت وقرطبة بعد وفاة الحكم سنة 206 هـ (821 م) ، وعادت الصلات الودية الى سابق عهدها في عهد عبد الرحمن ابن الحكم (306 — 238 هـ) (667) (821 — 853 م) ، فقد نقل بروفنسال (668) عن ابن حيان ان عبد الوهاب الرستمى ، اوفد سفارة من ابنائه الثلاثة — عبد الغنى ودحيون وبهرام — لتجديد اواصر الود مع عبد الرحمن ، وان الاخير رحب بهم وابتهج لمقدمهم . وذكر ابن سعيد (669) انه انفق عليهم « ألف ألف دينار » فضلا عن الهدايا والالطاف التى انعم بها عليهم قبل رحيلهم الى بلادهم .

واستمرت صلات المودة بعد موت عبد الوهاب بن رستم ، فعول

-
- (660) البكرى : ص 66 ، التلشندي : ج 5 ص 111 .
(661) انظر : Histoire de l'Espagne Musulmane. Vol. I. P. 241.
(662) ابن التوطية : صفحة 71 .
(663) من هؤلاء محمد بن سعيد بن رستم الذى تقلد ولاية شذونه ، ومحمد بن عبد الرحمن ابن رستم ، وقد خدم في جند الحكم بن هشام .
(664) حث الشاعر عباس بن ناصح الحكم على ذلك بقوله :
صل بالاييل الذى ربوا لفتنتهم من قبل ان يرحلوه نحونا جذعا
(665) ابن التوطية : صفحة 71 ، 72 .
(666) انظر : Provençal : Op. Cit. P.P. 152, 244.
(667) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج 4 ص 493 .
(668) انظر : Histoire de l'Espagne musulmane. Vol. I P. 245.
(669) المغرب فى حلى المغرب : ج 1 ص 48 .

عبد الرحمن بن الحكم على « وصل البعوث الى دار المغرب » (670) .
فوجدت في بلاط أفلح بن عبد الوهاب أيما ترحاب . وقرب الأمير الاندلسي
اليه كثيرين من آل البيت الرستمى ، واتخذ منهم الوزراء والحجاب والقواد ،
وتعرف أن شخصا يدعى عبد الرحمن بن رستم ولى الحجابة لعبد الرحمن
الثانى (671) ، وقيل الوزارة (672) في رواية أخرى .

ويخبرنا ابن الدلائى (673) أن الأمير الاندلسي فرض قائده محمد
ابن سعيد بن رستم سنة 229 هـ (844 م) في قتال المجوس ، وقد تمكن
بالفعل من النجاح في مهمته (674) .

وتوطدت عرى الصداقة بين أفلح بن عبد الوهاب ومحمد بن عبد
الرحمن الاندلسي (238 — 273 هـ) (675) (853 — 887 م) ، فقد
استقرت امور الاندلس في عهده وازدهرت احوالها (676) ، وتطلع نحو
بلاد المغرب لتدعيم صلته مع تاهرت وسجلماسة (677) . وقد زعم
بروفنسال (678) أن الأمير محمد بعث بهداياه الى تاهرت لما تقلد أفلح
ابن عبد الوهاب الامامة . كما بعث اليه بأخبار انتصاره على المجوس
عند نهر الوادى الكبير سنة 230 هـ (855 م) لكن أفلح تولى الامامة في
تاهرت سنة 207 هـ (822 م) ولم يتقلد الأمير محمد حكم الاندلس قبل
سنة 238 هـ (853 م) . وهذا أيضا مما يخطىء قوله عن هزيمة المجوس
على يديه ، فالراجع أن ذلك لم يحدث الا سنة 246 هـ (679) (861 م) .
ولو صح أن الأمير الاندلسي أرسل الى صديقه الرستمى بأنباء انتصاراته
سنة 246 هـ ، فإن أفلح كان سابقا في هذا الصدد ، إذ بادر بإرسال خبر
احراقه مدينة العباسية التى بناها الاغالبة سنة 239 هـ (854 م) الى

-
- (670) ابن سعيد : نفس المصدر : صفحة 46 .
(671) نفس المصدر : صفحة 50 ، Marcais, G : La Berberie musulmane. P. 104
(672) مارسويه : مادة بنى رستم — دائرة المعارف الاسلامية : ص 93 ،
Farouhy : Op. Cit. P. 15.
(673) نصوص من الاندلس ص 99 ، 100 .
(674) نفس المصدر والصحيفة ،
(675) ابن عبد ربه : العقد الفريد : ج 4 ص 493 .
(676) نفس المصدر : ص 495 ، المقرئ : نفح الطيب ج 1 ص 329 .
(677) ابن عذارى : ج 2 ص 161 ، محمد عبد الله عنان : دولة الاسلام في الاندلس
ج 3 صفحة 23 .
(678) أنظر : Histoire de l'Espagne musulmane. Vol. I P.P. 245, 281.
(679) أنظر : Condé : Op. Cit. P. 299 .

الامير محمد « تقربا اليه » فبعث اليه الاموى مائة الف درهم (680) دليلا على اغتباطه وامتنانه ، وتأكيذا لاواصر الصداقة في مواجهة الخطر المشترك (681) .

وظلت هذه العلاقات الودية قائمة بعد موت افلح على الرغم مما تعرضت له الدولتين من خطر الفوضى والتمزق السياسى ، ومع ذلك فلا محل لتصديق قول ابن عذارى (682) — ومن نقل عنه (683) — عن دخول الامام الرستمي أبى اليقظان محمد فى طاعة الامير محمد الاندلسى . والمعقول ان يكون الامام الرستمي قد ناشد صديقه أمير قرطبة العون ضد خصومه ليس الا وعلى أية حال ، لم يظفر أبو اليقظان بطائل ، اذ غرقت الامارة الاندلسية فى ذلك الحين وحتى بداية حكم عبد الرحمن الناصر فى مشاكلها الداخلية (684) . على أن تقاعس الامير محمد عن مساعدة صديقه لم يكد صفو علاقاتهما ، فظلت صلات الود مرعية بين الطرفين ، وليس أدل على ذلك من اسراع عمر بن حفصون — الشائر على أمراء قرطبة — بمغادرة تاهرت خشية ان يقبض عليه أمامها ويسلمه لصديقه أمير قرطبة ، وكان ابن حفصون قد نزل تاهرت لانذا بصديق له من بلدة رية ومقيم بتاهرت (685) .

بل نعتقد أنه برغم تدهور احوال الامامة الرستمية بعد أبى اليقظان محمد ، وانشغال الامارة الاموية بالاندلس بمواجهة الثورات التى تفاقمت خلال عهده. المنذر بن محمد وعبد الله بن محمد ، فقد أوجبت الضرورة السياسية مزيدا من توثيق الصلات بسين تاهرت وقرطبة . اذ استبدل الخطر الاغلبى بخطر جديد لاحت نذره مهددا كافة القوى السياسية فى المغرب والاندلس على السواء ، وهو الخطر الفاطمى . وهذا ما حدا بأمرأ قرطبة الى بث عيونهم فى بلاد المغرب والاستعانة بأصدقائهم حكام تاهرت فى تقصى أخبار الشيعة ومتابعة نشاطهم والاعداد لمواجهةهم (686) .

(680) البلاذرى : فتوح البلدان ص 277 .
(681) لا نوافق فورنل قوله بأن هذا الحادث يكشف عن الخيوط الاولى للعلاقات بين تاهرت وقرطبة . انظر :
Les Berbers. Vol. I. P. 514.

(682) البيان المغرب . ج 2 صفحة 161 .
(683) انظر : ابن الخطيب : أعمال الامام ج 2 ص 22 ،
Dozy : Op. Cit. P. 317 Provencal : Op. Cit. P. 281.

(684) انظر المقرئ : ج 1 ص 345 وما بعدها .
(685) ابن القوطية : صفحة 110 .

وبديهي أن يفكر الرستميون الاواخر في الاستعانة بقرطبة للقيام بعمل مشترك ضد الخطر الشيعي (687). لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد سقطت الدولة الرستمية بظاهر سنة 297 هـ (909 م) ، وبعدها سقط بنو مدرار والادارسة ، وفتح المغرب برمته على يد الشيعة الفاطميين ، ولم يتم حكام قرطبة بجهود لجابتههم الا في عهدى عبد الرحمن الناصر (678) والحكم المستنصر ، ولا يخفى ما كان من اتصال الحكم المستنصر بالاباضية النكار الذين تصدوا لمقاومة الفاطميين بعد سقوط الدولة الرستمية (689).

وهكذا — تأثرت علاقات بنى رستم — الى حد كبير — بظروف دولتهم الجغرافية ومذهبهم الدينى ومصالحهم السياسية والاقتصادية .

(686) ابن عذارى : ج 1 صفحة 150 . محمود مكي : التشيع في الاندلس : ص 111.
(687) Brunschvig : Op. Cit. P. 17.
(688) ابن خلدون : ج 4 صفحة 41 .
(689) ابن حيان : المتنبس في ذكر بلد الاندلس ص 192 .

الباب الرابع

الخوارج والفاطميون في بلاد المغرب

أولا :

الصفريّة والفاطميون

أ - الفاطميون وسقوط دولة بني مدرار

ارتبطت نهاية دولتي الخوارج في المغرب بظهور الدعوة الفاطمية ،
تقيام الدولة الفاطمية سنة 297 هـ (909 م) تم على انقراض الدول
المستقلة في المغرب ، ومن بينها دولتي بني مدرار وبني رستم الخارجيتين .

ومن المعروف ان بلاد المغرب كانت ميدانا للدعوة الفاطمية منذ وقت
مبكر ، فقد عهد محمد الحبيب المقيم بسلمية — من أرض حمص — الى
اثنين من دعائه ببث دعوته في بلاد كتامة ، ونجحا في التمهيد لما قام به
أبو عبد الله الشيعي داعية عبید الله المهدي فيما بعد (1) . واستطاع
أبو عبد الله الشيعي الذي نزل بلاد المغرب سنة 280 هـ (893 م) ان
ينشر دعوته بين قبائل كتامة ، كما نجح في اعداد جيش (2) منهم تمكن بفضل
من مناجزة دولة بني الاغلب في افريقية سنة 289 هـ (902 م) ، ولم يمض
طويل وقت حتى دانت لنفوذه معظم اقاليمها الغربية .

وبعث أبو عبد الله في استدعاء مولاة عبید الله المهدي سنة 292 هـ
(905 م) فخرج اليه « يتصدى للسلطان ويخاطر في طلب الملك » (3)
برفقة خاصته وثقة رجاله (4) . وأفلت من عمال بني العباس وعيونهم في

(1) ابن الاثير : ج 6 ص 127 .

(2) ابن مغازي : ج 1 ص 172 .

(3) ابن الأبار : الحلة السيرة ج 1 ص 191 .

(4) اصطحب المهدي في رحلته ابنه أبا القاسم وفيروز دامى دعائه ، وطيب ، وأبا العباس
محمد بن زكريا وأبا يعقوب القهرمانى ، ومحمد بن عزيزة ، وجعفر الحاجب .
انظر : اليماني : سيرة جعفر الحاجب ص 110 .

مصر والمغرب لما بذله من أموال وهبات (5) ، فضلا عن تشييع بعض هؤلاء العمال لآل البيت (6) . ووصل المهدي الى طرابلس ، وانفذ أبا العباس محمد بن زكريا — أخ أبا عبد الله الشيعي — بصحبة بعض رجال كتامة الى أخيه ليعرفه بوصوله ، واثّر الانتصار بطرابلس . لكن أبا العباس وقع في أسر بني الأغلب (7) ، فاضطر المهدي لمغادرة طرابلس الى قسطنطينية — ببلاد الجريد — واحجم عن التوجه الى الشيعي بكتامة خوفا على حياة أخيه (8) . ولما علم بأن زيادة الله الأغلب أرسل كتابا الى عامل قسطنطينية في طلبه ، غادرها على التو ، ويمم وجهه شطر سجلماسة في اقاصي الصحراء ليأمن شر الاغلبة وعمالهم (9) .

وكان على المهدي ان يجتاز اراضي الدولة الرستمية كيما يصل الى سجلماسة ، فمر بوارجلان — شمالي سدراته — وهناك اكتشف أمره ، ولقى عنتا من أهلها (10) ، فغادرها الى سجلماسة (11) .

ونزل المهدي بسجلماسة على أميرها اليسع بن مدرار ، ونعم هناك بحياة آمنة لما قدمه اليه من أموال وهدايا ، « فقربه اليسع وكف عنه » (12) ، كما حظى باحترام أهل المدينة واجلالهم (13) ، وعاش طليقا منعما فسكن القصور واقتنى الخدم والاتباع (14) ، ويخيل إلينا ان التشييع وجد طريقه الى سجلماسة قبل مقدم المهدي ، ومن المؤكد أنه لم يعدم أنصارا وأتباعا بين سكانها ، فذلك ما توحى به بعض الروايات الشيعية (15) ، وغير الشيعية (16) ولا غرو فقد كانوا يلجأون اليه للافتاء

(5) انظر : افتتاح الدعوة ص 42 ، 43 بلاحق كتاب Ivanov : Ismaili tradition.

(6) انظر : شرح الاخبار ج 5 ص 31 بنفس المصدر السابق .

(7) اليماني : سيرة جعفر ص 116 .

(8) افتتاح الدعوة ص 43 .

(9) النيسابوري : استتار الامام ورقة 14 ، اليماني : ص 116 ، افتتاح الدعوة ص 43 ، ابن الأبار : ج 1 ص 191 ، المقرئ : اتماظ الحنفا ص 84 ، المعين : عقد الجمان ج 15 ورقة 153 ، Biquet ; Op. Cit. P. 69.

(10) أبو زكريا : ورقة 35 .

(11) اليماني : ص 119 .

(12) شرح الاخبار ص 31 ، ابن الأثير : ج 8 ص 13 ، ابن خلدون ج 3 ص 363 المقرئ : اتماظ ص 84 ، الخطط ج 1 ص 350 .

(13) افتتاح الدعوة ص 43 ، النويري : ج 26 ورقة 32 ، حسن إبراهيم : عبيد الله المهدي ص 14 ، De Goeje : Memoires sur les carmathes de Bahrin. P. 66.

(14) اليماني : ص 122 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42

فيما عن لهم من 'مسائل فقهية ودينية (17) ، الا ان ابا زكريا (18) ، بالغ في اظهار مكانة المهدي في سجل ماسة الى حد الزعم بتولية الوزارة لليسع بن مدرار ، ومبايعة اهل بسجل ماسة له بالامارة بعد موت اليسع ، وامتداد نفوذه حتى مدينة فاس عاصمة الادارسة والظاهر ان هذه الرواية تخلط بين مكانة المهدي ابا ان سنى اقامته الاولى في المدينة وبين نفوذه غداة توليه الخلافة سنة 297 هـ (909 م) ومع ذلك فلا تخلو هذه الرواية من دلالة على ما تمتع به المهدي في سجل ماسة من هبة ونفوذ خلال السنوات الثلاث الاولى من اقامته بها .

ولكن جد من الاحداث ما جعل اليسع بن مدرار ينكب المهدي ورجاله ويودعهم السجون . والمصادر تختلف في اسباب ذلك ، فيذهب البعض (19) ، الى ان اليسع قبض على المهدي على اثر رسالة من الامير الاغلبى زيادة الله الثالث ، وقيل من الخليفة العباسى المعتضد (20) ، او المكتفى (21) ، بينما رجح آخرون (22) ، ان الرسالة وصلته من الخليفة العباسى والامير الاغلبى معا . ومهما كان الامر فهذه الرسائل لا تنهض دليلا على ولاء اليسع بن مدرار لامير افريقية او لخليفة بغداد كما ذهب (23) البعض ، وانه بسبب هذا الولاء قبض على المهدي وأودعه السجن ، فثمة احتمال بان يكون ليهود سجل ماسة دور في هذا الصدد ، والظاهر انهم أوعزوا الى

(15) ذكر اليماني قصة مؤداها ان القائم بن المهدي وضع رجله في عين ماء آسنة فجرى الماء فيها مدرارا . فلما رآه البستاني صاح « انى بالله وبالمهدي » فاستفسر منه المهدي عن قوله ، فاجابه بانه عرف الامر من اجداده ، فامر به المهدي بالكتمان . انظر : سيرة جعفر ص 120 .

(16) اورد الدرجيني قصة اخرى مضمونها ان احد جيران المهدي بسجل ماسة قص عليه حلما وطلب منه تفسيره ، فلما اسره قبل الرجل يده قائلا « يا امير المؤمنين انت مولاي » : انظر : طبقات الاباضية ج 1 ورقة 42 .

(17) ابو زكريا : ورقة 36 .

(18) نفس المصدر والصحيفة .

(19) انظر : افتتاح الدعوة ص 44 ، ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، ابو الفدا ج 2 ص 65 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 ، المقرئى : تعاظم الحنفا ص 84 ، العيني : ج 15 ورقة 153 ، ابن ابي دينار ص 49 ، De goeje : P. 66.

(20) ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، المقدمة ج 1 ص 240 ، التلشندي : ج 5 ص 266 .

(21) ابن خلدون : ج 3 ص 363 ، الباجى المسعودى : الخلاصة النقية ص 37 .

(22) شرح الاخبار ج 5 ص 31 .

(23) انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، المقدمة ج 1 ص 240 ، التلشندي : ج 5 ص 266 ، Bel : Op. Cit. P. 156.

اليسع بالقبض عليه (24) ، بعد أن أخبروه أن أبا عبد الله الشيعي قام بدعوته من أجله ، فقد عاشت اقلية يهودية في دولة بنى مدرار وهيمنت على مناجم الفضة في درعة وتجارة الذهب مع الجنوب (25) . ومن الطبيعي أن يجدوا في الخطر الشيعي تهديدا لمصالحهم ، ولهذا تعرضوا للعسف والاضطهاد على اثر سقوط سجلماسة في يد الشيعة (26) ، وسواء اكانت الخلافة وعمالها أو يهود سجلماسة هم الذين نبهوا اليسع الى ضرورة القبض على المهدي ، فالذي لاشك فيه أن الامير الدراري استجاب للامر حرصا على سلامة دولته ليس الا ، بعد أن أدرك أن أبا عبد الله الشيعي يدعو اليه . فكان قبض اليسع على المهدي اذن من قبيل التوافق غير المقصود بين اهداف العباسيين والاغلبية وبين مصالح بنى مدرار التي تهددها خطر الشيعة الاسماعيلية .

لقد كان اليسع يدرك أن المهدي علوي (27) ، لكنه لم يقف على حقيقة علاقته بالدعوة الشيعية في المغرب (28) . فلما نبه اليها : استدعى المهدي وابنه « واستراب بهما » (29) ، وسأل المهدي عن « نسبه وحاله ، وهل اليه قصد أبو عبد الله ؟ » ، فاعترف المهدي بالنسب اذ لم يسعه انكاره « لكنه انكر صلته بأبي عبد الله الشيعي ، وكذلك فعل ابنه » (30) . ثم امتحن رجاله بالعذاب ، فلم يعترفوا (31) ، وهم باطلاق سراحهم لولا اعتراف أحدهم ويدعى أبو يعقوب القهرماني (32) . عندئذ تحفظ على المهدي في منزل اخته وسجن أبا القاسم في إحدى حصون سجلماسة (33) ، « ولم يكن منه في حقهما ما يكره » (34) ، فكانا مبجلين معظمين في منزليهما (35) . وليس ادل على ذلك من السماح للمهدي بالاتصال من

-
- (24) مجهول الاستبصار ص 202 .
(25) نفس المصدر والصحيحة .
(26) نفس المصدر والصحيحة .
(27) افتتاح الدعوة ص 44 ، Momour : Op. Cit. P. 107.
(28) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 272 .
(29) ابن خلدون : ج 6 ص 131 .
(30) افتتاح الدعوة ص 44 شرح الاخبار ص 32 .
(31) النويري : ج 26 ورقة 32 .
(32) اليماني : ص 122 .
(33) افتتاح الدعوة ص 44 ، الاستبصار ص 204 .
وذكر ابن عذارى أن المهدي وابنه سجنا في غرفة واحدة بمنزل مريم بنت مدرار .
انظر البيان المغرب ج 1 ص 210 .
(34) النويري : ج 26 ورقة 32 .
(35) اليماني : ص 122 .

سجنه ببعض اصحابه وأنصاره ، فكان هؤلاء همزة الوصل بينه وبين داعيته ابي عبد الله الشيعي في كتامة .

وجدير بالتنويه أن الشيعي نجح في تتبع أخبار المهدي منذ وصوله الى بلاد المغرب ، « فكانت كتبه تترى بطلبه حيثما نزل » (36) ، وكانت رسله على اتصال به بعد نزوله سجنه ، تحمل اليه الاموال والهدايا وتخبره بأنباء انتصاراته في حروبه مع الاغالبية (37) . ولم ينقطع هذا الاتصال بعد سجنه ، فقد كتب الشيعي الى المهدي بعد هزيمته لجيش الاغالبية بقيادة ابراهيم بن حبشى ، وسير الكتاب مع أحد ثقاته ، فدخل السجن متخفيا في زي قصاب يبيع اللحم ، وأوصل الكتاب للمهدي (38) . وذكر جعفر الحاجب (39) أن المهدي اصطفى أحد التجار القيروانيين في سجنه ، ويدعى المطلبى ، وكان متشيعا ، وعهد اليه بمهمة مرافقة الشيعي عند قدومه لتحريره من سجنه بسجنه . ويخبرنا صاحب كتاب الاستبصار (40) أن المهدي لما أودع السجن بعث لداعيته بكتامة يستنفره لانقاذه على أن الشيعي ما كان بمكنته أن يخف لنجدة المهدي قبل انتهاء صراعه مع الاغالبية ، فلما قضى على حكمهم في افريقية سنة 296 هـ (908 م) شرع على التو في قتال بنى رستم وبنى مدرار (41) .

استخلف الشيعي على القيروان اخاه ابا العباس وجعل معه ابا زاكى تمام بن معارك (42) وخرج من رقادة في منتصف رمضان من نفس العام في جيوش عظيمة يرافقه كبار اصحابه (43) . فاهتزت قبائل المغرب الاوسط لخروجه ، وخافته زناته ، وبادرت القبائل بالدخول في طاعته (44) . ثم عرج على تاهرت واستولى عليها (45) وهو في طريقه الى سجنه .

(36) اليسابورى : استتار الامام ورقة 14 مخطوط .

(37) ذكر ابن عذارى أن أحد الهاشيمين بسجنه اهدى اليه الهدايا كثيرة مما بعثها الشيعي اليه ، وأمره « بالتستر وعدم الظهور في المعيشة واللبس » خشية العيون والرقباء . انظر : البيان المغرب ج 1 ص 187 ، 188 ،

Vonderheyden : Op. Cit. P. 296.

(38) ابن الاثير : ج 8 ص 13 ، ابن خلدون : ج 4 ص 35 ، النويرى : ج 26 ورقة 32 .

(39) سيرة جعفر ص 125 .

(40) مجهول : ص 204 .

(41) النويرى : ج 22 ورقة 44 .

(42) اليبانى : ص 123 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، أبو الفدا : ج 2 ص 65 .

(43) اليبانى : نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 209 .

(44) ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 .

(45) ابن عذارى : ج 1 ص 210 .

ويعث الشيعة برسله الى اليسع يتلطفه ويعدده بالانصراف عن بلاده ، اذا ما أطلق سراح المهدي (46) ، فقتل اليسع الرسل ولم يجبه الى طلبه . وعاود الشيعة سياسة الملاينة متجنباً ذكر المهدي « تقية عليه » فقتل اليسع الرسل للمرة الثانية . (47) فلم يجد الشيعة بداً من ضرب الحصار على سجنهم (48) ، وقد اشتهر ببراعته في عمليات الحصار في حروبه حتى لقبه المحدثون (49) بالمحاصر Poliorcete والتحم اليسع بن مدرار بجيوش الشيعة الذي قتل كثيرين من رجاله ، وكاد ان يظفر به لولا حلول الظلام . فعاد بعسكره الى خارج المدينة (50) — مهموماً خوفاً على حياة المهدي ، بينما لاذ اليسع بالهرب (51) .

والواقع ان خلافاً بين المؤرخين حول مصير المهدي ، فمنهم من يؤكد سلامة المهدي لاشتباه اليسع في شخص آخر — يدعى بسطام — واعتقاده بأنه هو الذي يدعوا له ابو عبد الله الشيعة ، فلذلك لم يستجب لنصيحة اصحابه بقتل المهدي ، وأطلقه مع من اشتبه فيهم من الاسرى لينجو بنفسه . ومنهم (53) من ذهب الى ان اليسع قتل المهدي قبل هربه « وان الشيعة حين اقتحم المدينة في صبيحة اليوم التالي ، وجد المهدي مقتولاً وعنده رجل من اصحابه كان يخدمه — قيل انه يهودي (54) — فضاف ابو عبد الله ان تنتفض عليه كتامة ورجاله ، فأخرج الرجل الى العساكر وقال هذا هو المهدي » . وقد تصدى مأمور لتجريح هذه الرواية على أساس عدااء ابن خلكان للفاطميين . وساق في ذلك عدداً من الادلة (55) . ومع

-
- (46) اليماني : ص 123 ، شرح الاخبار ص 33 .
(47) افتتاح الدعوة ص 45 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 ،
المقريزي : اتعاظ الحنفا ص 90 ، المنصوري : زبدة الفكرة ج 5 ورقة 161 ،
الباجي المسعودي ص 37 .
(48) ابن خلدون : ج 3 ص 364 ، النويري : ج 26 ورقة 32 .
(49) Vonderheyden : Op. Cit. P. 305.
(50) انظر :
افتتاح الدعوة ص 45 .
(51) افتتاح الدعوة ص 45 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، المقريزي : اتعاظ الحنفا
ص 290 .
(52) انظر : شرح الاخبار ص 33 ، اليماني : ص 124 .
(53) انظر : ابن خلكان : ج 1 ص 272 ، سعيد بن بطريق : ص 78 ، النويري : ج 26
ورقة 33 ، الخزرجي : ورقة 42 .
(54) مجهول : الاستبصار ص 167 .
(55) هاك موجزا لهذه الادلة :
1) ان عبيد الله المهدي لم يسجن في سجن المدينة ، وانما أودع في بيت مريم ابنة
الامير المدراري ' =

ذلك لا تزال مسألة مصير المهدي من مشكلات التاريخ الاسلامي . والحاصل — وفقا لغالبية المصادر — ان اليسع بن مدرار غادر سجلماسة سرا مع اهله وذويه لاثذا بصنهاجة في جوف الصحراء (56) ، بينما شغل ابو عبد الله الشيعي عنه — الى حين — بتحرير المهدي .

ولدينا روايتان ايضا عن كيفية تحرير المهدي ، احدهما (57) ترجح قدوم المهدي الى داعيته في مقره خارج المدينة والتقاءه به ، والاخرى (58) ، تذهب الى ان اهل سجلماسة خرجوا في الصباح الى الشيعي واخبروه بهروب اليسع ، وارشدوه الى مكان المهدي والقائم ، حيث اطلق سراحهما .

-
- = (2) كان المهدي معروفا لدى اهل سجلماسة ، ولو كان قد قتل ونادى الشيعي باسمه غيره لكشفوا عن هذا الزيف .
- (3) لم يدخل الشيعي بنفسه لتحرير المهدي ، وانما قدم المهدي اليه على ظهر حصان .
- (4) من الصعب ان ينصب الشيعي بديلا عن المهدي وهو برنقة قواده واصحابه وسائر اتباعه .
- (5) لم يكن تنصيب البديل للمهدي امرا ممكنا في وجود ابنه ابي القاسم الذي كان على قيد الحياة .
- (6) لو حدث ذلك ، لما لاذ ابو القاسم بالصمت لان الدعاة في سائر الامصار والذين عرفوا المهدي ما كانوا ليستكتوا عن كشف تلك الخدعة .
- (7) ولو فرض وتفاضى ابو القاسم عن الامر ، وان الشيعي لم يكن يعرف شخص المهدي ، فلا بد وان امرا غريبا كان سيحدث منذ لقاء المهدي المزموم بابي العباس — اخ الشيعي — وام عبيدة الله المهدي اللذين كانا برقادة .
- (8) لو ان اليسع قتل المهدي حقيقة لكان قد اشاع الخبر اثناء هربه بين قبائل الصحراء من قبيل التشنى والانتقام .
- (9) اذا كان هناك ثمة ما يشكك في اصله غير كونه ينتمي الى علي وفاطمة ، لاتخذ الشيعي واخوه سنداً لهما خلال الشهور السبعة التي تأمرا خلالها على المهدي ، فكل ما ناهى به آئذ انه ليس الامام .
- (10) اجماع المؤرخين على ان ابا القاسم ابنه خلفه بعد وراثته .
- (11) كان للمهدي اصدقاء ورفاق في سائر بلاد المشرق والمغرب ، فضلا عن عدد من الرسل والدعاة بكافة ارجاء العالم الاسلامي ملو انه قتل حقا لاشاع هؤلاء وأولئك الامر واصبح معروفا لدى المعاصرين . وعلى ذلك ، فان رواية ابن خلكان لا أساس لها من الصدق
- انظر :

Momour : Polemics on the origin of the fatimi caliphs. P.P 115, 16, 17.

- (56) اليماني : ص 126 ، افتتاح الدعوة ص 45 .
- (57) اليماني : ص 125 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42
- (58) انظر : افتتاح الدعوة ص 45 ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد ص 9 ، ابو اللدا : ج 2 ص 65 ، الاستبصار ص 204 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 والنويري : ج 26 ورقة 32 ، ابن ابي دينار : ص 49 ، المعنى : ج 15 ورقة 154 .

وأيا ما كان الامر ، فبعد تحرير المهدي والاحتفاء به ، انفذت الخيل في اثر اليسع بن مدرار ، وذكر ابن عذارى (59) أن قوما من البربر — يعرفون ببنى خالد — قبضوا عليه وسلموه الى أبى عبد الله الشيعى تقربا اليه .

وسيق اليسع الى المهدي حيث عذب وشهر به في سجناسه هو ومن معه ، ثم أمر المهدي بقتلهم جميعا ، فقتلوا (60) . وصادر المهدي أموال بنى مدرار (61)، ونهبت كتامة المدينة، وأرغم غالب سكانها على مبارحتها (62) ولم تجد نفعا توسلات شيوخها الى المهدي ليكف رجاله أيديهم عنهم (63) . ولقى اليهود — بصفة خاصة — على أيدي المهدي ورجاله عنقا شديدا ، فتعرضوا لشتى أنواع العذاب اعتقادا بأن لهم يدا في الوقية بين المهدي واليسع بن مدرار ، فقتل اثرياؤهم ونهبت أموالهم ، وأرغم من بقى منهم على احتراف المهن الوضيعة (64) . ثم أمر المهدي باحراق سجناسه فاضرمت فيها النيران (65) .

وغادر المهدي سجناسه الى رقادة في ربيع الاخر سنة 297 هـ (909 م) بعد ان بويع بالخلافة فيها (66) ، وبعد أن عين عليها واليا من

- (59) البيان المغرب ج 1 ص 211 ، 212 .
(60) اليماني : ص 131 ، شرح الاخبار ص 33 ، ابن الاثير : ج 8 ص 16 ، ابن خلدون : ج 3 ص 364 ، النويرى : ج 26 ورقة 33 ، المقرئى : اتعاط الحنفا ص 91 .
(61) اليماني : ص 129 ، 130 ، الخرجى : ورقة 42 .
(62) مجهول : الاستبصار ص 204 .
(63) اليماني : ص 130 .
(64) الاستبصار ص 202 .
(65) ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، Biquet : Op. Cit. P. 71
(66) ابن غلبون : التذكار ص 18 ، وثمة رواية تقول بأنه بويع في رقادة وليس في سجناسه انظر : ابن الأبار : ج 1 ص 191 ، النويرى : ج 26 ورقة 31 ، Hassan Ibrahim : Relations between the Fatimids P. 51.
ونعتقد أنه بويع بسجناسه أولا ، ثم بويع بعد ذلك ببيعة عامة في رقادة . والواقع ان اقدم عملة وصلتنا عن المهدي مؤرخة بسنة 297 هـ . وخالية من ذكر المدينة التى ضربت بها . كما انها خلو ايضا من ذكر لقب « أمير المؤمنين » الذى نجده على عملة اخرى ضربت بالقيروان سنة 300 هـ .
وهناك صورة للدينار الذى ضرب سنة 297 هـ :
الوجه : لا اله الا الله وحده لا شريك له (فراغ)
الوجه الاخر : لله — محمد رسول الله — المهدي
دائرى : بسم الله ضرب هذا الدين سنة سبع وتسعين ومئتين (فراغ)
انظر Lane-Poole : Catalogue of the collection of Arabic coins presente in the khedivial library P. 148.
اما الدينار الذى ضرب بالقيروان سنة 300 هـ فنصورته على الوجه التالى :
الوجه : عبد الله — لا اله الا الله وحده — لا شريك له — أمير المؤمنين
دائرى : محمد رسول الله أرسله بالمهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله . =

تبله (67) .

وهكذا سقطت دولة بنى مدرار على يد الفاطميين سنة 297 هـ
(909 م) ، بعد انتصار كتامة على مكناسة ، وتغلب البرانس على البتر ،
وهزيمة الخوارج على أيدي الشيعة .

= الوجه الآخر : الامام — محمد — رسول — الله — المهدى بالله .

دائرى : بسم الله ضرب هذا الدينير بالقيروان سنة ثلث ميه

انظر : Lane-Poole : Catalogue of oriental coins in the British museum :

Vol. 4. P. 2.

(67) المقرئى : اتعاط الحنفا ص 91 ، ابو الفداء : ج 2 ص 65 .

ب - ثورات الصفرية على الحكم الفاطمي :

اندلعت ثورات الصفرية في سجلماسة على اثر رحيل المهدي منها الى رقادة سنة 297 هـ (909 م) ولم تفلح سياسة القمع والعنف التي لجأ اليها الفاطميون بانفاذ حملاتهم الفينة بعد الاخرى الى سجلماسة ، ولا سياسة اللين والدهاء باصطناع بعض افراد البيت المدراي وتنصيبهم ولاية يحكمون باسمهم ، في دعم النفوذ الفاطمي في تلك الانحاء وتحويل البربر الصفرية عن ولائهم لبنى مدرار .

فقد تضافرت عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية وجغرافية لتزيد في عداء الخوارج الصفرية للحكم الفاطمي الشيعي واستمرار ثوراتهم عليه . فمن الناحية السياسية ، لم يرضخ الخوارج الصفرية لولاية الفاطميين بعد ان الفوا الاستقلال السياسي في كنف دولة بنى مدرار لما يزيد على قرن ونصف قرن من الزمان وبديهي — وقد تأصلت فيهم نزعة الاستقلال — أن يرفضوا الاذعان لحكم ولاية غريباء ، تسندهم حاميات من الجند الكتامي (68) . ولا ريب في أن الظروف السياسية في بلاد المغرب وقتذاك ساعدت على تفاقم هذه الثورات ، فقد شغل الفاطميون بمواجهة المشكلات العديدة التي واكبت قيام دولتهم عن الاهتمام بدعم نفوذهم في سجلماسة بأقاصى الصحراء .

ولعل من أهم هذه المشكلات احتدام الصراع بين المهدي وأبي عبد الله الشيعي ، وما سببه اغتيال الشيعي من خلاف كتامة على المهدي وثورتهم عليه ، وما تجشمه الاخير من مشاق لقمع هذه الثورة (69) . ومن ناحية

(68) البكري : ص 150 .

(69) ابن خلدون : ج 4 ص 78 .

أخرى تضعضع النفوذ الفاطمي في المغرب الأقصى باستمالة عبد الرحمن الناصر الأندلسي لمغراوة وبنى يفرن الذين الحقوا عدة هزائم بالجيوش الفاطمية سنة 312 هـ (924 م)، 314 هـ (926 م) (70)، كما استولت جيوشه على مليلة وسبتة — من موانئ المغرب الأقصى — سنة 314 هـ (926 م) وسنة 319 هـ (931 م) على التوالي ، ودخل موسى بن أبى العافية أمير فاس في طاعته وعمل على « استمالة أهل العدو المجاورين له » (71) . وبذلك أصبح الجزء الأعظم من شمال المغرب الأقصى ومساحات شاسعة بالمغرب الأوسط بمنأى عن سيادة الفاطميين ، وظل النفوذ الأموي قائما بالمغرب الأقصى حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس . وإذا كنا لا نجد من الشواهد والقرائن ما ينم عن تضامن الصفيرية في المغرب مع أموى الأندلس بعد سقوط دولة بنى مدرار سنة 297 هـ (909 م) ، فإن تغلغل النفوذ الأندلسي في المغرب الأقصى مكن من اندلاع ثورات الصفيرية بسجلماسة على الحكم الفاطمي .

وكانت سياسة الفاطميين الاقتصادية الجائرة من أهم الدوافع لقيام هذه الثورات ، فقد انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، وما لبث المهدي أن تولى عن سياسة داعيته أبى عبد الله الشيعي المعتدلة (72) ، فاستولى على « أموال الإحباس والحصون » (73) ، واشتط في جمع الضرائب وتفنن في زيادتها (74) . وقد تعرضت سجلماسة للسطب والنهب على يد رجاله ، كما كانت ثروات أهلها ، ومناجمها الغنية بالفضة مطمعا لجيوشه . وقيل إن المهدي « تحصل من التبر ومن الحلى وقرمئة وعشرين جملا أدخلها رقادة » (75) .

ومما دفع صفيرية سجلماسة الى الثورة أيضا اصرار الفاطميين على نشر المذهب الشيعي ، فقد ذكر ابن عذارى (76) أن المهدي « أظهر التشيع القبيح وسب أصحاب النبي وأزواجه . . ومنع الفقهاء أن يفتى أحدهم إلا بمذهب زعم أنه مذهب جعفر بن محمد ، منه سقوط الحنث عن طلق

(70) ابن عذارى : ج 1 ص 266 ، 269 .

(71) نفسه ج 1 ص 283 .

(72) نفسه ص 191 ، 192 .

(73) سعيد بن مقديش : ص 123 .

(74) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 28 . مخطوط .

(75) الاستبصار ص 204 .

(76) البيان المغرب ج 1 ص 220 .

بالنية ، واحاطة البنات بالميراث ومدحت الشعراء عبيد الله بالكفر فاستجازه » . ومع ما انطوى عليه قول ابن عذارى من مبالغة ، فالثابت أن المهدي عمداً الى نشر مذهبه بحد السيف (77) ، وغير من النظم والاحكام بما يتمشى وتعاليم المذهب الاسماعيلي . وبديهي أن يفرع صفرية سجلماسة من هذه السياسة الدينية حتى ليذهب دأشراوى (78) الى أن حركة الشاكر لله سنة 332 هـ (945 م) قامت اساساً لمناهضة سياسة الفاطميين الدينية . ولا مرأى في أن الصفرية من الخوارج فضلاً عن عدائهم المقيت للشيعية ، نظروا في انكار وريية الى سياسة الفاطميين الدينية فاعتقدوا أنهم « يدعون نبوة محمد (ص) ويدعون النبوة بعده ، ويدعون سنته وشريعته ويدعون الى غيرها » (79) . بل ارتبطت العقائد الاسماعيلية في تصورهم بالخرافات والاساطير فاعتقدوا أنهم « يعبدون رأساً عندهم يكلمهم ويسجدون له من دون الله ، وأن هذا الرأس ينثر من فيه الدناتير » (80) . ولما كان الصفرية من أكثر فرق الخوارج تطرفاً في محاربة مخالفيهم ، فلم يتوانوا عن الجهر بعدوانهم للفاطميين ، والتمرد على أحكامهم ، ومناهضة عمالهم .

وقد كان تعصب الفاطميين لكتامة وصنهاجة واختصاصهم بالمناصب العليا في دولتهم سبباً في تعميق عدواة مكناسة الصفرية لهم ، فقد أثاروا بسياستهم تلك الصراع بين البربر وبرانسا (81) ، إذ لا يخفى أن غالبية صفرية المغرب كانوا من البربر البتر من مكناسة وزناتة وغيرها ، بينما قامت دولة الفاطميين بالمغرب على أكتاف كتامة من قبائل البرانس ، ومن ثم لم يكن من المقبول أن يرضخ صفرية سجلماسة لوالى المهدي من كتامة وحاميته النى بلغت خمسمائة فارس من رجالات كتامة أيضاً (82) .

ولا شك في أن الظروف الجغرافية أيضاً ساعدت صفرية سجلماسة

(77) ابن خلدون : ج 1 ص 131 .

(78) La captivité d'Ibn Wasul. P. 296.

(79) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 358 . ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن الفاطميين — كما يذهب الدكتور محمد كامل حسين — « كانوا يميلون الى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم ، احياناً بالترغيب وحياناً بالترهيب ، فكان الدعاة يؤدون واجبهم في تشكيك المسلمين في مذاهبهم ، ويحببون اليهم المذهب الفاطمي » .. انظر : في ادب مصر الفاطمية ص 130 .

(80) ابن حيون : المرجع السابق ورقة 361 .

(81) نفسه ورقة 26 ، Drague : Op. Cit. P. 25.

(82) ابن عذارى : ج 1 ص 213 .

على القيام بثوراتهم ، فكانت مدينتهم في اقاصى الصحراء (83) ، والطرق الموصلة اليها من افريقية وعرة . لذا تقاعس الجند الفاطمى عن التوجه لقمع تلك الثورات . ويخبرنا ابن حيون (84) أن الكتامين كانوا يتثاقلون عن القيام بهذه المهام متذرعين ببعد سجلماسة ومشاق الطريق اليها رغم ما كان يبذله الائمة لهم من وفير العطاء ومعسول الوعود .

قصارى القوى ، ان اشتطاط الفاطميين في سياستهم الاقتصادية ، وتعصبهم المذهبى واحيائهم النعرات القبلية ، وملائمة الظروف السياسية والجغرافية في المغرب الاقصى ، كل هذه العوامل دفعت الصفرية الى الثورة على الحكم الفاطمى ونبذ مذهبهم الاسماعيلى ، والتشبث بالولاء لآل مدرار .

والواقع ان حكم الاسرة المدرارية لم يختلف بعد مقتل اليسع بن مدرار سنة 297 هـ (909 م) كما اعتقد بعض المؤرخين (85) وانما ظل قائما في سجلماسة متأرجحا بين الولاء والعداء للفاطميين ، واذا كان الفاطميون قد افلحوا احيانا في استمالة بعض افراد البيت المدرارى والاغداق عليهم وتنصيبهم ولاة من قبلهم ، فان معظم المدراريين ثاروا على الفاطميين ورفضوا الاذعان لحكمهم واستقلوا بأمر سجلماسة عن نفوذهم .

فبعد مقتل اليسع بن مدرار سنة 297 هـ (909 م) ، ولى عبيد الله المهدي على سجلماسة قائده ابراهيم بن غالب المزاتى . وترك معه خمسمائة فارس من كتامة (86) . وما أن قفل المهدي متوجها الى رقادة حتى ثار الصفرية عليه وقتلوه (87) هو وجنده في نفس العام (88) . وبايعوا الفتح بن ميمون الملقب بواسول من بنى مدرار . ولم يستطع المهدي استعادة نفوذه على سجلماسة لانشغاله بمواجهة الاضطرابات في افريقية بعد اغتيال ابي عبد الله الشيعى ، فاستقر الامر للفتح بن ميمون « تحت تقية من مطالبة

(83) المراكش : المعجب ص 357 .

(84) المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 26 .

(85) انظر : ابو الفدا : ج 1 ص 66 ، ابن ابى دينار : ص 50 .

(86) ابن عذارى : ج 1 ص 213 .

(87) البكرى : ص 150 .

(88) ابن عذارى : ج 1 ص 214 . قتل ابراهيم بن غالب المزاتى سنة 297 هـ وليس 298 هـ

كماذهب ابن خلدون وابن الخطيب

انظر : العبر ج 6 ص 131 ، أعمال الاعلام ج 3 ص 145 .

الشيعة » (89) .

ولما مات الفتح سنة 300 هـ (912 م) بايع الصفورية اخاه احمد بن ميمون ، فانفرد بالسلطة تسعة أعوام بمنأى عن نفوذ المهدي . وفي سنة 309 هـ (922 م) أنفذ المهدي قائده مصالة بن حبوس لدعم سلطانه في المغرب الاقصى (90) ، فدخل سجلماسة عنوة « وأخذ أهلها بالدعوة الشيعية » (91) وقبض على أحمد بن ميمون وقتله ، وبعث برأسه الى المهدي (92) ، وحاول استرضاء الصفورية بابقاء الحكم المدراري ، فلم يعين عليهم واليا من قبله ، بل اصطنع المعتز بن محمد بن سارو بن مدرار — وهو ابن عم أحمد بن ميمون — ونصبه واليا عليهم من قبل المهدي « ليأمن جانبهم » (93) . وقد نجحت هذه السياسة — الى حين — في الحفاظ على النفوذ الاسمي للفاطميين (94) في سجلماسة ، فظل المعتز بن محمد على ولائه للفاطميين حتى وفاته سنة 321 هـ (934 م) وذلك على عكس رواية ابن خلدون (95) القائلة باستبداده بالأمر من دون الفاطميين . فقد كان ابنه وخليفته محمد الملقب بأبي المنتصر الذي حكم عشر سنوات (96) ، وكذلك حفيده المنتصر سمكو بن محمد الذي حكم شهرين على ولائهما لسلطان الفاطميين (97) .

على ان سياسة الولاء للفاطميين لم تلبث ان تعثرت سنة 332 هـ (945 م) فانتهز محمد بن الفتح بن ميمون — ابن عم المنتصر سمكو — فرصة ضعف ابن عمه الطفل (98) ، وانشغال الفاطميين بثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد ، واغتصب الحكم فطرد ابن عمه خارج سجلماسة ودعى لنفسه

-
- (89) خطأ ابن خلدون — ومن نقل عنه — حين زعم ان الفتح بن ميمون كان إباضيا .
انظر : العبر ج 6 ص 131 ، السلاوي ج 1 ص 113 .
(90) ابن الخطيب : المرجع السابق ص 146 .
(91) البكري : ص 150 ، ابن خلدون . ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام ج 3 ص 46 ، القلقشندي : ج 5 ص 166 .
(92) ابن خلدون : المرجع السابق ص 131 .
(93) البكري : ص 150 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 146 .
(94) ابن الخطيب : نفس المصدر والصحيفة .
(95) العبر ج 6 ص 131 .
(96) استقط البكري حكم هذا الامير . انظر : المغرب ص 151 .
(97) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 296 . وقد خالف ابن الخطيب سائر المؤرخين فذكر ان المنتصر سمكو أخ محمد بن المعتز وليس ابنه .
انظر : اعمال الاعلام ج 3 ص 146 .
(98) البكري : ص 151 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 146 ، القلقشندي : ج 5 ص 167 ، السلاوي : ج 1 ص 113 .

وخلع طاعة الفاطميين (99) ، كما ضرب السكة باسمه وتلقب بالشاكر لله (100) .

على أن بعض المؤرخين (101) ذهبوا إلى أن الشاكر لله « أخذ بمذاهب أهل السنة ورفض الخارجية ونادى بالدعوة لبنى العباس » . وغالى البعض (102) الآخر فقال بأنه « كان سنيا على مذهب المالكية » . ونعتقد أن حركة الشاكر لله كانت حركة خارجية صفرية خالصة، تمثل رد الفعل الصفرى ضد الحكم الفاطمى ، فهي تماثل في هذا السبيل وتعاصر حركة أبى يزيد مخلد بن كيداد الاباضى . ويبدو أن مؤرخى السنة تجاهلوا هذا الأمر عن عمد انكارا لفضل الخوارج في قيادة حركات المقاومة ضد الشيعة ، أو أن الأمر التبس عليهم خاصة وأن أبى يزيد قد استنفر السنة في المغرب للانضمام لحركته (103) ، كما « دعى الشاكر لنفسه مهوفا بالدعاء لبنى العباس » (104) حتى يؤازره السنة بالمغرب . ومن المستبعد أن يكون الشاكر لله قد تخلى عن المذهب الصفرى واعتنق المذهب المالكى للدخول في طاعة الخلافة العباسية لأن الشاكر لله لم يكن يطمح في مؤازرة الخلافة العباسية لحركته خاصة وقد زال نفوذها كلية من بلاد المغرب بعد سقوط دولة الاغالبية . ولم يكن بمقدور بنى العباس مناجزة الفاطميين ببلاد المغرب

(99) البكرى : ص 151 ، ابن خلدون : ج 6 ص 131 .
(100) خطأ ابن خلدون ومن نقل عنه في تلقيبه (بالشاكر بالله) انظر : العبر ج 6 ص 131 ، السلاوى : ج 1 ص 113 . فالصحيح ما ورد بعملته الذهبية والفضية حيث لقب « بالشاكر لله » وهاك صورة الدينار ضرب في عهده .
كتابة دائرية : بسم الله ضرب هذا الدين سنة ست وثلثين وثلثمائة الوجه الاول الامام — محمد — رسول الله — الشاكر لله .
وبتشكك لانوا في اتخاذه لقب « أمير المؤمنين » ويذكر انه اكتفى بلقب « امام » لان العملة خلو من ذلك . انظر : Catalogue ... P. 401, 402.
لكن شكوك لانوا لا سبيل لصحتها ، فنجد على دينار ضربه الشاكر لله سنة 245 هـ لقب أمير المؤمنين . وهاك صورته :
الوجه : عبد الله — لا اله الا الله وحده — لا شريك له — أمير المؤمنين (مراغ غامض)
الوجه الآخر : الامام — محمد رسول الله — الشاكر لله
بسم الله ضرب هذا الدين سنة خمس وأربعين وثلثمائة .
انظر : Lane-Poole : Catalogue of the collection of the Arabic coins presented in the khedivial library P. 328.

(101) انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، السلاوى ج 1 ص 113 ، الخزرجى : ورقة Bel : Op. Cit. P. 168. 47
(102) انظر : البكرى ص 151 .
(103) الدباغ : ج 2 ص 185 .
(104) القلعشندى : ج 5 ص 167 .

وتعضيد الحركات المناوئة لهم لبعد المسافة ، ولضعفهم في العصر العباسي الثاني وخضوعهم لنفوذ الترك . ولو أن الشاكر لله دعى للخلافة العباسية حقا ، لما دعى « لنفسه بالخلافة وتسمى بأمر المؤمنين وتلقب بالشاكر لله » (105) وضرب العملة باسمه (106) . ولو كان ينشد التبعية لقوة مناوئة للفاطمين ، لاعلن تبعيته لاموى الاندلس أصدقاء الاسرة المدراية ، وأصحاب النفوذ الفعلى على أغلب جهات المغرب الاقصى . أغلب الظن أن الشاكر لله تشبه بمعاصره الاباضى النكارى ابى يزيد مخلد بن كيداد فى محاولة استمالة السنة بالمغرب وتعضيدهم لحركته ليس الا .

على كل حال — نجح الشاكر لله — بحسن سيرته — (107) وتعضبه لمذهبه وتفقّه فيه « وظنه أن ليس الحق الا ما انتهى اليه » (108) ، فى جمع شمل الصفريّة تحت لوائه والانفصال بسجلّامة عن طاعة الفاطميين ويبدو أنه فكر فى بسط نفوذه على بعض نواحي المغرب الاقصى ، فحاول غزو امارّة نكور سنة 340 هـ (953 م) لكن الصفريّة لم يجيبوه الى ذلك وقنعوا باستقلالهم السياسى وحريتهم الدينية محجّمين عن الدخول فى مشروعات توسعية (109) . وقد نعم الصفريّة فى عهده بالاستقرار والرخاء ، اذ نعلم أن العدل ساد بسجلّامة ابان حكمه ، كما كانت عملته «طبيّة للغاية » على حد قول السلاوى (110) .

وظل الشاكر لله فى مأمن من الخطر الفاطمى طوال عهد المنصور الذى انصرف لدرء ثورة ابى يزيد فى افريقية ، تلك الثورة التى هددت بالقضاء على دولته . ولما ولى المعز الخلافة سنة 341 هـ (954 م) حاول تاديب امير سجلّامة المدراى ، فاستنفر كتامة للقيام بتلك المهمة دون طائل ، فقد ثاقلوا عن الخروج متذرعين بمشاق الطريق وبعد المسافة (111) ويبدو أن تغاضى المعز عن ثوار سجلّامة شجع عماله فى المغرب الاقصى

(105) ابن الخطيب : اممال الاعلام ج 3 ص 148 .

(106) انظر : Lavoix : op : cit. P. 401.

(107) ابن الخطيب : المرجع السابق ص 148 .

(108) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 369 ، ج 2 ورقة 399 .

(109) ابن حوقل : المسالك والممالك ص 57 .

(110) الاستقما ج 1 ص 119 . يؤكد ذلك أن العملة التى ضربها سنة 336 هـ كان وزنها

كالاتى : D. 19 mm. P. 3 gr 90

D. 21 mm P. 49 gr 10.

Lavoix : P.P. 401, 402.

(111) ابن حيون : المرجع السابق ج 1 ورقة 26 .

على شق عصا الطاعة والدخول في طاعة عبد الرحمن الفاصر كما فعل
يعلى بن محمد اليفرينى (112) بافكان — بشمال غربى تاهرت — واحمد
بن بكر الجذامى امير فاس (113) ودفعه ذلك الى اعداد حملة هائلة
لاستعادة نفوذه المفقود في بلاد المغرب الاقصى سنة 347 هـ (960 م) (114) .

وقد عهد المعز الى قائده جوهر الصقلى بقيادة تلك الحملة التى جشد لها
اعدادا غفيرة من كتامة (115) وصنهاجة (116) والاولياء (117) ، فضلا عن
عبيده وغلمانه (118) . واجتمع برؤسائهم وحضهم على الاستماتة فى القتال
واعدا اياهم بحسن المثوبة منعماء عليهم بجزيل العطاء (119) . ومضى جوهر
الى سجلماسة وبعث الى اهلها بالقبض على الشاكر لله وتسليمه ، على أن
يبدل لهم الامان ، دون طائل (120) . فضرب الحصار حول المدينة (121)
طيلة شهور ثلاثة (122) تمكن الشاكر أثناءها من الهرب بأمواله وذويه
وخاصته ، ونزل بحصن منيع يعرف بتاسجدلت (123) على بعد اثنى عشر
ميلا من سجلماسة (124) .

ودخل جوهر المدينة دون مقاومة ، واصدر عفوا عاما عن اهلها (125)
ليكسب جانبهم وتسلل الشاكر لله الى المدينة فى محاولة لتأليب اتباعه على
القائد الفاطمى واسترداد نفوذه ، لكن رجلا من مطغرة تربص به وسلمه
الى جوهر ، فعاد به أسيرا الى القيروان (126) بعد أن عين على سجلماسة

-
- (112) ابن خلدون : العبر ج 4 ص 96 .
(113) ابن حيون : المرجع السابق ج 1 ورقة 22 ، السلاوى : ج 1 ص 197 .
Lavoix : Op. Cit. P. 402
(114) ابن حيون نفس المصدر ورقة 25 ،
(115) ابن حيون نفس المصدر ورقة 31 .
(116) ابن خلدون : ج 6 ص 132 .
(117) هم اتباع ابى يزيد مخلد بن كيداد الذين اذعنوا بالطاعة للفاطميين واغلبهم من بنى
كبلان . انظر : ابن حيون المرجع السابق ورقة 32 .
(118) الشطيبى : الجمان ورقة 197 .
(119) انظر ملحق رقم 6 .
(120) ابن حيون : المرجع السابق ورقة 296 .
(121) الشطيبى : المرجع السابق ورقة 197 .
(122) ابن الخطيب : ج 3 ص 148 .
(123) نفس المصدر والمصحفة . ويسميه ابن خلدون « حصن تاسكرات » انظر : العبر
ج 6 ص 132 .
(124) البكرى : 151 .
(125) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 1 ورقة 296 .
(126) البكرى : ص 151 ، ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، ابن الخطيب : ج 3 ص 149 ،
الطالقشندى : ج 5 ص 167 ، السلاوى : ج 1 ص 114 ، الشطيبى : الجمان :
ورقة 197 .

واليا من قبله سنة 347 هـ (960 م) (127) .

وابتهج المعز بانتصارات تائده جوهر واسترداد سجلماسة وغيرها من مدن المغرب الأقصى التي تهردت عليه ، فطير مزهوا أنباءها إلى الدعاة الاسماعيلية في الشرق (128) . وآثر المعز الإبقاء على حياة الشاكر لله بعد أن شهر به بين أهل القيروان (129) ، فظل مُعتقلا في سقيفة قصره زمنا (130) . ثم نقل إلى رقادة وظل سجيناً بها حتى وفاته سنة 354 هـ (967 م) (131) .

ولم تفلح سياسة اللين والتسامح التي اتبعها المعز وقائده جوهر سواء في معاملة الشاكر لله أو في العفو عن أهل سجلماسة في جذبهم لموالاته الفاطميين . فالعداء المذهبي المتواصل وتعلق الصفرية بالاستقلال السياسي وبالبيت الدراري حال دون تحقيق ذلك . فقد تكرر ما حدث على اثر مغادرة المهدي جوهر سجلماسة سنة 297 هـ (909 م) ، إذ ثار صفرية سجلماسة على الوالي الفاطمي وأردوه قتيلا ونصبوا عليهم أحد أبناء الشاكر لله ولقبوه بالمنتصر لله (132) .

ولكى لا يتعرضوا لطائلة الانتقام ، بادروا بأنفذوا رسلهم إلى المعز معلّنين الإبقاء على طاعته والولاء له . ولأد المعز بالعافية قانعا بولائهم الاسمى له . وطلب إلى شيوخهم القدوم إليه برفقة المنتصر لله ، فأجابوه إلى طلبه . وقد أورد ابن حيون (133) تفصيلات مستفيضة عن لقاء شيوخ سجلماسة بالمعز وعفوه عنهم ، وإقراره المنتصر على الولاية وخلعه عليهم وإغداقه على مرافقيه . ومع ذلك لم يستتب الأمر للمعز في سجلماسة ، ولم ينعم صنيعته الدراري بالحكم طويلا ، فنزعة الاستقلال والكراهية للفاطميين كانت من وراء الثورة التي قام بها أخ المنتصر — ويدعى أبا محمد — على أخيه وقتله وقيامه بالأمر مكانه وتلقبه بالمعتز لله ، وإعلانه الخروج عن طاعة الفاطميين سنة 352 هـ (965 م) (134) .

(127) ابن حيون : المجالس والمسائرات ج 2 ورقة 296 .

(128) نفس المصدر ورقة 332 .

(129) نفس المصدر ورقة 364 ، 365 .

(130) ابن حيون : نفس المصدر والصحيفة ، Dachraoui : Op. Cit. P. 299 .

(131) ابن الخطيب : ج 3 ص 149 .

(132) ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، والسلوى : ج 1 ص 114 .

العلتشندي : ج 5 ص 167 .

(133) انظر : ملحق رقم (7) .

(134) ابن خلدون : ج 6 ص 132 ، السلوى : ج 1 ص 114 .

العلتشندي : ج 5 ص 167 .

وزال نفوذ الفاطميين نهائيا على سبلماسة منذ ذلك الحين . كما
ذوى شان مكاسة والصفرية ايضا سنة 396 هـ (979 م) لما زحف خرزون
ابن ملفول المغراوى الى سبلماسة وقتل ابا محمد المعتز وبعث براسه الى
قرطبة . وآلت سبلماسة بذلك الى التبعية لاموى الاندلس « وانقرض
امر بنى مدرار ومكاسة من المغرب اجمع ، وادال منهم بمفسراوة
وبنى يفرن » (135) .

وهكذا — لم يستسلم الصفرية للحكم الفاطمى ، ولم تجد نفعا سياسة
الفاطميين المتأرجحة بين اللين والعنف فى دعم نفوذهم فى سبلماسة معقل
الخوارج الصفرية فى المغرب .

(135) نفس المصادر والصفحات ، Bel : Op. Cit. P. 169.

الاباضية والفاطميون

أ - الفاطميون وسقوط دولة بني رستم

سقطت تاهرت في يد ابي عبد الله الشيعي سنة 297 هـ (909 م) دون قتال ، وذلك لبلوغ الدولة الرستمية في عصرها الاخير ذروة الضعف والاضمحلال وقد سبق أن أوضحنا مظاهر الفوضى السياسية التي تردت فيها تاهرت ، من تدهور هبة الامامة وتضعف نفوذ الائمة بعد تحكم رعاي العاصمة في تعيين الائمة وعزلهم ، وارتفاع شأن الفرق والطوائف المذهبية غير الاباضية ، وتدخلها في شؤون السياسة والحكم وعملاتها لقوى اجنبية بقصد اسقاط الاسرة الرستمية والوثوب على السلطة في تاهرت . ثم ظهور نفوذ البلاط ونساء الاسرة الرستمية وسيطرتهم على الائمة ، وتطاول عمال الائمة وحراسهم وخدمهم على الرعية فنهبوا الاموال واغتصبوا الحرائر . بالاضافة الى صراع افراد البيت الرستمي حول الامامة وتكالبهم على الظفر بها ، فلم يتورعوا عن تدبير المكائد والمؤامرات من بعضهم البعض وراح بعضهم ضحية هذا الصراع ، وافضى ذلك كله الى انهيار العصبية الرستمية « وبانهيارها شاخت الدولة وهرمت » (136) . هذا الى انحلال

(136) ابن خلدون : المقدمة ص 168 .

نظم الحكم والادارة وضعف الروح العسكرية ، وتراخى قبضة الائمة على اجنادهم فلجأوا الى « استعمال الدرهم والدينار ، بدل الرمح والسنان (137) وترتب على ذلك كله انهيار المجتمع الرستمي واضطراب الامن ، وهو ما عبر عنه ابن الصغير بقوله: « وكان البلد قد نسد ، ونسد اهلها .. واتخذوا للمسكر اسواقا والفلماني اخوانا » « وعجت الطرق بمناسر اللصوص وخاصة من سفهاء زناتة » (139) .

وفضلا عن ذلك كله ، تعرضت الدولة الرستمية لضربة قاصمة قضت على البقية الباقية من قوتها ، بسبب ما حل بأباضية نفوسة سنة 283 هـ (897 م) من كارثة في موقعة مانو — قلعة بين قابس وطرابلس (140) — حيث اجهز الاغلبية فيها على جيوش نفوسة (141)، ومن بعدها على أباضية قنطرة ونفزاوة (142) وحزمت الامانة الرستمية في ذلك الحين من مصدر قوتها ، اذ كان النفوسيون عصب الدولة وعونا لها على ما واجهها من اخطار . ولا غرو ، فقد حرم أبو اليقظان بن أبي اليقظان — آخر ائمة بني رستم — من جيش يستطيع به التصدي للخطر الشيعي بعد انقطاع الامداد من جبل نفوسة ، وادى ذلك الى سقوط تاهرت سنة 297 هـ (909 م) .

كانت تاهرت اذن على وشك السقوط ، وكان بوسع أبي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين — الذي لا نشك في انه ارسل بعوثه الى تاهرت تدعو للتشيع — ان يطيح بالحكم الرستمي في وقت مبكر . غير أنه أثر التريث حتى يفرغ من حروبه مع الاغلبة — اعظم القوى السياسية في المغرب في ذلك الحين — فلم يقدم على فتح بلاد المغرب الاوسط والاقصى الا بعد سقوط رقادة عاصمة بني الاغلب سنة 296 هـ (908 م) .

وبعدها شرع في غزو سجلماسة لتحرير عبيد الله المهدي ، ومرج في طريقه اليها على تاهرت فدانت له دون مقاومة .

من هذا يتضح ان تاهرت لم تسقط ابان عهد ابراهيم بن احمد الاغلبى

(137) النفوسى : الازهار الرباضية ج 2 ص 278 .

(138) سيرة الائمة الرستمية ص 55

(139) ابن الصغير : ص 49 .

(140) ابو زكريا : ورقة 33 .

(141) نفس المصدر ورقة 34 .

(142) نفس المصدر والمصحفة .

(261 — 289 هـ) (875 — 901 م) كما ذكر المؤرخون (143) الذين أجمعوا على أن « أبا عبد الله الشيعي نزل كتامة سنة 280 هـ » وأتاه البربر من كل مكان ، وعظم أمره وبلغ أمره إلى إبراهيم بن أحمد الاغلبى ، فاستصغر أمر أبى عبد الله واستحقته ، ثم مضى أبو عبد الله إلى مدينة تاهرت فعظم شأنه ، وأنته القبائل من كل مكان ، وبقي كذلك حتى تولى أبو مضر زيادة الله الاغلبى . وأن كانت تلك الرواية لا تخل من دلالة على تشييع كثيرين من سكان تاهرت وبعض القبائل الضاربة خارجها قبيل الغزو الشيعي . يؤكد ذلك قول ابن الصغير (144) أن خطباء تاهرت « كانوا على منابرهم لا يستعملون الا خطب أمير المؤمنين على بن أبى طالب خلا خطبة التحكيم » . ولا يخفى ما قام به هؤلاء الشيعة من دور هدام في الاحداث السياسية التي حفل بها العصر الرستمي الاخير ، وهو عصر برزت فيه الطوائف والفرق الدينية غير الاباضية كما سبق أن اوضحنا .

والواقع أن المصادر غير الاباضية لا تمدنا الا بالنذر اليسير عن سقوط دولة بنى رستم ، فلم يرد بها أكثر من أن « أبا عبد الله الشيعي وصل إلى تاهرت فدخلها بالامان وقتل من بها من الرستمية ، وبعث برؤوسهم إلى أخيه أبى العباس ، وطوفت بالقيروان ونصبت على باب رقادة ثم ولى أبو عبد الله على تاهرت أبا حميد دواس بن صولات اللهيصى وإبراهيم بن محمد اليماني المعروف بالهوارى ، وكان يلقب بالسيد الصغير » (145)

وقد سبق أن اوضحنا كيف اغتيل الامام أبو حاتم يوسف على يد أبناء أخيه سنة 294 هـ (906 م) بالتواطؤ مع يعقوب بن افلح — عم الامام — المقيم بين زواغة ، وكيف اغتصب أحدهم ويدعى اليتظان الامامة . وتمخض هذا الحادث عن مزيد من الاضطرابات في تاهرت قام بها الحزب المشايخ لأبى حاتم ، وقد تزعمته ابنته المعروفة « بدوسر » . كما واصلت الطوائف والفرق غير الاباضية — من المالكية — والواصلية والصفرية والشيعة (146) — مؤامراتها على حكم اليتظان بن أبى اليتظان . ونعتقد أن اليتظان نجح في إخضاع تلك الاحزاب المعارضة لحكمه ، ويبدو أنه

(143) انظر : أبو الفدا : ج 2 ص 65 ، ابن أبى دينار : ص 48 ، العيني : ج 5 ورقة 153 ، اطنيش : الامكان : ص 58 .

(144) ابن الصغير : ص 59 .

(145) انظر : البكري : ص 68 ، ابن عذارى : ج 1 ص 209 ، 210 ، مارسيه : مادة بنى رستم ، دائرة المعارف الاسلامية ص 93 .

(146) أبو زكريا : ورقة 36 .

استعان بعمه يعقوب بن أفلح وأنصاره من السمحية الذين نزحوا الى تاهرت. وقد فشلت دوسر ابنة أبى حاتم يوسف في الانتقام من قتلة أبيها ، وخبا أمل الطوائف غير الاباضية في « تبئيت خبر الاباضية » (147) ، فلم يجدوا مناصا من مناشدة أبى عبد الله الشيعي وكتابة — القدوم للقضاء على « امارة الفرس » (148) والراجع ان هذه الاتصالات حدثت قبل فراغ أبى عبد الله من قتال الاغالبة ، فلم ير موجبا للتوجه الى تاهرت ، ولما يفرغ بعد من صراعه مع الاغالبة . وعادت دوسر الاتصال به ، فاستجاب لها ووعدا بتحقيق مطلبها (149) .

وما ان دانت له رقادة بعد هرب زيادة الله الى الشرق سنة 294 هـ (908 م) ، حتى اعد حملة ضخمة توجه على رأسها الى سجلماسة حيث تبع عبيد الله المهدي في سجن اليسع بن مدرار .

تذكر الرواية الاباضية (150) ان رؤساء الطوائف غير الاباضية خرجوا اليه على بعد اميال من تاهرت ووعدوه بالعون على فتحها ، وهونوا له من شأن بنى رستم .

وعرج الشيعي على تاهرت — في طريقه الى سجلماسة — وفتحها ليؤمن ظهره اثناء قتاله مع اليسع بن مدرار . فبعث في استدعاء اليقظان ابن أبى اليقظان وبنيه ، ولما قدموا اليه ، أمر بقتلهم جميعا (151) .

وقد حرص الشيعي على استئصال شأف بنى رستم حتى لا يناوئه منهم مناوئ ، ولم يسلم من القتل الا من لاذ بالهرب الى وارجلان (152). وبمقتل أبى اليقظان فتحت تاهرت ابوابها للشيعي دون قتال (153)، وانسابت جيوشه داخلها فاستباحتها (154) سلبا ونهباً وتخريبا (155)

(147) ابن الصغير : ص 51 .

(148) أبو زكريا : ورقة 36 ، النفوسى : ص 292 .

(149) ذكرت المصادر الاباضية ان ابا عبد الله استجاب لطلب دوسر بعد ان وعده بالزواج اذا ما اخذ بثأر أبيها . والراجع ان يكون السبب في ذلك فراغه من حروبه مع الاغالبة ، وعزمه على افتتاح المغربين الاوسط والاقصى . انظر : الدرجيني : ج 1 ورقة 42 ، النفوسى : ص 292 .

(150) أبو زكريا : ورقة 36 .

(151) نفس المصدر والصحيفة ، ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(152) أبو زكريا : ورقة 37 ، Biquet : Op. Cit. P. 71 .

(153) الدرجيني : ج 1 ورقة 42 ، Biquet : Loc. Cit. وتصور الرواية الاباضية هرب دوسر — بطريقة روائية — خشية ان يتزوجها الشيعي كما وعده . انظر : أبو زكريا : ورقة 36 ، النفوسى ص 293 .

(154) النفوسى : ص 292 .

(155) أبو زكريا : ورقة 37 .

« حتى أهلك الحرث والنسل » (156) .

وأمر أبو عبد الله بإحراق المكتبة الرستمية المعروفة « بالمعصومة » بعد أن انتقى منها الكتب المتعلقة بالحكم والفنون والرياضيات والصنائع (157) . كما أضرم النيران في تاهرت أيضا (158) . وغادرها على عجل بعد أن ولى عليها عاملا من قبله (159) ، وبهم وجهه شطر سجلماسة .

ووجه فرقة من فرسانه الى وارجلان في اثر يعقوب بن افلح الذي هرب اليها مع بعض أصحابه (160) ولم تستطع خيل الشيعي الوقوف له على اثر (161) ، فنجأ بذلك من المذبحة التي حلت بأسرته . وقد رحب أبو صالح ماجنون بن مريان — شيخ وارجلان بمقدمه وعبثا حاول اقناعه بتولى « امامة الدفاع » ومناوئة الفاطميين (162) . فقد أثر حياة الزهد والعزلة حتى وفاته (163) .

وبسقوط تاهرت ، وانقراض الرستميين ، انتهى حكم بنى رستم الذى استمر ما يزيد على مائة وثلاثين عاما (164) .

(156) الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(157) أبو زكريا : ورقة 42 .

(158) نفس المصدر ورقة 37 . وقد اعتقد ماسكراى أن المصادر الإباضية تبالغ في هذا الصدد اظهارا لفظائع الشيعة . انظر : Chronique d'Abou Zakaria. P. 211.

(159) البكرى : ص 68 .

(160) أبو زكريا : ورقة 37 .

(161) تنسج المصادر الإباضية روايات أسطورية حول شجاعة يعقوب بن افلح ومهارته في الإنلات من أعدائه . انظر : أبو زكريا : ورقة 41 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 47 .

(162) أبو زكريا : ورقة 42 ، Masqueray : Op. Cit. P. LXXIV.

وروى أنه قال في هذا الصدد « لا يستر الجمل بالغنم » ، فصارت مثلا . انظر : أبو زكريا : ورقة 42 ، النفوسى ص 293 .

(163) أبو زكريا : ورقة 42 .

(164) البكرى : ص 68 ، ابن عذارى : ج 1 ص 209 .

وقد اختلف المؤرخون في تحديد سنى حكم الاسرة الرستمية ، نتيجة خلافهم حول بداية حكم عبد الرحمن بن رستم أول أئمتها . وقد ورد بإحدى التصانيد في رثاء الدولة الرستمية أنها ظلت قائمة مائة وخمسين عاما ، قال الشاعر :

لقد أسسوا تاهرت بالغرب وارتقوا مدارج عز الملك فيها وأبدعوا
وداموا بها خمسين عاما ومائة يحفهم من كان بالقصب يقطع

انظر النفوسى ص 300 .

والصحيح أن عبد الرحمن بن رستم تولى امامة الظهور سنة 162 هـ ، وعلى ذلك فقد استمر حكم الاسرة الرستمية مائة وخمسة وثلاثين عاما ، على أساس أن دولتهم سقطت سنة 297 هـ .

لكن سقوط الحكم الرستمي لم يقض نهائيا على النفوذ الاباضي في بلاد المغرب ، فظلت وارجلان وجبل نفوسة معقلين رئيسيين لاباضية المغرب . وقد وجه الفاطميون جهودهم نحو فتح هذين المعقلين ، فبعد تحرير المهدي من سجلماسة وجهوا جيشا الى وارجلان . وبادر اباضيتها باخلائها والاعتصام بحصن مجاور لها عرف « بكدية بنهادين » (165) بعد شحنه بالموثون والاقوات . ولم يستطع الجند الفاطمي اقتحام الحصن ، فأثروا الانسحاب (166) . وبقيت وارجلان معقلا للمقاومة الاباضية ضد الفاطميين .

اما جبل نفوسة ، فلم يخضع للحكم الفاطمي وذاك لمنعته الطبيعية (167) واضحى بمثابة ملاذ لثوار الاباضية في سائر بلاد المغرب (168) . وعبثا حاولت جيوش الفاطميين غزو الجبل ، فكانت في كل مرة تبوء بالفشل .

هكذا ، نجح الفاطميون في فتح تاهرت دون عناء سنة 297 هـ واسقطوا حكم بني رستم ، لكنهم لم يفلحوا في الاستيلاء على جبل نفوسة ووارجلان لمنعة الجبل وتطرف الواحة في اقاصي الصحراء . واضحى جبل نفوسة منذ ذلك الحين معقلا للحركات الاباضية المناوئة للفاطميين . كما لم يفلح الفاطميون في ارغام الاباضية في المناطق الخاضعة لحكمهم على انتخلي عن مذهبهم واعتناق المذهب الاسماعيلي . ولم تتخض سياسة البطش والتعصب التي جرى عليها الفاطميون الا عن اندلاع ثورات الخوارج الاباضية ، تلك التي سببت لهم مزيدا من المتاعب وهددت بزوال دولتهم من بلاد المغرب في بعض الاحيان .

(165) الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(166) ابو زكريا : ورقة 37 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 42 .

(167) الوسياني : سير ابي الربيع : ورقة 27 ، على يحيى معمر : الاباضية في موكب التاريخ ص 145 .

Lewicki : Etudes Ibadites. P. P. 49, 50.

(168) ابو زكريا : ورقة 115 ،

ب - ثورات الاباضية على الحكم الفاطمي :

زال الحكم الرستمي من تاهرت سنة 297 هـ (909 م) ، وتبدد شمل الخوارج الاباضية لما تعرضوا له من اضطهاد مذهبي على يد الفاطميين ، والذي لاشك فيه أن الخوارج الاباضية — وهبية ونكارا — رفضوا الادعان للمذهب الشيعي (169) « واستكانوا الى حين للمسالمة والرضى بالواقع ، انتظارا لسنوح الفرصة » (170) ، بينما لاذت اعداد غفيرة منهم بجزيرتي جربة وصقلية ليأمنوا غائلة الفاطميين (171) .

وكان تفتت القوى الاباضية وتشتتها ما بين جبل نفوسة وواحة وارجلان وبلاد الجريد وأحواز تاهرت وجزيرتي جربة وصقلية مما سهل على الفاطميين مواجهة حركاتهم والقضاء عليها . فقد ثار الاباضية بطرابلس سنة 300 هـ (912 م) على ماقنون الاجابي عامل المهدي ، وكانت ثورة اقليلية محضة اذا اقتصررت على اباضية هوارنة بناحية طرابلس بزعامة شيخ يدعى محمد بن اسحق المعروف « بابن القرلين » .

ونجح المهدي في حصار طرابلس بحرا ، كما قطع المؤن عنها ، فاستسلم الثوار بعد أن قدموا لابي القاسم بن المهدي مبلغا باهظا من المال ، وسلموا اليه ثلاثة من زعمائهم قتلوا برقادة (172) . كذلك قضى بالفشل على محاولة أخرى لجمع شمل الاباضية تحت لواء أحد مشايخهم ويدعى أبو خزر تمهيدا للثورة على الفاطميين . وانتهت

(169) أبو ركريا : ورقة 115 ، الطاهر الزاوي : تريخ الفتح العربي في ليبيا ص 183 .

(170) الجربي : مؤنس الاحبة ص 59 .

(171) الوسياني : سير ابي الربيع ورقة 59 ،

Julien : Op. Cit. 339.

(172) ابن مغازي : ج 1 ص 233 ، 234 .

به الحال الى الهرب لجبل نفوسة يائسا ، وأصبح الجبل منذ ذلك الحين مقرا للمقاومة الاباضية ضد الحكم الفاطمي (173) .

وقد تمكن اباضية نفوسة من احياء الامامة الاباضية بعد سقوطها في تاهرت وبايع مشايخهم ابا يحيى زكريا الارجاني — المعروف بأبي بطة — « بامامة الدفاع » (174) وشكلوا حكومة من مشايخ المذهب ، وحاول ابو زكريا — الاغارة على طرابلس لكنه هزم وقتل كثيرون من رجاله (175). وتشجع المهدي فبعث بجيوشه لغزو نفوسة سنة 310 هـ (922 م) فلم تفز بطائل وهزمها الاباضية عند قرية الجزيرة . وعاود المهدي المحاولة في العام الثاني وتخيرنا المصادر (177) الاباضية أن جيوش المهدي لقيت الهزيمة مرة أخرى عند قرية تيركت بجبل نفوسة ، وان كنا نعتقد أن النتيجة كانت غير ذلك لان ابا زكريا الارجاني قتل في تلك المعركة (178) ، كما يذكر الشماخي (179) أن مشايخ الجبل دابوا منذ ذلك الحين على دفع المغارم لولاة القيروان الفاطميين الذين كانوا يغالون في تقديرها ، ويهددون بغزو الجبل اذا ما تقاعس النفوسيون عن دفعها .

ولم يتحرر اباضية نفوسة من هذه الاتاوات « وذل المسودة » الا في مشيخة زعيمهم ابي الفضل سهل النفوسي (180) . ويبدو أن ذلك لم يتم الا بعد قيام ثورة الاباضية الكبرى بزعامة ابي يزيد مخلد بن كيداد . تلك الثورة التي احتوت كافة العناصر الاباضية — وهبية وخلفية ونفاثية ونكارا — في سائر بقاع المغرب ، وهددت بزوال النفوذ الفاطمي منها .

لا شك أن حركة ابي يزيد تمثل من الناحية الاجتماعية حلقة من

(173) الشماخي : السير ص 320 ، Lewcki : Etudes Ibadites P. P. 49, 50

(174) أبو زكريا : ورقة 115 ، الطاهر الزاوي ص 188 ، على يحيى معمر : الاباضية ص 145 ،

Lewcki : Etudes Ibadites, P.P. 50, 98, Masqueray : Op. Cit. P. LXXV.

(175) الشماخي : السير ص 318 .

(176) نفس المصدر ص 321 ، وتقع هذه القرية غربي جبل نفوسة . انظر : نفس المصدر والمصححة ، Lewcki : Op. Cit. P. 50

(177) أبو زكريا : ورقة 117 ، على يحيى معمر ص 154 ، Lewcki : Loc. Cit.

(178) نفس المصادر والمصنحات .

(179) السير ص 320 ، 323 ،

(180) نفس المصدر ص 275 .

حلقات الصراع التقليدي بين البتر والبرانس كما تصور جوتيه (181) ، كما انها عبرت عن نزعة الاستقلال عند البربر من الناحية السياسية كما اعتقد بل (182) . اما الناحية الحضارية فانها تمثل صراعا بين اهل البداوة والاستقرار (183) وهي ايضا نزاع بين قوى محلية مغربية في اطار صراع اعم بين الفاطميين والاندلسيين حسبها اعتقد برنشويج (184) . لكن المؤكد ان ثورة ابي يزيد مخلص بن كيداد كانت في المحل الاول رد فعل للخارجية الاباضية في مواجهة الشيعة الاسماعيليه ، فكانت حربا مذهبية شهر فيها سلاح المبادئ الخارجية للإطاحة بالعقائد الاسماعيلية الغربية على البربر . واذا كان البربر السنة قد ايدوا حركة ابي يزيد في مراحلها الاولى ، فذلك لا يعنى ان ابا يزيد كان سنيا » (185) .

كان من اهم ما يميز الحركة طابعها الخارجى الاباضى (186) ، فزعيمها من « اهل الدعوة » على حد قول أحد مؤرخى الاباضية (187)، تلقى تعاليمها بالشرق « ورأس في الفتيحة في مذهب الاباضية من الخوارج » (188) وكان أول الامر اباضيا وهيبا ثم تحول الى مذهب النكار (189) الضارين بجبل الاوراس وبلاد الجريد (190) . ونعتقد أن هذا

(181) اعتقد جوتيه ان الفاطميين عجزوا عن ايجاد حل « للمسألة الزناتية » على الرغم من اعتمادهم على تواجد من زناتة كصالة بن حبوس . ذلك ان كتابة وصنهاجة — وكانت على هامش الحياة السياسية في المغرب — سادت الموقف في العصر الفاطمي ولعبت دورا بارزا في احداث المغرب في ذلك الحين ومن ثم اتجهت زناتة بولانها لاسوى الاندلس أعداء الفاطميين نكابة في كتابة وصنهاجة أعدائها التقليديين . ولما كانت صنهاجة وكتابة من البرانس وزناتة من البتر ، ولما كان أبو يزيد مخلص بن كيداد زناتيا ، فقد نظر جوتيه الى ثورته من خلال الصراع بين البتر والبرانس - انظر : *Les siècles obscurs*. P. P. 354, 570.

وقد يؤخذ الاسراف على تصور جوتيه ، فقد انشوى كثير من قبائل البرانس في حركة ابي يزيد مثل عجيصة واورية وهوارة . انظر : ابن خلدون : ج 6 ص 145 والمغريزي : اعماظ الحفنا ص 114 ، التجاني ص 326 ، *Masqueray : Op. Cit. P. 232.*

(182) انظر : *La Religion Musulmane*. P. 150.
(183) انظر : احمد مختار العبادي : سياسة الفاطميين ص 202 .
(184) انظر : *la Tunisie dans le haut moyenage* P. 17.
(185) هكذا ذكر الدكتور مؤنس في مقدمته لكتا برياض النفوس للمالكي : انظر : ص 23 ، 24
(186) ابن حماد : اخبار ملوك بني عبيد ص 16 ، *Masqueray : Op. Cit. P. 232.*
(187) انظر : الشماخي : السير ص 279 .
(188) اطينيش : الامكان ص 46 .
(189) ابو زكريا : ورقة 38 ، 43 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 . وجاء في هجاء أحد الشعراء لابي يزيد هذا البيت :

حل البلاء بمخلص وجبى شيمته النواكر
Cherbonneau : Documents indits sur l'hérétique Abou Yezid P. 493.

(190) ابن عذارى : ج 1 ص 166 ، محمد بن تاويت ، دولة الرستبيين ص 114 .

التحول تم في آخر ايام الدولة الرستمية حين ذوى شأن الاباضية الوهبية ،
وعلا نجم النكار (191) ، وهم اكثر تشددا ، والتزاما بتعاليم المذهب الاباضى
من الوهبية (192) . فأبو يزيد اذن ليس سنيا ، ولم يكن صفرى ايضا كما
زعم جوتييه (193) ، او « صفرى نكاريا كما ذهب فورنل (194)
نقلا عن ابن خلدون (195) الذى ذهب الى ان « النكارية
الخوارج الصفرية » . وانما كان اباضيا نكاريا جمعت حركته سائر فرق
الاباضية في المغرب ، وهذا ما يعنيه قول ابن حوقل : (196)

« خرج أبو يزيد في اضراب الكفر والنفاق والاباضية والنكارية
المراق » .

وجدير بالتنويه ان ابا يزيد حاول استنفار اتباع كافة المذاهب
والفرق الناقمة على الشيعة الاسماعيلية والاستفادة منهم . ذكر ابن
عذارى (197) انه لم يفصح بادية ذى بدء عن ميوله المذهبية لنفس
الغرض « فدعى الى الحق بزعمه ، ولم يعلم الناس مذهبه ، فرجوا فيه
الخير والقيام بالسنة » . حقيقة ان ابا يزيد لم يعلن في بادىء الامر عن
« نكارية » الحركة ، فأذاع انه « خرج غضبا لله » (198) « لاستخفاف
الفاطميين بالشريعة والوضع من النبوة » (199) ، لكن جموع الوهبية
والسنة الذين آزره لم يخف عليهم حقيقة معتقداته ، انما أيدوه لاتفاقهم
معه في الرغبة في الاطاحة بالحكم الفاطمى رغم ما كان بينهم جميعا من عدا
مذهبي . فالاباضية الوهبية بايعوه على شريطة « انهم ان ظفروا بالمهدية
والقيروان صارا الامر شورى » (200) والسنة آزره نكاية في الفاطميين ،

-
- (191) أبو زكريا : ورقة 48 ، 49 .
(192) ابن أبى دينار ص 52 ، المقرئى : الخطط : ج 1 ص 351 . وقد ذكر الشافعى
أن النكار اعتمدوا في عقائدهم على اقوال عبد الله بن زيد في الكلام ، وأبى المورج
وابن عبد العزيز وحاتم بن منصور في الفقه . انظر : السير ص 280 .
(193) انظر : Les siècles obscurs. P. 257.
(194) انظر : Les Berbers Vol. 2. P. 225.
(195) انظر : العبر : ج 4 ص 40 ، الاستبصار ص 205 .
(196) المسالك والممالك ص 48 .
(197) البيان المغرب : ج 1 ص 307 .
(198) الخزرجى : ورقة 45 ، ابن الخطيب : رقم الحل ص 34 .
(199) ابن النديم : الفهرست ص 265 .
(200) ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

اذ اُفتى فقتلهم أن قتالهم « أفضل من جهاد أهل الشرك » (201) واجمعوا على الانضمام لابي يزيد لان الشيعة في نظرهم « كفر بيننا الخوارج من أهل القبلة لا يزول منهم الاسلام » (202) . فانضمام الوهبة الإباضية والسنة للحركة اذن كان بمثابة ائتلاف أو تحالف ضد عدو مشترك .

ومن المحقق أن أبا يزيد تطلع الى تكوين دولة إباضية كبيرة متأثرة بتعاليم المذهب الإباضي ، ولذلك هادن كافة الأحزاب المناوئة للفاطميين واستخدمهم في الجهاد ضدهم . ولم يكن بوسعهم اظهار مراميهم الحقيقية في بداية حركته ، إنما أثر التمويه واعمال الحيلة ، فلم يمانع في قبول اشتراطات الوهبة اعداءه التقليديين ، ولم يجد غضاضة في خداع السنة حين « امرهم بقراءة مذهب مالك » (203) .

والحقيقة أن أبا يزيد كان يكن عداء مرا لهؤلاء وأولئك لا يقل عن عدائه للفاطميين ، ومن المؤكد أنه اضمر بهم غدرا أو على الأقل اضعاف شوكتهم بضربهم بالفاطميين . فقد أرجأ الانتقام من الوهبة الى ما بعد الانتهاء من قتال الشيعة (204) ، كما « مكر بالسنة » (205) أثناء حصار المهديّة ، وتخلّى عنهم لتحصدهم جيوش القائم الفاطمي .

كما لم يتورع عن اظهار مراميهم الحقيقية في النهاية حين استشعر من نفسه القوة بعد انتصاراته التي أجزها على الجيوش الفاطمية (206) كل ذلك يؤكد الطابع المذهبي للحركة باعتبارها — في المحل الاول — ثورة

(201) الدباغ : ج 2 ص 185 ، القاضي عياض : ترتيب المدارك قسم «1» من جزء «2» ص 64 ، 65 وقد نظر فقهاء القيروان الى ما قام به العبيديون من تغييرات في العبادات والطقوس على أنه من قبيل الكفر . فقد أسقط المروزي عامل المهدي على القيروان صلاة التراويح ، كما أحدث القائم تغييرات جوهرية في الشرائع والاحكام اثار غضب فقهاء السنة الذين أخذوا بالشدة والبطلان .
انظر : ابن عذاري : ج 1 ص 205 — 208 ، الاستبصار ص 205 ، الدباغ : ج 2 ص 244 .

(202) سعيد بن مقديش ص 125 .

(203) ابن عذاري : ج 1 ص 308 .

(204) قيل ان أصحاب أبي يزيد من النكار طالّبوه بقتال الإباضية الوهبة اخذا بشار زعيمهم يزيد بن مندني ، فوافقتهم الرأي على أن يكون ذلك بعد فراغه من قتال الشيعة .
انظر : أبو زكريا : ورقة 39 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 44 .

(205) سعيد بن مقديش : ص 127 .

(206) ابن النديم : الفهرست ص 266 .

اباضية مضادة للحكم الفاطمي ، ورد فعل خارجي (207) لسياسة الفاطميين في بلاد المغرب .

والذي يستقضى نشأة أبي يزيد يلتمس تلك الحقيقة على الرغم مما نسج حولها من القصص والاساطير ، فحتى تلك الاساطير لا تخلو من دلالة على تطلع اباضية المغرب للاطاحة بالحكم الفاطمي تحت قيادة أبي يزيد (208) .

على كل حال — اجمعت المصادر على انتمائه الى زناتة ، وان اختلفت في التفاصيل (209) . وعلى الرغم مما احاط حياته الاولى من غموض (210) . فقد كشفت المراجع ان اياه كان من قسطنطينية ببلاد الجريد، وأنه احترف التجارة مع بلاد السودان (211) . وقد ولد ابو يزيد من ام سودانية (212) واب من زناتة . ونشأ بمدينة توزر — من اعمال قسطنطينية — معتقل الاباضية النكار ، الا أنه حفظ القرآن ودرس احوال المذهب الاباضي الوهبي (213) . ثم ارتحل الى سجلماسة ودرس على ابن الجمع شيخ

(207) مما يؤكد الطابع الخارجي لحركة أبي يزيد عملته التي تضمنت عبارة « لا حكم الا لله » وهاك صورة الدينار ضرب في مهبه :
الوجه : ربنا الله — لا حكم الا لله — وحده لا شريك له — الحق المبين .
الدائرة : بسم الله الرحمن الرحيم — ضرب هذا الدينار بالقيروان سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة .
الوجه الاخر : العزة لله — محمد رسول الله — خاتم النبيين .
الدائرة الاولى منه الذين آمنوا به وعززوه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون .
الدائرة الثانية : محمد رسول الله — ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . انظر حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية : ج 1 ص 440 .

(208) انظر : أبو زكريا : ورقة 38 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 ،
Le Tourneau : Op. Cit. P. 104.
Cherbonneau : Op. Cit. P. 472.

(209) ذكر ابن حماد أنه من بني جعفر من بطون زناتة ، أما ابن خلدون فقال أنه من بني واركو من بطون بني يفرن ، وذكر الدرجيني نقلا عن الرقيق أنه من بني واسن في حين قال ابن حوقل بأنه من سباطة . انظر : اخبار ملوك بني عبيد ص 18 ، العبر : ج 7 ص 13 ، طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 23 ، المسالك والممالك ص 48 .

(210) ابن حماد ص 17 ، Le Tourneau Op. Cit. P. 104
(211) زهرة المعاني ص 69 من ملاحق كتاب Ivanovva : Ismaili tandition

ابن حماد ص 18 ، ابن مغازي : ج 1 ص 307 ، ابن خلدون : ج 4 ص 40 .
(212) ابن حماد ص 18 . بينما ذكر ابن الاثير وابن خلدون ان امه كانت من هواره . انظر : الكامل : ج 8 ص 138 ، العبر : ج 7 ص 13 .

(213) ابن الاثير : ج 8 ص 138 ، ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

الاباضية هناك لمدة عامين (214) انتقل بعدهما الى تاهرت (215) ، حيث افتي في الفقه الاباضى الوهبي (216) مدة ثم عاد ادراجه الى توزر ، وفي توزر اختلط بشيوخ النكار فمال الى مقالاتهم وتبحر في اصول مذهبهم (217). ولا يخالجننا شك في عودته الى تاهرت بعد ذلك حيث راقب عن كثب الاحداث النى جرت فيها اواخر العهد الرستمي ، ومن المحتمل ان يكون قد اسهم فيها بدور اضعاافا للامامة الوهبية .

على كل حال — لم يطب له فيها المقام ، اذ سقطت في يد الشيعة سنة 297 هـ (909 م) ، فغادرها الى تقيوس (218) من بلاد قسطنطينية (219) .

وفي تقيوس عكف على تحفيظ الصبية (220) القرآن وتعليمهم المذهب النكارى في مكان عرف « بعين النكاره » (221) والراجح انه بدا منذ ذلك الحين يعد العدة لجمع شمل الاباضية النكار تمهيدا للثورة على الفاطميين . ولو صح قول المقرئى (222) بانه شرع في سنة 303 هـ (915 م) في تجميع الانصار لهذا الغرض ، لكان معناه انه قضى حول ثلاثة عشر عاما فى الاعداد للثورة ، لانه لم يجهر بدعوته الا فى عام 316 هـ (921 م) (223) . وفى ذلك العام كثر اتباعه وانصاره ، وظهر مذهب النكارى وبدا « يحتسب على الناس في افعالهم ومذاهبهم » (224) . وانكر على الفاطميين سياستهم الدينية والمالية (225) .

كان طبيعيا ان يبعث المهدي الى عامله على تقيوس يأمره بالقبض

-
- (214) الشماخى : السير ص 279 .
(215) ابن الاثير : ج 8 ص 138 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
(216) ابن حباد ص 20 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 478 .
(217) ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
(218) نفس المصدر ص 40 .
(219) الاستبصار ص 156 .
(220) ابن حباد ص 19 ، ابن الاثير : ج 8 ص 138 .
(221) ابن حيان : المتقوس في اخبار بلد الاندلس ص 192 ، ابن النديم ص 265 .
(222) اتعاظ الحنفا ص 109 .
(223) ابن حباد ص 19 ، ابن الاثير : ج 8 ص 138 .
(224) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيحة .
(225) ابن الخطيب : رقم الحل ص 34 .

على أبي يزيد (226) . لكنه نجح في الهرب الى الشرق ، ولم يعد الى المغرب الا بعد وفاة المهدي سنة 322 هـ (934 م) .

نزل أبو يزيد بتقيوس مرة أخرى ، وشرع على الفور في الاعداد للثورة على القائم ، فبعث رسله الى جبل نفوسة مستنفرًا الاباضية الوهبية لشد أزره (227) ، ثم انتقل الى توزر سنة 325 هـ (937 م) حيث ساندته اكثرية من الاباضية النكار — وأعلن الثورة من هناك (228) .

وبعث القائم الى والي قسطنطية ليواجه الخطر الاباضى ، فبعث بدوره الى عامله على توزر — ويدعى ابن فرقان — (229) بالقبض على أبي يزيد ، فاعتقله وأودعه السجن . وحاول شيوخ النكار الوساطة لدى ابن فرقان لاطلاق سراح أبي يزيد ، دون جدوى ، فأجمعوا السراى على تحريره بالقوة (230) ، فكان لهم ما أرادوا (231) .

وعول أبو يزيد على استنفار سائر جماعات الاباضية وجمعهم في مكان آمن ، فنزل بوارجلان (232) وبعث الى الاباضية بجبال الاوراس يطلب التأييد ، فأجابوه . فغادر وارجلان الى الاوراس ، وانضم اليه بنو برزال — ومواطنهم جنوب المسيلة — وكذلك بنو زنداك من مغراوة (233) ، فضلا عن لواتة وبنو كملان (234) . واتفق شيوخ الاباضية — وهبيسة ونكارا — على بيعه أبي يزيد سنة 331 هـ (944 م) « على محاربة الشيعة.

(226) الدرجيني : ج 1 ورقة 23 . وقد ذكر ابن خلدون ان القائم . وليس المهدي — هو الذى بعث الى عامله بالقبض على أبي يزيد . (انظر المبرج ج 7 ص 13) ونعتقد ان المهدي كان على علم بنشاط أبي يزيد منذ البداية ، فلم يكن انشاؤه المهدي الا لخوفه من خطر ثورات الاباضية وهذا يفهم ضمنا من الروايات الاسطورية التى نسجت حول انشائها ويدهى أن يبادر بمواجهة ذلك الخطر قبل أن يدهمه ، فكان كتابه الى عامله بتقيوس للقبض على أبي يزيد ، انظر زهرة المعاني ص 69 ، ابن الاثير : ج 8 ص 30 ، Bernard : Op. Cit. P. 131.

(227) وجه أبو يزيد الى اهل الجبل هذه الرسالة . . « قد ماتنا منكم كثير ، وفاتكم منا كثير ، وانه ليس لله علينا أن نشترى حجة » انظر : أبو زكريا : ورقة 38 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 23 .

(228) ابن حماد : ص 20 ، ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

(229) ابن خلدون : نفس المصدر والصحيفة .

(230) أبو زكريا : ورقة 38 ، الدرجيني : ج 2 ورقة 44 .

(231) تصور المصادر الاباضية أن أربعة من النكار اقتحموا السجن وقتلوا كل من تصدى لهم حتى تمكنوا من تحرير أبي يزيد ، وهي رواية تغلب عليها الطابع الاسطوري .

انظر : أبو زكريا : ورقة 138 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 44 .

(232) ابن خلدون : ج 7 ص 13 .

(233) نفس المصدر والصحيفة .

(234) نفس المصدر والصحيفة .

على أن يكون الامر شورى اذا ظفروا بالمهدية » (235) .

ويمكن تقسيم الصراع بين أبى يزيد والفاطميين الى ثلاثة مراحل أساسية ، بدأت المرحلة الاولى منها بحصار جيوش القائم لأبى يزيد بالاوراس سنة 331 هـ (944 م) وانتهت بحصار أبى يزيد للمهدية سنة 333 هـ (946 م) ، وفيها كانت الغلبة للثوار . اما المرحلة الثانية ، فكانت الحرب فيها سجالا ، اذ تبادل الطرفان النصر والهزيمة . بدأت هذه المرحلة باخفاق أبى يزيد فى افتتاح المهدية وانتهت بحصاره سوسة فى جمادى الاخر سنة 334 هـ (947 م) . وفى المرحلة الثالثة كان افول نجم أبى يزيد وهزيمة جيوشه وانتهاء الامر بقتله ، ومثل ابنه الفضل فى الاخذ بثأره سنة 336 هـ (949 م) .

المرحلة الاولى :

من السمات البارزة لتلك المرحلة بزوغ نجم أبى يزيد واشتداد ساعده بانضمام جموع الإباضية كافة الى حركته فضلا عن مالكية القيروان . وبفضلهم دانت له غالبية مدن افريقية وحصونها بعد حروب حالفه النصر فيها . ولم تجد نفعا محاولات القائم استرداد نفوذه . فقبع بالمهدية متخذاً موقف الدفاع . وكاد الحكم الفاطمى أن يزول نهائيا من بلاد المغرب لولا انضمام صنهاجة الى القائم ، اذ أدى انضمامها الى تحول كبير فى مسار الصراع .

فقد عول القائم بادية ذى بدء على مباغطة أبى يزيد بالاوراس سنة 331 هـ (944 م) ولما يشتد عوده بعد . الا أن أبى يزيد أفلح فى فك الحصار الذى ضربنه جيوش القائم (236) حول مقره وأحرز نصرا على تلك الجيوش ذاع بعده صيته ، فانضمت اليه كثير من القبائل منها مزانة (237) . وعلى التو شرع أبو يزيد فى فتح مدن افريقية وحصونها الساحلية ، فاستولى على باغاية (238) — جنوبى الاوراس (239) — ومنها توجه الى قسطنطينية

(235) نفس المصدر والمصحفة .

(236) من حيل أبى يزيد فى فك الحصار . انظر : أبو زكريا ورقة 39 ، الدرجينى :

ج 1 ورقة 44 .

(237) نفس المصدرين والمصحفات .

(238) ابن همام ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص 1

(239) الاستبصار ص 163 .

ففتحتها (240) وانضمت اليه جموع النكار فيها ، ونجح في الحيلولة بينهم وبين مقاتلة الإباضية الوهبية (241) . ثم امن أهلها وهدم أسوارها (242) .
 وواصل أبو يزيد فتوحاته فدانت له تبسا ومجانة — بوسط افريقية —
 كما فتح مرماجنة — جنوبى مجانة — وأهدى له رجل منها حمارا أصهب
 صار يركبه وبه كنى ، فقليل « صاحب الحمار » (243) . وتوجه الى الاربس
 — شمال غربى القيروان — ففتحتها وأضرم فيها النيران كما أنفذ عسكرا الى
 سببية — قرب القيروان — استولى عليها بعد قتل عاملها (244) .

وأحدث سقوط الاربس هلعاً كبيراً في المهديّة (245) ، فأنفذ القائم
 جيوشاً للدفاع عن رقادة والقيروان ، كما بعث بقائديه ميسور الفتى
 وبشرى الفتى لمناوئة أبى يزيد . غير أن بشرى هزم عند باجة فوقع في
 يد أبى يزيد وانصرف بشرى الى تونس فاستمال أهلها بالمال ، فبعث أبو
 يزيد عسكرا في أثره دارت الدائرة عليه . لكن أهل تونس ثاروا على بشرى
 وكاتبوا أبا يزيد ، فأمنهم وولى عليهم رجلاً منهم يدعى رحمون . ثم توجه
 أبو يزيد نحو القيروان . فسبقه بشرى اليها وهزم طلائع الجيش الإباضى ،
 وبعث بالأسرى الى المهديّة حيث قتلوا (246) .

واستعان بشرى بكتامة لملاقاة أبى يزيد والحيلولة دون وصوله الى
 القيروان — فخرجت للقائه ، لكنها عادت مدجورة الى القيروان ، واستولى
 أبو يزيد على رقادة وعاث فيها في الوقت الذى كان فيه قائده أيوب الزويلي
 يدق أبواب القيروان . ثم سقطت القيروان في صفر سنة 333 هـ (946 م)
 في يد أيوب ، فقتل عاملها ، وأمن شيوخها ورفع النهب عنهم (247) . أما
 ميسور الفتى فقد هزم على يد أبى يزيد عند مكان يقال له الأخوان (248)
 عند ما حاول استنقاذ القيروان (249) . وطير أبو يزيد أنباء انتصاراته

-
- (240) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص 109 .
 (241) أبو زكريا : ورقة 39 .
 (242) ابن الأثير : ج 8 ص 138 .
 (243) ابن حباد ص 20 وذكر أبو زكريا أن أبا يزيد كان قد حضر معه حماره المشهور
 من مصر . انظر : السيرة : ورقة 39 .
 (244) ابن الأثير : ج 8 ص 138 ، المقرئى : اتعاظ الحنفا ص 110 .
 (245) المقرئى : نفس المصدر والصحيفة .
 (246) ابن حباد ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 ، التجانى : رحلته ص 24 ، 25 .
 (247) ابن خلدون : ج 4 ص 41 .
 (248) منزل بين القيروان والمهديّة . البكرى ص 31 .
 (249) ابن عذارى : ج 1 ص 310 ، ابن الأثير : ج 8 ص 139 ، ابن خلدون : ج 4
 ص 41 .

تلك الى عبد الرحمن الناصر في قرطبة (250) .

والواقع ان ابا يزيد بلغ قمة النصر بالاستيلاء على القيروان ، اذ انضم اهلها من المالكية اليه وكونوا جيشا قويا انضوى تحت لوائه (251) ، كما هوت مقاومة سوسة — ميناء بشمال شرقى القيروان — امام سرية من رجاله (252) ، لكن لم تدم سيادته عليها طويلا (253) ، وساد الهلع مدينة المهديّة اذ أصبحت مهددة بالسقوط ، ولم يستطع القائم مناهضة ابي يزيد ، فخذق على نفسه بالمهديّة وناشد زيرى بن مناد شيخ صنهجة العون ، كما استنهض همة الكتامين للدفاع عن العاصمة (254) .

ورحل ابو يزيد من القيروان ميّما وجهه شطر المهديّة ، وخرجت جيوش القائم للقائه عند مكان يقال له « الوادى الملح » (255) فبدد ابو يزيد شملها (256) ولم يشأ تعقب فلولهم . بل آثر استجماع كافة قواه لاقتحام المهديّة ، فبعث فى استدعاء ابنه فضل الذى وصل مسرعا على رأس امداد هائلة من القيروان (257) . واتخذ ابو يزيد معسكره عند مكان يقال له « ثرنوط » على بعد ستة اميال من المهديّة (258) . لكن تحولا كبيرا فى الموقف افضى الى فشل محاولات ابي يزيد فى اقتحامها .

المرحلة الثانية :

كان الصراع فى هذه المرحلة سجالا ، نتيجة حدوث صدع فى معسكر

(250) تعتبر علاقة ابي يزيد الودية مع اموى الاندلس امتدادا لعلاقات اباضية تاهرت مع امراء قرطبة ، وولاء زناتة لاموى الاندلس . غير أن ابن خلدون بالغ فى تقدير طبيعة هذه العلاقة ، فذهب الى أن ابا يزيد « كان يدعو للناصر صاحب الاندلس » وكان ملتزما لطامته والقيام بدعوته . والواقع أن الامر لم يتجاوز « ترحيب اموى الاندلس بثوار المغرب ضد الفاطميين » كما لم يقصد ابو يزيد سوى مناشدة الناصر العون ضد عدوهما المشترك . وجدير بالتنويه أن الرسل الذين انلذهم ابو يزيد لهذا الغرض لاتوا ترحيبا فى قرطبة وان لم تسفر اتصالاتهم عن نتائج ايجابية . انظر : Variedades : Al-Hakam II y los berbers P. 316.

Fournel : Op. Cit. Vol 2. P. 338, Brunschrig : Op. Cit. P. 17.

(251) كان أحد بنودهم مكتوب عليه « نصر من الله وفتح قريب على يد ابي يزيد . اللهم انصره على ساب نبيك » انظر : ابن عذارى : ج 1 ص 309 ، سعيد بن مقديش ص 126 .

(252) ابن حباد ص 20 .

(253) التجاني : رحلته ص 27 ، محمد الاندلسي : الطل السندسية ص 115 .

(254) ابن حباد : ص 20 ، ابن الاثير : ج 8 ص 139 ، التجاني ص 324 .

(255) مكان بين المهديّة وتاجر . انظر : البكرى ص 29 .

(256) نفس المصدر والصحيحة .

(257) ابن حباد ص 21 ، ابن خلدون : ج 4 ص 42 ، المتريزي : اتعاط الحنا ص 114 .

(258) البكرى ص 31 ، وقيل على بعد خمسة اميال من المهديّة . انظر : التجاني : ص 326 .

أبى يزيد ، وتمدعيم جيوش القائم فقد دب الشقاق لى صفوف الثوار ، وبارح الإباضية الوهبية والسنة المالكية ومعسكر أبى يزيد ، فى الوقت الذى تواذت فيه جموع كتامة وصنهاجة للذود عن المهديّة . ولا غرو فقد أخفق الثوار فى اقتحامها ، وعمدت جيوش القائم الى استرداد نفوذه فى افريقية ، بينما عول أبو يزيد على محاولة إعادة تجميع قواه والاعتماد أساسا على النكار بجبل الاوراس واتسم الصراع بينه وبين القائم بالقسوة والضراوة ، فكانت الحرب سجالا تبادل الطرفان فيها النصر والهزيمة .

فقد عسكر أبو يزيد بثرنوط كما سبق القول ، ومنها حاول مرارا غز والمهديّة دون جدوى .

ففى المرة الاولى ، وصلت جيوشه الى بابها — عند المصلئ — وأضحت قاب قوسين من السقوط ، لكن انشغال عسكره بالمفائم واستبسال كتامة فى الدفاع ، ووصول صنهاجة لنجدة القائم ، غير مسار القتال ، هدارت الدائرة على أبى يزيد وكاد أن يقتل فى المعركة . لكنه نجا بأعجوبة ، وعادت جيوشه الى ثرنوط (259) .

وحفر أبو يزيد خندقا بثرنوط وأرسل يطلب المدد من نفوسة والزاب ، وأقاصى المغرب . ولما وصلت له الامداد ، كر الى المهديّة محاولا اقتحامها للمرة الثانية ، الا أنه عاد مدحورا أيضا . فبعث يستنجد بعامله على القيروان ، فخف الى نجدته ، وزحف أبو يزيد فى آخر رجب سنة 333 هـ (946 م) على المهديّة لكنه هزم مرة أخرى . وفى آخر شوال قام بمحاولته الرابعة ، فشدّد عليها الحصار ، وهدد من بداخلها بالموت جوعا . لكن القائم نجح فى مواجهة المجاعة لما كان قد أذخره من حبوب ومؤن من قبل ، وأمر كتامة بمهاجمة قسنطينة — أكثر مدن افريقية حصانة ومنعة (260) — فاضطر أبو يزيد الى انفاذ جزء من جيشه للحيلولة دون استيلاء الكتامين عليها .

ودب الشقاق فى معسكر أبى يزيد ، ففارقه الإباضية الوهبية والمالكية ولم يبق معه سوى النكار من زناتة الاوراس وبنى كملان وهوارة (261) .

(259) ابن الاثير : ج 8 ص 140 ، ابن خلدون : ج 4 ص 41 ، المقريزى : انماظ الحنفا ص 114 .

(260) الاستبصار ص 165 .

(261) ابن الاثير : نفس المصدر والصحيحة ، التجانى ص 326 .

ورد بعض (262) المؤرخين ذلك الى ياسهم من اقتحام المدينة لناعيتها ، وحرمانهم من الاسلاب والمغانم التي كانوا يطمعون فيها .

ونعتقد ان ابن خلدون (263) اصدق في تفسير ذلك الانشقاق ، اذ ارجعه الى اظهار ابي يزيد حقيقة نواياه ، وغدره بالقيروانيين ، وتنكره لما اخذه على نفسه من عهود ومواثيق . فقد تنافس زعماء هذه الفرق في الظفر بالسلطة حين اضحى سقوط المهديّة وشيكا ، ومن ثم اوقع ابو يزيد بالسنة اثناء القتال مع جيوش القائم ، فأمر رجاله بالتخلي عن القيروانيين اثناء المعركة وتركهم هدفا لسيوف الشيعة « فقتل من شيوخهم أربعة آلاف ما بين عابد وعالم وصالح » (264) وأدرك الاباضية الوهية مراى ابي يزيد في الانتقام اذا ما دانت له المهديّة ، مفارقوه حتى « لا يتفرغ لافشاء كفره » (265) .

ولعل ذلك يفسر غضبة السنة على ابي يزيد ودعوتهم للخلافة العباسية ، وملاحقة ابي يزيد حركتهم ، وقتله زعيمها (266) ، كما يفسر ايضا طلبه الامداد من الاباضية النكار بالاوراس بعد مقاطعة سائر الفرق الاباضية الاخرى حركته (267) . وحين وصلت هذه الامدادات ضرب الحصار من جديد على المهديّة ، وكادت تسقط هذه المرة بعد ان غادرها كثيرون من اهلها لائذين بصقلية وطرابلس ومصر ، لولا استبسال فرسان كتابة فسى الذود عنها (268) والحاquem الهزيمة بأبي يزيد الذى هرب الى القيروان تاركا معسكره غنيمة لجيوش القائم (269) .

لذلك ثارت معظم مدن افريقية على ابي يزيد ودخلت في طاعة القائم (270) . وحاول ابو يزيد استرداد نفوذه المفقود ، فاسترد تونس في صفر سنة 334 هـ (947 م) ، ثم فقدتها مرة أخرى بعد هزيمته عند اصطفورة — على مقربة من تونس — واستعادها أيوب بن ابي يزيد من

(262) نفس المصدرين والصفحات .

(263) العبر : ج 4 ص 42 .

(264) سعيد بن مقديش ص 127 .

(265) الاستبصار ص 206 .

(266) ابن خلدون : ج 4 ص 42 .

(267) ابن حماد ص 23 .

(268) نفس المصدر والصحيفة ، المتريزى : اتعاط الحفا ص 116 .

(269) ابن خلدون : ج 4 ص 42 .

(270) نفس المصدر والصحيفة .

جديد كما استرد باجة وأضرم فيها النيران (271) .

وطلب القائم العون من عامله على المسيلة — من بلاد الزاب (272) — على بن حمدون (273) لاستنقاذ باجة ، لكن أيوب بن أبى يزيد بدد شمل جيشه . وفى تلك الاثناء نجح القائم فى دخول تونس واتصاء أبى يزيد عنها ، ففر الى القيروان . فى حين نجح على بن حمدون فى بسط نفوذ القائم على مدينتى تيجس (274) وباغاية (275) .

وكان لا بد لأبى يزيد ليسترد هيئته أن يحرز نصرا كبيرا يعوضه عن هزائمه السابقة ، فأعد جيشا ضخما مزودا بآلات الحصار والمنجنقات ، فضلا عن ثمانين ألف فارس واتجه نحو سوسة فى جمادى الآخرة سنة 334 هـ (947 م) وضرب عليها الحصار (276) ، دون جدوى .

المرحلة الثالثة :

دارت الحرب سجالا حول سوسة وفى تلك الاثناء توفى القائم فى رمضان من نفس العام (277) . وتولى بعده ابنه اسماعيل الملقب بالمنصور ، وكتب المنصور خبر وفاة والده ، ولم يغير شيئا من رسوم الخلافة كالسكة والخطبة والبنود (278) حتى لا يفت ذلك فى عضد اتباعه .

وبادر المنصور بانفاذ جيشه وأسطوله الى سوسة لفك الحصار عنها . وبالفعل تمكن رجاله من هزيمة أبى يزيد واستباحة معسكره ، كما

(271) ابن الأثير : ج 8 ص 141 ، المقرئى : اتعاط الخفا ص 116 .

(272) الاستبصار ص 171 .

(273) ابن حيان : المتقبس فى أخبار بلد الاندلس ص 35 .

(274) مدينة تقع بين مجانة وقسنطينة . انظر البكرى ص 63 .

(275) ابن خلدون : ج 4 ص 42 ، المقرئى ص 118 .

(276) البكرى ص 35 ، ابن حباد ص 23 .

(277) تخطئ بعض الروايات حين تجعل وفاة القائم اثناء حصار المهدي وليس حصار

سوسة . انظر : أبو زكريا : ورقة 40 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 45 .

(278) ابن خلدون : ج 4 ص 43 ويؤكد قول ابن خلدون أن العملة التى ضربها المنصور

سنة 336 هـ هى أول عملة ضربها ، إذ ضربت بعد ظفره بأبى يزيد فى نفس العام .

وهاك صورة لها :

الوجه الأول : الامام — لا اله الا الله — المنصور بالله .

دائرية : بسم الله ضرب هذا الدينر بالمهدية شهر ذى القعدة من سنة ست وثلاثين

وثلاثمائة ، الوجه الآخر ، اسماعيل — محمد رسول الله — أمير المؤمنين . انظر :

Lane-Poole : Catalogue of oriental coins in the British museum. Vol 4 P. 6.

أبلى أهل سوسة في المعركة بلاء حسنا (279) .

ونزل أبو يزيد القيروان ، فثار أهلها عليه وطرده منها ، فلجأ إلى سببية (280) . وقدم المنصور إلى القيروان وأجرى على أهلها الرزاق والعطايا (281) ونشب قتال بين أبي يزيد والمنصور في أرباضها دارت اندائرة فيه على أبي يزيد في أواخر ذي القعدة سنة 334 هـ (947 م) . غير أن أبا يزيد تمكن من الحاق عدة هزائم بجيوش المنصور ، وبعث بسرياه لقطع الاتصال بين المهدي والقيروان وسوسة ، فوعده المنصور بأن يسلم إليه آله وحرمة بالقيروان على أن يرحل عنها ، فأجابته إلى ذلك ، لكنسه أخلف وعده ، فقاتله المنصور وهزمه في خامس المحرم من عام 335 هـ (948 م) (282) .

وعقد المنصور العزم على استئصال شأفة الثوار ، فعبأ جيوشه والتحم معهم في معركة حاسمة في نهاية المحرم من نفس العام أجهز فيها على خيرة رجال أبي يزيد (283) ، وانتهب معسكره . وفر أبو يزيد تاركا أثقاله وأسلحته لا يلوى على شيء إلى باغاية . وتعقبه المنصور ، فاعتصم ببني برزال من النكار (284) ومرض المنصور فاستقر بالمسيلة ، وقدم عليه زيري بن مناد فأغدق عليه (285) ، كما وافاه محمد بن خزر الذي كان مواليا لأبي يزيد ، فأكرم وفادته ، وعهد اليهما باقتفاء أثر أبي يزيد (286) . وبانضمام صنهاجة وعجيسة إلى المنصور قضى نهائيا على حركة أبي يزيد بالفشل (287) . فعول أبو يزيد على الهرب إلى بلاد السودان لكن أتباعه

-
- (279) تغنى الشعراء بشجاعة أهل سوسة فقال أحدهم :
ان الخوارج صدها عن سوسة منا طعان البحر والاقدام
وجلاد أسياف تطاير بينهما في النقع دون الحصنات رجال
وقال آخر :
مدينة سوسة بالغرب ثغر تدوين له المدائن والثغور
أناها الخارجون ليلكوها فكان من الآله لها نصير
انظر : التجاني ص 28 .
(280) ابن خلدون : ج 4 ص 43 .
(281) ابن حباد ص 26 .
(282) نفس المصدر ص 27 ، ابن خلدون : ج 4 ص 43 ، المقرئ : أتماظ الحنفا ص 121 .
(283) ابن حباد ص 27 .
(284) ابن خلدون : ج 4 ص 43 .
(285) ابن حباد ص 27 ، Charbonneau : Op. Cit. P. 485 .
(286) الخزرجي : ورقة 45 .
(287) ابن حباد : ص 28 ، أحمد مختار المبادئ : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس ص 202 .

منعوه من ذلك . فتحصن بجبل كيانة (288) .

وحاصر المنصور وزيرى بن مناد الجبل وضيقا الخناق على النكار ، فتخلت هواره عن أبى يزيد وانضمت الى المحاصرين ، وقتل كثيرون من النكار وأسر بعضهم . وآوى أبو يزيد الى قلعة (289) برأس الجبل عليها تعصمه من الوقوع فى يد عدوه ، لكن المنصور أضرم النيران فى الشعراء المحيطة بها وحاول أبو يزيد الهرب ، فوقع مثنخا بالجراح فى قبضة المنصور وظل بأسره حتى مات فى المحرم سنة 336 هـ (949 م) متأثرا بجراحه ، ومثل المنصور بجثته وشهر بها (290) . وأظهر اغتباطه بموت أبى يزيد فكتب الى سائر عماله بالمغرب بأبناء انتصاره . وانبرى الشعراء فى امتداحه مهنئين بالقضاء على الثورة (291) .

وحاول فضل بن أبى يزيد استنفار فلول الإباضية ، وهبية ونكارا ، لمناهضة المنصور . ونجح بالفعل فى جمع أخلاط شتى جعل على رأسهم معبد بن خزر الزناتى . وبادر المنصور بانفاذ جيش قاده مواليه شفييع وقيصر ، وجعل معهما زيرى بن مناد ، فبددوا شمل الحشود الإباضية (292) ، وهرب الفضل لاثذا بمزاةة . ويبدو أن الإباضية الوهبية هذلوله فى حروبه ، وألبوا عليه مزاةة أيضا ، فقاتلوه هو وأصحابه من النكار ، وقدموا رأسه قربانا للمنصور توددا اليه ، فأمنهم ، « وانطفا ذكر انفضل والنكار » (293) . وأغدق المنصور على زعماء مزاةة بالهدايا اعترافا بفضلهم (294) .

(288) ابن حباد ص 28 ، التجانى ص 327 .

(289) مرمت هذه القلعة « بقلعة الشاكر » من عمل لهيصة . انظر : ابن الخطيب : اعمال الاملاص : ج 3 ص 154 .

(290) ابن حباد ص 30 ، ابن الطيب : ج 3 ص 45 ، ابن خلدون : ج 4 ص 44 ، المقرئى : اتعاظ الحنفا ص 125 ، التجانى ص 328 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 46 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 439.

(291) قال احد الشعراء بهذه المناسبة :

حل البلاء بمخلد
وجميع شيعة النواكر
وتال آخر :

أما النفاق فقد نسخ
وابو الكباير قد سلخ
الظر : ابن حباد
Cherbonneau : Op. Cit. P. P. 493, 496.

(292) ابن الاثير : ج 8 ص 145 .

ابن خلدون : ج 4 ص 44 .

(293) أبو زكريا : ورقة 41 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 46 .

(294) ابن حباد : ص 32 ، Cherbonneau : Op. Cit. P. 499.

وحاول أيوب بن أبي يزيد — الذي كان موفدا في سفارة من قبل والده الى الاندلس — رفع لواء الثورة على المنصور ، لكنه اغتيل على يد رؤساء مغراوة أيضا ، وتقربوا برأسه الى المنصور (295) .

هكذا — اخفقت ثورة الاباضية الكبرى ، ولو قدر لها النجاح لاضحى زعيمها من مشاهير التاريخ (296) .

لقد وصل ابو يزيد الى اعتاب النجاح (297) ، لكن عوامل شتى حالت دون تحقيقه . فاستبسال صنهاجة وكتامة في الذود عن الكيان الفاطمي كان عاملا جوهريا وراء فشل الثوار في الاستيلاء على المهديّة آخر معاقل الفاطميين (298) .

ومن المحقق ان ابا يزيد اسهم بسياسته التي اثارت الشقاق بين انصاره في هذا الفشل ، حقيقة انه نجح بدهائه في احتواء كافة العناصر النائمة على الفاطميين وكسبهم الى جانبه ، لكنه لم يستطع الحفاظ على ولائهم لحركته بسبب تنافس هذه العناصر وأطماعهم في الاستئثار بالسلطة بعد هزيمة الفاطميين . فاعمل ابو يزيد الحيلة للتخلص من هذه القوى واحدة تلو الاخرى ليصفو له الجو ، فكانت النتيجة ان فارقت جميعا ، وتخلت عنه في وقت عصيب كان النصر فيه وشيكا .

ويتحامل المؤرخون جميعا اباضية وسنة وشيعية على الرجل ، ويعززون فشله الى فساد سيرته ، وسوء سياسته ، ومروقه وزندقته . فالورجلاني (299) يعزو اليه « خراب افريقية » ويتهمه بأنه « صنع فيها الاقاويل ، واحتال على أهلها الاباطيل » . وابو زكريا (300) يصفه بفساد الخلق ، فكان يبيت كل ليلة على أربعة أكار حسب زعمه . والدرجيني (301) يشبه وحشيته في حروبه « بما فعله نافع بن الأزرق » « والفراعنة وملوك اهل انكفر » ومؤرخو السنة (302) فسجوا من القصص حول هذه المعاني بما لا يقل عن مؤرخي الاباضية « لان مذهبه يستحل اهل السنة ونساءهم » (303)

-
- (295) ابن خلدون : ج 7 ص 17 .
(296) Fournel Op. Cit. Vol. 2. P. 275.
(297) ابن الخطيب : رقم الحل ص 34 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 79 .
(298) ابن حباد : ص 23 ،
(299) الدليل لاهل العقول : ج 2 ص 78 .
(300) السيرة : ورقة 40 .
(301) طبقات الاباضية : ج 1 ورقة 45 .
(302) انظر : ابن الاثير : ج 8 ص 141 ، ابن الخطيب : امال الاعلام : ج 3 ص 54 ، محمد بن محمد الاندلسي : الحل السندسية ص 115 .
(303) ابن الاثير : ج 8 ص 141 .

وبديهي أن يردد مؤرخو الشيعة نفس العبارات ، فهو في نظرهم سفاك
« كان يعمل أكواما من رؤوس المسلمين ويأمر المؤذنين بالأذان عليها » (304)
كما كان « يستبيح نساء المسلمين » (305) أيضا

ولا يخامرنا شك في تجنى تلك المصادر جميعا على أبي يزيد ، فحروب
الاباضية في المغرب — عموما — انطوت على مثالية مفرطة في معاملة
الخصوم . ونجد مصداقا لذلك في حروب أبي يزيد مما أورده أولئك المؤرخون
أنفسهم . فحسبه وفاؤه بالعهود التي كان يقطعها على نفسه ببذل الأمان
لسكان المدن المفتوحة . ولم يلجأ إلى أساليب القمع والبطش إلا حين تهردت
عليه هذه المدن وانضمت لخصومه . والدارس لشخصية أبي يزيد ونشأته
وتربيته يلحس مقدار علمه وتفقهه وما انطوت عليه أخلاقه من شمائل
حميدة . وحسبنا زهده وتعففه وارتدائه الثياب الخشنة وركوبه الحمار
بدلا من الخيول المطهمة (306) ونعلم خروجه بدعوة الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر والاحتساب ، فضلا عن تقواه وورعه حتى كان من أهل الفتيا ،
ولا غرو فقد عرف « بشيخ المؤمنين » (307) ما اصدق لو تورنو (308)
حين قال عنه « كان رجلا مدهشا صاحب دعوة كرس لها حياته ، واستطاع
في سن الشيخوخة أن يصبح زعيما سياسيا نابها ، وقائدا عسكريا حاذقا
وحاكما فذا ، لقد كان أبو يزيد مثالا للرجل العظيم » .

وعلى الرغم من فشل ثورة الاباضية الكبرى سنة 336 هـ (949 م) ،
فقد خلفت آثارا بعيدة الغور في تاريخ المغرب السياسي . فبالقدر الذي هزت
فيه النفوذ الفاطمي وهددت بزواله ، كان خروج الفاطميين من الصراع
ظافرين عاملا هاما في دعم نفوذهم في بلاد المغرب .

ومن ناحية أخرى نبهت ثورة أبي يزيد خلفاء الفاطميين إلى ضرورة
تغيير سياستهم في حكم بلاد المغرب تغييرا تاما (309) ، فشعروا بخطورة
النتائج المترتبة على انتهاج سياسة التعصب المذهبي ، ومن ثم ، جنحوا بعد

(304) ابن النديم : الفهرست ص 266 ، ابن حوقل ص 48 ، المريزي : الخطط :

ج 1 ص 351 .

(305) ابن حباد ص 20 .

(306) ابن حباد : ص 20 .

(307) النويري : ج 26 ورقة 36 .

(308) La revolte d'Abou-Yazid au Xme siecle. P. 123.

(309) De goeje. Op ; Cit. 143.

الثورة الى تطبيق « عقيدة التقية » الشيعية (310) . فيخبرنا القاضي عبد الجبار (311) أن « اسماعيل المنصور الخليفة الفاطمي الثالث قد تظاهر بعد هزيمة أبى يزيد بالعودة الى الاسلام ، فقتل الدعاة ، ونفى بعضهم الى الاندلس والى بلاد أخرى . وقال للامة ، من سمع منكم أحدا يسب النبى فليقتله ، وأنا من ورائه ، وترب اليه الفقهاء والمحدثين ، واستمع اليهم . . كما خفف الضرائب وظهر ولعا بالعفة » .

وفيما يتعلق بمصير الإباضية في المغرب بعد فشل ثورتهم الكبرى ، فالثابت أن ثورة أبى يزيد تعد آخر الحركات الكبرى لاباضية المغرب ، وباخفاؤها لم تقم لهم قائمة ذات شأن بعد ذلك . فبالإباضية الوهبية بجبل نفوسة حاولوا في عهد بنى زيرى معاودة الثورة ، وبايعوا احد مشايخهم ويدعى أبو نوح سعيد بن زنفيل بامامة الدفاع ، واتصلوا باخوانهم بوارجلان وافريقية ، وحاولوا الاستعانة بالخلافة الاموية في الاندلس ، دون جدوى . فقد أدرك أبو نوح « أن البلاد قد تغيرت والمرور قد تمكث » واضطر الى طلب الامان من المنصور بن بلكين ، فأمّنه وأكرم وفادته (312) . واعتصمت فلولهم بجبل نفوسة وواحة وارجلان وبعض نواحي بلاد الجريد (313) . وعلى اثر غزو المرابطين وارجلان هربوا في منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الى وادى الميزاب ، كما تفرقوا الى بعض جهات مراكش وجبل دمر — شمال غربى جبل نفوسة — وظل قليل منهم بوارجلان (314) . أما النفاثية من زواغة ، فاستوطنوا جزيرة جربة — المواجهة لقابس — كما سكن بقايا الخلفية جبل نفوسة (315) . ولم يكن هناك ثمة رابطة بين هذه الجماعات ، فعاشت في شبه عزلة ، ولم تقم بعد ذلك بأدنى دور في تاريخ المغرب السياسى .

أما النكار ، فعلى الرغم من خفوت صوتهم في الحياة السياسية في

(310) برنارد لويس : اصول الاسماعيلية ص 183 .

(311) كتاب تثبيت نبوة سيدنا محمد — مخطوط باسطنبول في مكتبة شهيد على باشا برقم 1575 . وقد اقتبسنا النص السابق نقلا عن برنارد لويس في كتابه : اصول الاسماعيلية ص 183 .

(312) انظر : أبو زكريا : ورقة 49 وما بعدها .

(313) أبو زكريا : ورقة 115 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 43 ، السلاوى : ج 1 ورقة 116 ،

Bel : Op. Cit. P. 150, Farouhy : Op. Cit. P. 15, Basset : Recherches P. 336.

(314) اطفيش : بعض تواريخ وادى ميزاب ص 116 ، LXXV ، Masqueray : Op. Cit. P.

(315) أبو زكريا : ورقة 32 ،

Lewcki : Melanges ... P. 270, Basset : Op. cit. P. 336.

بلاد المغرب لم « تنقطع آثار دعوتهم » — كما ذهب ابن خلدون (316) ، فقد ظل بنو برزال يدينون بمذهب النكار ويثرون العراقيل في وجه بن زيري لصالح أموى الاندلس (317) . وتمركزت فلولهم بين طرابلس وتابس ، كما أقامت جماعات منهم بجبال بجاية وقسنطينة وما ولاها ، فضلا عن بلاد الجريد ، وقد وصفهم التجاني (318) — في القرن الثامن — بسوء الخلق وحدة الطباع .

أما الخوارج الصفرية ، فقد ذوى شأنهم نهائيا من بلاد المغرب في أواخر القرن الرابع الهجرى (319) .

وهكذا — لم يرضخ الخوارج للحكم الفاطمى بسقوط دولتيهما فسى سجلماسة وتاهرت سنة 297 هـ (909 م) وظلت ثوراتهم تقض مضاجع الفاطميين ابتداء من المهدي وانتهاء بالمعز ، وكادت احدى هذه الثورات ان تعصف بحكهم نهائيا من بلاد المغرب . لكن فشل هذه الثورات أفضى في النهاية الى انتهاء دور الخوارج السياسى في بلاد المغرب الاسلامى ، ذلك الدور الذى وجه احداث المغرب على مدار قرنين ونصف قرن من الزمان .

(316) المعبر : ج 7 ص 17 .

(317) ابن حيان : المقتبس في ذكر بلد الاندلس ص 192 ،

Variedades : Op. Cit. P. P. 216, 217.

(318) رحلة التجاني ص 119 ، 120 .

Bel : Op. Cit. P. 169.

(319) ابن خلدون : ج 6 ص 1322 ،

انتهينا من ابراز دور الخوارج في
الحياة السياسية في بلاد المغرب .
لكن اثرهم كان عميقا في المجتمع
المغربى بجوانبه المتعددة في نواحي
الفكر السياسى ونظم الحكم فضلا
عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية
والثقافية .

وليس من شك في ان الخوارج
بفكرهم الثورى الديمقراطى احدثوا
نقلة هائلة في تاريخ المغرب نتج عنها
تطور واضح في نظمه السياسة ،
وازدهار في الحياة الاقتصادية فضلا
عن تغيير ملحوظ في جوانبه
الاجتماعية ، وهو ما سنفصله فيما
يلى :

الباب الخامس

أثر الحوار في المجتمع المغربي

الفكر السياسي وتظم الحكم

لا شك أن نظرية الخوارج في الحكم أكثر نظريات الفرق الإسلامية ميلا إلى الديمقراطية . فعلى خلاف السنة الذين تصروا أحقية الإمامة على فريش ، والشيعية الذين جعلوها في علي بن أبي طالب وأعتابه (1) ، أقر الخوارج مبدأ جواز إمامة أي مسلم عالم بالكتاب والسنة (2) ونادوا بالغائها إذا ما تحققت العدالة والمساواة (3) . ومن هنا نظر المحدثون (4) إلى فكر الخوارج السياسي باعتباره فكرا جمهوريا بالمفهوم الحديث .

ونعتقد أن تصارع الأحزاب الإسلامية حول الزعامة السياسية وما نتج عنه من فتن ومحن ألت بالمسلمين ، زهد جماعة القراء الذين (5) أصبحوا فيما بعد زعماء الخوارج في منصب الإمامة على أساس أنها سبب البلاء والنكبات التي حلت بالجماعة الإسلامية على أثر مقتل عثمان . والواقع أن سماحة نظرية الخوارج في الحكم مستمدة من شدة تدينهم وحرصهم على مراعاة تعاليم الإسلام وما تدمو إليه من مساواة وعدالة . فقد ظهروا

(1) ابن حيون : شرح الاخبار ورقة 87 - مخطوط ، أساس التأويل ورقة 188 ، 189 ، 194 .

(2) النوبختي : فرق الشيعة : ص 31 ، الاسفرائيني : التبصير في الدين ص 46 .

(3) الشهرستاني : الملل والنحل : ص 67 .

(4) انظر : Biquet : Op. Cit. P. 35, Smith : Op. Cit. P. 279.

(5) Farouhy : Op. Cit. P. 12.

(5) ابن قتيبة الإمامة والسياسة : ج 2 ص 206 ، الدينوري : الاخبار الطوال . ص 191.

كفرقة سياسية دينية اثناء قضية التحكيم بين على ومعاوية ، فانكروا تحكيم الرجال ونادوا بأن « لا حكم الا لله » (6) ، ورفضوا امامة على ومعاوية ، وانكروا احتكار قريش لها ودعوا الى الثورة على مخالفيهم باعتبارهم كفر مارقين (7) . وينفى هذا دعاوى البعض (8) بأن فكر الخوارج السياسى محصلة ظروف قبلية كامنة فى كونهم من بدو تميم الذين يقدسون الحياة البدوية ويرفضون الخضوع لسلطان الدولة السياسى. فلم يكن الخوارج جميعا من تميم ، انما انتشر مذهبهم بين قبائل بكر وهمدان والازد وغيرها من القبائل العربية الاخرى (9) .

ففكر الخوارج السياسى اذن مصدره الدين وليس العصبية وهو ما عبر عنه ابن خلدون (10) بقوله « . . الخوارج المستميتين فى شأن بدعتهم لم يكن ذلك لنزعة ملك ولا رياسة ولم يتم امرهم لمزاحمتهم العصبية القوية » انما تولد عن « خلاف اجتهادى فى مسائل دينية ظنية » (11) متعلقة بالامامة ، ذلك هو ما اجمع عليه جمهرة من الدارسين الثقات (12).

وكان الطابع الدينى سمة مميزة لنشاط الخوارج ونظمهم السياسية فى المشرق ، فقد التزموا بتعاليم المذهب فى اختيار الائمة ، وجباية الاموال والجهاد ومعاملة الخصوم . . الخ . كما كان التطرف الشديد من خصائص فكرهم السياسى ومن اسباب فشلهم ايضا حتى قيل بأن « سياستهم غير سياسية » (13) ، وليس ادل على ذلك من قولهم بالاستعراض ورفض التقية وتشددهم فى قبول المهاجرة (14) . . الخ .

الا ان الطابع الدينى وسمة التطرف فى فكر الخوارج السياسى خفت

(6) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين ، ص 46 .

(7) ابن الاثير : ج 3 ص 135 ، احمد امين : ضحى الاسلام ج 3 ص 330 .

(8) راجع آراء بارتولد وكايتانى وماسينيون فى هذا الصدد بمجلة Studia Islamica عدد 1 سنة 1953 فى مقال لبرنارد لويس بعنوان :

Some observations on the Significance of hersey in the history of Islam P.P. 47, 48.

عمر أبو النصر : الخوارج فى الاسلام ص 18 ، عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية . ج 2 ص 78 .

(9) ابن حزم : جمهرة انساب العرب ص 364 ، الدينورى : الاخبار الطوال . ص 197.

(10) انظر : المقدمة - ج 2 ص 69 .

(11) انظر المقدمة . ج 2 ص 178 ، 179 .

(12) راجع : لويس : اصول الاسماعيليه " ص 5 ، فلهوزن : الخوارج والشيعة : ص 29 ، طه حسين : الفتنة الكبرى ج 2 ص 140 .

(13) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص 372 .

(14) قطعة من كتاب فى الاديان والفرق ورقة 97 .

حدثهما في أواخر القرن الأول الهجري ، فأتخذت مبادئهم طابعا عمليا وجنحت نحو الاعتدال . وظهر ذلك بشكل واضح في عقائد الإباضية والصفيرية متمثلا في تجويز الثقة (15) والتوسع في قبول المهاجرة عن طريق الدعوة والتنظيم السياسي (16) ، ثم معايشة الجماعة الإسلامية بترك فكرة تكفير المخالفين في المذهب (17) .

ووجد فكر الخوارج السياسي في شكله المتطور طريقه الى بلاد المغرب بانتشار مذهبي الإباضية والصفيرية بين البربر في أوائل القرن الثاني الهجري . والتزم خوارج المغرب بتطبيق تعاليم المذهب حتي السبعينات من القرن الثاني الهجري فيما قاموا به من نشاط سياسي وما اقروه من نظم في الحكم والادارة . فقد كانت تعاليم الخوارج تحض على « الثورة على أئمة الجور » (18) ، وتدعو انصار المذهب الى العمل لاقامة « امامة الظهور » (19) ، اذا ما توافر ما يوجب التولية من العدة والعدد من الرجال (20) ، لذلك شرع خوارج المغرب في « المجاهرة بالعمل » (21) واصلوا الثورة على ولاة المغرب طوال نصف قرن من الزمان .

وتجلى التزام خوارج المغرب بفكرهم السياسي في عدة مظاهر ، فقد اختار الصفيرية ميسرة اماما لا لانه رئيس مطهرة وانما لعلمه وفقهه وسابقته (22) . ولم يقم ميسرة بثورته الا بعد وقوفه على مسؤولية الخلافة عن مفاسد عمالها في المغرب (23) وتيقنه من ان خلفاء بني أمية « أئمة الجور » . وضمت الحركة عناصر مستضعفة من غير البربر كالأفارقة (24) نطبيقتا لمبدأ اللاعنصرية . وخلع الصفيرية ميسرة لما اخل بشروط الامامة « وتغير عما كانوا بايعوه عليه » (25) .

ولعل من أهم آثار فكر الخوارج السياسي في المجتمع المغربي تطبيق

-
- (15) الرازي : اعتقادات فرق المسلمين ص 51 .
(16) أبو زكريا : ورقة 6 ، الشياخي : السير ص 124 .
(17) الشهرستاني : صفة 123 .
(18) البغدادي : صفة 273 ،
(19) نصوص من كتاب متن مقيدة التوحيد . انظر :
Motylinski : l'Aqida des Ibadites. P. 510 .
(20) أبو زكريا : ورقة 5 .
(21) مجهول : كشف الغمة ورقة 307 مخطوط .
(22) ابن خلدون : ج 6 ص 150 ، السلاوي : ج 1 ص 97 .
(23) الطبري : ج 2 صفة 264 .
(24) ابن عبد الحكم : صفة 293 .
(25) الرقيق : ص 110 ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي . ص 259 .

مبدأ وجود امامين في وقت واحد ، فقد تولى الحارث بن تليد وعبد الجبار ابن قيس المرادي امامة الاباضية في طرابلس سنة 132 هـ (750 م) أحدهما للصلاة والآخر للحرب (26) على غرار المحكمة الاولى حين انقسم المنصبين عبد الله بن وهب الراسبي وحرقوق بن زهير . وفي احتكام امامي الاباضية الى السيف حين دب الخلاف بينهما حتى قتل كل منهما الآخر — لو صحت رواية البرادي (27) — ما يذكر بخلافات زعماء الخوارج في المشرق لاسباب فقهية . وفي انقسام جماعة المذهب بالمغرب واقتتالهم بسبب ما نسج حول الحادث من قضايا فلسفية وفقهية (28) ما يؤكد اثر الفكر السياسي للخوارج في نشاطهم ببلاد المغرب . ومن مظاهر ذلك أيضا اجماع الاباضية على امامة ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمع سنة 140 هـ (757 م) على الرغم من كونه عربيا (29) وثوراتهم كانت ضد الحكم العربي ، وقد حرص ابو الخطاب على مراعاة اصول المذهب فيما استنه من نظم ادارية ومالية ، واستقرشده في ذلك بمشورة ابي عبيدة مسلم بن ابي كريمة شيخ فقهاء المذهب بالبصرة (30) .

ونعتقد ان فكر الخوارج السياسي قد تأثر بنظرية الشيعة عن الامامة الظاهرة والامامة المستترة ، فقد فرق فقهاء المذهب (31) الاباضي بين امامة الدفاع وامامة الظهور . اذ حينما يتعرض الخوارج لمحن سياسية ، يختارون اماما في الخفاء تكون مهمته جمع شمل الانصار وتسيير امورهم والفصل في قضاياهم واعداد العدة للظهور اذا ما واثت الظروف وانقشعت المحنة . هذا هو ما حدث بعد مقتل ابي الخطاب عبد الاعلى بن السمع سنة 142 هـ (759 م) وتعرض الخوارج لبطش الجند العباسي فاختاروا ابا حاتم المزوزي اماما للدفاع في الوقت الذي كان فيه عبد الرحمن بن رستم يعد العدة لامامة الظهور (32) . وتكرر الامر بعد سقوط دولة بني رستم وتفكيك الفاطميين بالخوارج فاجتمع الاباضية في نفوسة على ابي يحيى الارجاني وبايعوه بامامة الدفاع على أمل ان يلتئم شمل انصار المذهب

-
- (26) ابن عبد الحكم : صفحة 302 .
 (27) انظر : الجواهر المنتقاة : ورقة 87 ،
 (28) انظر : الشياخي : السير " ص 125 .
 (29) نفس المصدر والصحيفة .
 (30) انظر ملحق رقم : (1)
 (31) انظر : نصوص من متن عقيدة التوحيد —
 Motylinski : L'Aquida des Ibadites. P. 510
 (32) ابو زكريا : ورقة 11 .

في بلاد المغرب فيقيموا امامة الظهور (33) .

وظهر اثر فكر الخوارج السياسى فيما قام به الصفريه والاباضية من ثورات وما خاضوه من حروب التزموا فيها جميعا بتعاليم المذهب . فالخوارج الصفريه في المغرب كانوا يقتدون بأهل النهروان « في التحكيم ورفع المصاحف وحلق الرعوس » (34) في حروبهم . ونظر التطرف مبادئهم في معاملة الخصوم (35) ، اتسمت حروبهم بالعنف والقسوة (36) فكانوا « يقتلون الاطفال والولدان » (37) ويستحلون سبى النساء والذرائى (38) . اما الاباضية فكانوا اقرب الى الاعتدال سواء في خوض الحروب او معاملة الخصوم ، فكانوا لا يشهرون الحرب على أعدائهم الا بعد اعلامهم واخذ الحجة عليهم ، ولم يتبعوا المدبر او يجهزوا على الجرحى ، كما لم يخربوا الزروع ولم يهدموا سوى الحصون والاسوار وتعففوا عن الغنائم من غير السلاح والعتاد ، ولم يقتلوا الاطفال او يسبوا النساء ، تمسكا بتعاليم المذهب (39) . يظهر ذلك في حروب الحارث وعبد الجبار في طرابلس (40) ، ومعاملة أبى الخطاب عبد الاعلى بن السمع للقيروانيين (41) ، ومعاهدة أبى حاتم المزوزى مع جليل بن صخر (42) .

وظل التزام خوارج المغرب بعقائد المذهب في سياساتهم ونظمهم خلال السنوات الاولى من حكم ائمة بنى مدرار بسجلماسة وببى رستم بتاهرت ، اذ طغت تعاليم المذهب على دوافع العصبية والعنصرية .

فالخوارج الصفريه بايعوا عيسى بن يزيد الاسود من موالى العرب بالامامة سنة 140 هـ (43) (757 م) انطلاقا من مبدأ جواز تولية غير العرب من المسلمين . وفي انشاء سجلماسة ما ينم على بروز العامل الدينى المذهبى ، اذ شيدت لتكون مجمعا للخوارج الصفريه « (44) من سائر

-
- (33) نفس المصدر : ورقة 115 .
(34) مجهول : أخبار مجموعة . صفحة 32 .
(35) الشهرستانى : صفحة 121 .
(36) Gautier : Op. Cit. P. 269.
(37) أخبار مجموعة : صفحة 29 .
(38) الرقيق : صفحة 117 ، 141 .
(39) السوفى : شرح السؤالات ورقة 57 ، الشهرستانى : ص 121 .
(40) انظر : ابن عبد الحكم : ص 301 .
(41) أبو زكريا : ورقة 8 ، الشماخى : السير : ص 129 .
(42) ابن الاثير : ج 5 ص 222 ، ابن خلدون : ج 4 ص 193 .
(43) ابن خلدون : ج 6 صفحة 130 .
(44) المقدسى : احسن التقاسيم ص 219 .

العناصر وكافة العصبية المغربية . ونفس الشيء يقال عن الإباضية ، فقد بايعوا عبد الرحمن بن رستم بالامامة — وهو من الفرس — لفضله وعلمه وسابقته وكفاءته وسلامة حواسه وأعضائه (45) . لقد بويغ ابن رستم اماما للدفاع سنة 144 هـ (761 م) — على اثر مقتل ابي الخطاب — في المغرب الاوسط في نفس الوقت الذي كان فيه أبو حاتم الملوزي اماما للدفاع أيضا في طرابلس وجبل نفوسة (46) . اذ ان الفقه الإباضي يجوز بيعه امامين في وقت واحد « ما وجد بين حوزتيهما عدو يخشى بأسه ، أو لشقة البعد بينهما » (47) . ولم يحل ذلك دون تعاونهما لاقامة امامة الظهور التي تقلدها ابن رستم سنة 162 هـ (179 م) ، فقد كان أبو حاتم يبعث الى عبد الرحمن بركة أمواله (48) . وبيعة ابن رستم الثانية تمت بموافقة « أهل الحل والعقد » من مشايخ المذهب واجماع جمهور الإباضية (49) ، ووفقا لشروط الامامة في الفقه الاسلامي (50) .

وكما أسست سجلماة لتكون مقرا للخوارج الصفرية ، أقيمت تاهرت لتكون « حصنا وحرزا للمذهب الإباضي » (51) الذي كانت تعاليمه مرعية في سياسة الدولة ونظمها في عهد عبد الرحمن بن رستم حتى أطلق عليها بعض الدارسين (52) « مملكة الله » .

والواقع انه ليست لدينا معلومات عن النظم الادارية والمالية في سجلماة ، لكن المصادر حفلت باشارات عن نظم الدولة الرستمية . ويتضح منها أن عبد الرحمن بن رستم راعى تعاليم المذهب الإباضي في سياسته الداخلية . لقد استفاد عبد الرحمن من خبرة الفرس في هذا الصدد (53) لكنه لم يسمح لهم بأى تفوق سياسى أو تمييز اجتماعى في دولته (54) ، فكان يختار عماله وقضاته وأصحاب شرطته ومحتسبيه ممن يثق في علمهم وصلاحتهم . وكان نظام الجباية والصدقات ونواحى انفاقها كل ذلك يجرى حسب شرائع المذهب ووفقا لتعاليمه . وليس أدل

(45) ابن خلدون : المقدمة ج 2 ص 522 .

(46) البردای : الجواهر المنتقاة ورقة 88 .

(47) اظفیش : الامكان ص 107 ، 108 .

(48) أبو زكريا : ورقة 115 .

(49) نفس المصدر : ورقة 11 .

(50) الماوردى : الاحكام السلطانية : ص 6 .

(51) أبو زكريا : ورقة 13 .

(52) انظر : Mercier : l'Etablissement des Arabes P. 133 .

(53) ابن الصفر : ص 16 ، محمد بن تاويت : دولة الرستبيين ص 113 .

(54) Smith : Op. Cit. P. 279 .

على ذلك من قول ابن الصغير (55) المالكى « . . وقضاته مختارة وبيوت امواله ممثلة ، واصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب ، واهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون فى اوان الطعام فيقبضون أعشارهم فى كل هلال . . (هكذا بالاصل) من اهل الشاة والبعر يقبضون ما يجب على اهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون . فاذا حضر جميع ذلك صرف الطعام الى الفقراء وبيعت الشاة والبعر ، فاذا صارت اموالا ، دفع منها الى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم ، ثم نظر فى باقى سائر المال ، فاذا عرف مبلغه ، أمر باحصاء من فى البلد وفيما حول البلد ، ثم أمر باحصاء الفقراء والمساكين فاذا علم عددهم أمر باحصاء ما فى الاهراء من الطعام ، ثم أمر بجميع ما بقى من مال الصدقة فاشترى منه اكسية صوفيا وجبابا صوفيا وفراء وزيتا . ثم دفع فى كل اهل بيت بقدر ذلك ، ويؤثر بأكثر ذلك اهل الفاقة من مذهبه ثم ينظر الى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الارضين ، وما اشبه ذلك فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته واصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم فى سنتهم ، ثم ان فضل فضل صرفه فى مصالح المسلمين .»

وفى تصرف عبد الرحمن بن رستم فى الاموال التى بعثها اليه خوارج المشرق مع بعثتهم الاولى اليه ، واجتماعه برؤساء القبائل وشيوخ المذهب فى المسجد الجامع وانفاقه هذه الاموال وفقا لنصيحة اهل الراى منهم « ثلث فى الكراع وثلث فى السلاح وثلث فى فقراء المسلمين » (56) ما يقيم الدليل على مراعاته تعاليم المذهب فى سياسته الداخلية . ولا غرو فقد حظى حكمه برضى الشراة فى المغرب وشيوخ المذهب فى المشرق « فوصلوه بكتبهم ووصاياهم » (57) .

على ان خوارج المغرب لم يلتزموا بالفكر السياسى عند الخوارج ، ولم يراعوا تعاليم المذهب وشرائعه بعد انتهاء حكم مؤسسى دولتيهما فى سجلماسة وتاهرت . ففى سجلماسة برزت النعرات العنصرية والعصبية وتحكمت فى مقاليد الحكم ونظم الادارة . اذ ان الامامة تحولت الى ملك وراثى احتكرته قبيلة مكناسة فى اسرة بنى مدرار (58) بعد صراع مع زنوج السودان وتنحية

(55) سيرة الائمة الرستيين : ص 15 ا 16 .

(56) النفوسى : صفحة 91 .

(57) الشباخى : السير . صفحة 141 .

(58) ابن عذارى : ج 1 ص 215 ، Bel : Op. Cit. P. 167.

عيسى بن يزيد الاسود وقتله سنة 155 هـ (59) (772 م) . ومنذ ذلك الحين درج أمراء البيت المدراى على انتهاك تعاليم المذهب وتقاليد الامامة حتى ان احدهم خلع نفسه ليظفر احد أبنائه بالحكم كيدا فى ابنه الآخر (60). وبلغ الخروج على المذهب مذاه بتولية الاطفال والنساء مقاليد الحكم ، فقد تولى المنتصر سمكو بن محمد الحكم سنة 332 هـ (945 م) ولما يتجاوز الثالثة عشرة من عمره تحت وصاية جدته (61) . ولعل مما يؤكد تحول الامامة فى سجل ماسة الى ملك وراثى اتخاذ أمراء سجل ماسة القابا على غرار العباسيين كالمنتصر والمعتز ، وتخليهم عن حياة الزهد والبساطة التى اتسم بها أئمة الخوارج واقبالهم على حياة البذخ والثراء واقتناء الاموال (62) والتشبه بالملوك والامراء .

وقد حدث فى تاهرت بعد موت عبد الرحمن بن رستم نفس ما حدث فى سجل ماسة بعد مقتل عيسى بن يزيد الاسود ، اذ تحولت الامامة الى ملك وراثى (63) واتخذ الائمة الوزراء والحجاب (64) . وغدت وظائف الدولة حكرا على عصبيات بعينها استأثرت بها من دون العناصر الاخرى .

والمصادر الاباضية (65) تحاول اظهار شرعية امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فتذكر أنه « أجمع عليه أهل الشورى ، ثم بويع بعد ذلك بيعة عامة لم يتخلف عنها أحد » التزاما بنصيحة والده الذى اثار قبل موته بجعل الامامة شورى بين سبعة أشخاص (66) يختارون الاصلح من بينهم على غرار ما فعله عمر بن الخطاب .

-
- (59) البكرى : صفحة 149 .
(60) راجع : البكرى : ص 150 . ابن عذارى : ج 1 ص 216 .
(61) البكرى : صفحة 151 .
(62) ابن عذارى : ج 1 ص 216 ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام . ج 3 ص 143 .
(63) ابن الصغير : صفحة 16 ، 20 .
(64) وزير لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم السمع بن ابي الخطاب ومزور بسن عمران . انظر : النفوسى : ص 165 . وهذا ينفى زعم هوبكنز ان بنى رستم لم يعرفوا نظام الوزارة على أساس ان ابن الصغير — حسب قوله — لم يشر الى ذلك . انظر Hopkines : Medieval Moslem government. P. 5 والواقع ان ابن الصغير يذكر « . . . وقد ابتدر اليه (يعنى احد الذين رشحوا لتولى القضاء) اصحابه فاحاطوا به وقالوا له ان فلان بن فلان القاضى توفى ، وقد اجمع رأى المسلمين ووزراء الامام عليك . . . » مما يدحض زعم هوبكنز . انظر : سيرة الائمة الرستبيين . ص 47 .
(65) انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 ، النفوسى : ص 99 .
(66) وكان هؤلاء السبعة هم : مسعود الاندلسى وأبو قدامة اليفرنى ويزيد بن فندين ومهران ابن واران الاندلسى وسعدوس بن عطية وشكر بن صالح الكتانى ومصعب بن سديمان . انظر : أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 .

والواقع أن اختيار عبد الوهاب لم يكن على سنة ما فعله عمر بن الخطاب ذلك أن عمرا أوصى قبل موته بأن يكون ابنه عبد الله حكما في مجلس الشورى دون أن يكون له أحقية تقلد الخلافة . أما عبد الوهاب فقد اختير للإمامة قسرا ، ذلك أن رأى أهل الشورى كان في جانب مسعود الاندلسي ، فقد « مال الاكثرون والعامة الى تولية مسعود وبادروا الى مبايعته » (67) . لكن تعصب بنى يفرن وحرصهم على اختيار عبد الوهاب أفضى الى تنصيبه . ذلك أن أم عبد الوهاب كانت يفرنية ، واستطاع أبو قدامة اليفرنى أن يحول جماعة الشورى عن مسعود الاندلسي لجعل الإمامة من نصيب عبد الوهاب وما تسوقه المصادر (68) الاباضية من تبرير عدم اختيار مسعود الاندلسي بأنه اختفى زهدا في الإمامة وهربا من مهامها ، أمر غير مقبول ..

وقد أثار تنصيب عبد الوهاب حفيظة الجانب المتشدد في جماعة الشورى والذي مثله يزيد بن فندين ، إذ اعتبر تولية عبد الوهاب انتهاكا لتعاليم المذهب وخروجاً على سنن السلف . وبذلك لم يجمع جماعة الشورى على إمامة عبد الوهاب « لان الاجماع الذى هو شرط الامامة معناه اتفاق مجتهدى الامة » كما تنص تعاليم المذهب الاباضى (69) . وقد مثل جماعة ابن فندين الذين عرفوا بالنكار الفرقة المحافظة على تعاليم المذهب والملتزمة حدوده ، فنادوا بوجوب جماعة يسترشد الامام برأيها ولا يقطع أمرا الا بمشورتها وبذلك تكون الإمامة « مشروطة » (70) كما نادوا بضرورة مراعاة أصول المذهب في اختيار الولاة والعمال ، وأنكروا احتكار الفرس ونفوسة وظائف الدولة (71). ودعوا الى اختصاص أهل الخبرة والحصافة بها من بين جمهور الاباضية دونما تفرقة أو تمييز عملا بشرائع المذهب (72) . وكان

-
- (67) الشماخى : السير : ص 145 .
(68) أبو زكريا : ورقة 14 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 21 ، النفوسى : ص 99 .
(69) الشماخى : مقدمة اصول الفقه . ورقة 64 .
(70) أبو زكريا : ورقة 14 ، الشماخى : السير : ص 145 .
(71) ابن الصغير : ص 22 ، النفوسى : ص 114 .
(72) ذكر أبو غانم الصغرى في مدونته أنه سأل أحد فقهاء المذهب الاباضى هذا السؤال :
أى الرجلين أحب أن يستعمل ، الرجل الصالح الذى لا قوة له بالعمل ، أو الرجل الذى هو دونه في الصلاح وهو أقوى على العمل ، فأجابه القوى العالم بالعمل أحب أن يستعمل . (انظر : مدونة أبى غانم ورقة 1) وهذا يفتد دعاوى مؤرخى الاباضية الذين حاولوا تبرير اختصاص عبد الوهاب ذويه واتباعه بوظائف الدولة « لانهم من أهل العلم والبصيرة في الدين » . انظر : أبو زكريا : ورقة 15 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 22 ، النفوسى : ص 102 .

انتصار الامام عبد الوهاب على جماعة النكار يعنى التغلب على الطابع الدينى فى نظم الحكم الرستمىة وتحول الامامة الى سلطة مركزية اشبه ما تكون بالملكية المطلقة .

فقد آلت الامامة الى افلح بن عبد الوهاب بعد وفاة ابيه تلقائيا وقد حاول مؤرخو الاباضية (73) تبرير ذلك ، فذهبوا الى ان اهل الحل والعقد بادروا بتنصيب افلح اثر موت والده مخافة خطر العدو المتربص بتاھرت . وجدير بالتنويه انهم لم يذكروا شيئا عن هذا العدو المزعوم الا انه مقيم بجبال تاهرت . والواقع ان جماعة النكار التى كانت تسكن تلك الجبال كانت قد تشتت شملها وعادت فلولها الى مواطنها الاولى منذ عهد عبد الوهاب . كما لم يحدث فى آخر سننى حكمه سوى تمرد خلف بن السمع الذى لم يكن خطرا مباشرا على مركز الامامة فى تاهرت ذلك ان حركته اقتصرت على نواحى طرابلس وجبل نفوسة وقد مات هؤلاء المؤرخون ان عبد الوهاب عقد ولاية العهد لافلح قبل وفاته ، وعقب انتصاره على بدو هوارة حيث قال « لقد استحق افلح الامامة » وبعدها « انقطع اليه المنقطعون ودارت الحوائج والعطاء من تحت يديه » (74) ، كما كان افلح صاحب السلطة فى تاهرت اثناء غياب والده بجبل نفوسة وصراعه مع الاغالبية حول طرابلس ، الامر الذى يؤكد ثبوت مبدا التوريث فى الامامة الرستمىة .

كما جرى افلح على سنة والده فى « استعمال العمال والجباية ومطالب بيت المال » (75) ، مما اثار حفيظة الفقهاء فثاروا بقيادة نفاث بن نصر لانتهاك الامام رسوم الامامة وتقاليدها (76) . الا ان افلح ارغم — امام ظهور خطر القبائل والعصبيات — على التراجع فى سياسته ، وعاد الى تطبيق مبدا اللامركزية والمساواة — فآخذ بنصائح اهل الراى والمشورة من شيوخ القبائل فى تعيين الولاة والعمال (77) كما لزم عماله ضرورة مراعاة مقله المذهب فى نظام الجباية فى نفس الوقت الذى اتاح لهم فيه مزيدا من السلطات داخل عمالاتهم (78) . يتضح ذلك من رسالة له لاحد عماله

(73) انظر ابو زكريا : ورقة 26 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 32 ، الشماخى : السير ، صفحة 192 .

(74) ابن الصغير : صفحة 23 .

(75) النفوسى : صفحة 195 .

(76) ابو زكريا : ورقة 30 .

(77) ابن الصغير : صفحة 23 .

(78) النفوسى : صفحة 188 .

جاء فيها ؛

« وأما ما ذكرته من أن أجعل لك سبيلا وأطلق يدك ، وأن الحاضر يرى مالا يراه الغائب فلعمري أنه لكذلك ، ولكن ليس في هذا (يقصد الخراج) ، إنما هي أسهم جعلها الله وأوقفها ، وهى وسخ أموال الناس وليس لنا فيها قضاء ولا زيادة ولا نقصان ولا أمر ولا نهى الا على قدر الاجتهاد » (79) فاتباع أفلح هذه السياسة لا يرجع الى حرص منه على مراعاة تعاليم المذهب بقدر اضطراره الى الاخذ بالتقاليد والاعراف البدوية .

ومن مظاهر ذلك اضراره الى تعيين محكم الهوارى قاضيا على الرغم من « أنه أنشأ في بادية ولا يعرف لذى القدر قدره ولا لذى الشرف شرفه » (80) وكان رؤساء القبائل هم الذين « أنزلوه في الدار المعروفة بدار القضاء ، وأجروا عليه من بيت المال قوته » (81) .

لقد أخذت الامامة الرسمية منذ ذلك الحين توفق بين مطالب الحكم وبين الاعراف البدوية والتقاليد الفارسية وتعاليم الطوائف المذهبية المختلفة في تاهرت . وتجلى الاثر الفارسى في الاصرار على مبدأ الوراثة والاخذ بالنظم والرسوم الفارسية في الحكم والادارة . فبعد موت أفلح بن عبد الوهاب آلت الامارة الى ابنه أبى بكر رغم اعتراض الفقهاء (82) . وليس كما يذهب النفوسى (83) بأنه اختير نتيجة اجماع اهل الحل والعقد من رؤساء القبائل والعصبيات وشيوخ المذهب . كما تولى أبو حاتم يوسف الامامة بعد أن عهد والده اليه بولاية العهد (84) . ومن مظاهر التأثير بالتقاليد الفارسية أيضا تعويل أئمة بنى رستم على اتخاذ الكتاب والحجاب والحراس ، فضلا عن نظم السجلات واستخدام الخاتم وغيرها من النظم التى تأثرت بالتقاليد الفارسية فى الادارة (85) .

ثم ازداد اثر الطوائف غير الاباضية فى أواخر عصر بنى رستم . فاضطر أبو اليقظان محمد الى الانتقاص عن سلطات بعض القبائل التى

(79) نفس المصدر والمحيطة .

(80) ابن الصغير : صفحة 24 .

(81) نفس المصدر صفحة 25 .

(82) نفس المصدر : صفحة 31 ، 47 .

(83) الازهار الرياضية : ج 2 ص 222 .

(84) ابن الصغير : صفحة 50 .

(85) نفس المصدر : صفحة 42 ، 47 .

كانت تستأثر بالمناصب العامة (86) وجعلها مشاعا بين كافة الفرق والطوائف من غير الاباضية ، كما اتخذ مجلسا للمشورة يضم الى جانب شيوخ القبائل واعلام المذهب الاباضى ، كثيرين من الكوفيين والمالكية والواصلية (87) . ولا شك ان سلطان هذه الطوائف قد زاد ابان امامة يعقوب بن افلح الذى تولاهما بفضل رؤساء تلك الطوائف وخاصة الكوفيين (88) . كما اضطر أبو حاتم يوسف الى اشراك كافة رؤساء الفرق فى الحكم « اباضية » (89) .

ومع ذلك لم تجد سياسة الرستميين الاواخر فى التوفيق بين مطالب الحكم وبين مصالح القوى المختلفة فى تاهرت فى تحقيق الاستقرار السياسى، اذ ان القبائل البدوية طمعت فى تولى السلطة وقدر لها ان تحقق هدفها بنجاح محمد بن مسالة الهوارى فى اغتصاب الحكم فى تاهرت مدة ثمانية أعوام (90) كذلك تريض الفرس للاستيلاء على الحكم ابان الصراع بين الامام أبى بكر ابن افلح وبين الجند والعرب لكن خاب أملهم (91) . ولا يخفى دور الفرق والطوائف غير الاباضية فى احداث تاهرت فى العصر الرستمى الاخير من أجل « تبنييت خبر الاباضية » (92) .

ووقف الرستميون مكتوفى الايدى احيانا امام هذه المؤامرات ، اذ لم يكن للامامة جيش ثابت يتصدى لتلك المشكلات . ويذهب بل (93) الى ان افتقار بنى رستم الى مثل هذا الجيش يعزى الى انشغال الائمة بالمسائل العلمية والفقهية ، وميلهم للمسالة وزهدهم فى اثاره الحروب . والواقع ان السبب الحقيقى يكمن فى استحالة تكوين جيش موحد فى ظل عصبية وعناصر مختلفة ومتناحرة « فكان لكل قبيلة رجالها وخيلها وسلاحها وكراعها » (94) . لذلك كان « الاجناد هم بطانة السلطان وأولاده وحشمه » (95) فضلا عن أحلافه من القبائل وخاصة نفوسة التى كانت

(86) ابن الصغير : ص 41 ، البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 91 .

(87) ابن الصغير : ص 44 ، البرادى : نفس المصدر والصحيفة .

(88) ابن الصغير : ص 56 ، النفوسى : ص 275 .

(89) البرادى : الجواهر المنتقاة ورقة 103 .

(90) ابن الصغير : ص 39 ، النفوسى : ص 236 .

(91) ابن الصغير : صفحة 37 .

(92) نفس المصدر : صفحة 51 .

(93) انظر : La religion Musulmane .. P. 149

(94) الشماخى : السير : صفحة 148 .

(95) ابن الصغير : صفحة 27 .

موالية للامامة وتوافق الائمة بالامداد في اوقات الخطر والازمات (96) .

ثم تضاعل نفوذ اتباع الائمة من « الرستمية والسبحية » (97) وانهارت قوة نفوسة بعد موقعة مانو سنة 269 هـ (883 م) التى قضى فيها الاغالبية على خيرة الجند النفوسى ، فأصبحت الامامة الرستمية لعبة فى أيدى يد القوى المتنازعة فى تاهرت .

وبسبب افتقار ائمة بنى رستم الى جيش ثابت لجأوا الى وسائل مختلفة لمواجهة الثورات الداخلية ولو كان ذلك خروجاً على الفكر الاباضى فقد درجوا على اصدار نداءات الى الرعية يدعون فيها الى الكف عن الفتن والتزام « سنة السلف الصالح » فى نفس الوقت الذى كانوا فيه ينتهكون تعاليم المذهب ويخرجون على سنة اسلافهم من أقطابه .

فبعد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رغم التزامه بمبدأ الوراثة فى الحكم لنفسه ولابنائهم من بعده بعث نداء الى اهل جبل نفوسة وناحية طرابلس يحضهم فيه على « تقوى الله والاتباع لما امر به » (98) وحرم عليهم ما استحله لنفسه ونهاهم عن طاعة خلف بن السمع الذى خلف والده فى ولاية تلك النواحي .

وافلح بن عبد الوهاب اقتنى اثر والده حين ثار عليه نفاث بن نصر لخروجه عن تعاليم الاباضية فكتب خطاباً « الى سائر المسلمين فى شأن نفاث » يخاطبهم فيه بقوله : « .. وانتم محققون باتباع آثار سلفكم والسلوك على مناهجهم ، وان تفعلوا بهذا التائه المتخبط ما كان يفعل سلفكم بمن كان قبله » (99) . كذلك كان شأن محمد بن افلح الذى وجه نداء الى رعاياه يحضهم فيه على « اتباع الماضيين من السلف والمتقدمين من الائمة والصالحين من اهل الدعوة » (100) .

وضرب بنو رستم صفحاً عن جوهر التعاليم الاباضية التى تدعو الى « الامر بالمعروف وبالنهي عن المنكر » ولجأوا الى الاساليب السياسية الملتوية كالتجسس وبذل الرشاوى والخداع فضلاً عن الاغتيال السياسى . فبعد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حين اعيته الحيل فى قمع ثورة خلف

(96) الشماخى : السير : صفحة 155 .

(97) ابن الصنير : صفحة 27 ، 36 .

(98) انظر : ملحق رقم (3) .

(99) النفوسى : صفحة 199 .

ابن السمع بـث عيونه وجواسيسه للوتيرة بين خلف واتباعه (101) ، كما بعث سرا الى بعض رجال خلف يؤلبهم عليه ويمنيهم بالاموال والضياع (102) . واخذ ابنه افلح من بعده بمبدأ « فرق تسد » فأرشى ما بين كل قبيلة ومجاورها (103) « وألقى موجبات التخالف بين كل مقدم واتباعه ، وبث الجواسيس بطرق سياسية وتدبيرات باطنية كفته مؤونة القتال » (104) . وعول الرستميون الاواخر على « استعمال الدرهم والدينار بدل الرمح والسنان » (105) في كسب الانتصار ومواجهة الخصوم . وشاع الاغتيال كاسلوب جديد اتبعه بنو رستم للتخلص من مناولتهم ، واستشرى هذا الداء ولم يسلم منه افراد البيت الرستمى نفسه ، فقد اغتال ابو بكر بن افلح محمد بن عرفة صهره وساعده في ادارة شؤون دولته وسط سخط الفقهاء وتبرمهم (106) ، كما لقي ابو حاتم يوسف بن محمد حتفه على ايدى بعض المتأمرين من افراد أسرته من أجل الوصول الى الحكم (107) . .

وهكذا اختفى — تقريبا — اى اثر لفكر الاباضية في نظم الحكم الرستمية بعد موت عبد الرحمن بن رستم (108) مؤسس الدولة ، وتحولت الامامة الاباضية الى ملك وراثى غلب عليه الطابع البدوى ، وتأثر بالتقاليد الفارسية وتعاليم الفرق والمذاهب الاخرى غير الاباضية .

ومع ذلك فقد ترك الخوارج آثارا واضحة في الفكر السياسى ونظم الحكم ببلاد المغرب ، خاصة في الفترة ما بين اوائل القرن الاول الهجرى وممنتصف القرن الثانى .

-
- (100) انظر : ملحق رقم (5) .
(101) ينهم ذلك من رواية للنفوسى تقول ان شخصا من انصار الامام عبد الوهاب كان يندس بين اصحاب خلف ويكاتب الامام بكل ما يسمعه . انظر : الازهار الرياضية ج 2 صفحة 155 .
(102) الوسيانى : سير ابي الربيع ورقة 30 .
(103) ابن الصغير : صفحة 27 .
(104) النفوسى : صفحة 183 .
(105) نفس المصدر : صفحة 278 .
(106) ابن الصغير : صفحة 34 .
(107) ابن مذارى : ج 1 ص 278 .
(108) ابن الصغير : صفحة 56 .

ثانيا : ---

الحياة الاقتصادية

أحدث الخوارج أثارا بعيدة المدى في أحوال بلاد المغرب الاقتصادية. والشائع أن هذا هذه الآثار كانت سيئة للغاية ، إذ تمخض عنها خراب وركود وكساد في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة . غير أن مسؤولية الخوارج في هذا الصدد مبالغ فيها ، ذلك أن أحوال المغرب الاقتصادية كانت سيئة ، منذ حكم البيزنطيين ، وزادت سواء نتيجة استنزاف طاقاته وموارده في الحروب الطويلة التي استغرقتها الفتوح العربية وما ارتبط بها من ثورات ضد الفاتحين ، كذلك التي قام بها كسيلة والكاهنة ، وما تمخض عن هذه الثورات من تخريب المزارع واحراق الأشجار ، فضلا عما أزهق فيها من أرواح (109) مما زاد في تفاقم أحوال البلاد الاقتصادية .

وليس من شك في أن سياسة بعض عمال بنى أمية في المغرب زادت الأمر سوءا (110) ، فقد أرهقوا الأهليين بالمغارم والجبايات ، وحفلوا بأشباع نهم الخلفاء في دمشق ، وأهملوا سبل الإصلاح الاقتصادي . وحسبنا أن البربر اعتنقوا مذهب الخوارج لتخليصهم من جور بنى أمية وسوء سياستهم الاقتصادية (111) .

غير أن ثورات الخوارج زادت — دون شك — في تفاقم الازمات

(109) ابن عذارى : ج 1 صفحة 83 .

(110) نفس المصدر : صفحة 52 .

(111) نفس المصدر والمصينة .

الاقتصادية ، اذ استمرت قرابة نصف قرن من الزمان أرهقت خلاله خزائن الولاية برواتب الجند وأعطياتهم (112) ، وخربت المزارع والمناجم ، وكسدت التجارة وتهددت الطرق بالآخطار .

ومن الانصاف ان نذكر ان مسؤولية الولاية في هذا الصدد لا تقل عن مسؤولية الخوارج ، وان الصفرية من دون الإباضية (113) أسهموا بنصيب كبير فيما حل بالبلاد من تخريب ، فقد درجوا في حروبهم على نهب الاموال واحراق الزارع والضياع . وليس أدل على ذلك من تخريب الزروع على مسيرة يومين من طنجة اثناء حصارهم بلج بن بشر ورجاله بطنجة سنة 123 هـ (114) (741 م) . وفظائعهم بالقيروان سنة 139 هـ (756 م) سبق التنويه بها :

الا ان ثورات الخوارج عموما — صفرية وإباضية — ، استنزفت جهود الولاية ومواردهم المالية ، فقد أنفقوا الكثير على اعداد الجيوش ومضاعفة الاعطيات لمواجهة هذه الثورات (115) . كما أسفرت عن هدم العماير والاسوار مما جشم الولاية عناء ترميمها او اعادة بنائها . فضلا عن ذلك فقد أزهرت اعداد من البشر اجمع المؤرخون على كثرتها ، فضلا عما كان يحدث من أمراض واوبئة أودت بحياة الكثيرين نتيجة تعفن جثث القتلى (116) .

وأدى ذلك كله الى حدوث الازمات والمجاعات (117) ، حتى ألف الناس اكل الاعشاب والدواب والكلاب (118) وخاصة اثناء فتبرات الحصار الطويل (119) .

وليس أدل على سوء أحوال بلاد المغرب الاقتصادية آنذاك من استعانة ولاية المغرب بأموال مصر لمواجهة خطر الخوارج ، فكانت ترد اليهم اعانة سنوية قدرها مائة ألف دينار (120) . ومع ذلك لم يكن بوسعهم

(112) البلاذري : فتوح البلدان ص 275 ، ابن تغري بردي : ج 2 ص 20 .

(113) الدرجيني : ج 1 ورقة 14 .

(114) مجهول : أخبار مجبوعة : صفحة 35 .

(115) الرقيق : ص 119 ، ابن عذاري : ج 1 ص 59 .

(116) الرقيق : صفحة 125 .

(117) نفس المصدر : صفحة 118 .

(118) أخبار مجبوعة : صفحة 37 ، 38 .

(119) ابن عذاري : ج 1 صفحة 76 .

(120) ابن الاثير : الكامل : ج 5 صفحة 63 .

القيام بأعباء الحكم والنهوض بأحوال البلاد الاقتصادية ، واقتصرت جهودهم على النواحي العسكرية كبناء الاسوار واقامة الحصون والقلاع (121) . وغنى عن البيان أنه لم يقدر لولاة القيروان الاهتمام بالنواحي الاقتصادية الا بعد ضعف شوكة الخوارج بها ، فلم نسمع عن جهود لهم في هذا الصدد الا في عهد محمد بن الاشعث أول من شجع حركات الخوارج في العصر العباسي ، لكن الازدهار الاقتصادي الذي أحدثه لم يستمر طويلا (122) اذ سرعان ما اندلعت ثورات الخوارج بعد رحيله الى المشرق .

وتتضح الآثار السيئة لثورات الخوارج على أحوال المغرب الاقتصادية من جهود يزيد بن حاتم في مواجهة المجاعات والازمات الاقتصادية ، فقد اهتم بزراعة الاراضي وجعل غلتها مباحة للناس (123) ، وكانت مراعية الخاصة ومراعى أسرته تقدم ذبائح الإبل والغنم للرعية (124) . واليه يرجع الفضل في الاهتمام بالحرف والصناعات واقامة الاسواق ، وتنسيقها (125) للخروج بالبلاد من الكبوة الاقتصادية التي أحدثتها ثورات الخوارج . لكن هذه الجهود الكبيرة لم تحقق للبلاد النهضة الاقتصادية المرجوة ، وحسبنا على ذلك دليلا أن كثيرين من ولاة القيروان من بعده كانوا يعجزون عن دفع رواتب الجند واعطيائهم (126) .

كان التدهور الاقتصادي اذن يعزى الى الاضطراب السياسى ممثلا في ثورات الخوارج . فلما انتهت تلك الثورات واستقرت أحوال بلاد المغرب السياسية بقيام الدول المستقلة ، قدر للبلاد أن تشهد ازدهارا ملموسا في كافة النواحي الاقتصادية . ونحن في غنى عن رصد هذا الازدهار الاقتصادي في دولتي الاغالبة والادارسة ، انما نقرر أن هذا الازدهار شمل أيضا دولتي الخوارج الصفرية والاباضية .

لقد قامت دولتي الخوارج في مناطق صحراوية ، ومع ذلك واكب قيامها ازدهارا في الزراعة والصناعة ورواجا في التجارة . ففى مجال

(121) الرقيق : ص 24 ، البكرى : ص 24 ، 25 .
(122) ابن عذارى : ج 1 صفحة 84 .
(123) نفس المصدر ص 93 .
(124) نفس المصدر والمصحفة .
(125) الرقيق : ص 149 ، النويرى : ج 22 ورقة 23 .
(126) ابن عذارى : ج 1 صفحة 111 .

الزراعة ، استفاد بنور مدرار من مياه نهر ملوية (127) في تحويل البقعة التي أقاموا فيها عاصمتهم الى سهل فيضي (128) صيروا فيها الخلجان وشقوا القنوات لتوصيل المياه الى مساحة واسعة (129) قسموها الى حياض تشبه حياض البساتين (130) ومهدوها للزراعة . واستكثروا من الغرووس فزرعوا اشجار النخيل والاعناب (131) على مساحة بلغت اربعين ميلا (132) . فاشتهرت سجلماسة لذلك بوفرة كرومها وفاكهتها (133) .

وفضلا عن ذلك زرعوا سائر المحاصيل « حسب زرع مصر » وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه وتواترت الشقوق بالمياه فكلها اغدقت الارض سنة في عقب أخرى ، حصدوا الى سبع سنين بسنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير ، بحب صلب المكسر لذيذ الطعم ، وخلق ما بين القمح والشعير « (134) . واشتهرت سجلماسة الى جانب ذلك بالحنطة والشعير والقطن والكمون والكرامية وغيرها (135) ، حتى لقد وصفها الادريسي (136) بأنها « كثيرة الخضر والنبات » . ولا شك ان اعدادا هائلة من البربر في سجلماسة تحولوا الى مزارعين (137) وان بقى بعضهم على حرفة رعى الماشية والابقار (138) .

كما اهتم ائمة بنى رستم بالزراعة ايضا ، فاختاروا موضع عاصمتهم في مكان « جيد الهواء ، كثير المياه ، خصب الارض » (139) وقد توافرت المياه لاقلية تاهرت لوقوعه بين نهريين هما مينة وتاتشس ويصبان في وادي شلف (140) . فضلا عن مياه الامطار التي اشتهرت بها تاهرت حتى

-
- (127) البكري : صفحة 148 .
(128) نفس المصدر : صفحة 149 .
(129) ابن الخطيب : افعال الاعلام ج 3 ص 139 .
(130) مجهول : الاستبصار : صفحة 201 .
(131) نفس المصدر والصحيفة .
(132) ابن حوقل : صفحة 65 .
Julien : Op. Cit. P. 339.
(133) الاستبصار : صفحة 201 ،
(134) ابن حوقل : صفحة 90 .
(135) الادريسي : صفة المغرب ص 60 ، ابن مقديش : ص 11 ، القلتشندي : ج 5 صفحة 164 .
(136) الادريسي : نفس المصدر والصحيفة .
(137) البكري : صفحة 148 .
Fournel : Op. Cit. Vol I. P. 352.
(138) ابن خلدون : ج 6 ص 120 ،
(139) النفوسي : صفحة 6 .
(140) البكري : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 ،

صارت مضرب الامثال (141) . وقد عني الرستميون بالاستفادة من هذه المياه فشقوا القنوات وأقاموا الطواحين على الأنهار (142) . فزرعوا الكتان والسمسم وسائر الحبوب على اختلافها ، الى جانب غرس الاشجار واقامة البساتين على مساحات رحبة (143) ، حتى عرفت تاهرت بأنها « بلخ المغرب » (144) . كما ازدهرت الزراعة أيضا في واحة وارجلان اعتمادا على مياه الآبار ، فاشتهرت بأشجار النخيل والزيتون والحبوب (145) . أما الزراعة في جبل نفوسة ، فقامت على مياه الامطار ، لكن رعى الاغنام والماشية كانت الحرفة السائدة بين سكانه (146) . كما اشتهرت الدولة الرستمية بمراعيها الواسعة وكانت تاهرت منتجعا للقبائل الرعوية في شمالي الصحراء (147) . ولكثرة مراعيها وصفها ابن حوقل (148) بأنها « أحد معادن السدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين » .

وقيام دولتي الخوارج في سجلماسة وتاهرت واحتوائهما عناصر غير مغربية كاليهود والاندلسيين والفرس والعرب المشاركة ، ووفرة المناجم وخاصة في درعة الغنية بالذهب والفضة (149) ساعد على استغلال مقدرات البلاد الاقتصادية استغلالا طيبا فقد احسن اليهود استغلال تلك المناجم (150) . كما ان امراء بنى مدرار حرصوا على الافادة من الاندلسيين في دعم دولتهم « واقامة المصانع والتصور » (151) .

ويخيل الينا ان الاندلسيين المقيمين بسجلماسة لعبوا دورا واضحا في هذا الصدد اذ كانت طوائف منهم تحتكر حرف الحدادة ، والصناعات المرتبطة بأعمال البناء (152) ، وقد شاركهم اليهود هذه المهن في العصر

-
- (141) ابن عذاري : ج 1 ص 280 .
(142) ابن الصغير : صفحة 10 .
(143) اليعقوبي : البلدان : ص 358 ، البكري : ص 67 .
(144) الاصطخرى : المسالك والممالك ص 34 ، المقدسي : احسن التقاسيم ص 228 .
(145) الادريسي : صفحة 121 .
(146) ابوزكريا : ورقة 26 .
(147) الادريسي : صفحة 87 ،
(148) المسالك والممالك : صفحة 86 .
(149) ابن الفقيه مختصر البلدان ص 80 .
(150) مجهول : الاستبصار ص 202 .
(151) السلاوي : ج 1 صفحة 112 .
(152) البكري : صفحة 149 ،
Bernard : Op. Cit. P. 134.
Fournel : Op. Cit, Vol 1, P. 553.

الفاطمي (153) . وعرفت سجلماسة في عهد بنى مدرار بصناعة الثياب والازر الصوفية حتى كانت تضارع مثيلاتها المصرية كما يقول البكري (154) هذا الى جانب الصناعات الاخرى كصناعة السكر وتكرير الملح (155) ، والاحذية (156) .

واستفاد بنو رستم من خبرة الفرس ، فاشتهرت تاهرت بالمنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والقوارير الزجاجية وأواني الخزف البراقة، والتحف المعدنية والعطور (157) . وكانوا يسكنون النقود والذهب المجلوب من بلاد السودان (158) ، وان كنا نفتقر الى وجود عملة رستمية كتلك التي خلفها بنو مدرار ... وقد استعاض بنو رستم عن كثير من السلع المصنوعة باستيرادها من بلاد الاندلس (159) .

اما الدور البارز الذي لعبه الخوارج في حياة المغرب الاقتصادية ، فكان في مجال التجارة ، اذ قامت الدولتان المدراية والرستمية بدور الوسيط في التجارة عبر الصحراء شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . فلم تحل العلاقات انسياسية غير الودية بين دولتي الخوارج وبين اعدائهم السياسيين والمذهبيين دون استمرار الصلات التجارية مع سائر دول المغرب والاندلس فضلا عن المشرق الاسلامي وبلاد السودان .

فكانت القوافل تترى من بغداد والبصرة الى بلاد المغرب مسارة بالانبار وهيت والرقرة وحران والرها وتل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة والفسطاط والاسكندرية ، ومنها الى برقة ثم الى الدولة الرستمية ودولة بنى مدرار (160) . كما كان الطريق البحري بين موانئ دولة بنى مدرار على ساحل الاطلنطي وبين موانئ الاندلس كاثبيلية وشاطبة (161) غاصا بالسفن من الدولتين . اما دولة بنى رستم فكان اتصالها بالاندلس عن طريق مرسى فروخ (162) على البحر المتوسط الذي

(153) مجهول : الاسبصار صفحة 202 .

(154) المغرب : صفحة 148 .

(155) القلتشندي : ج 5 صفحة 164 .

(156) الشباخي : ص 248 .

(157) النوسى : صفحة 137 .

(158) نفس المصدر : صفحة 89 .

(159) البكري : صفحة 81 .

(160) انظر : قدامة بن جعفر : الخراج : ص 227 ، 228 .

(161) الحميري : ص 21 ، ابن الدلائى : ص 18 ، 19 ،

Provençal : Op. Cit. Vol. I. P. 248.

(162) البكري : ص 81 ، الادريسي : ص 100 .

يواجه موانئ شاطبة وتدمير ومرسى اقلية الاندلسية (163) .

لذلك ربطت دولتي الخوارج بين دول المشرق والمغرب والاندلس وبين افريقية جنوبى الصحراء عن طريق منافذها المنتشرة على حافة الصحراء والتي تعتبر محطات لرحيل القوافل الى بلاد السودان . فكانت سبلماسة همزة الوصل بين بلاد المغرب والاندلس وبين بلاد السودان الغربى كما قامت الدولة الرسمية بنفس الدور بين هذه البلاد وبين السودان الاوسط .

فغلى الرغم من سوء العلاقات السياسية بين تاهرت وسبلماسة وبين بغداد والقيروان وفاس ، فان قوافل التجار المشاركة كانت تجتاز بلاد المغرب الى سبلماسة التى غصت بالعراقيين من بغداد والكوفة والبصرة ، وكانت هذه القوافل تحمل سلع المشرق الى بلاد المغرب وتعود محملة بالمتاجر السودانية فى صحبة اهل سبلماسة (164) . كذلك اقام بتاهرت طائفة من التجار العراقيين كان لهم مساجدهم ومنازلهم وفنادقهم واسواقهم الخاصة (165) . وقد اهتم ائمة بنى رستم بتجسار الشرق فشاركوا فيها واشرفوا عليها بأنفسهم ، وأولوا التجار رعايتهم ، وكفلوا لهم الحماية والامان (166) .

وتوطدت الصلات التجارية بين القيروان وسبلماسة وتاهرت ؛ فكانت القوافل تخرج من تاهرت الى القيروان مرة بمارة بهاز والمسيلة وادنة وطبنة وباغاية ومجانة ومراجنة وسببية (167) وفى سبلماسة كانت القوافل تخرج الى تاهرت ومنها الى القيروان ، والمسافة بين سبلماسة وتاهرت تقرب من خمسين مرحلة ، وبينها وبين القيروان تبلغ نحو من ثمانين مرحلة (168) . وعلى ذلك فقد كان فستق قفصة يباع فى أسواق سبلماسة (169) ، كما لاقت سلع سبلماسة — كالسكر والكمون والكرامية والاحذية — رواجاً فى أسواق القيروان (170) . ووفدت السلع

(163) اليعقوبى : البلدان : ص 354 ، البكرى : ص 18 ، ابن الدلائى : ص 18 .

(164) ابن حوتل : صفحة 43 .

(165) ابن الصغير : صفحة 13 .

(166) نفس المصدر : صفحة 50 .

(167) البكرى : صفحة 143 ، 146 .

(168) الاصطخرى : صفحة 37 ، 38 .

(169) البكرى : صفحة 41 .

(170) الادريسي : صفحة 61 .

السودانية الى دولة الاغالبية عن طريق تاهرت وسجلماسة . ولا غرو فقد وفدت الى تاهرت جموع غفيرة من تجار القيروان حيث حظوا بحرية المتاجرة في أسواقها (171) وكان عدل الائمة الرستميين ، وترحيبهم بالتجار وشهرة تاهرت التجارية مما حجب كثيرين من هؤلاء التجار في الاقامة بتاهرت (172) .

ولم نعدم وجود صلات تجارية بين دولتي الخوارج والادارسة . حقيقة ان العلاقات التجارية بين تاهرت وفاس كانت في نطاق محدود ، لكن المصادر (173) تشير الى انتظام القوافل بين سجلماسة وفاس فالطريق كان ممهدا بين المدينتين ، ويبدأ من فاس الى صفرو فقلعة مهدي ، فتادلة ، فوادي شعيب الصفا ، ثم يمر عبر الجبل الكبير الى الجنوب حيث توجد سجلماسة (174) . وكانت القوافل ترتاد هذا الطريق ، فتخرج من باب الفوارة بفاس الى مدينة سجلماسة (175) . وقد وفد كثيرون من صفرية فاس الى سجلماسة عاصمة صفرية المغرب طلبا للعلم والتجارة (176) . كما كان للتجار المدراريين نشاط واسع في أسواق مدينة فاس (177) .

وكان طبيعيا ان تتوثق الصلات التجارية بين دولتي الخوارج والدولة الاموية بالاندلس لما كان بين الطرفين من علاقات سياسية ودية . وحسبنا ان غلال سجلماسة وتاهرت كانت تسهم في حل الازمات الاقتصادية بالاندلس (178) . وقد تبادل بنو مدرار مع اموى الاندلس السلع والمتاجر ، فكان المدراريون يصدرون القمح والسكر والكرم والتمر (179) في مقابل الثياب والطرز القطنية والكتانية والحريرية التي اشتهرت بها قرطبة (180) .

هذا فضلا عن التسهيلات الواسعة التي قدمها حكام تاهرت

(171) ابن الصفيير : صفحة 13 .

(172) الشماخي : السير : صفحة 158 .

(173) ابن حوقل : ص 72 ، الادريسي : ص 76 ، ابن ابي زرع : ص 53 .

(174) ابن ابي زرع : صفحة 53 .

(175) ابن حوقل : صفحة 65 .

(176) الادريسي : صفحة 60 .

(177) الجزائى : زهرة الاس : ص 29 .

(178) جغرافية المامون : ورقة 197 ،

(179) جغرافية المامون : ورقة 199 .

(180) الحميدى : صفة جزيرة الاندلس : صفحة 21 .

وسجل ماسة لتجار الاندلس اثناء رحلاتهم الى بلاد السودان (181) .
وكثيرا ما أثر بعض التجار والحرفيين الاندلسيين الاقامة في تاهرت والعمل
في أسواقها وجوانبيتها (182) . بينما كان البعض الآخر يعمل في نقل
المتاجر بين الدولتين ، اذ في مقابل الثمن الذى كان يصدر الى قرطبة
استورد الرستميون كثيرا من السلع والامتعة المصنوعة في بلاد
الاندلس (183) .

أما عن تجارة الخوارج مع بلاد السودان ، فقد شكلت حجر الزاوية
في نشاطهم الاقتصادي . وجدير بالذكر ان شعوب السودان كانوا أخلطا
شتمى من العناصر الزنجية القاطنة بين البحر الاحمر شرقا والبحر المحيط
غربا (184) ، وبين المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية في الشمال
وبين نطاقات الغابات الاستوائية في الجنوب (185) . ويمكن التمييز بين
هذه العناصر ، فمن الشرق الى الغرب توجد شعوب النوبة — جنوبى
مصر — ثم زغاوة وصوصو وكوكو — بالسودان الاوسط (186) — أما
السودان الغربى ، فقد سكنه شعب التكرور واهل غانة . أما شعب
التكرور فقد استوطن ضفتى السنغال ، بينما كان شعب غانة يتكون من
عناصر متعددة . فعلى طول الضفة اليسرى لنهر النيجر نزل شعب السنغى
وبين السنغى والتكرور تقع ديار الشعوب المتكلمة بلغة الماندى ، وبين
السنغى في الشمال ونطاق الغابات في الجنوب عاش أجداد الشعوب
المتكلمة بلغة الجور حاليا (187) . ويصف صاعد الاندلسى (188) هذه
الشعوب بالفوضى والهمجية على الرغم من « وجود سياسة ملوكية
تضبطهم وناموس الهى يحكمهم . فقد كانت هذه الشعوب تعيش في شكل
جماعات يرأسها اكبر الرجال سنا . ولكل منها كهنوته وطواطمه (189) .

-
- (181) ابن الدلائى : صفحة 18 ، 19 .
(182) ابن القوطية : ص 110 ، ابن الفرضى : ج 1 ص 179 ، ابن بشكوال :
الصلة . ج 1 صفحة 76 .
(183) ابن الدلائى : ص 19 ،
(184) البكرى : صفحة 149 .
(185) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية : ج 1 ص 218 .
(186) اليعقوبى : تاريخه : ج 1 ص 156 ، المقدسى : ج 1 ص 241 ، ابن خلدون :
ج 6 صفحة 199 .
(187) انظر : حسن محمود المرجع السابق : ص 223 ، 224 .
(188) طبقات الامم : صفحة 12 .
(189) حسن محمود : المرجع السابق : ص 225 .

اذ كانوا « على المجوسية وعبادة الدكاكير (190) » .

تقع مواطن هذه الشعوب بمحاذاة الصحراء الكبرى ، ويفصلها عن بلاد البربر سلسلة من الفواصل الجبلية تتخللها بعض المفاوز التي تعد وسيلة الاتصال الوحيدة بينها وبين بلاد المغرب (191) ومن الطبيعي أن تتدعم العلاقات بين البربر والسودان بقيام دولة بنى مدرار ففى سجلماصة وبديهي أن تتوطد صلاتها خاصة ببلاد التكرور وغانة المعروفة ببلاد السودان الغربى (192) . وحسبنا أن عناصر سودانية أسهمت فى إقامة هذه الدولة وتصدت لزعامتها حتى كان أول أمرائها سودانيا يدعى عيسى بن يزيد . واستقرت هذه العناصر فى سجلماصة ، وكان لهم حصن خاص يعرف « بحصن السودان » (193) . ولا شك فى أنهم ساعدوا على توثق الصلة بين وطنهم الام وموطنهم الجديد ، فكانت سجلماصة حلقة اتصال بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربى (194) . وجدير بالذكر أن القوافل كانت تقطع الطرق بين سجلماصة وغانة فى زمن يتراوح بين شهرين (195) وثلاثة (196) ، وكان بربر زويلة ومسوفة وجدالة يصحبون هذه القوافل (197) بين سجلماصة وسائر بلاد السودان الغربى عبر المفاوز والقفار (198) . ومن المعروف أن درعة كانت مركز خروج القوافل من دولة بنى مدرار (199) ، بينما عرفت « أبو الاتن » بأنها أولى المراكز السودانية التى تنزلها هذه القوافل (200) .

وقد عقد بنو رستم الصلات مع شعوب السودان جميعا ابتداء

-
- (190) مجهول : الاستبصار ص 217 .
(191) الاصطخرى : ص 35 ، حابد عمار : علاقات الدولة الملوكية بالدول الافريقية : ص 7.
(192) المامون : جغرافيته ورقة 198 ، سر الختم عثمان : العلاقات بين مصر والسودان : صفحة 25 .
(193) المقدسى : ص 219 .
(194) الاصطخرى : ص 35 ، حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الافريقية : صفحة 75 .
(195) البكرى : ص 149 ، الاستبصار ص 200 ، 201 .
(196) ابن النقيه : مختصر كتاب البلدان ص 87 .
(197) ابن بطوطة : تحفة النظار ج 1 ص 295 : حسن محمود ، الاسلام والثقافة العربية فى افريقية . ج 1 ص 222 .
(198) اليعقوبى : البلدان . ص 360 .
(199) البكرى : صفحة 149 .
(200) ابن بطوطة : ص 298 ، وجدير بالذكر أن طريقا آخر كان يصل بين مصر وغانة لكنه أهمل بسبب تعرض القوافل فيه لسواقي الرياح وقطاع الطرق وأصبح طريق سجلماصة لذلك أشهر الطرق وأكثرها ارتيادا . انظر : ابن حوقل : ص 42 .

من زغاوة (الكانم) شرقا جتى ساحل غانة غربا ، لكن هذه العلاقات توطدت بشكل أساسى مع شعوب السودان الاوسط وخاصة مع الكانم وساعد الامتداد العريض للدولة الرستمية على تعدد الطرق والمسالك الى السودان (201) ، فلم يعدم الرستميون وجود مدن عديدة متناثرة على حدودهم الجنوبية كزالة (202) ووارجلان (203) أو أجلة (204) وغدامس وزويلة (205) ، كانت مراكز لانطلاق القوافل الى هذه البلاد .

وزالة مدينة صغيرة تقع على عشرة مراحل غربى وارجلان ، أهلها من هواره ، معروفة بأسواقها العامرة (206) . وكانت مدخل القوافل الى ساحل غانة فيما عرف « بملكة الدمدم » (207) أما وارجلان فمدينة صغيرة لكنها متحضرة ، اشتهرت بوفرة نخيلها وغلاتها ، وغصت بالاسواق والتجار ، ومنها توجه التجار الى بلاد كوكو (208) والتكرور (209) وغانة (210) . وغدامس ، بلد كبير كثير النخيل أيضا ، أهلها من المثلثين كلمتونة ومسوفة ، وهى محطة للعبور الى بلاد السودان الاوسط حيث يربطها طريق ممد ببلدة تادمكة (211) . وكانت زويلة مركزا للتجارة مع بلاد الكانم ، واشتهرت بتجارة الرقيق حيث غصت أسواقها بالعبيد الزواغيين (212) .

من هذه المنافذ أو الموانئ الداخلية — ان صح القول — خرجت قوافل المدراريين والرستميين الى بلاد السودان محملة بالملح والنحاس والودع (213) ، لتعود بالذهب والابنوس وسن الفيل والجلود الشركية ، فضلا عن الرقيق الاسود (214) .

-
- (201) ابن الصفر : ص 13 ، النفوسى : ص 88 .
(202) الادريسي : صفحة 132 .
(203) بوميل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية ص 160 .
(204) الادريسي : صفحة 132 .
(205) اليعقوبى : البلدان : صفحة 345 .
(206) الادريسي : صفحة 132 .
(207) الاستبصار : صفحة 225 .
(208) جغرافية المامون ورقة 201 ، ابن بطوطة : ص 318 .
(209) الشماخى : السير ص 273 .
(210) الادريسي : صفحة 121 .
(211) الاستبصار : صفحة 145 .
(212) اليعقوبى : البلدان : صفحة 345 .
(213) الطلقشندى : ج 5 صفحة 164 .
(214) ابن الفقيه : 87 ، جغرافية المامون ورقة 198 ، الاصطخرى : ص 35 .

والى سجلماسة وتاهرت كانت تفد القوافل وتخرج محملة بتلك السلع الى المشرق وسائر دول المغرب والاندلس (215) .

وجدير بالذكر أن أئمة بنى رستم شاركوا رعاياهم هذا الدور « فكان عبد الوهاب في أيام أبيه تاجرا » (216) ، وكانت قوافله تسافر الى بلاد كوكو (217) . ولدينا من الروايات ما يؤكد اشتغال افلح بن عبد الوهاب وأبى اليقظان محمد بن افلح (218) وأبى حاتم يوسف بن محمد (219) بالتجارة كذلك . كما رحب أئمة بنى رستم وعمالهم بتجار السودان ، ففتحوا لهم الاسواق واحسنوا معاملتهم وقدموا اليهم التسهيلات التجارية ، فأعفوا بضائعهم وسلعهم من الضرائب والرسوم (220) . وعامل حكام السودان الرعايا الرستميين بالمثل ، فرحبوا بسفارات الأئمة وكفلوا الامان للتجار . ويحدثنا ابن الصغير (221) أن الامام افلح أوفد سفارة من قبله الى أحد ملوك السودان ، وبعث اليه بالهدايا السنية حفاظا على مصالحه التجارية .

هذه الصلات التجارية دعمت علاقات المودة وشائج الصداقة بين الطرفين ، فكان رعاياهم يختلطون ببعضهم البعض ، ووجدت اقليات لكل منهما في بلاد الآخر (222) ، ويرجع لويسكي (223) وجود جماعات من السودان بجبل نفوسة في القرن الثاني الهجري اعتمادا على نص أورده الشماخي ذهب فيه الى أن كثيرين من اهل الجبل أجادوا لغة الكانم .

ولا غرابة اذا ما أدركنا تسامح الخوارج مع أعدائهم السياسيين والمذهبيين ، وترحيبهم بالغرباء في بلادهم . وليس أدل على ذلك من وجود طوائف اليهود في سجلماسة وتاهرت ففى دولة مدرار احتكر اليهود

(215) Bernard : Op. Cit. P. 134.

(216) الشماخي : السير : صفحة 158 .

(217) أورد الوسياني رواية ذكر فيها أن افلح بن عبد الوهاب أراد مرافقة قوافل والده الى بلاد كوكو ، فأخذ الامام عبد الوهاب يختبره في الفقه وخاصة في مسألة الربى ، فأجاب عن كافة الاسئلة فيها عدا سؤال واحد . فأمره أبوه بعدم السفر حتى تزداد خبرته بأمور التجارة . انظر : سيرة أبى الربيع . ورقة 25 .

(218) انظر : الدرجيني : ج 2 ورقة 136 .

(219) انظر : ابن الصغير : صفحة 50 .

(220) الشماخي : السير : صفحة 273 ، 274 .

(221) سيرة الأئمة الرستميين : صفحة 31 .

(222) الوسياني : ورقة 4 .

(223) انظر : Etudes Ibadites. P. 96.

استغلال مناجم الفضة والذهب في درعة (224) وفي تاهرت عاشى الرهادنة في احيائهم الخاصة — الجيتو — وهمنوا على كثير من مناشط التجارة (225) ولا غرو فقد ذكر ابن الصغير (226) أن عاصمتى دولتى الخوارج غصتا بجموع التجار من سائر ارجاء العالم الاسلامى على اختلاف مللهم ونحلهم.

ولا شك في أن الخوارج جنوا اطيب الثمار من التجارة ، فيخبرنا ابن حوقل (227) أن أهل سجلماسة حققوا ثراء عريضا بزوا به « سائر أهل المغرب » ولا غرو ، فقد كانت معاملاتهم التجارية تصل الى آلاف الدنانير (228) . كما ذكر ابن الصغير (229) أن « سكان تاهرت علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية ، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى » .

وليس أدل على هذا الازدهار الاقتصادي من طيب العملة التى سكها ائمة الخوارج وجودتها (230) ، مما يؤكد أن الخوارج وان تسببوا في تفاقم ازمت بلاد المغرب الاقتصادية في عصر الثورات يعزى الفضل اليهم في انعاش احوالها الاقتصادية في عصر الاستقرار السياسى .

على أن سقوط دولتى الخوارج على أيدي الفاطميين سنة 297 هـ (909 م) واندلاع ثورات الخوارج من جديد ضد الحكم الفاطمى أصاب الازدهار الاقتصادي الذى شهدته البلاد . وتفاقمت الاحوال وازدادت سوءا بسياسة العسف الاقتصادي التى اتبعها الفاطميون . فقد انسابت جيوش أبى عبد الله الشيعى في تاهرت بعد فتحها ، « واهلكت الحرث والنسل » (231) ، ولما سقطت سجلماسة نهب الفاطميون أهلها واستولوا على اموال بنى مدرار (232) ، ثم أضرموا فيها النيران (233) وفرض

(224) الاستبصار : صفحة 202 .

(225) ابن الصغير : صفحة 46 ؛ 57 .

(226) سيرة الائمة الرستبيين ص 16 ، Faroughy : Op. Cit. P. 14.

(227) المسالك والممالك . ص 42 ، ياقوت : ج 3 ص 46 .

(228) نقل القلقشندى من ابن سعيد نصا يقول فيه « رأيت صكا لاحدهم على آخر مبلغه أربعون ألف دينار » وذكر ابن حوقل انه رأى صكا كتب يدين على أحد التجار موقع عليه بشهادة العدول ، قيمته اثنين وأربعين ألف دينار . انظر : صبح الاعشى :

ج 5 ص 164 ، المسالك والممالك ص 42 .

(229) سيرة الائمة الرستبيين : صفحة 13 .

(230) السلوى : ج 1 صفحة 119 ، La voix : Op. Cit. P. 402.

(231) أبو زكريا : ورقة 37 .

(232) اليمانى : سيرة جعفر : صفحة 130 .

(233) ابن عذارى : ج 1 ص 210 ، Biquet : Op. Cit. 71.

عمال الفاطميين سياسة مالية جائرة على البلاد التي فتحوها « فاستولوا على أموال الاحباس والحصون (234) » ، واشتطوا في فرض المغارم والجبايات فأنقلوا صفرية درعة بالاعباء ، كما لقي اباضية نفوسة عنقا شديدا وأرغموا على دفع الاموال الباهظة والرشاوى لعمال القيروان (235) .

وكانت سياسة العنف الاقتصادي تلك من أسباب اندلاع ثورات الخوارج على الفاطميين . ولا شك أن هذه الثورات استنزفت جهود الطرفين معا ، ونتج عنها مزيد من تخريب الطرق واحراق المزارع وتدمير المدن الى جانب ازهاق الارواح والدماء ، مما تسبب في حدوث المجاعات وانتشار الوبئة التي أدت الى تفاقم الازمات الاقتصادية .

لكن ثورات الخوارج — برغم فشلها — أجبرت الفاطميين على التخلي عن سياستهم الاقتصادية الجائرة « فخففوا الضرائب والجبايات » (237) وجنحوا الى الاعتدال في حكم المغاربة .

وهكذا اثر الخوارج في احوال بلاد المغرب الاقتصادية تأثيرا عميقا فبسببهم تفاقمت هذه الاحوال وازدادت سواء في عصر الثورات ، وبفضلهم ازدهرت كافة النواحي الاقتصادية في عصر الاستقرار السياسي .

(234) سعيد بن مقديش : نزهة الانظار ص 123 .
(235) ابن حيون : المجالس المسيرات ج 1 ورقة 28 .
(236) الشماخي : السير : صفحة 320 ، 323 .
(237) لويس : اصول الاسماعيلية : ص 183 . نقلا من كتاب تثبيت نبوة سيدنا محمد — مخطوط باسطنبول في مكتبة شهيد علي باشا برقم 1575 .

الحياة الاجتماعية

ترك الخوارج آثارا هامة في كيان المجتمع المغربي ، وحدثوا تطورات واضحة في مواقف قواه الاجتماعية ذلك لان فكر الخوارج السياسى قوامه المساواة بين كافة العناصر والاجناس دون تفرقة أو تمايز . وانتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب في النصف الاول من القرن الثانى الهجرى احدث انقلابا في موازين القوى الاجتماعية ببلاد المغرب ، اذ هوت بعض العناصر التى كانت تحتكر السلطة السياسية وصعدت عناصر كانت مغلوقة على امرها لتقف على قدم المساواة مع القوى الاخرى أو نالت حظها في بعض الاحيان في قيادة الثورات وتولى مقاليد الحكم والسياسة .

لقد كان المجتمع المغربى قبيل انتشار مذهب الخوارج مجتمعا متمایزا غير متجانس . وكانت قواه وعناصره في صراع طائفى وعنصرى دائم ، فالعرب تمتعوا بوضع ممتاز باحتكارهم شؤون الحكم وهيمنتهم على السلطة . ومع ذلك دب الشقاق والصراع على الصدارة بين العرب اليمنية والعرب القيسية مما اضعف العنصر العربى عموما في اواخر العصر الاموى .

أما البربر — سكان البلاد الاصليين — فعلى الرغم من انهم يمثلون السواد الأعظم من السكان لم يكن لهم وزن كبير في الحياة السياسية ورغم ما كان بينهم وبين العرب من عدااء لم يسلموا من آفة الخصومات القبلية كالصراع بين « بربر الوبر » و « بربر المدر » ، أى بين عنصرى البتر والبرانس ، وهو صراع قديم متوارث ظل قائما طوال العصر الاسلامى .

الى جانب العرب والبربر وجدت ببلاد المغرب اقلية ضئيلة من الافارقة والسودان واليهود ولم يكن لتلك الاقلية كبير وزن في الحياة السياسية في عصر السيادة الاموية والتعصب للعرب . فالافارقة اصلا من البربر الذين اختلطوا بالروم واعتنقوا ديانتهم ، او من الاجانب الذين طال استيطانهم في بلاد المغرب حتى أصبحوا « افارقة » . وقد اعتنق هؤلاء واولئك الاسلام على امل الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية المتميزة التي تمتعوا بها في العصر البيزنطي ، لكن بعض ولاة بنى امية اضطهدوهم وعاملوهم معاملة الموالى (238) .

اما السودان ، فكانوا يجلبون من افريقية جنوبى الصحراء عن طريق الغزوات العربية لاطراف بلادهم ، او يجلبون كرتيق عن طريق التجارة (239) . وقد اختلط كثيرون منهم بالبربر ، واعتنق بعضهم الاسلام.

وكانت ببلاد المغرب اعداد غفيرة من اليهود هاجروا اليها في العصر الروماني . وظل هؤلاء يعيشون عيشة العزلة عن المجتمع المغربى ، وشكلوا اقلية كان لها دور كبير في النشاط الاقتصادى . واذا كانوا قد تمتعوا بالحرية الدينية بعد الفتح الاسلامى باعتبارهم اهل ذمة ، فقد تعرضوا لكثير من مظالم الولاة الامويين (240) .

كانت ثورات الخوارج في المغرب تمثل في بعدها الاجتماعى صراعا بين العرب والبربر بسبب سياسة بنى امية في التعصب للعنصر العربى ، ولهذا حرص ثوار الخوارج على « الفتك بأمر العرب » (241) عموما ، والقرشيين منهم بوجه خاص (242) . ولعل في قول هشام بن عبد الملك عقب هزيمة العرب في موقعة الاشراف سنة 123 هـ (741 م) « والله لاغضب غلبة عربية » (243) ما يشير الى ذلك الطابع العنصرى للصراع .

والذى نؤكد ان هذا الصراع تمخض عن اضعاف شوكة العرب ، فقد قتل كثيرون منهم في معارك الاشراف « التى فنى فيها حماة العرب

(238) انظر : البكرى : المغرب : ص 6 ، مؤنس : ثورات البربر ص 153 .

(239) انظر : اليعقوبى : البلدان ص 345 .

(240) Julien : Op. Cit. P. 203

(241) ابن خلدون : العبر ج 6 صفحة 111 .

(242) ابن عذارى : ج 1 ص 70 ، ابن خلدون : المرجع السابق ص 112 .

(243) الرقيق : ص 159 ، ابن عذارى : ج 1 ص 83 .

وفرسائها وكماتها وأبطالها » (244) وبقدورة التي كان فيها مصير الجيش العربي « ثلث مقتول وثلث منهزم ، وثلث مأسور » (245) والقيروان سنة 139 هـ (756 م) التي أجهزت فيها ورجومة « على كل من بالمدينة من القرشيين » (246) .

ثم كان سقوط الخلافة الاموية وقيام الدولة العباسية سنة 132 هـ (750 م) واعتماد العباسيين على الجند الخراساني والفراسي في مواجهة ثورات الخوارج في البلاد (247) اذ الثابت أن أعدادا كبيرة من الجند الخراساني والفراسي وفدت الى بلاد المغرب في حملات محمد بن الاشعث سنة 142 هـ (759 م) ويزيد بن حاتم سنة 154 هـ (771 م) وهرثمة بن اعين سنة 179 هـ (765 م) وقد نافس هؤلاء الجند العرب مكان الصدارة .

أما البربر فان اعتناقهم مذهب الخوارج ساعد على توحيد شملهم تحت لواء واحد . فقد جمعهم جميعا بئرا وبرانس مبادئ الخوارج التي تحض على العدل والمساواة . واختفت — الى حين — نزعات الخصومة والتناحر بين بربر الوبر وبربر المدر واشتركوا جنبا الى جنب في الثورة على العرب (248) . وقيام دولتي الخوارج أكد هذه الوحدة للبربر ، فدولة بنسى مدرار ضمت صفيرية المغرب من البتر والبرانس على السواء ، وتكاثفت مكناسة وزناتة من البتر مع صنهاجة وزويلة ومسونة ولتونة من البرانس على تأسيسها (249) . والدولة الرستمية عاشت في كنفها قبائل هواره ولواتة ومكناسة ومزاتة ولماية وغيرها (250) .

كما أدى انتشار مذهب الخوارج الى ظهور عنصرى الافارقة والسودان بعد أن كانا على هامش الحياة السياسية من قبل . فاعتناق الافارقة المذهب الصفري ، أهل زعيمهم عبد الأعلى بن جريج لتولى حكم طنجة من قبل ميسرة (251) وتغلغل المذهب ذاته بين السودان أفضى الى

-
- (244) ابن عبد الحكم : ص 294 ، الرقيق : ص 111 .
 - (245) مجهول : أخبار مجموعة : صفحة 34 .
 - (246) المالكي : رياض النفوس : صفحة 107 .
 - (247) الرقيق : ص 159 ، ابن عذاري : ج 1 ص 83 .
 - (248) راجع : ابن عبد الحكم : ص 294 ، ابن الاثير : ج 5 ص 70 .
 - (249) اليعقوبي : البلدان : ص 359 ، ابن خلدون : ج 6 ص 129 .
 - (250) ابن خلدون : ج 6 صفحة 121 .
 - (251) ابن عبد الحكم : ص 293 ، ابن عذاري : ج 1 ص 52 .

تقلد زعيمهم عيسى بن يزيد الاسود رئاسة دولة بنى مدرار سنة 140 هـ (757 م) (252) .

وقد أدى قيام دول الخوارج المستقلة في بلاد المغرب الى انشاء مدن اسهمت في تحقيق الاستقرار الاجتماعى والبشرى (253) .

ففى واحة تافيلالت أسس الصفرية سجلماسة سنة 140 هـ (254) (757 م) واخذت المدينة الصغيرة التى لم تكن عند نشأتها سوى « مجمع للصفرية » تتسع ويزداد عمرانها شيئا فشيئا ، اذ اقبلت القبائل على سكنائها ، فبنت الضواحي والارياض (255) ، واعتادت حياة الاستقرار ، وترك معظمها حرفة الرعى الى الاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة . وادى ذلك الى عمران اقليم تافيلالت بعد ان كان يعانى نقصا فى السكان .

فقد جذبت المدينة الجديدة بطون مكناسة الضاربة فى وادى ملوية (256) ونواحي تازا وتسول بالمغرب الاقصى (257) فهجروا مواطنهم واستقروا بها . كما وفدت اليها بطون من صنهاجة اللثام من مسوفة وملتونة (258) وزويلة (259) وغيرها . كذلك نزحت جماعات من الجنوب من بلاد السودان لتسهم فى عمران الاقليم وتقيم فيه بصفة دائمة . وقد اغرى ازدهار المدينة بعض العناصر الاندلسية ، فهجرت بلادها واقامت بسجلماسة أيضا (260) ونظرا لاهمية موقعها التجارى الممتاز ، ولوفرة مناجم الذهب والفضة باقليم تافيلالت ، فقد قصدتها اليهود طمعا فى الثراء وطلبا للامن والاستقرار (261) .

ولا شك ان هجرة القبائل الى سجلماسة ادى الى تحولها من حياة البداوة الى حياة الاستقرار وغيرت الكثير من مظاهر حياتها الاجتماعية فى عاداتها وتقاليدها (262) واختلطت بعناصر أخرى وافدة كالسودان

Fournel : Op. Cit. Vol I. P. 352.

(252) البكرى : صفحة 149 ،

(253) ابن خلدون : المقدمة : صفحة 112 .

(254) البكرى : صفحة 148 .

(255) الادريسي : صفحة 160 .

(256) اليعقوبى : البلدان : صفحة 359 .

Fournel : Op. Cit. Vol. I. P. 351.

(257) ابن خلدون : ج 6 ص 129 ،

(258) مجهول : الاستبصار ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 271 .

(259) المقدسى : صفحة 231 .

(260) أبو العرب تميم : صفحة 80 .

(261) الاستبصار : صفحة 202 .

(262) البكرى : صفحة 148 .

والاندلسيين .

وقيام الدولة الرستمية سنة 162 هـ (779 م) كان له آثاره الاجتماعية في حياة سكان بلاد المغرب الاوسط ، فقد تحول اقليم تاهرت من غابات وغياض وآجام للوحوش والزواحف (263) الى مدينة عامرة أهلة بالسكان مزدانة بالعمائر والزروع . كما تحولت غدامس ووارجلان وودان وزويلة من مجرد قرى مغمورة على حافة الصحراء الى منافذ وثغور داخلية أهلة بالحركة والنشاط بفضل تجارة بنى رستم مع بلاد السودان (264) . وترتب على ذلك انتقال السكان من حياة البداوة والترحال الى حياة الحضارة والاستقرار . فتبائل هواره ومزاتة ولواتة وسدراتة ولماية أنفت معظم بطونها احتراف الرعى وأقدمت على الاشتغال بالزراعة والتجارة وتركزت مواطنها الاصلية لتستقر في تاهرت وما حولها « واتخذت العير والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة » (265) . وما لبثت ان تطلعت الى السلطة فشاركت في الفتن والثورات على أئمة بنى رستم ، وقدر لبعضها الظفر بالحكم كما حدث بالنسبة لمحمد بن مسالة الهواري (266) .

ولما كان أئمة بنى رستم من الفرس ، فقد جذبت تاهرت كثيرا من العناصر الفارسية حيث شكلوا قوة اجتماعية لها وزنها حتى كانوا اشبه « بدولة داخل الدولة » وليس ادل على نفوذهم من أن زعيمهم إبنى سوتا « لم يكن صاحب شرطة الامام افلح ليحرا على دخوله أو يتخلله ، هيبه وخوفا » (267) .

هذا وقد احتوت دولة بنى رستم جماعات كبيرة من العرب نزحوا الى تاهرت لشهرتها التجارية ، او فرارا من الاضطهاد المذهبي أو هربا من افريقية بعد فشل ثوراتهم على الامارة الاغلبية . وكان لهم دور بارز في أحداث الدولة الرستمية في عصرها الاوسط (268) . الامر الذي أثر تأثيرا عميقا في حياة المجتمع الرستمي . ونعتقد أن العناصر الاباضية

(263) أبو زكريا : ورقة 13 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 99 .
(264) انظر : الادريسي : ص 132 ، اليعقوبي : البلدان ص 345 :
(265) ابن الصغير : صفحة 27 .
(266) انظر : النفوسي : صفحة 336 .
(267) ابن الصغير : صفحة 27 .
(268) النفوسي : ج 2 صفحة 182 .

الوافدة لعبت دورا بارزا في هذا الشأن باعتبارها أكثر حضارة ورقيا من القبائل البدوية سكان البلاد الأصليين ، ومن مظاهر ذلك تحول البلاط الرستمي عن حياة الزهد والتقشف الى حياة الترف والدعة لقد كان عبد الرحمن بن رستم — أول أئمة بني رستم — ورعا زاهدا ، فبيته لم يكن به الا « حصيرا فوقه جلد ووسادة ينام عليها ، وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط في ناحية من داره » (269) أما خلفاؤه فقد عاشوا حياة خلفاء المشرق وملوك الفرس ، فامتلكوا القصور والضياع والمنازل والحصون التي اقاموها بنواحي تسلونت خارج تاهرت (270) ، واقتنوا الجوارى والغلمان (271) والعبيد والحشم (272) وكان لخيولهم وخدمهم وعبيدهم منازل خاصة بحصن نماليت خارج المدينة (273) . وانصرف معظم الرستميين الى حياة الترف والدعة والولع بالفنون والآداب (274) كما تطرق الفساد الى « الرستمية » فكانوا يخالطون العياريين والشطار وينادمون الفتيات ، ويعتدون على الحرائر (275) .

كما تشبه بنو رستم بالمشاركة في اقامة الاسبطة « والجفان » لاطعام الفقراء ايام الاعياد والمناسبات الهامة (276) . فكانت تقام الاحتفالات اننى يحضرها وفود من كافة انحاء الدولة ، وكان عمال الامام ورؤساء القبائل ينزلون في « دار الضيافة » ويعودون الى عمالاتهم او الى مضاربهم بعد ان تجرى عليهم الارزاق وتوزع عليهم الهدايا والالطاف (277) .

وفضلا عن ذلك كان اختلاط البربر بالعناصر الوافدة له حسناته كما كان له مساوئه أيضا ، فقد اقام البربر في ظل الحكم الرستمي « قصورا منظمة وابنية مبهجة وتبابا مرتفعة ، واسواقا مزدحمة ، ومساجد متعددة بمنارات غالية ، وحمامات متقنة . واتخذوا الفرش والستائر المزخرفة والخيول المسومة ، وتنوعت الالبسة وتعددت اللغة والازياء » (278) يقابل

-
- (269) ابن الصغير : صفحة 11 .
 (270) نفس المصدر : صفحة 48 .
 (271) نفس المصدر : صفحة 25 .
 (272) ابن الصغير : ص 34 ، النفوسى : ص 266 .
 (273) ابن الصغير : صفحة 52 .
 (274) نفس المصدر : صفحة 31 .
 (275) نفس المصدر : صفحة 49 .
 (276) نفس المصدر : صفحة 26 .
 (277) نفس المصدر : صفحة 47 .
 (278) نفس المصدر : ص 56 ، النفوسى : ص 85 .

ذلك تحلل المجتمع الرستمي وتفشى الرذائل فيه « فقد ظهر المفكر ، وكثر الفسق وشرب الخمر » (279) وهو ما عبر عنه ابن الصغير (280) بقوله « فسد البلد وفسد أهلها . . فاتخذوا للمسكر أسواقا والفلمن اخدانا » وعجت الطرق بمناسر اللصوص وخاصة « من سفهاء زناتة » (281) وهذا هو الذى اثار ثائرة شيوخ المذهب فتبرموا بهذه المفاسد واطهروا سخطهم عليها (282) .

وجدير بالذكر أن من أهم اثار الخوارج في المجتمع المغربى بروز دور المرأة ، فكما اشتهرت بعض نساء الخوارج في الشرق — كغزالة أم شبيب ابن يزيد الشيباني (283) — في فنون السياسة والحرب ، واسهام بعضهن في النشاط السرى الخاص بالتنظيم والدعوة (284) ، برزت كثيرات من نساء الخوارج في المغرب في نواحي السياسة والثقافة . فقد تولت جدة المنتصر سمو بن محمد الوصاية عليه وامسكت بزمام السلطة في سجلماسة حين كان قاصرا (285) : وأخت الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم برزته في علم الفلك وتفوقت عليه في قراءة الطوالع والنجوم (286) . وكانت غزالة زوجة أبى اليقظان محمد « مالكة لامره » (287) حتى لقد أرغمته على تقليد ابنها أبى حاتم يوسف ولاية العهد (288) . ولا يخفى دور دوسر ابنة أبى حاتم يوسف في احداث العصر الرستمي الاخير ، تلك التى اودت بالدولة الرستمية (289) .

-
- (279) الشماخى : السير : صفحة 263 .
(280) سيرة الائمة الرستمين : صفحة 55 .
(281) نفس المصدر : صفحة 49 .
(282) تألف احد هؤلاء الفقهاء من تبرج نساء تصطالبة قائلا « ما اكثر اماء هذا البلد » .
انظر : الشماخى : السير : ص 281 .
(283) الطبرى : ج 6 صفحة 275 .
(284) الشماخى : السير : صفحة 108 ، 109 .
(285) البكرى : صفحة 151 .
(286) الشماخى : السير : صفحة 193 .
(287) النوسى : صفحة 264 .
(288) ابن الصغير : صفحة 50 .
(289) أبو زكريا : ورقة 36 .

رابعاً :

الحياة الثقافية

ترك الخوارج آثاراً واضحة في الحياة الثقافية ببلاد المغرب . إذ أن مذهب الخوارج تضمن آراء خاصة تفرد بها عن سائر المذاهب الإسلامية الوافدة إلى المغرب . ولما كانت هذه الآراء تمثل في جوهرها عودة إلى تعاليم الإسلام الصحيحة ، فقد أقبل المغاربة على اعتناقها أكثر من إقبالهم على أي مذهب آخر . وقد سبق التعريف بدور دعاة الخوارج في بث مذهبهم بين شيوخ القبائل الذين تحولوا إلى دعاة للمذهب بين قبائلهم حتى عمت الدعوة سائر بلاد المغرب في النصف الأول من القرن الثاني الهجري .

وانتشار مذهب الخوارج استلزم تبصير المغاربة بفقهه وآرائه وعقائده ولم يقدر لدعاة الخوارج الأول كعكرمة مولى ابن عباس وسلمة بن سعيد وابن مغيطر أن يقوموا بهذا الدور . فاختار المغاربة بعض رجالهم وأوفدوهم في بعثة إلى البصرة للدراسة والتعلم والتعمق في أصول المذهب وفروعه . واستمرت مهمتهم خمس سنوات عادوا بعدها إلى المغرب « حملة للعلم » . ثم قاموا بتدريس ما حصلوه بالمشرق في حلقاتهم التي انتشرت في جهات كثيرة من بلاد المغرب الأدنى وأفريقية . وفي تلك الحلقات تلقى الاتباع الأصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وآراء الفرق

الى جانب علوم اللغة والفلك والرياضيات (290) ، فكانت بمثابة مدارس للعلوم العقلية والعقلية في آن واحو ، ومراكز لتعريب البربر ونشر الحضارة العربية أيضا .

ولم تنقطع الصلة بين خوارج المشرق والمغرب فكانت كتب فقهاء المذهب في الشرق وتصانيفهم تزداد الى المغرب بشكل دائم (291) . كما دأب فقهاؤهم ومحدثوهم على القدوم الى المغرب للتدريس والافتاء (292) . وفي نفس الوقت لم تنقطع بعوث المغاربة الى المشرق للاخذ عن اعلام المذهب في العراق ومصر والحجاز (293) .

ولا شك أن ذلك الاتصال الثقافي بالشرق أثرى الحياة الثقافية في بلاد المغرب . فظهر كثيرون من الاعلام المغاربة في العلوم الدينية والدينية . كالشيخ مهدي النفوسي المتكلم (294) وابن يانس ذائع الصيت في التفسير والفقه وأبو حسن الإبدلاني (295) وعبد العزيز بن الأوز (296) ، ويعتقوب بن سيلوس قاضي وأرجلان (297) وغيرهم ممن أثروا بتأليفهم ومصنفاتهم انحية الثقافة ببلاد المغرب وقد ألف هؤلاء بالعربية والفارسية ومنهم من ترك كتباً بلغة البربر كابن سهل الفارسي (298) .

ولا شك أن انتشار آراء الخوارج بين البربر أحدث ثورة فكرية في بلاد المغرب ، وساعد على ذلك التنافس الفكري بين الخوارج وبين غيرهم

(290) الدرجيني : ج 1 ورقة 3 ، البرادي : الجواهر المنتاة : ورقة 106 ، Masqueray : Op. Cit. P. IXI.

(291) ذكر مؤرخو الإباضية أن إباضية البصرة نسخوا لعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم آلاف الكتب لتزويد المكتبة المعصومة بتهافت . وأورد بعضهم أن ديوان نفوسة كان يحوى ثلاثمائة وثلاثين ألف جزء من مؤلفات المارقة . انظر : الشماخي : السير . ص 162 ، الدرجيني : ج 1 ورقة 26 ، البرادي : رسالة في بعض كتب الإباضية . ورقة 207 .

(292) الرسياني : سير أبي الربيع ورقة 2 .

(293) نفس المصدر ورقة 13 . كانت مواسم الحج فرصة مواتية لالتقاء الإباضية من كافة الامصار الاسلامية ، وقد حرص المغاربة على الاستفادة من لقاءهم بأعلام المذهب فيها يمن لهم من مسائل علمية وفقهية كان ينتى فيها مشاهير الفقهاء كشعيب بن المعرف في مصر ومحبوب بن الرحيل ببكة والربيع بن حبيب وغيرهم من العراق .

(294) أبو زكريا : ورقة 20 .

(295) الشماخي : السير : صفحة 155 .

(296) النفوسي : صفحة 70 .

(297) نفس المصدر : صفحة 48 .

(298) نفس المصدر : صفحة 68 .

من اتباع المذاهب والفرق الإسلامية الأخرى التى وفدت الى بلاد المغرب .
واهم الملاحم الفكرية التى جرت فى هذا الصدد كانت مع السنة المالكية
والمعتزلة ، ثم مع الشيعة الفاطميين .

فقد غلب مذهب مالك على افريقية وساد ما عداه من المذاهب
الأخرى . الا أن مذهب الخوارج تسرب اليها بشقيه الصفرى والاباضى
وتذكرت كتب الطبقات (299) أن حلقات الصفرية والاباضية كانت تعتقد
فى مساجد افريقية ، بل فى جامع القيروان ذاته . حيث دأب فقهاء الخوارج
على تدريس تعاليم المذهب ومناظرة مخالفيه ومع ما عرف عن المالكية
من تعصب وبغض لمخالفهم ، فقد سمحوا للخوارج بممارسة نشاطهم
فى افريقية حتى تولى سحنون القضاء فحظر عليهم ذلك ، وبدد حلقاتهم
وشنت شملهم (300) . ودرج من جاء بعده من القضاة المالكية على
اضهاد الخوارج فى افريقية واذلالهم .

وعلى خلاف ذلك حظى المالكية فى دول الخوارج بتسامح الى أبعد
الحدود حتى أن بعض شيوخهم تولوا المناصب العامة فى تاهرت فى أواخر
حكم بنى رستم (301) وليس أدل على هذا التسامح مما يرويه ابن
الصفير (302) — وهو مالكي عاصر أئمة بنى رستم الأواخر — عن الحرية
التامة التى تمتع بها المالكية فى ممارسة شعائرهم فى كافة مساجد تاهرت
فيما عدا المسجد الجامع . ويحكى ابن الصفير (303) كثيرا عن محاوراته

(299) أبو العرب تميم : ص 120 ، الدباغ : ج 2 ص 55 .

(300) المالكي : ج 1 ص 409 ، الدباغ : ج 2 ص 192 .

(301) الشياخى : السير : ص 263 ، البرادى : الجواهر المنتقاة : ورقة 103 .

(302) سيرة الأئمة الرستميين ص 57 .

(303) وهك مثالا لمناظرة بين ابن الصفير مع أبى الربيع سليمان الهوارى الاباضى يقول
ابن الصفير : « قال الاباضى : من أين زعمت وزعم أصحابك وغيرهم من الحجازيين
والمعراقيين أن الرجل إذا زوج ابنته البكر وهى صغيرة وأدركت أن لا خيار لها فى
نفسها ، وأنتم تقولون أن الرجل إذا زوج أمته وعققت أن لها الخيار . ولا فرق بين
الامة والصغيرة لأن الامة لم يكن لها حكم فى نفسها وانها كان الحكم لسيدها ، فلما
عققت وصار الحكم اليها جعلتم لها الخيار ، والصغيرة لم يكن لها حكم فى نفسها
وأن الحكم لابيها ، فلما أدركت صار الأمر اليها ، فلم منعتموها ما أجزتم للامة
والمعنى واحد »

فقلت له : انها أجزنا نكاح الصغار لأن النبى (ص) تزوج عائشة بنت أبى بكر
بنت سبع وبنى بها وهى بنت تسع .

فقال لى : دعنى من هذا ، فانى لا أجابك عليها ، ولكن كلمنى من القرآن أو من
باب النظر مع أنى لو منيت لك الخبر ما كان لك فيه حجة لأنك تعلم أن الله أحل
لرسوله من النساء ومن عدهن أكثر مما أحل لامته ، فان كان عندك حجة غير هذه
فأذكرها ، ولا فلا تقم لك حجة =

ومساجلاته مع مشايخ الإباضية في كثير من المسائل الفقهية والمذهبية دون أن يتعرض لأرهاب أو بطش .

ولما كان المذهب الإباضي أقرب مذاهب الخوارج الى مذهب أهل السنة ، فلم يجد فقهاء القيروان ما يحاولون التحالف مع الإباضية لئلا ينفذوا المذهب الشيعي (304) . وقد ظهر هذا الائتلاف بشكل واضح في ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد .

أما المعتزلة أو الواصلية فكانت مضاربهم بالمغربين الأوسط والاقصى حيث شكلوا أقلية لها ثقلها في دول الإدارة وبنى مدرار وبنى رستم . ففي سجلماسة أقامت أعداد غفيرة منهم وتمتعوا بحرية وتسامح في رحاب بنى مدرار على الرغم من تطرف المذهب الصفرى (305) . وليس أدل على ذلك من سماح المدرارين لهم بأن « يبعثوا بزكاة أموالهم الى رئيسهم بتاهرت يصرفها حيث شاء » (306) .

و في تاهرت وما حولها كان يقيم ما يربو على ثلاثين ألف من

-
- == قلت له : فإن أوجدتك صحة عقدها من القرآن اترجع .
فقال : فاذكر لى ذلك .
فقلت له : قال الله تبارك وتعالى : « واللائى يثنى من المحيض من نسائكم الى واللائى لم يحضن » .
فقال لى : عجبا منك ، انا اسألك عن عقد النكاح وفسخه وانت تخبرنى عن عدد المويسات وعدة اللائى لم يحضن .
فقلت : هيات أبا الربيع غاب عنك المراد .
وما غاب عنى من ذلك .
قلت : أخبرنى عن هذه العدد الموضعات من طلاق أم من غيره .
قال من طلاق .
قلت : فهل يقع طلاق من غير أن يكون عقد نكاح ؟
قال : لا .
قلت : فى المويسات فمتن اللائى قد بلغن من السنين مالا يحضن مثلهن ؟
قال : نعم .
قلت : واللائى لم يحضن من الصفر ؟
قال : نعم .
قلت : ما وجب الله عليهن مددا ؟
قال : نعم .
قلت : أم من غير طلاق .
قال : من طلاق .
قلت : فيكون طلاق من غير عقد نكاح ؟ نسكت ولم يرد جوابا . انظر : سيرة الائمة الرستبيين : صفحة 50 ، 51 .
(304) سعيد بن مقديش : صفحة 125 .
(305) البغدادي : صفحة 103 .
(306) البرادى : الجواهر ورقة 93 .

الواصلية (307) . وعلى الرغم مما قاموا به من دور معاد لائمة بنسى رستم وتمردهم فى عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، فقد حظوا بتسامح دينى الى أبعد الحدود . وحسبنا ما كان يحدث بين شيوخهم وزعماء الاباضية من محاورات على غرار ما كان يحدث بالشرق بين زعيمهم واصل بن عطاء وبين أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة شيخ اباضية الشرق (308) . ونستشف من المصادر الاباضية أن فقهاء المعتزلة بزوا مشايخ الاباضية فى تاهرت ، وافحموا الامام عبد الوهاب ذاته فى مساجلاتهم معه . فلم يستطع عبد الوهاب محاجاتهم فى كثير من المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد والشرائع ، بدليل استعانتهم بمشايخ المذهب فى جبل نفوسة فى هذه المساجلات (309) . وكانت المعارك الجدلية بين الاباضية والمعتزلة لا تفتت أبدا (310) . ومع ذلك نعم المعتزلة فى العصر الرستمى الاخير بتسامح كبير فكانوا يلتقون فى مناظرات ومساجلات مشهورة مع مشايخ الاباضية على نهر مينة خارج تاهرت ، وكان قطب الاباضية المدافع عن مذهبهم ويدعى عبد الله بن اللطلى له معهم مواقف مشهودة ، أشاد بها ابن النصفير المالكى (311) .

أما التشيع فقد أخذ سبيله الى دولتى الخوارج فى عصرهما الاخير ، فالمذهب الشيعى وفد الى سجماسة قبل وصول المهدي اليها (312)، ولم يعدم المهدي وجود أنصار وأتباع فى سجماسة كانوا يستفتونه فى أمور دينهم ودنياهم ابان وجوده بها (313) .

وتحدث أبو زكريا (314) عن وجود كثير من الشيعة فى تاهرت فى عصر الرستميين الاواخر . والحق — أننا لم نقف على أى نشاط فكرى واضح للشيعة فى تاهرت . وان كانت كتب الاباضية تحفل بكثير من

(307) البكرى : ص 67 ، ابن خلدون : ج 6 ص 121 .

(308) الدرجينى : ج 1 ورقة 105 .

(309) الشماخى : السير : صفحة 155 .

(310) أبو زكريا : ورقة 20 .

(311) فى احدى المساجلات سال شيخ المعتزلة عبد الله بن اللطلى : هل تستطيع الانتقال

من مكان لست فيه الى مكان لست فيه ، فقال ابن اللطلى : لا . فقال : هل

تستطيع الانتقال من مكان لست فيه الى مكان أنت فيه ، قال : لا . فقال : هل

تستطيع الانتقال من مكان أنت فيه الى مكان لست فيه ، فقال : خرجت منها . .

انظر : ابن النصفير : ص 45 ، الشماخى : السير : ص 223 .

(312) اليمانى : سيرة جعفر : ص 120 ، الدرجينى : ج 1 ورقة 42 .

(313) أبو زكريا : ورقة 36 .

(314) نفس المصدر والصحيفة .

المساجلات والمناظرات بين الإباضية والشيعة بعد سقوط دولة بنى رستم سنة 297 هـ (909 م) ولعل من أكثرها طرافة ما حدث بين أبى نوح وسعيد بن زنفيل الإباضى وبين أبو تميم المعز لدين الله الفاطمى من مواقف تدل على حصافة الشيخ الإباضى من ناحية وتبجيل المعز للعلماء والفقهاء من ناحية أخرى (315) .

ولا شك ان المحاورات والمساجلات بين شيوخ تلك المذاهب وبين فقهاء الخوارج اثرت الحياة العقلية فى بلاد المغرب بوجه عام . وهذا ما عبر عنه النفوسى (316) بقوله :

« .. وكثرت الآراء والأقوال ، وانتحل البحث فى المذاهب وعظم الجدل حول مسألة الإمامة ، فقام كل فريق يطلب الاختصاص بها ويدعى أنه أولى وأحق بها ، ويقيم على ذلك الحجج والأدلة » . والفضل يعزى الى حكام الخوارج فى إتاحة الحرية الدينية لتنافس تلك الطوائف وتصارع آرائها . وكان من اثر ذلك ان كثرت الفرق المنشقة على الأئمة كالنكار والخلفية والنفاثية ، لكن هذه الانشقاقات غذت فكر الخوارج ، وامتدته بآراء واجتهادات جديدة . كآراء يزيد بن غندين فى الإمامة المشروطة ، واجتهادات فرج بن نصر (317) المعروف بنفاسك فى تطويع العقائد الإباضية (318) .

(315) لما قبض على أبى نوح وجيء به الى المعز مكبلا بالاصفاد ، قال المعز : ان القيود دخلت فى رجلك بالعلم ولا تخرج الا بالعلم . قال أبو نوح : عسى الله ان يجعل ذلك كنارة لذنوبى . فغضب المعز وقال : أفنحن مسيئون فيك ، قال أبو نوح : قلت ليس فى ذلك ما يدل على اساءتك ، ألا ترى ان الله يبتلى عباده فيصبروا فيؤجروا ، وليس فى ذلك ما يثبت الاساءة لله . فزال غضبه . فطلبته العفو ، فعفى . . وقربه . . وفى احدى مجالس المعز مع العلماء والفقهاء ومن بينهم أبى نوح ، سأل المعز : ما الدليل ان لهذه الصنعة صانعا ، ، واجاب جلساؤه بأجوبة غير مرضية . فقال أبو نوح ، فرأيت أبا تميم كأنه يريد الجواب . وتأدب أبو نوح وقال : جوابك منهوم من سؤالك ، لان الصنعة بنفسها دليل الصانع ، ولا صنعة بغير صانع . فأعجب المعز بلباقته . انظر الشباخى : السير ص 352 وما بعدها .

(316) انظر : الأزهار الرياضية : ج 2 ص 115 .
(317) وليس أدل على مكانة فرج بن نصر العلمية من رحلته الى بغداد ومواقفه ومحاوراته فى بلاط المباسيين مع فقهاءهم وعلمائهم ومحدثيهم ، وظفروه لذلك بـرضى الخليفة ورعايته . عن هذه الرحلة انظر : أبو زكريا : ورقة 29 ، 30 . وجدير بالذكر ان نفائس نسخ ابان وجوده ببغداد ديوان جابر بن زيد فى الفقه وعاد به الى المغرب . انظر : أبو زكريا : ورقة 30 .

(318) راجع : النفوسى : الأزهار الرياضية : ج 2 ص 195 .
Lewcki : Melanges Berberes Ibadites. P. 280.

وكان أئمة الخوارج يقدرون العلم والعلماء ، فقد عرف عن حكام سجلماسة « حب العلم والرغبة في طلبه وتحصيله » (319) . كما كان البيت الرستمي « بيت العلوم جامعا بفتونها من علوم التفسير والحديث ، وعلم اللسان وعلم النجوم ، والاصول والفروع والفرائض » (320) . وعبد الرحمن بن رستم ببيع بالامامة « لعلمه وفضله » وحسبه انه كان من « حملة العلم الخمسة » الى المغرب . وعبد الوهاب بن عبد الرحمن كان له خلواته العلمية الخاصة الى جانب مجالسه العامة التي كان يرتادها طلبة العلم من سائر أرجاء دولته (321) . وأبو بكر بن أفلح عرف بشغفه بالأدب والتواريخ (322) وكان أبو اليقظان محمد « يدرس في حلقات ثلاث ثلاثة أنواع من العلم » (323) . وكانت مكتبة الاسرة الرستمية — المعروفة بالمعصومة تحوى أمهات الكتب الدينية الى جانب مصنفات الفنون والرياضيات والصنائع (324) .

وقد اضحت سجلماسة وتاهرت من المراكز الثقافية الكبرى في بلاد المغرب وأمهات طلاب العلم من سائر أتحائه وخاصة تاهرت « التى تعددت بها اللغات واللهجات (325) وجاب علماءها مدن الشرق والمغرب رغبة في طلب العلم وتحصيله (326) كما خرج منها أيضا طلاب العلم الى القيروان وقرطبة (327) .

والى الخوارج يعزى الفضل في وضع البذور الاولى لنشر الاسلام في بلاد السودان الواقعة جنوبى الصحراء ذلك أن الجهود السابقة التى بذلها عقبة بن نافع لم يقدر لها النجاح (328) ، كما أن غزوات عبد الرحمن ابن حبيب وعبيد الله بن الحبحاب لأطراف بلاد السودان لم تتمخض عن شىء

(319) اسماعيل حابد : نبذة في تاريخ الصحراء القصوى ص 7 .

(320) الدرجينى : ج 1 ورقة 25 .

(321) النفوسى : صفحة 197 .

(322) ابن الصغير : صفحة 31 .

(323) الدرجينى : ج 1 ورقة 136 .

(324) أبو زكريا : ورقة 42 .

(325) الشماخى السير : صفحة 263 .

(326) من هؤلاء بكر بن حماد التاهرتى الذى سبغ بالشرق وساجل شعراء العراق كدعبل الخزاعى وعلى بن الجهم ثم نزل القيروان وناس وناظر علماءها وترك أشعار تتم من ملو مكانته العلمية والأدبية . انظر : النفوسى : ص 71 وما بعدها .

(327) الضبى : بغية الملتبس ص 364 ، ابن بشكوال : الصلة ج 1 ص 86 .

(328) عبيد الله بن صالح : نص جديد : ص 218 .

سوى الحصول على المغنم (329). كما قام أبو القاسم سمكو بن واسول أمير سجلماسة بنشر الاسلام على المذهب الصفرى بين الجماعات السودانية التى كانت تعمل فى نقل التجارة عبر الصحراء ، ومعروف ان كثيرين منهم آثروا الاستقرار بسجلماسة بعد اسلامهم . وبفضل بنى مدرار انتشر الاسلام بين قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولتونة التى كانت تضرب بنواحي سجلماسة على طول المفازة بينها وبين بلاد غانة (330). وقد ازدادت اعداد هؤلاء بسجلماسة حتى وصف البكرى (331) سكانها « بأنهم يلتزمون القتاب » . ولما كان لهم دورهم الهام فى الوبساطة بين بلاد المغرب من ناحية وبين اقاليم افريقية الغربية من ناحية اخرى تسرب الاسلام عن طريقهم الى تلك الجهات وانتشر لأول مرة بين جماعات التكرور وأهل غانة (332) .

أما الاجزاء الوسطى من بلاد السودان — وهى بلاد الكنائم او زغاوة — فقد بلغت الدعوة الاسلامية عن طريق تجار بنى رستم ، اذ ان الرستميين كانوا على صلات تجارية وطيدة مع هذه البلاد ، ومن المحقق ان تلك الصلات اسفرت عن انتشار الاسلام بين بعض الزواغيين على خلاف ما هو شائع عن بقاء زغاوة على « الشرك » حتى قيام دولة المرابطين (333) وما ذهب اليه بعض الدارسين (334) من ان انتشار الاسلام فى بلاد الكنائم كان على يد المصريين . والواقع ان بنى رستم وضعوا البذور الاولى لحركة انتشار الاسلام فى تلك النواحي (335) . ولدينا من الادلة ما يؤكد ذلك ، اذ نعلم ان قاضى جبل نفوسة — ويدعى عمروس ابن فتح — « بعث عالما كبيرا من اهل الدعوة » الى زغاوة استقر هناك

(329) ابن خلدون : ج 4 صفحة 189 .

(330) الاستبصار : ص 201 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 71 .

(331) المغرب : صفحة 148 .

(332) الاشعري : مقالات الاسلاميين ص 128 ، حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ص 221 . والواقع ان انتشار الاسلام لم يتم بصورة واسعة فى هذه الجهات الا فى عهد المرابطين . انظر : الاستبصار ص 217 ، حسن محمود : المرجع السابق ص 234 .

(333) المامون : جغرافيته ص 204 .

(334) حامد أمار : علاقات الدولة الملوكية بالدول الافريقية ص 12 .

(335) اطيش : بعض تواريخ اهل وادى ميزاب : ص 116 .

وطاب له المقام (336) . كما أورد الشماخي (337) رواية تدل على اعتناق أحد ملوك زغاوة الاسلام على يد أحد مشايخ نفوسة . وقد أخذ لويسكي (338) بهذه الرواية وكذلك ماسكراي (339) الذي أكد أن الاسلام وصل حتى بلاد غانة عن طريق التجار الاباضية من رعايا الدولة الرستمية. ولعل من أهم آثار الخوارج في الحياة الثقافية في بلاد المغرب تصديهم لمواجهة حركة التشيع التي قام بها الفاطميون الذين حاولوا نشر مذهبهم بوسائل العنف والشدة .

يتضح ذلك من سياستهم في محاولة طمس معالم تراث الخوارج ببلاد المغرب كاحراق المكتبة المعصومة بظاهر واهدار كتبهم بها (340) . وقد اشترك السنة مع الخوارج في محاربة التشيع وكان انتصارهم وشيكا لولا فشل ثورة ابي يزيد مخلد بن كيداد ، واخفاق حركة الشاكر لله بسجلماسة . اذ لو قدر نجاح هاتين الحركتين لزالَت الدعوة الشيعية الاسماعيلية من بلاد المغرب . وبنهاية نفوذ الخوارج السياسي في بلاد المغرب انحسرت ثقافتهم وتراثهم ، وانحصر في بقاع مغلقة في جبل نفوسة وواحة وارجلان ووادي الميزاب .

واذا كانت المادة تعوزنا لدراسة اثر الخوارج في العمارة والفنون في بلاد المغرب ، فالراجح انهم تأثروا في هذا الصدد بمؤثرات شرقية (341)، واندلسية (342) . فكانت عمائر سجلماسة وابنييتها على نمط اندلسي نتيجة جهود العناصر الاندلسية الوافدة اليها في تعميرها . وقد وصف ابن

(336) الوسياني : سير ابي الربيع : ورقة 4 .

(337) تنص هذه الرواية على أن « ابا يحيى النفوسي سائر الى بلاد السودان ، فالفى ملكهم ناهل الجسم ضعيف القوى . فقال له : ما بك ؟ قال خوف الموت . قال فآخبرته عن الله وصفاته سبحانه والجنة والنار والحساب وما أعد الله للمطيع والعاصي فكذبني وقال : لو صح عندك ما تقول لما بلغت اليانا تطلب الدنيا . فما زلت اذكر نعم الله وآلائه حتى أسلم وحسن اسلامه » . انظر : الشماخي : السير ص 312 .

(338) Etudes Ibadites. P. 71. .

(339) التقى ماسكراي بأحد كبار مشايخ وادي ميزاب الاباضية واسمه الشيخ عبد الله . وقد أكد له الشيخ الاباضي تلك الحقيقة ، وأخبره أن جماعات من الاباضية لا تزال موجودة في غانة حتى الوقت الحاضر . انظر :

Chronique d'abou Zakaria. P. 279.

(340) ابو زكريا : ورقة 42 :

(341) Marcais, G : La Berberie musulmane .. P. 116. .

(342) ابو العرب تميم : صفحة 80 .

حوقل (343) الكثير منها بأنها قريبة الشبه بأبنية الكوفة . وتفيض كتب الرحالة (344) بوصف روعة هذه العمائر من قصور وأسوار وحصون ومساجد .

كذلك تأثر فن العمارة الرستمي بمؤثرات فارسية (345) سواء في انشاء المدن وتخطيطها (346) ، أو في تشييد المساجد والعمائر والقصور (347) . بينما ظهر الاثر الاندلسي واضحا في القلاع والحصون التي انتشرت خارج تاهرت (348) اiban الصراع بين القبائل والعناصر المختلفة في العصر الرستمي الاخير ، ومن ناحية أخرى ذهب جورج مارسيه (349) الى ان بعض المؤثرات المغربية في العمارة انتقلت الى مصر عن طريق الحجاج المغاربة .

تم بحمد الله

-
- (343) المسالك والممالك : صفحة 65 .
(344) انظر : المقدسي : احسن التقاسيم ص 219 ، سعيد بن مقديش : نزهة الانظار : صفحة 11 .
(345) Faroughy : Op. Cit. P. 14.
(346) أبو زكريا : ورقة 13 .
(347) ابن الصغير : صفحة 26 . وقد كشفت اثار بناء يعتقد انه مسجد في سدراته بصحراء الجزائر في عمر متأخر تدل على تاثر الرستيين بالفن الفارسي . انظر : السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص 582 .
(348) ابن الصغير : صفحة 38 ، 39 .
(349) انظر : La Berberie musulmane .. P. 116.

الخاتمة

تمخضت الدراسة عن عرض لتاريخ الخوارج السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى فى بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى . ونعتقد انه بفضل المادة التاريخية الجديدة التى توافرت للبحث أمكن دراسة الموضوع وجمع شتاته للمرة الاولى فيما نعلم .

فدعوة الخوارج فى بلاد المغرب لم تحظ من قبل بعناية الدارسين وقد تناولنا هذا الموضوع فى ضوء اعتبارين أساسيين ، أحدهما متعلق بالتطور السياسى الذى حدث للخوارج فى الشرق فى اواخر القرن الاول الهجرى والانتقال الى مرحلة الدعوة والتنظيم السرى فى أطراف العالم الاسلامى بعد فشل ثوراتهم وملاحقتهم فى قلب الدولة الاسلامية . والثانى يكمن فى ملائمة ظروف بلاد المغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية لتقبل مذهب الخوارج وانتشاره بين البربر ، فقد كان الفكر السياسى للخوارج فى صورته المتطورة اواخر القرن الاول الهجرى متسقا مع ظروف بلاد المغرب وآمال البربر وأهدافهم . وقد أمكن الوقوف على طبيعة التنظيم السياسى لخوارج الشرق ونظامه وقياداته ودعائه وأساليب الدعوة والبلاد التى توجه الدعوة اليها . كما حددنا توقيت نزول دعاة الخوارج - الصفرية والاباضية - الى بلاد المغرب وتوضيح جهودهم فى نشر المذهب بين البربر ، مع أسباب التناحر بين الفرقتين وعدم تعاون دعائهم فى بلاد المغرب ، فالصفرية اتجهوا الى المغربين الاوسط والاقصى والاباضية مارسوا نشاطهم فى المغرب الادنى 'وافريقية .. ثم أبرزنا دور دعاة الصفرية فى نشر المذهب بين قبائل مطغرة ومكناسة وزناتة وبعض قبائل صنهاجة اللثام من مسوفة ولتونة وجدالة فضلا عن بعض العناصر

من غير البربر كالعرب والافارقة وزنوج السودان . كذلك اتضح دور دعاة الاباضية في بث دعوتهم بين قبائل نفوسة وهوارة وزناتة وسدراتة وزواغة ولواتة ومطماطة ، وجهودهم في تثبيت دعائم المذهب وتفقيهه معتنقيه والاستعانة في ذلك برأس تنظيمهم في البصرة . كما نوقشت آراء المستشرق جوتييه في تفسير انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب وقد كشفنا عن نسبة تلك الآراء الى المستشرق ايل ماسكراي ، كما اوضحنا ما انطوت عليه من غلو واسراف .

اما عن ثورات الخوارج في عصر الولاة ، فقد تعرض بعض الدارسين لها ، غير انه تسنى لنا الوقوف على مادة جديدة لم يطلع أحد عليها من قبل سواء ما كان منها متعلقا بمصادر السنة أو ما كتبه مؤرخو الخوارج وفقهائهم ، وبفضلها ربطنا بين أسباب ثورات الخوارج في المغرب وبين فكرهم السياسي المتمثل في الدعوة « لامامة الظهور » من ناحية ، وبين تفاقم المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد المغرب من ناحية أخرى . وفي عرضنا لثورات الصفرية والاباضية ، أمكن سد كثير من الثغرات في تاريخ هذه الثورات فضلا عن تصويب العديد من التواريخ المتعلقة بتوقيت الوقائع والاحداث ، أو الخاصة بتسلسلها مع توضيح العلل وتقصي الأسباب . وقد راعينا تتبع تطور هذه الثورات وفق منهج موضوعي دون اخلال بالاطار الزمني والمكاني للاحداث . وأثبتنا النتائج التي تمخضت عن ثورات الخوارج مع تحليل عوامل نجاحها أو فشلها ، فربطنا بين هذه العوامل وبين موقف الخلافة في الشرق واهتمامها بشؤون المغرب أو انصرافها عنه . كذلك أمكن الربط بين تأجج هذه الثورات أو خفوتها وبين شخصية ولاية القيروان وسياساتهم وما كانوا عليه من قوة أو ضعف . وأوضحنا عوامل القوة والضعف في ثورات الخوارج فعرضنا لقياداتهم وخططهم واسلحتهم ، كما تحدثنا عن خلافاتهم وتعليلها تعليلا اجتماعيا ومذهبيا ، وعدم التعاون بين فرقتي الخوارج وأسبابه ، ثم بين زعماء الفرقة الواحدة منها ، وبين كل منها وبين نظيرتها في الشرق وما ترتب على ذلك كله من نتائج وآثار .

اما عن دولتي الخوارج في بلاد المغرب فقد أمكن توضيح الظروف التي قامت فيها وقد استرشدنا بمنهج ابن خلدون في التاريخ لدولة بنى مدرار من حيث قيامها اعتمادا على عصبية ممثلة في قبيلة مكناسة ، مع ابراز العامل المذهبي الكائن في تجمع صفرية المغرب الأقصى تحت زعامة امام من

الزواج تطبيقاً لمبدأ المساواة في فكر الخوارج السياسي . وعرضنا لإنشاء سجلهامة ، وحققنا الكثير من الروايات التي نسجت حول اختطاطها ، وكذلك اختيار الامام ودلالته المذهبية والاجتماعية . وعللنا سبب الثورة على الامام الاول وكيف انتقلت الامة الى مكناسة ، وأوضحنا ان ذلك يمثل نقلة هامة في الفكر السياسي عند الخوارج وخروجاً على تعاليم المذهب ، وانتصاراً لعامل العصبية من جديد . ثم عرضنا لجهود ابي القاسم سمو ابن واسول المكناسي ثانياً الائمة والمؤسس الحقيقي للدولة في تثبيت دعائم دولته .

وعالجنا سياسة بني مدرار الداخلية في ضوء الصراع الاجتماعي من ناحية والمذهبي من ناحية اخرى ، اما اولهما فيمكن في الصراع بين مكناسة وزنوج السودان ، بينما تمثل الصراع المذهبي في ثورات الاباضية على آل مدرار الصفرية . وبرزنا كيف كان عهد اليسع بن ابي القاسم سمو يمثل العصر الذهبي للدولة المدرارية التي ظلت قوية بعد موته حتى بلغت شأواً قوتها على عهد اليسع بن مدرار الذي حاول التوسع ومد رقعة دولته على حساب جيرانه الادارسة . لكن مشروعاته توقفت لظهور الخطر الشيعي الذي دهم سجلهامة سنة 297 هـ (909 م) . كما ارجنا لعلاقات بني مدرار الخارجية في ضوء طابع دولتهم الصحراوية والداخلية وظروفها السياسية ومذهبها الديني ومصالحها الاقتصادية ، وكيف انتهج بنو مدرار سياسة عدائية مع العباسيين والغالبة والادارسة ، وعقدوا اواصر الود والصداقة مع بني رستم وأمويي الاندلس . وناقشنا عديداً من الروايات القديمة والآراء المستحدثة التي تعرضت بالاشارة احيانا الى علاقات بني مدرار مع بعض هذه القوى بشكل مخالف لما ذهبنا اليه .

وفي تناول دولة بني رستم اوضحنا ظروف قيامها في ضوء محنة الخوارج الاباضية في بلاد المغرب اذ ذاك ، وبرزنا دور عبد الرحمن بن رستم في تجميع اباضية المغرب الاوسط بعد تشتت شمل اباضية افريقية والمغرب الادنى على ايدي الولاة العباسيين . ثم جهوده في تأسيس تاهرت وما تضمنه تأسيسها من مغزى سياسي ومذهبي وحسبنا مشكلة امامة عبد الرحمن بن رستم التي اختلف حولها القدامى والمحدثون ، وانتهينا الى انه بويج بالامانة مرتين — استرشاداً بفقهاء الاباضية — الاولى على انه « امام دفاع » قبل اختطاط تاهرت ، والثانية « كامام ظهور » بعد اختطاطها . ثم عرضنا لجهوده في تثبيت دعائم دولته بتقرير نهج سياستها الخارجية القائم على سياسة المهادنة ، ومواجهة مشاكلها الداخلية من

حيث فرض سلطان الامامة على القبائل داخل حدودها ، وانمام عمران تاهرت ، وارساء نظم الحكم والادارة .

وفي دراسة سياسة بنى رستم الداخلية ، اوضحنا ما تفردت به من شيوع الفتن والقتال الداخلية بصورة اكثر بروزا من أية دولة من دول المغرب الاخرى المعاصرة لها . وارجعنا هذه الاضطرابات السياسية الى اسباب فقهية مذهبية ، او عوامل عنصرية وقبلية ، او نتيجة لموقف الفرق والطوائف المذهبية غير الاباضية وكلها تنطوى على اسباب اقتصادية . وانتهينا الى تحديد ادوار ثلاثة واضحة في تاريخ التطور السياسى لدولة بنى رستم ، كان الدور الاول فيها — ويشمل عهدي عبد الوهاب بن رستم وابنه افلح — يمثل سطوة الامامة وقوتها ، وقدرتها على احباط كافة الحركات المناوئة ذات الطابع المذهبى سواء بالقوة كما فعل عبد الوهاب ، او عن طريق السياسة كما فعل افلح . اما الدور الثانى ، فيشمل عهدي أبى بكر بن افلح واخيه أبى اليقظان محمد ، وهو يمثل الصراع العنصرى والقبلى . وفيه خفت صوت الامامة ووهنت قوتها ، ونجحت بعض العناصر فى اغتصاب السلطة فى تاهرت . ولم يحل دون سقوط الامامة سوى ضعف العصبية من جراء الصراع بينها وأسلوب الموازنة الذى اتبعه أبو اليقظان محمد فى موقفه من هذه العصبية . أما الدور الثالث من حكم بنى رستم — ويشمل امامتى أبى حاتم يوسف بن محمد واليقظان بن أبى اليقظان — فيقسم بتداعى الامامة واضمحلالها وتحكم عامة تاهرت فى تعيين الائمة وعزلهم ، وانفصام الصلة بين عاصمة الدولة واقاليها الشرقية . كما زاد الحالة سوءا تفاقم الخلافات داخل البيت الرستمى وقيام أفراد البيت بتدبير المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض لتولى الحكم . وقد تضافرت هذه العوامل جميعا على سقوط الدولة الرستمية سنة 297 هـ (909 م) .

أما علاقات بنى رستم الخارجية فقد تأثرت — شأنها شأن بنى مدرار — بوضع الدولة الجغرافى ومذهبها الدينى وظروفها السياسية ومصالحها الاقتصادية وانتهينا الى أن سياسة بنى رستم الخارجية فى جوهرها سياسة دفاعية ، فلم يتناولوا على جيرانهم الا بما تقتضيه ضرورة الدفاع عن حدودهم بل تثاقلوا فى بعض الاحيان عن رد خطر جيرانهم الادارسة . كما أن صلاتهم الودية لم تتعد مجرد تبادل السفارات والهدايا ولم تصل قط لدرجة التحالف أو التعاون لمواجهة العدو المشترك . ومع

ذلك أمكن تقسيم هذه العلاقات الى شقين ، عدائية وودية . لعلاقات بنى رستم بالعباسيين والاغالبية والادارسة كانت ذات طابع عدائى . أما علاقاتهم مع بنى مدرار وبنى أمية بالاندلس وأباضية الشرق ، فقد اتسمت بالطابع الودى . وقد ناقشنا الكثير من الروايات والآراء لقدامى المؤرخين ومحدثهم فى هذا الصدد .

وقد أمكن الربط بين ظهور الدعوة الفاطمية فى بلاد المغرب وبين سقوط دولتى الخوارج فى تاهرت وسجلماسة سنة 297 هـ (909 م) . فأتضح ان التشيع وجد طريقه الى سجلماسة قبل قدوم المهدي إليها واقامته بها . وان المهدي عاش طليقا بالمدينة حتى تيقن أميرها اليسع بن مدرار من أن أبى عبد الله الشيعى يدعو اليه ، فقبض عليه وأودعه السجن ، على خلاف ما ذكره بعض المؤرخين من أن اليسع نفذ بذلك مشيئة الخليفة العباسى والامير الاغلبى فى القيروان . وقد فندنا هذا الزعم وأثبتنا أن اليسع فعل ما فعله بالمهدي خوفا من الخطر الشيعى على دولته . وتتبعنا الاتصالات بين أبى عبد الله الشيعى وبين المهدي بسجلماسة حتى فرغ الشيعى من القضاء على دولة الاغالبية ، وتوجه الى سجلماسة لتحرير المهدي . وقد عرضنا لروايات المتضاربة حول مصير المهدي فى ضوء المادة التاريخية المتاحة . ثم أشرنا الى تخريب الشيعة الفواطم لسجلماسة والقبض على اليسع بنى مدرار وقتله سنة 297 هـ .

وبعد ذلك تناولنا ثورات الصفرية على الحكم الفاطمى مع بيان أسبابها وأرجعناها الى عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ومذهبية وجغرافية . ثم سياسة الفاطميين فى مواجهة ثورات الصفرية وما انطوت عليه من تهديد وترغيب وفشل تلك السياسة فى دعم نفوذهم بسجلماسة . وعرضنا هذه الثورات ابتداء بالثورة على ابراهيم بن غالب المزاتى سنة 297 هـ وانتهاء بثورة الشاكر لله الذى توفى سنة 352 هـ . ولحملتى الفاطميين اللتين قمعتا الثورتين ، الاولى بقيادة مصالة بنى حبوس سنة 309 هـ ، والثانية بقيادة جوهر الصقلى سنة 347 هـ ، وما درج عليه الفاطميون فى الفترة ما بين الحملتين من اصطناع بعض أفراد البيت المدرارى ليحكموا سجلماسة باسمهم ، وفشلهم فى ذلك . وقد بينا ما وقعت فيه بعض الروايات من خطأ فى تحديد سنى حكم بنى مدرار فى العهد الفاطمى ، واسمائهم والقابهم ودرسنا ذلك فى ضوء كتب السكة ، ومقارنة الروايات المتضاربة . ثم ناقشنا آراء البعض حول حركة الشاكر لله المدرارى وفندنا

الزعم بأنه لم يكن خارجيا صفرى ، وأثبتنا أن ثورته تمثل رد الفعل الصفرى للسياسة الفاطمية في المغرب الأقصى . وأوضحنا كيف انتهى الامر في سجلماسة بضعف النفوذ الفاطمى ثم انقراض بنى مدرار بعد ذلك . كما تناولنا سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين سنة 297 هـ بعد أن أوضحنا بإيجاز مظاهر الفوضى السياسية والاجتماعية والمذهبية في تاهرت في العصر الرستمي الأخير الأمر الذى جعلها لقمة سائغة للشيعفة الفواطم ، فقد سقطت تاهرت على يد أبى عبد الله الشيعى دون قتال . الا أننا خطانا بعض الروايات القائلة بفتح الشيعة تاهرت قبل سقوط دولة الاغلبة ، وأثبتنا أن ذلك الفتح لم يتم الا بعد سقوط دولة الاغلبة نفسها . وخلال مناجزة الشيعى للاغلبة كانت الطوائف والفرق غير الاباضية وبعض العناصر الرستمية المعادية لحكم اليقظان بن أبى اليقظان دائبة الصلة بأبى عبد الله تستحثه القدوم لفتح تاهرت . وبالفعل عرج أبى عبد الله على المدينة فى طريقه الى سجلماسة وفتحها وخربها وقتل من وقع فى يده من بنى رستم . لكن جيوشه فشلت فى اسقاط بعض المعائل الاباضية الأخرى كوارجلان وجبل نفوسة .

وقد استرشدنا بفكر الخوارج السياسى فيما يتعلق بامامة الدفاع فى اوقات المحن والملمات فى دراسة الاباضية وثوراتهم على الفاطميين . وأوضحنا فشل هذه الثورات نتيجة تفتت شمل الاباضية من ناحية ، ومناهضة الفاطميين لنشاط الاباضية فى افريقية والمغرب الأدنى من ناحية أخرى . ثم عرضنا للثورة الاباضية الكبرى التى تزعمها أبو يزيد مخلد بن كيداد وفسرنا دوافعها السياسية والاقتصادية والدينية ، وفندنا الروايات التى تنفى عن الحركة طابعها الاباضى . وناقشنا موقف أبى يزيد من الاباضية غير النكار والسنة ونجاحه فى ضمهم لحركته فى مقاومة الشيعة الفواطم . كما تناولنا نشأته وثقافته ورحلته الى الشرق واعداده للثورة وقيامه بها . وقد حددنا مراحل ثلاثة اساسية فى مسارها كانت المرحلة الاولى فى صالح أبى يزيد والثوار ، بينما كانت الحرب سجالا بين الفاطميين والثوار فى المرحلة الثانية . اما الثالثة فقد تبدد فيها شمل أبى يزيد وأبنائه الذين تصدوا لقيادة الحركة من بعده حتى قضى عليها بالفشل . ثم عرضنا لدوافع تحامل المؤرخين على أبى يزيد واتباعه سواء اكان هؤلاء المؤرخون سنة ام شيعة ام اباضية وهبية وأثبتنا تعصبهم وتجنبيهم على الرجل وحركته . ثم تناولنا النتائج والآثار التى تمخضت عن ثورة أبى يزيد على سياسة الفاطميين فى المغرب وعلى مصير نشاط الخوارج . وانتهينا الى أن حركة

الشاعر لله المدرارى الصفرى وثورة أبى يزيد مخلص بن كيداد الاباضى النكارى كانتا آخر حركات الخوارج البارزة فى تاريخ المغرب الاسلامى . واختتمنا البحث بدراسة اثر الخوارج فى المجتمع المغربى ، وقد أمكن تتبع تطور فكر الخوارج السياسى واثره على ما قام به الخوارج من نشاط فى مجالات الحكم والادارة . وانتهينا الى أن الخوارج التزموا بتعاليمهم المذهبية فى هذا الصدد حتى منتصف القرن الثانى الهجرى ، ثم تحولوا عن فكرهم السياسى فيما بعد واتخذت نظمهم ورسومهم وسياساتهم طابعا دينويا صرفا متأثرين بالانماط الشرقية العربية والفارسية والاعراف البدوية والقبلية المغربية .

وفىما يتعلق بأثرهم فى حياة بلاد المغرب الاقتصادية ، ناقشنا الرأى الشائع عن مسئولية الخوارج وحدهم عما حدث ببلاد المغرب من خراب اقتصادى ، وأوضحنا أن جذور تفاقم الاحوال الاقتصادية فى المغرب ترجع الى الحكم البيزنطى ، والفتح الاسلامى ثم سياسة بعض الولاة الامويين . لكننا لم ننكر اسهام ثورات الخوارج فى سوء الاحوال الاقتصادية فى المغرب فى عصر الولاة . غير أن قيام دول الخوارج أفضى الى ازدهار هذه الاحوال وانتعاشها فى نواحي الزراعة والصناعة والتجارة . ثم عرضنا لموقف الخوارج من سياسة الفاطميين المالية واثار ثوراتهم فى حمل الفاطميين على انتهاج سياسة معتدلة .

أما عن اثر الخوارج فى الحياة الاجتماعية فى بلاد المغرب فقد أبرزنا التحولات الكبرى التى أحدثتها آراء الخوارج فى المساواة وتحقيق العدالة الاجتماعية من اعادة تشكيل مواقف القوى والعناصر المختلفة فى المجتمع المغربى من عرب وبربر فضلا عن الاقليات الاخرى كالاندلسيين والافارقة وزنوج السودان واليهود ، ثم أوضحنا الآثار والنتائج التى ترتبت على قيام دولتى الخوارج من حيث التحول من حياة البداوة الى حياة الاستقرار ، وهجرات القبائل واعادة توطينها ، وانشاء المدن وامتداد العمران ، وقدم عناصر شرقية واندلسية للاقامة فى كنف الدولتين الجديدتين ، وما نتج عن ذلك من تلاحم انماط الحياة البدوية فى المغرب واختلاطها بالانماط الحضارية الوافدة ، وانصهارها جميعا فى بوتقة مغربية ، وما تمخض عن ذلك كله من آثار طيبة أو سيئة فى المجتمع المغربى .

وفىما يتعلق بأثر الخوارج فى الحياة الثقافية ببلاد المغرب ، فقد أمضى انتشار مذهب الخوارج بصورة واسعة الى نتائج ثقافية غاية فى

الاهمية فقد وفدت مؤثرات اسلامية شرقية لتسهم في دعم الاسلام والثقافة العربية في بلاد المغرب . واخذت هذه الافكار تتصارع مع التيارات الاخرى الوافدة ممثلة في فكر السنة والمعتزلة والشيعة ، ونجم عن ذلك اثراء الحياة الثقافية في المغرب . وقد عرضنا للمساجلات والمناظرات بين اقطاب هذه الفرق ووقفنا على كثير من نصوص تلك المساجلات بين فقهاء الخوارج ومشايخ الفرق الاخرى اثبتناها في الحواشي . كذلك عرضنا للانشقاقات المذهبية في فرق الخوارج نفسها في جوانبها الفكرية ووضحنا اثرها في اثراء افكار الخوارج ومعتقداتهم ، وما اضافته بيئة المغرب الى رصيد هذه الافكار والمعتقدات . كما عرضنا لاعلام المفكرين في صنوف العلم المختلفة ، ودور ائمة الخوارج في تشجيع النشاط الثقافي ، والصلات الثقافية بين عاصمتي دولتي الخوارج وبين مراكز الثقافة في المغرب والاندلس ، فضلا عن بلاد الشرق الاسلامي . ثم ابرزنا دور الخوارج في وضع البذور الاولى لحركة انتشار الاسلام في افريقية جنوبى الصحراء ، وهو امر لم يغطن اليه الدارسون من قبل . وعرضنا في ايجاز لدور الخوارج في مجال الفن والعمارة في المغرب ، وتأثرهم بمؤثرات شرقية فارسية واندلسية .

الملاحى

ملحق رقم (1)

رسالة أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة الى شيوخ الاباضية بالمغرب

بسم الله الرحمن الرحيم (1) . صلى الله على سيدنا محمد النبي

الامى وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

اتانى كتابكم تذكرون فيه ما من الله به عليكم من جمع كلمتكم وائتلاف
امركم فى كثرة من بحضرتكم من اهل الخلاف لكم . ولعمري ما اكثرتهم وان
كثروا بأكثر ممن كان قبلهم على من كان قبلكم من سلفكم ، فاقصدوا بهم
يهون عليكم كثرتهم على اخلافكم . نسأل الله العون والتوفيق فى جميع
اموركم ، وان يكفنا واياكم بأسهم ، وأن يجعل لنا ولكم ولجميع المسلمين
الدائرة عليهم ويشفى صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم . فلعمري لقد
اسرنى ما انتهيتم اليه من امركم ، وان كان ذلك لم يخف عنا ، غير اننا لم
نظن الذى كتبتم به الى . والله يستتم لكم الخير كله بعونه وتوفيقه .

اتانا كتابكم بمسائل ، فمنها ما رأيت ان اجيبكم فيها ، ومنها ما رأيت

(1) أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، رسالة فى احكام الزكاة . مخطوط بدار الكتب المصرية
- رقم 21582 ب ورقة 114 .

ألا نجيبكم فيها من غير هوان ولا تنصير الا الذى رأيتـه أصلح لجماعتكم واقوم لشأنكم وارفق لضعيفكم واعطف فى الذى أجيبكم فيه ، فمـا كان من صواب فمن الله ، وما كان من خطأ فى رواية او خبر او غير ذلك فمن نفسى .

استغفر الله من جميع ما ليس هو له رضى ..

ذكرتم فى كتابكم العشر وكيف جمعه ، واعلموا رحمكم الله انه (1) ..
السخ .

ملحق رقم «2»

رسالة حنظلة بن صفوان الى الخوارج الصفرية بطنجة

بسم الله الرحمن الرحيم .

من حنظلة بن صفوان الى جميع اهل طنجة :

اما بعد — فان اهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم قالوا انه يرجع جميع ما انزل الله عز وجل الى عشر آيات : أمره ، وزاجره ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ، ومحكمة ، ومشتبهة ، وحلال ، وحرام ، وامثال .

فأمره بالمعروف ، وزاجره عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة بخبر الاولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال أمر ان يؤتى ، وحرام أمر ان يجتنب ، وامثال واعظة .

(2)

فمن يطع الأمرة وتزجره الزاجرة ، فقد استبشر بالمبشرة ، وانذرته المنذرة . ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ، ويرو العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله ، مع طاعة واضحة ونية صالحة ، فقد افلح وانجح ، وحيا حياة الدنيا والآخرة .

(1) يستطرد فى الاجابة على تساؤلاتهم وفقا لتعاليم المذهب الإباضى .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (1) .

(3)

رسالة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الى اباضية طرابلس

بسم الله الرحمن الرحيم .

من امير المؤمنين عبد الوهاب الى جماعة المسلمين بحيز طرابلس
اما بعد — فاني آمركم بتقوى الله تعالى والاتباع لما أمركم به ،
والانتهاء عما نهاكم عنه . وقد بلغني ما كتبتم الى به من وفاة السمع ،
واستخلاف بعض الناس خلفا ، ورد اهل الخير ذلك . فان من ولى خلفا من
غير رضى امامه فقد اخطأ سيرة المسلمين ومن أبى توليته فقد اصاب .
فاذا أتاكم كتابي هذا ، فليرجع كل عامل استعمله السمع الى عمله
الذى ولى عليه ، الا خلف بن السمع حتى يأتيه امرى . وتوبوا الى ربكم
لعلكم تفلحون (2) .

(4)

رسالة الربيع بن حبيب الى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ويزيد بن فندين

بسم الله الرحمن الرحيم — وصلى الله على بنينا محمد وآله الطاهرين
اما بعد — نقد بلغنا يا اخواننا ما كان قبلكم ، وفهمنا ما كاتبتمونا به .
اما ما كتبتم به من أمر الشرط ، فليس من سيرة المسلمين أن يجعلوا الشرط
في الامامة ان لا يقضى أمرا دون جماعة .
ولو صح في الامامة شرط لما أقيم لله حق ولا حد ، ولعطلت الحدود ،
وبطلت الاحكام وضاع الحق . على أن الامام اذا قدم اليه سارق فلا يصيب
أن يقيم عليه حدا فيقطع يده حتى تحضر الجماعة التي ذكرناها ، او زنى
أحد فلا يرجم ولا يجلد حتى تحضر ايضا ، ولا يجاهد الامام عدوا الا ينهى

(1) المالكي : رياض النفوس : ج 1 ص 67 .
(2) انظر : ابو زكريا : السيرة وأخبار الأئمة : ورقة 25 . مخطوط بدار الكتب المصرية
— رقم 9030 ح ، الشهاخي : السير : ص 180 ، 181 ، الدرجيني : طبقات
الاباضية : ج 1 ورقة 31 وجه — مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 ح .

عن فساد الا بحضرة الجماعة المعلومة ، والجماعة يتعذر اتفاقها ، فالامامة صحيحة والشرط باطل .

واما ما ذكرتم من تولية رجل من المسلمين اذا كان فيهم من هو اعلم منه ، فذلك جائز اذا كان الثانى من القناعة والفضل . فقد ولى أبو بكر وزيد ابن ثابت افرض منه ، وعلى بن أبى طالب اقضى منه ومعاذ بن جبل اعلم منه ، وهذا ليس فيه اختلاف ، لقول الرسول (ص) افرضكم زيد واقضاكم على واقراكم أبى ، واعلم امتى بالحلال واكرام معاذ بن جبل . وقوله (ص) معاذ بن جبل سيد العلماء سيحشر غدا يوم القيامة امام العلماء وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (1) .

(5)

رسالة محمد بن افلح الى رعاياه

من محمد بن افلح الى جميع من بلغه كتابنا هذا من المسلمين .
سلام الله عليكم . فانى احمد الله اليكم الذى لا اله الا هو ، واسأله الصلاة على نبي الرحمة وهادى الامة صلى الله عليه .

اما بعد — فان افضل ما يتواصى به العباد وتحاضوا عليه ، تقوى الله ولزوم طاعته والزجر عن معصيته والترغيب فيما يورث الثواب من القول الطيب والعمل الصالح . وعليكم معاشر المسلمين بالتهى للقدوم على الله والتأهب والاعداد ليوم تشخص فيه الابصار وتتغير فيه الاسوان ، ويشيب فيه الولدان ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد . واعلموا رحمكم الله ان اهل العلم بالله القائمين بهذه الدعوة قد انقروضوا وقلت الخلوفا منهم ، فرحم الله امرىء مسلم احتسب نفسه وارصد لله فى طلب العلم ، والنقص على من حاد الله وعدل عن منهاج رسوله (ص) وطريق المحققين من عباده حتى تكون كلمة الله هى العليا والبساطل زهوتا .

وعليكم معاشر المسلمين باتباع الماضين من اسلافكم والمتقدمين من ائمتكم الصالحين من اهل دعوتكم ، فافتنوا آثارهم ، واهتدوا بهداهم ،

(1) أبو زكريا : السيرة واخبار الائمة : ورقة 16 .

واحذروا الزيغ عن طريقهم والميل عن مهاجمهم ، وخالفوا أهل البدع
المضلة والاهواء المزلة . فمن اراد ان يبدل دينكم ، ويلبسكم شيئا ، ويلبس
عليكم امركم ممن اتبع هواه واستحوذ عليه الشيطان ونبد ما جاء به القرآن ،
فالبس على الضعفاء امرهم وزين بدعته في قلوبهم فأخدع من لا بصيرة له
ولا علم له بما مضى عليه الائمة الراشدون رحمة الله عليهم ، والسلف
الصالحون من أهل دعوتكم ، فأضل كثيرا ، وضل عن سواء السبيل .
ونحن ذاكرون لكم ما فيه الكفاية ان شاء الله . وبه نستعين وعليه
نتوكل وما توفيقنا الا بالله (1) .

(6)

خطبة المعز لدين الله الفاطمي في مشايخ كتامة يحضهم على قتال
الشاكرك لله المدرارى .

« . . وهذا الذى كنت ذكرته لكم من غير مجلس ومقام انى لو ندبت
من عسيت ان أندبه منكم لوجدت فيه ما أريده . . »

بارك الله فيكم واحسن صحابتكم والخلافة عليكم ، فقد صدقتم ظنى
فيكم واملى عندكم وانتم من معدن البركة وعنصر الخير . بكم بدأ الله اظهار
امرنا ، وبكم يتم ويصلحه بحوله وقوته . وقد علمت مسارعتم الى ما
ندبتكم اليه . واجابتكم لما اردتم له ، وارجو ان تبلغوا من ذلك بحسب الامل
فيكم ، ويرفع الله عز وجل بذلك درجاتكم ويعلى به ذركم . انتم البنون
والاخوة والاقربون ، ما يعد لكم عندى احد ولا يبلغ مبلغكم من قلبى بشر ،
وما ذلك الا لمالى فى قلوبكم . وما نصر الله وليا من اوليائه قبلنا بمثل نصرتكم
لنا ، على ذلك مضى امركم ، وعليه انتم على محبتنا ونصرتنا وموالاتنا
تتناسلون وتنشؤون ، وبها غذيتم وعليها فطرتم ، فابشروا بما قسم الله عز
وجل من الفضل لكم ، فانتم حزب الله وانصاره وجنده وأحباؤه .

والله ما اردت بهذا البعث الذى بعثتكم فيه شرا استدفعه ، ولا
دفع مكروه أخافه ولا استكثارا من الدنيا أصيبها . اما المكروه ، فقد علم
الخاص والعام والقريب والبعيد أن غاية أمانى من حولنا من أهل الارض
بن المتغلبين ممن دان بملة الاسلام والمشركين أن يسلموا منا ، ويعانوا
امر بأسنا ، وما أحد منهم أمسى واصبح اليوم — بحمد الله — يطمع فى شيء

(1) البرادى : الجواهر المنتقاة فى اتمام ما اخل به كتاب الطبقات لابی العباس الدرجينى
ورثة 93 ، 94 — مخطوط بدار الكتب المصرية — رقم 21791 ب .

مما عندنا . وأما اكتساب حطام الدنيا ، فهذا نحن نثفق من أموالنا على هذا البعث ما لا نرى نرتجع مثله ، وإن مكفنا الله وأيدنا ونصرنا . ولكننا أردنا بذلك وجوها منها : ما افترضه الله عز وجل علينا من جهاد من خالف أمرنا وتسمى بأسمائنا ، وادعى ما جعل الله عز وجل لنا . ومنها أن الله عز وجل قد امتحن عباده بالجهاد في سبيله معنا ، فنحن ننبذهم إليه لنعلم المجاهدين منهم والصابرين وليرفع الله عز وجل به درجاتهم ويجزل مآثرهم وينقل حالاتهم فكم منكم اليوم من ينفذ في هذا الجيش تابعا يعود متبوعا ، ومرعوسا يصير رئيسا . انما ترفعكم عندنا وعند ربكم نياتكم وأعمالكم ، وبها تتوسلون إلينا وإلى بارتكم . لولا السنة التي أمر الله عز وجل باتباعها — التي لا يصلح العباد إلا بها — ما قدمت عليكم أحد منكم ولا من غيركم ، إذ كل واحد منكم عندي يستحق أن يكون المقدم . ولكن لا يصلح الناس إلا برئيس ، وقد قدمت عليكم من علمتموه . أقمته فيكم مقام نفسي ، وجعلته معكم كأذنسى وعينى ، وكل امرئ منكم على نفسه بصير . وقد أمرت لكم بأجل العطاء ، أعطيته من قبلكم إلى أبعد من مسافتكم ، وقد علمتم أنه لم يعط من قبلكم أحد قبلى مثل ما أعطيتكم . ولا استكثر لكم ذلك ، بل استقله أقلكم والذي لكم عند الله وعندى في الذى تستقبلونه أجل وأكبر .

فسيروا على بركات الله ويمنه وسعاداته ونصره وتأييده . كونوا عندما رجوتكم له من العناء والكفاية وصلاح الحال بينكم . احسنوا عشرة بعضكم لبعض ، وعشرة من تصحبونه من غيركم . وانزلوا من ينفذ معكم من عبيدى منازل اخوانكم . واجمعوا معهم كلمتكم ، فهم لكم عضد ولحمة ، وموالى تجمعكم واياهم ، فلا تجعلوا بينكم وبينهم فرقا .

احسن الله لكم الصحابة وعليكم الخلافة . . » (1)

(7)

حديث المعز لدين الله الفاطمى الى المنتصر لله المدرارى

وشيوخ الصفرية بسجلماسة

« . . يا اهل سجلماسة ، فعلتم ما فعلتم فى أيام المهدي بالله واقتدر

(1) ابن حيون : المجالس والمسائرات : ج 1 ورقة 27 — 31 مخطوط بجامعة القاهرة
رقم 26060 .

عليكم مرة بعد أخرى ، فعفا عنكم ، واحسن اليكم لطلوله فيكم ومجاورته اياكم مدة اقامته فيكم ، كما يرعاه من أحله الله محله من كرم الطباع وحسن صنيع من غير يد كانت له عنده ، ولا فعل من الجميل تقدم لكم لديه . فصفح واحسن ، وعفا واجمل ، فما رعيتم ذلك حق رعايته ، ولا فهتم بشكره .

ثم لفق فيكم ناعق من الشيطان فلببتموه ، ودعاكم اليه داع فأجبتموه قام فيكم دعى فيما ادعاه يتوثب على ما تولاه ، قد عرفتم نسبه ودريتم سببه فتغلب على ظاهر امركم ، وتحلى بالرياسة والتصنع لكم ، وتسمى بأمر المؤمنين وامام المسلمين لكم . على علم لا تشكون ويقين لا تمترون ان ذلك لا يجوز ولا يحل تسليمه . فسلمتموه لمثله له واطعتموه وتوليتموه وابتعتموه ، ففارقتم جماعة المسلمين ، وخرجتم من حزب المؤمنين ، وأحدثتم حدثا عظيما في الدين . وانتهى اليها من امركم وأمره ما لم يسعنا تركه والغفلة عنه ، لما افترضه الله علينا عز اسمه من القيام بحقه في أرضه ، وجهاد من صدف عن دينه وعن سنة رسوله . وحل محلكم ومحل هذا الفاسق فيكم . فأنهضنا اليكم جيشا من أوليائنا وأنصار دولتنا وعبيدنا مع عبد أمرناه عليهم وتقدمنا اليه في الاعذار والانذار اليكم في الانابة والتوبة قبل الوقوع بكم . فلم يزل مع طي المراحل نحوكم يتابع الكتب مع رسوله كيدا في الحجة عليكم ، مرة بالوعد ومرة بالوعيد ، وتارة باللين وتارة بالتشديد ، يدعوكم الى الطاعة والنزوع عما أنتم عليه من المعصية والضلال ، والقبض على عدو الله فيكم أن تمادى على ما هو عليه من الغى والضلال ان استطعتموه ، والبراءة منه وتركه بجانب ان لم تقدرُوا عليه . ووصلت كتبه اليكم ، وأدى اليكم من اختار به منكم . وكل ذلك وأنتم على باطلكم مصرون ، وبالفاسق المضل لكم متمسكون . الى إن وصلت جيوشنا بقربكم ، وانتشرت عساكرنا ببلدكم ، وعاین من عاینكم من عیون عدو الله من جمعها وعتادها وقوتها ما أنهاء اليه ، وقد علم أنه لا طاقة لكم ولا له بعسكر من عسكرها . فلما نزلت بداركم وأنتم مع الفاسق على ما أنتم عليه . نهض موليا وهاربا متسللا بين أظهركم ، وقد كنتم تقدرُونَ على أخذه لو أردتموه ، ويمكنكم منعه من ذلك ومن حصاره في داره متى أحببتموه لو أخذتم بحظيكم في ذلك ففعلتموه . لكنكم أقمتم مصرين على طاعته وتوليه الى أن نزع عنكم وأقدرنا الله بفضلله واحسانه عليه كعادته الجميلة بلا صنع ولا لغيركم في ذلك ، وأقدرنا عليكم وامكننا منكم ، وأنتم على ما أنتم عليه من غيكم وضلالكم وما تستوجبون به اجتياحكم ودماركم . فسار عبدنا فيكم بما أمرناه

من العفو والصفح والرحمة وانصرف عنكم ، فأحدثتم بعده ما أحدثتم . فماذا تستحقون أن يفعل بكم ؟ فقال قائلهم : أن يعاقب أمير المؤمنين فنحن أهل العقوبة ، وإن يعفى فهو أهل العفو والفضل والرحمة . . فدعا منتصر بن أحمد بن المعتز فقربه إليه وأمره بالجلوس . فقبل الأرض مرارا وشكر لأمير المؤمنين . ثم عطف على الوفد فقال : قد كنتم تستحقون اليم العذاب والنكال ، ولكننا للذي جبلنا عليه من الصفح والعفو والرحمة قد عفونا ما سلف من ذنوبكم ما استقمتم وأصلحتم ، وقد استعملنا عليكم عبدنا هذا — وأومى إلى منتصر — فقبل وقبلوا الأرض مرارا . . وأمر بصرفهم إلى موضع أنزلهم فيه وخلع على منتصر وفعل كذلك بجماعة من وجوههم . . « (1)

(1) ابن حيون : المجالس والمسائرات : ج 1 ورقة 298 — 304 .

المصادر

١ - المراجع العربية المخطوطة :

- 1 - **ابن أبى كريمة** : أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة (تاريخ أواخر القرن الثانى الهجرى) : رسالة فى أحكام الزكاة . مخطوط بدار الكتب - رقم 21582 ب .
- 2 - **ابن حيون المغربى** : القاضى أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور ابن حيون (ت 363 هـ) : شرح الاخبار فى فضائل النبى المختار وآله المصطفين الاخيار من الائمة الاطهار عليهم السلام . مخطوط . بدار الكتب رقم 7062 ح .
- 3 - **ابن حيون المغربى** : اساس التأويل الباطنى . مخطوط بدار الكتب رقم 24346 ح .
- 4 - **ابن حيون المغربى** : المجالس والمسائرات . ج 1 ، 2 . مخطوط بجامعة القاهرة - رقم 26060 .
- 5 - **ابن العربى** : أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافرى (ت 543 هـ) . القواصم والعواصم - مخطوط بدار الكتب - رقم 22031 ب .
- 6 - **ابن فضل الله العمرى** : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 749 هـ) . مسالك الابصار ج 5 - مخطوط بدار الكتب رقم 4376 ج .
- 7 - **ابن وردان** : تاريخ الاغلبة فى مملكة تونس - مخطوط بدار الكتب - رقم 2199 تاريخ - يثمورية .

- 8 — **أبو زكريا** : يحيى بن أبى بكر (ت النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) . السيرة واخبار الائمة — مخطوط بدار الكتب — رقم 9030 ح .
- 9 — **الانصارى** : أحمد بن الحسين النائب الانصارى : نفحات النسرین والريحانى فهيم كان بطرابلس من الاعيان — مخطوط بدار الكتب — رقم 1071 ح .
- 10 — **البرادى** : أبو القاسم بن ابراهيم البرادى (ت 697 هـ) . الجواهر المنتقاة فى اثم ما اخل به كتاب الطبقات لأبى العباس الدرجينى . مخطوط بدار الكتب . رقم 8456 ح .
- 11 — **البرادى** : رسالة فى ذكر كتب الاباضية . مخطوط بدار الكتب — رقم 21791 ب .
- 12 — **البياسى** : يوسف بن محمد بن ابراهيم الانصارى (ت 653 هـ) الاعلام بالحروب الواقعة فى صدر الاسلام مخطوط بدار الكتب — رقم 8739 ح .
- 13 — **جعفر بن أحمد بن عبد السلام** : (ت اواخر القرن الحادى عشر الهجرى) . ابانة المناهج فى نصيحة الخوارج . مخطوط بدار الكتب — رقم 25499 ب .
- 14 — **الخرزجى** : جمال الدين أبو الحسن على بن ظافر (ت 623 هـ) اخبار الدول المنقطعة . مخطوط بدار الكتب — رقم 890 تاريخ .
- 15 — **الدرجيني** : أبو العباس أحمد (ت منتصف القرن السابع الهجرى) طبقات الاباضية ج 1 ، 2 . مخطوط بدار الكتب — رقم 2561 ح .
- 16 — **الشماعى** : أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ) : شرح مقدمة اصول الفقه . مخطوط بدار الكتب — رقم 21587 ب .
- 17 — **السوفى** : أبو عمر عثمان بن خليفة المرغنى (ت اواخر القرن السادس الهجرى) : شرح السؤالات — مخطوط بدار الكتب — رقم 21789 ب .
- 18 — **الصفري** : أبو غانم : مدونة أبى غانم الصفري — مخطوط بدار الكتب — رقم 21582 ب .

- 19 — **العيني** : بدر الدين ابي محمد محمود بن أحمد (ت 855 هـ) : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان . ج 11 ، 13 ، 15 مخطوط بدار الكتب — رقم 1584 تاريخ .
- 20 — **القاضي عياض** : عياض موسى اليحصبي (544 هـ) : ترتيب المدارك وتعريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك . قسم 1 من ج 2 . مخطوط بدار الكتب — رقم 96730 ح .
- 21 — **المأمون** : الخليفة عبد الله المأمون بن هرون الرشيد : جغرافية المأمون . مخطوط بدار الكتب — رقم 1949 ط .
- 22 — **مجهول** : تاريخ مدينة فاس وبناء جامع القرويين والاندرلسيين — مخطوط بدار الكتب — رقم 4419 ح .
- 23 — **مجهول** : قطعة من كتاب في الأديان والفرق . مخطوط بدار الكتب — رقم 22298 ب .
- 24 — **مجهول** : كشف الغمة لأخبار الأمة . مخطوط بدار الكتب — رقم 12968 ح .
- 25 — **مجهول** : محاوراة بنى شيعي وخارجي في شأن الشيخين أبي بكر وعمر وشأن الحكمين وما قيل في ذلك — مخطوط بدار الكتب — رقم 19882 ب .
- 26 — **محمد الشطبي المغربي** : الجمان في أخبار الزمان — مخطوط بدار الكتب — رقم 1416 تاريخ .
- 27 — **المنصوري** : ركن الدين بيبرس الدوادار (ت 729 هـ) : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة . ج 4 ، 5 — مخطوط بجامعة القاهرة — رقم 24027 .
- 28 — **الناصرى** : عثمان بن عبد العزيز بن منصور (ت 1259 هـ) : منهج المعارج لأخبار الخوارج — مخطوط بدار الكتب — رقم 2144 تاريخ — تيمورية .
- 29 — **النويرى** : شهاب الدين أحمد (ت 732 هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب . ج 22 ، 26 — مخطوط بدار الكتب — رقم 549 معارف عامة .
- 30 — **النيسابورى** : أحمد إبراهيم (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) : استتار الإمام — مخطوط بدار الكتب — رقم 11497 ح .

31 — **الوسيانى** : أبو الربيع عبد السلام (ت 471 هـ) : سير أبى الربيع بن عبد السلام الوسيانى — مخطوط بدار الكتب — رقم 9113 ح .

ب — المراجع العربية المطبوعة :

32 — **ابن الآبار** : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (ت 658 هـ) : الحلة السراء ج 1 ، 2 القاهرة 1963 .

33 — **ابن أبى دينار** : أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم القيروانى (ت 1092 هـ) ، المونس فى أخبار افريقية وتونس . تونس سنة 1350 هـ .

34 — **ابن أبى زرع** : أبو الحسن بن عبد الله بن أبى زرع الفاسى (ت 720 هـ) : الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ج 1 . الرباط سنة 1936 م .

35 — **ابن الاثير** : محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى (ت 630 هـ) : الكامن ج 3 ، 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 . القاهرة سنة 1303 هـ .

36 — **ابن بشكوال** : أبو القاسم خلف بن مالك (ت 578 هـ) : الصلة فى تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفتهائهم وادبائهم — ج 1 ، 2 . القاهرة سنة 1955 م .

37 — **ابن بطوطة** : محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتى (ت 1377 م) : تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار ج 2 .

38 — **ابن تغرى بردى** : جمال الدين أبى المحاسن يوسف (ت 874 هـ) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة — ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1963 م .

39 — **ابن حزم** : على بن احمد بن سعيد (ت 456 هـ) : جمهرة انساب العرب . القاهرة سنة 1962 م .

40 — **ابن حزم** : الفصل فى الملل والنحل . القاهرة سنة 1317 .

41 — **ابن حزم** : نقط العروس فى تاريخ الخلفاء . القاهرة سنة 1951

42 — **ابن حماد** : محمد بن على (ت 628 هـ) : أخبار ملوك بنى

- عبيد وسيرتهم . الجزائر سنة 1346 هـ .
- 43 - **ابن حوقل** : أبو القاسم بن حوقل (ت النصف الثاني من القرن الرابع الهجرى) : المسالك والممالك . ليدن سنة 1873 م .
- 44 - **ابن حيان** : حيان بن خلف بن حسين (ت 469 هـ) : المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس نشر منشور أنطونيا . باريس سنة 1937 م .
- 45 - **ابن حيان** : المقتبس فى أخبار بلد الاندلس تحقيق الحجر التونسى بيروت سنة 1965 م .
- 46 - **ابن خرداذبة** : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت حول سنة 300 هـ) المسالك والممالك . ليدن سنة 1889 م .
- 47 - **ابن الخطيب** : لسان الدين محمد بن الخطيب السليمانى (ت 940 هـ) اعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام . ج 2 . بيروت سنة 1956 م .
- 48 - **ابن الخطيب** : تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط . وهو الجزء الثالث من كتاب اعمال الاعلام . الدار البيضاء سنة 1964 .
- 49 - **ابن الخطيب** : رقم الحل فى نظم الدول . تونس سنة 1316 هـ .
- 50 - **ابن خلدون** : عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) : العبر ديوان المبتدا والخبر . المقدمة ، ج 3 ، 4 ، 6 ، 7 . بولاق سنة 1284 هـ ، القاهرة سنة 1957 م .
- 51 - **ابن خلكان** : شمس الدين أبو العباس احمد (ت 681 هـ) : وفيات الاعيان ج 1 القاهرة سنة 1910 م .
- 52 - **ابن الدايدة** : سيرة احمد بن طولون . برلين سنة 1894 م .
- 53 - **ابن الدلائى** : احمد بن عمر بن انس العذرى (ت 478 هـ) : نصوص من الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتفريع الآثار ، والمسالك . الى جميع الممالك . مدريد سنة 1965 م .
- 54 - **ابن رسته** : أبو احمد بن عمر : الاعلاف النفسية ج 7 ليدن سنة 1891 م .
- 55 - **ابن سعيد** : على بن موسى بن محمد (ت 673 هـ) : المغرب فى حلى المغرب ج 1 . القاهرة سنة 1964 م .
- 56 - **ابن الصغير المالكى** : انظر : Motylinski

- 57 — **ابن طباطبغا** : محمد بن على . الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية . القاهرة سنة 1938 م .
- 58 — **ابن عبد الحكم** : عبد الرحمن بن عبد الحكم بن أعين (ت 257 هـ) : فتوح مصر والمغرب . القاهرة سنة 1961 م .
- 59 — **ابن عبد ربه** : أحمد بن محمد (ت 327 هـ) : العقد الفريد ج 1 ، 2 ، 3 ، 4 . القاهرة سنة 1940 م .
- 60 — **ابن عذارى** : محمد بن عذارى المراكشى (نهاية القرن السابع الهجرى) : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج 1 ، 2 بيروت سنة 1950 م .
- 61 — **ابن غلبون** : محمد بن خليل : التذكار فىمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار . القاهرة 1349 هـ .
- 62 — **ابن فرحون** : برهان الدين بن على (ت 799 هـ) : الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب 1351 هـ .
- 63 — **ابن الفرضى** : عبد الله بن محمد بن يوسف (ت 304 هـ) : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ج 1 ، 2 . القاهرة سنة 1954 م .
- 64 — **ابن الفقيه** : أبو بكر أحمد بن محمد : مختصر كتاب البلدان ليدن سنة 1302 هـ .
- 65 — **ابن قتيبة** : عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) : الإمامة والسياسة ج 1 ، 2 . القاهرة .
- 66 — **ابن قتيبة** : المعارف . القاهرة سنة 1960 م .
- 67 — **ابن القوطية** : محمد بن عمر بن عبد العزيز (ت 267 هـ) : تاريخ افتتاح الاندلس بيروت سنة 1957 م .
- 68 — **ابن كثير** : عماد الدين أبى الفدا اسماعيل بن عمر (ت 774 هـ) البداية والنهاية ج 9 .
- 69 — **ابن النديم** : محمد بن اسحق (ت 385 هـ) : الفهرست القاهرة سنة 1348 هـ .
- 70 — **أبو العرب** : محمد بن أحمد بن تميم (ت 333 هـ) : طبقات علماء إفريقية . باريس سنة 1915 م .

- 71 — **أبو الفدا** : عماد الدين اسماعيل (ت 732 هـ) المختصر في أخبار البشر ج 1 ، 2 . القاهرة .
- 72 — **أبو الفرج الاصفهاني** : على بن الحسين بن محمد بن أحمد (ت 356 هـ) : مقاتل الطالبين . النجف الاشرف سنة 1353 هـ .
- 73 — **أحمد أمين** : ضحى الاسلام ج 3 القاهرة سنة 1936 م .
- 74 — **أحمد مختار العبادي** : سياسة الفاطميين نحو المغرب والاندلس — صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد — مجلد 5 — عدد 1 ، 2 سنة 1957 م .
- 75 — **الادريسي** : الشريف محمد الادريسي (ت 558 هـ) : صفة المغرب وأرض السودان ومصر . ليدن سنة 1894 م .
- 76 — **ارشييا لدونسي** : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الابيض المتوسط . القاهرة سنة 1960 .
- 77 — **ارنولد** : سير توماس : الدعوة الى الاسلام . القاهرة سنة 1957 م .
- 78 — **الازدي** : محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله (ت 488 هـ) : جذوة المقتبس في ذكر ولاية الاندلس . القاهرة سنة 1966 م .
- 79 — **الاسفرائيين** : أبو المظفر الاسفرائي (ت 471 هـ) : التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين . القاهرة سنة 1955 م .
- 80 — **اسماعيل حامد (ناشر)** : نبذة في تاريخ الصحراء القصوى . باريس سنة 1911 م .
- 81 — **الاشعري** : أبو الحسن الاشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين . بفساون سنة 1963 م .
- 82 — **أطفيش** : محمد بن يوسف (ت 1304 هـ) : الامكان فيما جاز أن يكون أو كان . الجزائر سنة 1304 هـ .
- 83 — **أطفيش** : بعض تواريخ أهل وادي ميزاب . الجزائر سنة 1326 هـ .
- 84 — **الاندلسي** : محمد بن محمد الاندلسي : الحلل السندسية فسي الاخبار التونسية . تونس سنة 1287 هـ .
- 85 — **الانصاري** : أحمد النائب : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ج 1 . بيروت .

- 86 — **الباجي المسعودي** : محمد الباجي المسعودي (ت 1253 هـ) :
الخلاصة النقية في أمراء افريقية . تونس سنة 1283 هـ .
- 87 — **باسيه : رينيه** : R. BASSET : مادة ادريس بدائرة المعارف
الاسلامية . مجلد 1 .
- 88 — **برنارد لويس** : اصول الاسماعيلية . القاهرة سنة 1947 م .
- 89 — **البغدادي** : عبد القاهر بن طاهر بن محمد (ت 429 هـ) : الفرق
بين الفرق . القاهرة .
- 90 — **البكري** : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت 460 هـ) :
المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب بباريس سنة 1911 م .
- 91 — **البلاذري** : أحمد بن يحيى بن جابر (ت 248 هـ) : انساب
الاشراف ج 11 . جريزفالد سنة 1883 م .
- 92 — **البلاذري** : انساب الاشراف ج 1 . القاهرة سنة 1959 م .
- 93 — **البلاذري** : فتوح البلدان ج 1 . القاهرة سنة 1956 م .
- 94 — **البلاوي** : أبو عبد الله بن محمد المديني (ت حول منتصف القرن
الرابع الهجري) : سيرة أحمد بن طولون دمشق سنة 1358 هـ .
- 95 — **البوعياشي** : أحمد بن عبد السلام . الريف بعد الفتح الاسلامي .
تطوان سنة 1954 م .
- 96 — **بوفيل** : الممالك الاسلامية في غرب افريقيا واثرها في تجارة
الذهب عبر الصحراء . القاهرة سنة 1968 م .
- 97 — **التجاني** : عبد الله بن محمد بن أحمد (ت 717 هـ) رحلته
تونس سنة 1958 م .
- 98 — **الجريبي** : محمد أبو راس (ت 1222 هـ) : مؤنس الاحبة
في أخبار جربة . تونس سنة 1958 م .
- 99 — **الجزنائي** : علي الجزنائي (ت اواخر القرن الثامن الهجري) :
زهرة الآس في بناء مدينة فاس . الجزائر سنة 1923 م .
- 100 — **حامد عمار (دكتور)** : علاقات الدولة المملوكية بالدولة الافريقية
— رسالة ماجستير .
- 101 — **حسن ابراهيم حسن (دكتور)** : انتشار الاسلام في القارة الافريقية
القاهرة سنة 1964 م .
- 102 — **حسن ابراهيم حسن (دكتور)** : تاريخ الدولة الفاطمية . القاهرة

- سنة 1958 م .
- 103 — **حسن ابراهيم حسن (دكتور)** : تاريخ الاسلام السياسى :
ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1958 م .
- 104 — **حسن ابراهيم حسن (دكتور)** : عبيد الله المهدي . القاهرة
سنة 1947 م .
- 105 — **حسن احمد محمود (دكتور)** : انتشار الاسلام والثقافة العربية
في افريقية . القاهرة سنة 1963 م .
- 106 — **حسن احمد محمود (دكتور)** : قيام دولة المرابطين . القاهرة
سنة 1957 م .
- 107 — **حسن الباشا (دكتور)** : الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق
والآثار . القاهرة سنة 1957 م .
- 108 — **حسن حسنى عبد الوهاب** : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية
التونسية ج 1 ، 2 . تونس سنة 1966 م .
- 109 — **حسن على حسن عبد العواد** : دولة الادارسة بالمغرب — رسالة
ماجستير .
- 110 — **حسين مؤنس (دكتور)** : فجر الاندلس .
- 111 — **حسين مؤنس (دكتور)** : ثورات البربر في افريقية والاندلس —
مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الاول مجلد 10 ج 1 . مايو
سنة 1948 م .
- 112 — **الحميرى** : محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت القرن التاسع
الهجرى) : صفة جزيرة الاندلس القاهرة سنة 1937 م .
- 113 — **الخشنى** : محمد بن الحارث بن اسد (366 هـ) : طبقات
علماء افريقية . باريس سنة 1915 م .
- 114 — **الدباغ** : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى (ت
696 هـ) : معالم الايمان في معرفة اهل القيروان ج 1 ، 2 ، 3 .
تونس سنة 1320 هـ .
- 115 — **ديمومبين** : G. Dymomyne : مادة بنى الاغلب بدائرة
المعارف الاسلامية — مجلد 2 .
- 116 — **الدينورى** : احمد بن داود (ت 282 هـ) : الاخبار الطوال .
- 117 — **الرازى** : فخر الدين الرازى (ت 606 هـ) : اعتقادات فرق

المسلمين والمشركون . القاهرة سنة 1938 م .

118 — **الرفاعى** : عبد الله محمد سراج الدين (ت 885 هـ) : صاحب

الاخبار فى نسب السادة الفاطمية الاخير بىماى سنة 1306 هـ .

119 **الرقيقى** : ابراهيم بن القاسم القيروانى (ت النصف الاول من

القرن الخامس الهجرى) : تاريخ افريقية والمغرب . تونس

سنة 1968 م .

120 — **سر الختم عثمان** : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور

الوسطى رسالة ماجستير .

121 — **سعد زغلول عبد الحميد (دكتور)** : تاريخ المغرب العربى

القاهرة سنة 1965 م .

122 — **سعيد بن بطريق** : البطريق افيتثيوس (ت 328 هـ) : التاريخ

المجموع على التحقيق والتصديق . بيروت سنة 1905 م .

123 — **سعيد بن مقديش** : نزهة الانظار .

124 — **السلالوى** : احمد بن خالد الناصرى (ت 1319 هـ) : الاستقصا

لاخبار دول المغرب الاقصى ج 1 . الدار البيضاء سنة 1954 م .

125 — **سلفاتور كوسا (ناشر)** : تواريخ مدينة فاس .

126 — **سهر القلماوى (دكتور)** : ادب الخوارج من العصر الاموى —

رسالة ماجستير — القاهرة سنة 1945 م .

127 — **السيد عبد العزيز سالم (دكتور)** : المغرب الكبير . القاهرة

سنة 1966 م .

128 — **السيد عبد العزيز سالم (دكتور)** : تاريخ المسلمين وآثارهم فى

الاندلس . القاهرة سنة 1962 م .

129 — **السيوطى** : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت 911 هـ) :

تاريخ الخلفاء . القاهرة سنة 1964 م .

130 — **الشماعى** : أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ) :

السير . القاهرة — طبع حجر .

131 — **الشهرستانى** : محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ) : الملل

والنحل ج 1 . القاهرة سنة 1956 م .

132 — **صاعد الاندلسى** : صاعد بن أحمد (ت 462 هـ) : طبقات الامم .

القاهرة سنة 1915 م .

133 — **الضبى** : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (ت 599 هـ) : بغية

الملتبس فى تاريخ رجال الاندلس . مدريد سنة 1884 م .

- 134 — الطاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . القاهرة سنة 1963 م .
- 135 — الطبرى : محمد بن جرير (ت 310 هـ) : تاريخ الرسل والملوك ج 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 . القاهرة سنة 1963 م .
- 136 — طه حسين (دكتور) : الفتنة الكبرى ج 1 ، 2 . القاهرة سنة 1959 م . سنة 1961 م .
- 137 — عبد الرحمن بن زيدان : اتاحف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج 1 ، 2 . الرباط سنة 1929 ، سنة 1930 م .
- 138 — عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب ج 1 . الدار البيضاء سنة 1965 م .
- 139 — عبد المنعم ماجد (دكتور) : التاريخ السياسى للدولة العربية ج 2 القاهرة سنة 1957 .
- 140 — عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب . صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية بمديرى — مجلد 2 سنة 1954 م .
- 141 — عريب بن سعد القرطبى : (ت 366 هـ) : صلة تاريخ الطبرى . القاهرة سنة 1939 م .
- 142 — على يحيى معمر : الاباضية فى موكب التاريخ ج 1 . القاهرة سنة 1964 م .
- 143 — عمر أبو النصر : الخوارج فى الاسلام . بيروت سنة 1956 م .
- 144 — فلهـوزن : يوليوس ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الاموية . القاهرة سنة 1958 م .
- 145 — فلهـوزن : احزاب المعارضة السياسية الدينية فى صدر الاسلام الخوارج والشيعة ، القاهرة سنة 1958 .
- 146 — قدامة بن جعفر (ت 320 هـ) : الخراج وصناعة الكتابة . ليدن سنة 1889 م .
- 147 — القلقشندى : ابو العباس احمد (ت 821 هـ) : صبح الاعشى فى صناعة الانشا . ج 3 ، 5 ، 13 . القاهرة سنة 1922 م .
- 148 — الكتامى : محمد بن ادريس الحسنى (ت 1345 هـ) : الازهار

- العاطرة الانفاس بذكر بعض محاسن قطب المغرب وتاج مدينة فاس
- 149 — **الكركسى** : ابراهيم بن محمد الفارس الاطرخى (ت النصف الاول من القرن الرابع الهجرى) : المسالك والممالك . القاهرة سنة 1961 م .
- 150 — **كولين** : G. S. Colin : مادة سجل ماسة بدائرة المعارف الاسلامية .
- 151 — **الكندى** : محمد بن يوسف (ت 350 هـ) : الولاة والقضاة . بيروت سنة 1908 م .
- 152 — **ليفى ديلا فيدا** : G. Levi. Della Vida : مادة الصفرية بدائرة المعارف الاسلامية .
- 153 — **مارسيه** : G. Marcais : مادة بنى رستم بدائرة المعارف الاسلامية .
- 154 — **المالكى** : عبد الله بن ابي عبد الله (نهاية القرن الرابع الهجرى) رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان واهريقية ج 1 القاهرة سنة 1951 م .
- 155 — **الماوردى** : على بن محمد بن حبيب (ت 450 هـ) الاحكام السلطانية والولايات الدينية . القاهرة سنة 1960 م .
- 156 — **مبارك الميلى** : تاريخ الجزائر فى التقديم والحديث ج 1 ، 2 . الجزائر سنة 1350 هـ .
- 157 — **المبرد** : ابو العباس محمد بن يزيد (ت القرن الثالث الهجرى) الكامل فى اللغة والادب والنحو والتصريف . ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1936 م .
- 158 — **مجهول** : اخبار مجموعة فى فتح الاندلس ، مدريد سنة 1867 م .
- 159 — **مجهول** : العيون والحدائق فى اخبار الحقائق ليدن .
- 160 — **مجهول** : (ت القرن السادس الهجرى) : الاستبصار فى عجائب الامصار . الاسكندرية سنة 1958 م .
- 161 — **مجهول** : (ت القرن الثامن الهجرى) : نبذ تاريخية فى اخبار البربر فى القرون الوسطى . الرباط سنة 1934 م .
- 162 — **محمد أبو زهرة** : المذاهب الاسلامية . القاهرة سنة 1959 م .

- 163 — **محمد بن تاويت التطواني** : دولة الرستميين أصحاب تاهرت —
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد مجلد 5 — عدد
1 ، 2 — سنة 1957 م .
- 164 — **محمد جمال الدين سرور (دكتور)** : الحياة السياسية في الدولة
العربية الاسلامية . القاهرة سنة 1960 م .
- 165 — **محمد جمال الدين سرور (دكتور)** : الدولة الفاطمية في مصر .
القاهرة سنة 1965 م .
- 166 — **محمد ضياء الدين الرئيس (دكتور)** : النظريات السياسية الاسلامية
القاهرة سنة 1967 م .
- 167 — **محمد عبد الله عنان** : دولة الاسلام في الاندلس ج 1 . القاهرة
سنة 1943 م .
- 168 — **محمد على دبوز** : تاريخ المغرب الكبير ج 2 ، 3 . القاهرة سنة
1963 م .
- 169 — **محمد على السنوسي (ت 1272 هـ)** : الدرر السندسية في اخبار
السلالة الادريسية . ليبيا سنة 1349 هـ .
- 170 — **محمد كامل حسين (دكتور)** : في ادب مصر الفاطمية . القاهرة
سنة 1963 م .
- 171 — **محمود اسماعيل عبد الرازق** : سياسة الاغلبة الخارجية —
القاهرة سنة 1972 م .
- 172 — **محمود على مكى (دكتور)** : التشيع في الاندلس الى نهاية ملوك
الطوائف صحيفة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية في مدريد —
مجلد 2 — سنة 1954 م .
- 173 — **المراكشى** : عبد الواحد بن على التميمي (ت 647 هـ) : المعجب
في تلخيص اخبار المغرب . القاهرة سنة 1949 م .
- 174 — **المسعودى** : على بن الحسين بن على (ت 346 هـ) : مروج
الذهب ومعادن الجوهر ج 2 ، 3 ، 4 . القاهرة سنة 1964 م .
- 175 — **المقدسى** : شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد (ت 388 هـ)
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . ليدن سنة 1909 م .
- 176 — **المقرى** : أحمد بن محمد (ت 1041 هـ) : نفح الطيب من

- غصن الاندلس الرطيب ج 1 ، 4 . القاهرة سنة 1946 م .
- 177 — **المقريزى** : تقى الدين أحمد بن على (ت 845 هـ) : اتعاض الحنف بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . القاهرة سنة 1948 م .
- 178 — **المقريزى** : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج 1 ، 2 . بولاق سنة 1270 هـ .
- 179 — **نصر بن مزاحم المنقرى** : اخبار صفيين .
- 180 — **النفوسى** : سليمان بن عبد الله البارونى (ت 1359 هـ) : الازهار الرياضية فى أئمة وملوك الاباضية ج 2 .
- 181 — **النوبختى** : الحسن بن موسى (ت 288 هـ) : فرق الشيعة . النجف سنة 1951 م .
- 182 — **النيسابورى** : أحمد بن إبراهيم (ت أواخر القرن الرابع الهجرى) استتار الامام . مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية مجلد 4 ، ج 2 — ديسمبر سنة 1936 م .
- 183 — **الورجلانى** : يوسف بن إبراهيم : الدليل لاهل العقول . ج 1 ، 2 ، 3 . القاهرة سنة 1306 هـ .
- 184 — **ياقوت الحموى** : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى (ت 636 هـ) : معجم البلدان — مجلد 1 ، 3 . طهران سنة 1965 م .
- 185 — **اليقوبى** : أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 284 هـ) : انبلدان . ليدن سنة 1891 م .
- 186 — **اليقوبى** : تاريخه ج 2 ، 3 . النجف الاشرف سنة 1358 هـ .
- 187 — **اليمانى** : محمد بن مالك بن أبى الفضائل الحمادى (ت حول أواسط القرن الخامس الهجرى) : كشف أسرار الباطنية واخبار القرامطة . القاهرة سنة 1955 م .
- 188 — **اليمانى** : محمد بن محمد : سيرة جعفر الحاجب . نشر ايفانوفنا تحت عنوان مذكرات فى حركة المهدي الفاطمى . مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية — مجلد 4 — ج 2 — سنة 1936 م .

ج - المراجع الأوربية :

- 189 — **Basset, Rene** : Les sanctuaires du Djebel Nefousa.
Journal Asiatique, Tome 13,14 Paris, 1899.
- 190 — **Basset, Rene** : Recherches sur la religion des Berberes.
Revue de l'histoire des religions. Tome 61, Paris 1910
- 191 — **Bel, Alfred** : La religion musulmane en Berberie. Vol.
1, Paris, 1938.
- 192 — **Bernard, Augustin** : Les capitales de la Berberie.
Recueil de memoires et de textes publie en l'honneur du
14e congres des Orientalistes. Alger. 1905.
- 193 — **Biquet, Faure** : Histoire de l'Afrique septentrionale sous
la domination musulmane. Paris.
- 194 — **Bonet, Maury** : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique
Paris, 1906.
- 195 — **Brockelmann, Karl** : History of the Islamic people.
London, 1949,
- 196 — **Brunschvig, R** : La tunisie dans le haut moyen age. Le
Caire, 1948.
- 197 — **Cambridge Medieval** : history, Vol. 2.
- 198 — **Cherbonneau, M** : Documente inedits sur l'heretique
Abou-Yezid Mokhalled Ibn Kaidad de Tademket Traduits
de la chronique d'Ibn Hammad. Journal Asiatique, Tome
20 Paris, 1852.
- 199 — **Conde** ; History of the dominion of the Arabs in Spain
Vol. I, London.
- 200 — **Dachraoui, Farhat** : La captive d'Ibn Wasul, Le rebelle de

- Sidjilmassa d'après le cadî An-Numan. Les Cahiers du Tunisie, 1956.
- 201 — **De goeje M.J.** : Memoires sur les Carmathes de Bahrin et les Fatimids Leiden, 1886.
- 202 — **Despois, Jean** : Le Djebel Nefousa. Paris, 1935.
- 203 — **Dozy, E.** Spanish Islam. London, 1913
- 204 — **Drague, G** : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Paris, 1951.
- 205 — **Faroughy, Dr. A** : A Persian dunasty in North Africa ; The Rustamides.
The Islamic review, April, 1952, England.
- 206 — **Fournel** : Les Berberes. Vols. 1, 2, Paris, 1895.
- 207 — **Gibb** : Mohammedanism. London, 1945.
- 208 — **Hassan Ibrahim** ; Relations between the Fatimids in North Africa and Egypt and the Omayyads in Spain during the 4 th century A.H. Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University. Vol 10, Part, 2 Cairo 1948.
- 209 — **Hitti, P. K.** : History of the Arabs. London, 1964.
- 210 — **Hopkins** : Medieval Moslem government in Barbary unitill the 6 th century of Hijra. London, 1958.
- 211 — **Houdas, O.** Essai sur l'écriture Maghrebine. Nouveau melanges Orientaux. Publications de l'ecole des langues Orientales vivantes, 2 serie, Vol. 19
- 212 — **Huart, C.** Histoires des Arabes. Vol. I. Paris, 1912
- 213 — **Idris, H.R.** : Contribution a l'histoire de l'Ifrikiya
Revue des etudes Islamiques, Année, 1935,
Cahier 2 Paris, 1935.
- 214 — **Ivanovv, W** : Ismaili tradition concerning the rise of the Fatimids. Bombey, 1942.
- وبملاحق الكتاب نصوص من الجزء الخامس عشر من كتاب شرح الاخبار ،
وكتاب انفتاح الدعوة ، وكتاب زهرة المعاني .
- 215 — **Julien, Andre** : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1931

- 216 — **Lammens, H** : Etudes sur le siècle des Omayyades. Beyrouth, 1930.
- 217 — **Lane-Poole, S** : Catalogue of the collection of Arabic coins in the British museum, Vol. 4. London, 1879.
- 218 — **Lane-Poole, S** : Catalogue of the collection of Arabic Coins presented in the Khedivial library of Cairo. London, 1897,
- 219 — **Lavoix, M.H** : Catalogue des monnaies Musulmane de la Bibliothèque Nationale. "l'Espagne et Afrique" Paris, 1891.
- 220 — **Le Tourneau, R** : La revolte d'Abou-Yazid au Xme siècle Les cahiers de tunisie, 1953 Tunis, 1953.
- 221 — **Lewicki, T** : Etudes Ibadites Nord Africaine. Warszaw, 1955.
- 222 — **Lewicki, T** : De quelques textes inedits en vieux Berberes provenant d'une chronique ibadites anonyme.
Revue des etudes Islamiques, Annee 1934,
Cahier 3 Paris, 1934.
- 223 — **Lewicki, T** : Melanges Berberes Ibadites, Revue des etudes Islamiques Annee 1936, Cahier 3, Paris, 1936.
- 224 — **Lewicki, T** : Une chronique Ibadites "Kitab-as-syar" d'as-Samachi. Revue des etudes Islamiques, Annee 1934 Tome 8 Paris, 1937.
- 225 — **Mamour, P.H.** Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs London, 1934.
- 226 — **Marcais, G** : L'Afrique du Nord Francaise dans l'histoire. Paris, 1937.
- 227 — **Marcais, G** : La Berberie Musulmane et l'orient au moyen age, Paris, 1946.
- 228 — **Marcais, W** : Comment l'Afrique du Nord a ete arabise Annales de l'institut d'etudes orientales, Annee, 1938 Tome 4
- 229 — **Masqueray, E.** Chronique d'Abou Zakaria Alger, 1878.
- 230 — **Mercier, E.** Histoire de Constantine, 1903.
- 231 — **Mercier, E.** Histoire de l'Afrique septentrionale Vol. I, Paris, 1888.

- 232 — **Mercier, E.** Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale Constantine, 1875.
- 233 — **Motylinski, A. De. C.** : Chronique d'Ibn Saghîr sur les Imams Rostimides de Tahert. Actes du 14 congrès international des orientalistes.
Alger, 1905, Vol. 3, Part 2.
- 234 — **Motylinski, A. De. C.** : L'Aqida des Abadhites Actes du congrès international des orientalistes, Alger, 1905.
- 235 — **Muir, W** : The caliphates ; its rise, decline and fall.
Beirut, 1963.
- 236 — **O' Leary. de lacy** : A short history of the Fatimid Khalifate.
London, 1923.
- 237 — **Provencal, E.L.** : Histoire de l'Espagne musulmane Vol. I,
Alger, 1950.
- 238 — **Scott, S.P.** : History of the Moorish empire in Europe Vol. 2, London, 1904.
- 239 — **Smith, P** : The Ibadites. The Moslem world, Vol. 12 July, 1922.
- 240 — **Van Berchem, Max** : Titres Califiens d'Occident. Journal Asiatique, Tome, 9 Paris, 1907.
- 241 — **Variedades** : Al-Hakam II y los berbers regum untexto inedito de Ibn Hayyan. Al-Andlus, Vol. 13, Madrid, 1948.
- 242 — **Vonderheyden, M** : La Berberie orientale sous la synastie de Benou' L'Arlab. Paris, 1927.
- 243 — **Zaki. M. Hassan** : Les Tulunides Paris, 1933.

الفهرس

5	المقدمة
---	---------------

الباب الاول :

23	دعوة الخوارج في بلاد المغرب
	(1 احوال الخوارج في المشرق الاسلامى حتى اوائل القرن
24	الثانى الهجرى
31	(2 بلاد المغرب قبيل ظهور الخوارج
42	(3 انتشار مذهب الخوارج في بلاد المغرب

الباب الثانى :

59	ثورات الخوارج في بلاد المغرب في عصر الولاة
62	(1 ثورات الخوارج الصفريفة
82	(2 ثورات الخوارج الاباضية
96	(3 نتائج ثورات الخوارج في بلاد المغرب

الباب الثالث :

109	دول الخوارج في بلاد المغرب
	(1 دولة بنى مذار الصفريفة .
112	(ا قيام دولة بنى مذار
122	ب) سياسة بنى مذار الداخلية
128	ج) علاقات بنى مذار الخارجية
	(2 دولة بنى رستم الاباضية .
144	(ا قيام دولة بنى رستم

- 154 ب) سياسة بنى رستم الداخلية
183 ج) علاقات بنى رستم الخارجية

الباب الرابع :

- 209 الخوارج والفاطميون في بلاد المغرب
(1) الصفورية والفاطميون .
210 أ) الفاطميون وسقوط دولة بنى مدرار
219 ب) ثورات الصفورية على الحكم الفاطمي
(2) الإباضية والفاطميون .
229 أ) الفاطميون وسقوط دولة بنى رستم
235 ب - ثورات الإباضية على الحكم الفاطمي

الباب الخامس :

- 255 اثر الخوارج في المجتمع المغربي
257 (1) الفكر السياسى ونظم الحكم
271 (2) الحياة الاقتصادية
285 (3) الحياة الاجتماعية
292 (4) الحياة الثقافية
303 الخاتمة
311 الملحق
319 المصادر



دار النشر
الدار البيضاء

صدر عن :

الدكتور نجيب محمد البهيتي	تاريخ الشعر العربي
الدكتور نجيب محمد البهيتي	أبو تمام الطائي
الدكتور نجيب محمد البهيتي	المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ
الدكتور نجيب محمد البهيتي	المعلقات سيرة وتاريخاً
الدكتور عباس الجراري	من أدب الدعوة الإسلامية
الدكتور عباس الجراري	في الشعر السياسي
الدكتور عباس الجراري	صفحات دراسية
تحقيق الدكتور محمد حجي	زهر الأكم في الأمثال والحكم
تحقيق الأستاذة فاطمة خليل	رسائل أبي علي اليوسي
تحقيق الدكتور سامي النشار	كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة
تحقيق الدكتور سامي النشار	الشهب اللامعة في السياسة النافعة
الدكتور إبراهيم شحاتة	وقعة وادي المخازن
الأستاذ محمد بن تاويت	تاريخ سبتة
الأستاذ محمد الحمداوي	الروايات التاريخية لتأسيس سجلماة وغانة
الدكتور محمود إسماعيل	قضايا في التاريخ الإسلامي
الدكتور محمود إسماعيل	سوسيولوجية الفكر الإسلامي
الدكتور حبيب الشاروني	فلسفة فرانيسيس بيكون
تحقيق الدكتور محمد الكتاني	روضة التعريف بالحب الشريف
الدكتور محسن عبد الحميد	دراسات في أصول تفسير القرآن
الدكتور يونان لبيب رزق	تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية

مطبعة النخيل الجديدة
الدار البيضاء

الايذاع القانوني رقم 1985/597